#30

الحُبّ في زَمَنِ الكوليرا

10.10.2018

غابرييل غارسيا ماركيز

الحائز على جائزة نوبل للآداب

ترجمة: صالح علماني

«قصة حب ذات قوّة مدهشة» Newsweek



غابـرييل غارسيا ماركيز

الحب في زمن الكوليـرا

رواية

ترجمة

صالح علماني



غابرييل غارسيا ماركيز

الحب في زمن الكوليرا



الكتاب: الحب في زمن الكوليرا (رواية)
تأليف: غابرييل غارسيا ماركيز
ترجمة: صالح علماني
عدد الصفحات: 448 صفحة
الترقيم الدولي: 978-9953-582-79-5
الطبعة الأولى: 2017

نشر هذا الكتاب في طبعته الأولى في كولومبيا عام 1985 بعنوان
EL AMOR EN LOS TIEMPOS DEL CÓLERA

الناشر

دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت - بئر حسن - سنتر كريستال، الهزيم - الطابق الأول
هاتف: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
مصر: القاهرة جاردن سيتي 2- شارع فؤاد سراج الدين (السراي الكبرى) -الدور الأرضي- شقة رقم 2.
هاتف: 002022795557
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com



إلى ميرثيدس، طبعاً

قُدُماً تمضي هذه الأمكنة:

إذ صار لها ربّة متوَّجة

لينياندرو دياث

لا مناص: فرائحة اللوز المرّ كانت تذكره دوماً بمصير الغراميات غير المواتية. هذا ما أدركه الدكتور خوفينال أوربينو منذ دخوله البيت الذي ما زالت تسوده ظلمة خفيفة، إذ حضر على عجل للاهتمام بحالة لم تعد مستعجلة بالنسبة إليه منذ سنوات طويلة. فاللاجئ الأنتيلي جيرميا دي سانت - آمور، مشوّه الحرب، ومصوّر الأطفال، وأشد خصومه رأفة في لعبة الشطرنج، قد صار بمنجى من عذابات الذاكرة، باستنشاقه أبخرة سيانور الذهب.

وجد الجثة مغطاة بشرشف فوق السرير الضيق، حيث اعتاد أن ينام دوماً، بقرب كرسي صغير عليه الطشت المستخدم في تبخير السم. وكان يقبع على الأرض، مقيَّداً بقائمة السرير، جسد كلب دانمركي ضخم، أسود اللون، تغطي صدره بقع بلون الثلج، وإلى جانبه العكازان. الحجرة الخانقة ذات الألوان المتنافرة، التي كانت تُستخدم كحجرة نوم ومخبر تصوير في الوقت ذاته، أضيئت قليلاً ببريق الفجر المُتسَلّل من النافذة المفتوحة، لكنه كان ضوءاً كافياً للاعتراف الفوري بسلطة الموت فقط. كانت النوافذ الأخرى، وكذلك جميع كوى الحجرة، مسدودة بخرق قماشية أو مختومة بورق مقوّى أسود اللون، ممّا ضاعف من كثافة ضيقها. وكانت هناك طاولة تحتشد عليها قوارير وقنانٍ بلا

لصاقات، وطشتين من التوتياء مقشّرَي الطلاء، تحت مصباح عادي مغلف بورق أحمر. أما الطشت الثالث، الخاص بالسائل المُثبِّت، فهو الموجود إلى جانب الجثة. كانت هنالك مجلات وصحف قديمة في كل الأنحاء، وأكداس من مسوّدات الصور الفوتوغرافية في أطر زجاجية، وأثاث مخلّع، ولكن كل شيء محفوظ من الغبار بقدرة يد نشيطة. ومع أن هواء النافذة المفتوحة كان قد نقّى الجو، إلا أنه بقي، لمن هو قادر على التدقيق، جذوة فاترة من الغراميات الكئيبة لحبات اللوز المرّة، كان الدكتور خوفينال أوربينو قد فكّر أكثر من مرّة، بلا حماسة مسبقة، بأن تلك الحجرة ليست بالمكان المناسب للموت في رحمة الله، لكنه انتهى مع مرور الوقت إلى افتراض أن فوضى المكان تلك، ربّما هي استجابة لإلهام محدّد أوحت به العناية الإلهية.

كان مفوّض شرطة قد سبقه مع طالب طب فتيّ جداً يتمرّن للتخصّص في الطب الشرعي في المستوصف البلدي، وهما من قام بتهوية الحجرة وتغطية الجثة ريثما يأتي الدكتور أوربينو. كلاهما صافحه بمهابة فيها من المواساة هذه المرّة أكثر ممّا فيها من التوقير؛ فلا أحد يجهل درجة الصداقة التي كانت تربطه بجيرميا دي سانت - آمور. شدّ المعلم الشهير على يد كل منهما، كما هي عادته دائماً بمصافحة كل واحد من تلاميذه قبل بدء درسه اليومي في الطب العام، ثم رفع طرف شرشف السرير برأس إبهامه وسبابته، كما لو أنه زهرة، وكشف عن الجثة شبراً فشبراً برصانة قدسية. كان الميت عارياً تماماً، متيبساً ومعوجّاً، عيناه مفتوحتان وجسده أزرق، وبدا كأنه كبر خمسين عاماً عمّا كان عليه في الليلة الماضية، كانت حدقتاه صافيتين، وشعر رأسه وذقنه ضارب إلى الاصفرار، وعلى عرض بطنه أثر جرح قديم مندمل مخيّط بقُطبٍ معقودة. وكانت لصدره وذراعيه ضخامة صدر وذراعَيْ مجذّف في سفينة، وذلك للجهد الذي كان عليه بذله في استخدامه العكازَيْن. أما ساقاه الخامدتان فبدتا كساقَيْ

يتيم. تأمله الدكتور خوفينال أوربينو للحظة، بقلب يُعاني ألماً قلما عانى مثله خلال سنوات حربه الطويلة العقيمة ضد الموت. وقال له:

- أيها الجبان: الأسوأ كان قد انقضى.

ثم أعاد تغطيته بالشرشف، واستعاد وقاره الأكاديمي. كان قد احتفل في العام الماضي بعيد ميلاده الثمانين في احتفال رسمي دام ثلاثة أيام؛ وفي كلمة الشكر التي ألقاها، رفض مجدداً إغراء التقاعد بقوله: «سيكون لديَّ متسع للراحة عندما أموت؛ وحتى هذا الاحتمال ليس ضمن مشاريعي في الوقت الراهن». بالرغم من أن سمع أذنه اليسرى كان يضعف أكثر فأكثر. وعلى الرغم من أنه كان يستند على عكاز ذي قبضة فضية ليخفي تعثر خطواته، فقد تابع الظهور بالمظهر الذي كان عليه في سنوات شبابه، ببدلة كاملة من الكتان مع صديري تقاطعه سلسلة ساعة ذهبية، ولحية كلحية باستور، ذات لون صدَفيّ، وشعر له اللون ذاته، مصفف مع فَرقٍ متقن في المنتصف. وقد كانت هذه الأمور تعبيراً أميناً عن طبعه، أما تآكل الذاكرة الذي صار يقلقه أكثر فأكثر، فكان يعوّضه قدر الإمكان بكتابة ملاحظات سريعة على قصاصات متفرقة، ما تلبث أن تختلط في جيوبه، كما تختلط الأدوات، وزجاجات الدواء، وأشياء أخرى كثيرة في حقيبته المتخمة. لم يكن أكبر الأطباء سناً وأشهرهم في المدينة فحسب، بل هو الرجل الأكثر تجمّلاً فيها. ومع ذلك، فإن حكمته البيّنة وطريقته التي لا يمكن اعتبارها ساذجة في إدارة سلطة اسمه جعلت عدد أتباعه أقل ممّا يستحق.

كانت تعليماته للمفوّض والطبيب المتمرن محدَّدة وسريعة. لا حاجة لإجراء التشريح. فرائحة البيت كافية لتحديد أن سبب الوفاة هو استنشاق السيانور المتفاعل في طشت مع أحد أحماض التصوير الفوتوغرافي، وقد كان جيرميا دي سانت - آمور يعرف هذه المواد جيداً، بحيث لا يمكن له أن يكون قد فعل ذلك سهواً. وأمام استفسار من المفوّض،

أوقفه الدكتور بطعنه تقليدية هي إحدى حركاته المعهودة: «لا تنسَ أني أنا من سيوقع على شهادة الوفاة». أصابت خيبة الأمل الطبيب الشاب: فهو لم يحظَ يوماً بدراسة تأثيرات سيانور الذهب على جثة. وقد فوجئ الدكتور خوفينال أوربينو بأن الشاب لم يرَ ذلك في مدرسة الطب، لكنه فهم الأمر فوراً بسبب خجل الشاب السريع ولهجته الأنديزية.. ربّما هو حديث الوصول إلى المدينة. فقال له: «لن تعدم هنا وجود مجنون في الحب يمنحك الفرصة في يوم من هذه الأيام». وعندما انتهى من قول ذلك فقط، انتبه إلى أنه بين ما لا حصر له من المنتحرين الذين يتذكرهم، كان هذا هو أوّل منتحر بالسيانور ليستْ خيبة الحب هي السبب في انتحاره. عندئذ طرأ تبدّل على نبرة صوته المعتادة. قال للمتمرن:

– عندما تجده، دقّق جيداً. إذ يوجد رمل في قلوبهم عادة.

ثم تحدث إلى المفوّض كما لو كان يتحدّث إلى أحد مرؤوسيه. أمَرَه بتجنّب أي التماسات كي يتم الدفن في مساء ذلك اليوم بالذات، وبأقصى درجات التكتّم. قال: «أنا سأكلم العمدة في ما بعد». كان يعلم أن جيرميا دي سانت – آمور قد عاش حياة تقشف بدائي، وأنه كان يكسب بفنه أكثر ممّا يلزمه للعيش بكثير، ممّا يستوجب وجود مال يزيد عن تكاليف الدفن في أحد الأدراج.

– إذا لم تجدوا المال فلا تهتموا، سأتولى أنا كافة التكاليف.

وأمر بإعلام الصحف أن المصوّر قد توفي وفاة طبيعية، رغم أنه فكر بأن الخبر لن يهمهم بأي حال. قال: «إذا اقتضى الأمر، فسأكلم الحاكم».

المفوّض، الذي كان موظفاً جدّياً وبائساً، كان يعرف أن صرامة الحسّ المتمدن لدى الأستاذ، تستثير حفيظة أقرب أصدقائه إليه، وكان مشدوهاً للسهولة التي يقفز بها فوق الإجراءات القانونية للإسراع في الدفن، والشيء الوحيد الذي لم يقتحمه هو مسألة التحدث إلى الأسقف

ليسمح بدفن جيرميا دي سانت - آمور في مقبرة المؤمنين. وحاول المفوّض، المستاء من سفاهة شعوره هو نفسه، أن يعتذر، فقال:

- ما عرفته هو أن هذا الرجل كان قدّيساً.

فقال الدكتور أوربينو:

- بل هو شيء أشدّ غرابة: إنه قديس ملحد. لكن هذا من شؤون الرب.

بعيداً، في الجانب الآخر من المدينة الاستعمارية، سُمعت نواقيس الكاتدرائية تدعو إلى القداس الكبير، فوضع الدكتور أوربينو نظارته ذات القوس والإطار الذهبي على عينيه، ونظر إلى ساعته ذات السلسلة، المربَّعة والرقيقة، وذات غطاء يُفتح بنابض؛ ووجد أنه على وشك أن يتخلف عن موعد قداس العنصرة.

كان في الصالة آلة تصوير فوتوغرافي ضخمة على عجلات كتلك التي في الحدائق العامة، وستارة عليها رسم يمثل منظر شفق بحري، وكانت الجدران مغطاة بصور أطفال عليها تواريخ تذكارية: ذكرى المناولة الأولى، التنكر بقناع أرنب، عيد الميلاد السعيد. لقد رأى الدكتور أوربينو هذه الجدران وهي تتغطى بالصور تدريجياً، سنة بعد أخرى، أثناء تأمله المتروّي في أمسيات الشطرنج. وكان قد فكّر في أحيان كثيرة، مع اختلاجة كآبة، بأنه في معرض صور المصادفة هذا توجد نواة مدينة المستقبل التي ستُساس وتُفسد على يد هؤلاء الأطفال المجهولين، والتي لن يبقى فيها ولو أثر ضئيل من رماد مجده.

على منضدة العمل، إلى جانب علبة فيها عدّة غلايين محفورة عليها رسوم ذئاب بحر، كانت رقعة الشطرنج، وعليها دور غير مكتمل. وعلى الرغم من تعجّله واكتئابه، لم يستطع الدكتور أوربينو مقاومة إغراء دراستها. كان يعلم أنها لعبة الليلة الماضية، فقد كان جيرميا دي سانت - آمور يلعب مساء كل يوم من أيام الاسبوع، ومع ثلاثة خصوم مختلفين

على الأقل، لكنه كان يصل دائماً إلى نهاية اللعب ثم يضع الرقعة مع الأحجار في علبتها، ويضع العلبة في أحد أدراج المكتب. كان يلعب بالأحجار البيضاء دوماً، ولم يكن هنالك من شك في أنه كان سيخسر تلك اللعبة بعد أربع حركات أخرى دون مفر. وقال لنفسه: «لو كان ثمة جريمة، لكان هذا دليلاً جيداً. فأنا لا أعرف سوى شخص واحد قادر على نصب مثل هذا الكمين المتقن». ما كان بمقدوره العيش من دون أن يبحث في ما بعد عن السبب الذي جعل ذلك الجندي الجامح، المعتاد على الصراع حتى آخر قطرة دم، يتخلى عن المعركة الأخيرة في حياته من دون حسمها.

في الساعة السادسة صباحاً، وبينما الحارس الليلي يقوم بجولته الأخيرة، رأى الورقة المثبتة على الباب الخارجي: «ادخل من دون طرق الباب واتصل بالشرطة». بعد ذلك بقليل هرع مفوّض الشرطة مع طالب الطب المتمرّن، وقاما كلاهما بتفتيش البيت بحثاً عن دليل مخالف لرائحة اللوز المرّ التي لا يمكن إخفاؤها. وأثناء الدقائق القليلة التي استغرقتها دراسة دور الشطرنج غير المنتهي، اكتشف المفوّض، بين الأوراق التي على المكتب، مغلفاً موجهاً إلى الدكتور خوفينال أوربينو، مختوماً بعدة أختام من الشمع الأحمر، ما جعل تمزيقه ضرورياً لإخراج الرسالة منه. أزاح الطبيب الستارة السوداء عن النافذة ليحصل على إنارة أفضل، ثم ألقى أوّل الأمر نظرة سريعة على الإحدى عشرة ورقة المكتوبة بخط أنيق على الوجهين، ومذ قرأ الفقرة الأولى أدرك أنه قد تخلف عن صلاة العنصرة. قرأ بنَفَسٍ مضطرب، عائداً إلى ما قرأه في عدّة صفحات سابقة، ليمسك مجدداً بالخيط المفقود. وعندما انتهى، بدا وكأنه يرجع من مكان قصيّ وزمان سحيق. كان همودهُ بادياً، رغم اجتهاده للحيلولة دون ذلك: كانت شفتاه بلون الجثة الأزرق ذاته، ولم يستطع السيطرة على ارتجاف أصابعه عندما أعاد طيّ الرسالة وأودعها جيب صداره.

عندئذ تذكر وجود مفوّض الشرطة والطبيب الشاب، فابتسم لهما من خلال غلالة الأسى وقال:

- لا شيء يستحق الذكر. إنها تعليماته الأخيرة.

كان هذا نصف الحقيقة، لكنهما اعتقدا أنها الحقيقة الكاملة، لأنه أمرهما بانتزاع بلاطة مخلخلة في الأرضية، ووجدا هناك دفتر حسابات مستعملاً كثيراً، وفيه كانت رموز فتح صندوق الخزنة. لم تكن هناك نقود كثيرة كما توهّموا، لكن ما وجدوه كان يزيد عن تكاليف الدفن وسداد التزامات أخرى ضئيلة الشأن. كان الدكتور أوربينو مدركاً حينئذ أنه لن يتمكن من الوصول إلى الكاتدرائية قبل القداس. فقال:

- إنها المرّة الثالثة التي أتخلف فيها عن قداس الأحد، مذ بلغت سن الرشد. لكن الرب يتفهَّم.

وهكذا فضَّل البقاء بضع دقائق أخرى ليحل جميع التفاصيل، رغم أنه لم يكن قادراً على تحمل تلهفه لإطلاع زوجته على مضمون الرسالة. وعد بأن يخبر لاجئي الكاريبي الكثيرين الذين يعيشون في المدينة، كي يحضروا إن كانوا يوَدون تقديم تكريمهم الأخير للاجئ الذي كان الأكثر احتراماً في سلوكه، والأكثر فعالية وجدية، حتى بعد أن تبين بجلاء سقوطه في أحابيل خيبة الأمل. وسيخبر أيضاً زملاءه لاعبي الشطرنج، ممن كانوا يتفاوتون ما بين مهنيين مشهورين وحتى عمال بلا اسم، إضافة إلى أصدقاء آخرين أقل مواظبة، لكنهم ربّما يَوَدون حضور الجنازة. وقبل أن يعرف بأمر رسالة الموت، كان قد قرّر أن يكون أوّل الحاضرين، إنما بعد قراءتها لم يعد متأكداً من شيء. لكنه سيبعث على أية حال إكليل ياسمين، فربما يكون جيرميا دي سانت - آمور قد عانى لحظة أخيرة من الندم. سيتم الدفن في الخامسة، فهي الساعة المناسبة في شهور الحر الشديد. وإذا ما احتاجوه لشيء ما، فسيجدونه منذ الساعة الثانية عشرة

في البيت الريفي الخاص بالدكتور لاثيديس أوليفيا، تلميذه النجيب، الذي سيقيم في ذلك اليوم وليمة غداء احتفالاً بيوبيله الفضّي في المهنة.

كان للدكتور خوفينا أوربينو نمط بسيط من عادات يتبعها منذ انقضت سنوات السلاح المضطربة الأولى وأحرز لنفسه مكانة وسمعة لا مثيل لهما في الإقليم كله. كان يستيقظ مع الديوك الأولى، ويبدأ في هذه الساعة بتناول أدويته السرية: برومور البوتاسيوم لبعث النشاط، وملح السليسين لآلام العظام في أيام المطر، وطحالب السلت للإغماء، وحشيشة البلادونا للنوم الهادئ. كان يتناول شيئاً في كل ساعة، ودائماً في الخفاء، لأنه في حياته الطويلة كطبيب وأستاذ، كان دوماً ضد إعطاء الوصفات المخففة لآلام الشيخوخة: لقد كان تحمّل آلام الآخرين أسهل عليه من تحمّل آلامه. وكان يحمل في جيبه دائماً وسادة صغيرة مشبعة بالكافور يستنشقها بعمق حين لا يكون ثمة من يراه، لينزع عن نفسه الخوف من كل هذه الأدوية المختلطة.

اعتاد البقاء في مكتبه مدّة ساعة، لتحضير درس الطب العام الذي واظب على إلقائه في مدرسة الطب كل يوم من أيام الاسبوع، من الاثنين إلى السبت، في الساعة الثامنة تماماً، حتى اليوم الذي سبق موته. كما كان قارئاً مطلعاً على المستجدات الأدبية التي يزوّده بها، عن طريق البريد، المكتبي الذي يتعامل معه في باريس، أو تلك الكتب التي يُوصي له عليها، من برشلونة، وكيله المكتبي المحلي، رغم أنه لم يكن يتابع آداب اللغة الإسبانية بالاهتمام نفسه الذي يتابع به الأدب الفرنسي. ولم يكن، على أي حال، يقرأ تلك الكتب أبداً في الصباح، وإنما هي لساعة ما بعد القيلولة، وفي الليل قبل أن ينام. أما بعد الانتهاء من تحضير الدرس في المكتب، فكان يمارس تمرينات التنفس لمدة ربع ساعة في الحمّام، مقابل النافذة المفتوحة، متنفساً دوماً باتجاه الجهة التي تصدح

منها الديكة، حيث الهواء النقي هناك. بعد ذلك يستحم، ويشذّب لحيته ويصمّغ شاربه بمستحضر مشبع بكولونيا فارينا غيغينبر الأصلية، ثم يلبس بدلة الكتان البيضاء مع صديري وقبعة لينة، وحذاء من جلد الماعز. إنه يحتفظ، وهو في الثمانين من العمر، بالتقاليد البسيطة والروح الاحتفالية التي رجع بها من باريس، بعد جائحة وباء الكوليرا الكبرى بقليل. وما زال شعره المسرَّح جيداً مع فرق في الوسط كما كان في شبابه، لولا اللون المعدني الذي طرأ عليه. كان يتناول فطوره مع العائلة عادة، لكنه يتبع ريجيماً خاصاً: يتناول شراب زهر الافسنتين، لراحة المعدة، ورأس ثوم يقوم بتقشير فصوصه واحداً واحداً ويمضغها بتمهل مع قطعة خبز، لتفادي احتشاءات القلب، ونادراً ما يكون متحرراً بعد درسه اليومي من التزام له علاقة بمبادراته التمدنية، أو التزامه الكاثوليكي، أو بابتكاراته الفنية والاجتماعية.

كان يتناول الغداء في بيته دوماً، ثم ينام قيلولة من عشر دقائق وهو جالس على منصة الفناء، مستمعاً في نومه إلى أغنيات الخادمات تحت أشجار المانغا، ومصغياً إلى نداءات الباعة في الشارع، وصخب المحرّكات في الميناء الذي تفوح روائحه مرفرفة في جو البيت في الأمسيات الحارة، كأنها ملاك محكوم بالتعفن. ثم يقرأ بعد ذلك لمدة ساعة في الكتب الجديدة، وخصوصاً الروايات والدراسات التاريخية، وبعدها يلقّن دروس اللغة الفرنسية والغناء للببغاء الداجنة التي صارت منذ سنوات محطاً للإعجاب المحلّي. وفي الساعة الرابعة، بعد أن يتناول إبريقاً كبيراً من الليمونادة مع الثلج، يخرج لعيادة مرضاه. ورغم تقدمه في السن، كان يرفض استقبال مرضاه في العيادة، ويصرّ على مواصلة علاجهم في بيوتهم، كما اعتاد أن يفعل دائماً، منذ كانت المدينة محدودة يمكن الذهاب إلى أي مكان فيها مشياً على الأقدام.

عندما جاء من أوروبا أوّل مرّة، كان يستخدم عربة الخيول الخاصة

بالعائلة، والتي يقودها حصانان أشقران ذهبيان، وحين لم تعد تلك العربة صالحة للاستعمال، استبدلها بعربة من نوع فيكتوريا يقودها حصان واحد، واستمر في استخدامها بصورة دائمة مع إبداء بعض الازدراء للموضة، حينما أخذت العربات بالاختفاء من الدنيا، والعربات الوحيدة التي بقيت في المدينة كانت تستخدم لنزهة السياح ولحمل الأكاليل في الجنازات فقط. ومع أنه كان يرفض الاعتزال، فقد كان مدركاً أنهم لا يستدعونه إلا لعلاج حالات ميؤوس منها، لكنه يرى في ذلك أيضاً نوعاً من التخصص. كان قادراً على معرفة ما يعانيه المريض من مظهره فقط، وكان يفقد ثقته أكثر فأكثر في الأدوية المرخَّصة، وينظر بذعر إلى تعميم الجراحة ويقول: «إن المبضع هو أكبر دليل على فشل الطب». وكان يرى أن كل دواء، إذا ما نظرنا إليه بمقياس دقيق، هو سُمّ؛ وأن سبعين بالمئة من الأطعمة العادية تعجّل في الموت. وقد اعتاد أن يقول في درسه: «الأدوية القليلة المعروفة، لا يعرفها على أي حال، إلا بعض الأطباء». وانتقل من حماسة الشباب إلى موقع كان هو نفسه يعرفه على أنه موقع إنساني جبري: «كل امرئ هو سيّد موته، والشيء الوحيد الذي بالإمكان عمله عندما تحين الساعة، هو مساعدته على الموت من دون خوف أو ألم». ورغم هذه الأفكار المتطرفة، والتي كانت تشكّل جزءاً من الفلكلور الطبي المحلي، فإن تلاميذه القدماء ما زالوا يستشيرونه حتى بعد أن صاروا راسخين في المهنة، إذ أنهم يعترفون له بتلك النظرة التي كانت تسمى حينئذ النظرة الطبية، ولقد كان دوماً طبيباً غالياً واستثنائياً، وكان زبائنه يسكنون البيوت الفاخرة في حي الفيريس.

اعتاد القيام بجولته على نحوٍ دقيق ومنظَّم إلى حدٍّ أن زوجته كانت تعرف إلى أين تبعث في طلبه إذا ما طرأ أمر مستعجل خلال جولته المسائية. وفي شبابه كان يتأخر في مقهى الأبرشية قبل أن يرجع إلى البيت، وهكذا أتقن لعب الشطرنج مع شركاء حماه ومع بعض لاجئي

الكاريبي، لكنه منذ مطلع القرن لم يعد إلى مقهى الأبرشية، وحاول تنظيم دوري وطني في الشطرنج تحت رعاية النادي الاجتماعي. وكان أن جاء، في هذه الفترة، جيرميا دي سانت - آمور، بركبتيه الميتتين، ومن دون مهنة تصوير الأطفال في ذلك الحين. وقبل انقضاء ثلاثة شهور كان معروفاً لكل من يُحسن تحريك فيل على رقعة شطرنج، لأن أحداً لم يتمكن من كسب جولة منه. لقد كان بالنسبة للدكتور خوفينال أوربينو لقاء معجزة، في وقت تحولت فيه لعبة الشطرنج لديه إلى هوى جامح بلا حدود، ولم يعد هناك خصوم كثيرون يشبعون تعطشه إلى اللعب.

وبفضله، أمكن لجيرميا دي سانت - آمور أن يصبح ما آل إليه بيننا. لقد صار الدكتور أوربينو حاميه غير المشروط، وكفيله في كل شيء، حتى من دون أن يتكلف مشقة التقصي عمن يكون، أو عمّا يفعله، أو من أية حرب بلا أمجاد جاء بتلك الحالة من العجز والعطل. ثم أقرضه أخيراً المال لإقامة محل التصوير، هذا المال الذي سدده جيرميا دي سانت - آمور بصرامة حبّال، حتى آخر كوارتيو، مذ صوّر أوّل طفل مرتعد من وميض المغنيزيوم.

كل ذلك كان بسبب الشطرنج. كانا يلعبان أوّل الأمر في الساعة السابعة ليلاً، بعد العشاء. وكان في ذلك منفعة أكيدة للطبيب بفعل التفوّق البارز للخصم، ولكن المنفعة أخذت تتناقص في كل مرّة، إلى أن تساويا. وفيما بعد، حين افتتح دون غاليليو داكونتي أوّل سينما، وأصبح جيرميا دي سانت - آمور واحداً من الزبائن المداومين، اقتصر لعب الشطرنج على الليالي التي لا تُعرض فيها أفلام جديدة. وكان قد أصبح صديقاً حميماً للطبيب في ذلك الحين، فكان هذا يرافقه إلى السينما، إنما من دون زوجته دوماً، ذلك أنها لا تطيق متابعة خيط القصص المعقدة من جهة، ولأن جيرميا دي سانت - آمور بدا لها من جهة أخرى، ومن خلال حاسة الشم وحدها، أنه ليس بالرفيق الصالح لأحد.

يومه المختلف كان يوم الأحد. ففيه يذهب لحضور القداس الكبير في الكاتدرائية، ثم يعود إلى البيت ويلبث هنالك للراحة والقراءة على مصطبة الفناء. ونادراً ما كان يخرج لعيادة مريض في أيام اعتكافه، إلا إذا كانت هناك حالة مستعجلة جداً. ولم يعد يقبل منذ سنوات طويلة المشاركة بأي التزام اجتماعي إلا إذا كان اضطرارياً. في يوم العنصرة ذاك، وبمصادفة استثنائية، وقعت حادثتان غريبتان: وفاة صديق، والاحتفال باليوبيل الفضي لزواج أحد تلامذته البارزين. ومع ذلك، فإنه بدلاً من العودة إلى البيت من دون تأخر كما كان قد قرر بعدما أثبت وفاة جيرميا دي سانت - آمور، ترك لنفسه أن تنقاد وراء الفضول.

ما إن صعد إلى العربة حتى قام بمراجعة سريعة للرسالة التي تركها الميت، ثم أمر الحوذي بأن يوصله إلى عنوان صعب في حي العبيد القديم. لقد كان ذلك القرار غريباً على عاداته، ممّا جعل الحوذي يرغب في التأكد من عدم وجود خطأ في ما سمعه. لم يكن هنالك من خطأ: العنوان كان واضحاً، ومَن كتبه لديه أسباب كافية تؤكد معرفته للعنوان جيداً. عندئذ عاد الدكتور أوربينو إلى الصفحة الأولى، وغرق ثانية في ذلك المورد من الاعترافات غير المرغوب فيها والتي كان يمكن لها أن تغير مجرى حياته، حتى وهو في هذه السن، لو أنه استطاع إقناع نفسه بأنها ليست هذيان شخص بائس.

أخذ مزاج السماء يتعكّر منذ الصباح الباكر، كان غائماً وبارداً، إنما لم تكن هناك مخاطر هطول مطر قبل منتصف النهار. وفي محاولة لإيجاد طريق أقصر، دخل الحوذي في أزقة المدينة الاستعمارية المرصوفة بالحجارة، واضطر للتوقف مرّات عديدة كي لا يجفل الحصان من فوضى طلبة المدارس والجماعات الدينية العائدة من قداس العنصرة. كانت في الشارع أكاليل مصنوعة من أوراق ملونة، وموسيقى وأزهار، وفتيات يحملن مظلات ملونة ويلبسن كشاكش الموسلين ويتأملن مرور

الاحتفال من الشرفات. وفي ساحة الكاتدرائية، حيث لم يكن ممكناً تمييز تمثال بطل التحرير، إلا بصعوبة، وسط أشجار النخيل الإفريقية وأعمدة النور الجديدة ذات المصابيح، كان ازدحام السيارات على أشده بسبب الخروج من الصلاة، ولم يكن هناك موطئ قدم في مقهى الأبرشية المحتشم والصاخب. كانت عربة الدكتور أوربينو هي عربة الخيول الوحيدة، وكانت تتميز عن العربات الأخرى القليلة المتبقية في المدينة باحتفاظها الدائم ببريق غطائها الجلدي، وبأجزائها المعدنية المصنوعة من البرونز، حتى لا يجعلها ملح البارود تتآكل، وكانت عجلاتها ودعائمها الخشبية مطلية باللون الأحمر مع خطوط ذهبية، كما هي العربات في ليالي الحفلات في أوبّرا فيينا. أضف إلى ذلك أن أكثر العائلات حباً للمظاهر كانت تكتفي بأن يكون قميص الحوذي في عرباتها نظيفاً، بينما تابع هو مطالبة حوذي عربته بارتداء بدلة الحوذي المخملية الذاوية وقبعة مروّضي السيرك، التي فضلاً عن كونها زياً قديماً مهجوراً، كانت تنمّ عن تقليد غاشم في قيظ منطقة الكاريبي.

ورغم هَوَسه شبه الجنوني بالمدينة، ومعرفته بها خيراً من الجميع، فقلما وجد الدكتور أوربينو سبباً كسبب يوم الأحد ذاك للمغامرة من دون تحفظ في فوضى حي العبيد. وقد اضطر الحوذي إلى القيام بالتفافات عديدة والسؤال مرات ومرات من أجل الوصول إلى العنوان المقصود. لقد تعرف الدكتور أوربينو عن قرب على كآبة المستنقعات، وصمتها الممل، وفسواتها التي كريح الغرين، والتي كانت تصعد في فجر أيام كثيرة حتى مخدعه مختلطة برائحة ياسمين الفناء، وكان يحسّ بها تمرّ كما لو أنها ريح اليوم الفائت وليس لها أي شأن في حياته. لكن تلك العفونة التي احتفظ منها بتصوُّر مثالي، بفعل الحنين، تحوَّلت إلى واقع لا يُطاق ما إن بدأت العربة تتقافز في وحل الشوارع، حيث تتنازع طيور الرخمة بقايا المسلخ التي يدفعها البحر إلى مدخل الميناء. وعلى العكس

من مدينة الفيريس، المبنية بيوتها من الحجر، كانت البيوت هنا مشيدة من أخشاب كالحة وسقوف من التوتياء، ومعظمها يستقر فوق دعائم خشبية للحيلولة دون تسرب مجاري التصريف المتعاظمة والمكشوفة، الموروثة عن الإسبان. كل شيء كان يبدو بائساً ومهجوراً، لكن قصف موسيقى جوقة عنصرة الفقراء كان يخرج من الحانات القذرة بلا رب ولا قانون. وعندما وجدا العنوان أخيراً، كانت تلحق بالعربة عصبة أطفال عراة يسخرون من زينة الحوذي المسرحية، وكان على هذا أن يفزعهم بالسوط ليبتعدوا. أما الدكتور أوربينو، الذي هيّأ نفسه لزيارة سرية، فقد أدرك بعد فوات الأوان أنه لا سذاجة أشدّ خطورة من السذاجة في سِنِّه.

مظهر البيت الخارجي الذي بلا رقم، لم يكن فيه ما يميزه عن البيوت الأقل حظاً، سوى النافذة ذات الستارة المخرّمة وبوابة ضخمة منتزعة من كنيسة قديمة ما. طرق الحوذي مقرعة الباب، وعندما تأكد من صحة العنوان، ساعد الطبيب على النزول من العربة. كانت البوابة قد فتحت بلا ضجيج، وفي العتمة الداخلية كانت تقف امرأة ناضجة، متشحة بالسواد المطلق وتضع وردة على أذنها. ورغم سنوات عمرها، التي لم تكن أقل من الأربعين، فإنها ما زالت تبدو خلاسية شامخة، ذات عينين ذهبيتين قاسيتين، وشعر مثبت على شكل الرأس كأنه خوذة من قطن حديدي. لم يعرفها الدكتور أوربينو، رغم أنه قد رآها عدّة مرات في شرود أدوار الشطرنج في محل المصور، وقد وصف لها في إحدى المناسبات أوراق الكينا من أجل الحمّى الثلاثية، مدَّ يده إليها، فتناولتها بين يديها، لا لمصافحته وإنما لمساعدته على الدخول. كانت الصالة تعبق برائحة وهسيس أيكة غير مرئية، وكانت مليئة بأثاث وأشياء موزعة باتقان، كل شيء في مكانه الطبيعي. فتذكر الدكتور أوربينو، بلا مرارة، دكان بائع عاديات في باريس، في يوم اثنين خريفي من أيام القرن الماضي، في 26 شارع مونتمارت.

جلست المرأة مقابله وحدثته بإسبانية ركيكة قائلة:

- اعتبر نفسك في بيتك يا دكتور. لم أكن أنتظرك بمثل هذه السرعة.

أحسَّ الدكتور أوربينو بأنه مكشوف. دقّق فيها بقلبه، دقّق في حِدادها الكثيف، وفي وقار كآبتها، وأدرك عندئذ أن زيارته تلك هي عملٌ بلا جدوى، لأنها كانت تعرف أكثر منه كل ما هو وارد ومبرّر في رسالة المتوفى جيرميا دي سانت - آمور. وهكذا كان. إذ إنها رافقته إلى ما قبل ساعات قليلة من موته، كما رافقته خلال ما يقرب من عشرين سنة بولاء ورقّة، منقادة إليه بما يشبه الحب، ومن دون أن يعرف ذلك أحد في عاصمة الإقليم الناعسة هذه، حيث أسرار الدولة ذاتها كانت مشاعة. لقد تعارفا في مشفى للعابرين في بورت أو برنس، حيث ولدت هي، وحيث أمضى هو سنواته الأولى كهارب، ثم لحقت به إلى هنا بعد سنة في زيارة قصيرة، مع أنهما كلاهما كانا يعلمان، من دون اتفاق مسبق، أنها جاءت لتبقى إلى الأبد. كانت تتولى تنظيف وترتيب مخبر التصوير مرّة في الأسبوع، لكن لم يكن حتى أسوأ الجيران تفكيراً يخلطون الظاهر بالحقيقة، لأنهم كانوا يفترضون، مثل كل الناس، أن عاهة جيرميا دي سانت - آمور ليست في المشي فقط. وحتى الدكتور أوربينو ذاته كان يفترض ذلك لأسباب طبية راسخة تماماً، ولم يظن يوماً أن تكون له امرأة لو لم يكشف له ذلك في الرسالة. غير أنه لم يستطع أن يفهم كيف أن كائنين راشدين وحُرَّين وبلا ماض، على هامش اهتمامات مجتمع غارق في شؤونه، قد اختارا نكبة الحب المحرَّم. وقد أوضحتْ له ذلك:

«كانت تلك هي رغبته».

ثم إن تقاسمها السرية مع رجل لم يكن رجلها تماماً في يوم من الأيام، وتعرفهما أثناء ذلك على انفجارات السعادة الفورية أكثر من مرّة، لم يكن ليبدو لها بالوضع غير المرغوب فيه، بل على العكس: ربّما أن الحياة أثبتت لها أن تلك هي الطريقة النموذجية.

لقد ذهبا الليلة الماضية إلى السينما، كل منهما بمفرده، وجلسا في مقعدين منفصلين، كما يفعلان مرتين في الشهر على الأقل، مذ أقام المهاجر الإيطالي دون غاليليو داكونتي صالة السينما المكشوفة في أطلال دير من القرن السابع عشر. ورأيا فيلماً مأخوذاً عن كتاب كان رائجاً في العام الفائت، وكان الدكتور أوربينو قد قرأه بقلب مكروب من همجية الحرب: «لا جديد في الجبهة». ثم اجتمعا بعد ذلك في مخبر التصوير، وهناك وجدت أنه يعاني التشتت والحنين، وفكرت في أن ذلك بسبب تأثير مشاهد الفيلم القاسية عن الجرحى المحتضرين في الوحل. فحاولت تسليته بدعوته إلى لعب الشطرنج، وقد وافق ليرضيها، لكنه كان يلعب من دون تركيز، بالقطع البيضاء طبعاً، إلى أن اكتشف قبلها أنه سيهزم بعد أربع حركات أخرى، فاستسلم بلا كبرياء. حينئذ أدرك الطبيب أن خصم اللعبة الأخيرة كان هذه المرأة وليس الجنرال خيرونيمو أرغوتي، كما افترض. فتمتم مدهوشاً:

- إنها لعبة بارعة!

فأصرَّت بأن لا فضل لها في ذلك، وإن جيرميا دي سانت - آمور الهائم في ضباب الموت، كان يحرّك الأحجار من دون شغف، وعندما أوقف اللعب، في حوالي الساعة الحادية عشرة والربع، كانت موسيقى حفلات الرقص العامة قد توقفت، فطلب منها أن تتركه وحيداً. كان يريد كتابة رسالة إلى الدكتور أوربينو، الذي يعتبره أكثر الرجال الذين عرفهم وقاراً، إضافة إلى كونه صديق الروح، كما كان يحب أن يقول، رغم أن التشابه الوحيد بينهما هو إدمانهما لعبة الشطرنج باعتبارها حواراً للعقل وليست عِلماً. عندئذ أدركت أن جيرميا دي سانت - آمور قد وصل إلى نهاية الاحتضار، وأنه لم يبقَ له في الحياة إلا ما يكفي لكتابة الرسالة. لم يستطع الطبيب تصديقها، فهتف:

- كنت تعلمين إذاً؟

فأكدت بأنها لم تكن تعلم فقط، وإنما ساعدته أيضاً على تجاوز الاحتضار بنفس الحب الذي ساعدته به على اكتشاف السعادة. لأن الشهور الأحد عشر الأخيرة من حياته كانت احتضاراً قاسياً.

قال الطبيب:

- كان واجبك أن تبلغي عنه.

فقالت مستنكرة:

- انا لا أستطيع أن أفعل به ذلك.. كنت أحبه كثيراً.

الدكتور أوربينو، الذي كان يعتقد أنه سمع بكل شيء في الدنيا، لم يسمع أبداً في حياته شيئاً من هذا القبيل، يجري الإعلان عنه بكل هذه البساطة، نظر إليها بحواسه الخمس، وجهاً لوجه، ليثبتها في ذاكرته مثلما هي في تلك اللحظة: كانت تبدو وكأنها إلهٌ طافٍ، متماسكة في ثوبها الأسود، بعينيها اللتين كعيني أفعى، والوردة التي على أذنها. منذ سنوات بعيدة، وعلى شاطئ منعزل من شواطئ هايتي، حيث كانا يرقدان عاريين بعد الحب، قال لها جيرميا دي سانت - آمور وهو يتنهد فجأة: «لن أصير كهلاً أبداً». وقد فهمت هي ذلك على أنه نيَّة بطولية للنضال دون هوادة ضد نكبات الزمن، لكنه أوضح قصده أكثر: كان لديه تصميم حاسم على وضع حدّ لحياته في السبعين.

لقد أتمّها في الثالث والعشرين من شهر كانون الثاني من العام الحالي، فحدد حينئذ عشية عيد العنصرة موعداً أخيراً، لأنه أعظم أعياد المدينة المكرَّسة لعبادة الروح القدس. لم يكن هناك تفصيل من تفاصيل الليلة الماضية إلا وقد عرفته مسبقاً، فكثيراً ما كانا يتحدثان في ذلك، مكابدَيْن معاً سيل الأيام الجارف الذي لن يستطيع أي منهما إيقافه. كان جيرميا دي سانت - آمور يحب الحياة بعاطفة مبهمة، كان يحب البحر والحب، يحب كلبه ويحبها، وكلما اقترب اليوم الموعود كان يهوي أكثر فأكثر في اليأس، كما لو أن موته لم يكن قراراً ذاتياً وإنما قدَراً حتمياً.

قالت:

– عندما تركته وحيداً في الليل، لم يكن من أهل هذه الدنيا.

كانت تريد أخذ الكلب معها، لكنه تأمله وهو يغفو بجانب العكازين وداعبه بأطراف أصابعه، وقال:

- آسف، لكن مستر وودرو ويلسون سيمضي معي.

طلب منها أن تربطه إلى قائمة السرير فيما هو يكتب، وفعلت ذلك بعقدة زائفة كي يتمكن الكلب من الإفلات، وكان هذا هو العمل الوحيد الذي قامت به من دون إخلاص، وقد بررته برغبتها في الاستمرار بتذكر السيِّد من خلال عيني كلبه الشتويتين. لكن الدكتور أوربينو قاطعها ليخبرها بأن الكلب لم يفلت. فقالت:

– ذلك لأنه لم يشأ الإفلات إذاً.

وفرحت، لأنها تفضِّل أن تتذكر الحبيب الميت كما طلب هو منها في الليلة السابقة، عندما قطع كتابة الرسالة التي كان قد بدأها ونظر إليها للمرة الأخيرة، وقال:

– تذكريني بوردة.

كانت قد وصلت إلى بيتها بعد منتصف الليل بقليل. استلقت لتدخن في السرير وهي بملابسها، وأخذت تشعل سيجارة من عقب الأخرى، متيحة له الوقت ليكمل الرسالة التي كانت تعلم أنها طويلة وشاقة، وقبيل الثالثة بقليل، عندما بدأت الكلاب تنبح، وضعت الماء على النار لتصنع القهوة، وارتدت ملابس الحداد السوداء وقطفت من الفناء أوّل وردة من ورود الفجر. لقد تنبه الدكتور أوربينو قبل أن يقرر هجر ذكرى تلك المرأة التي لا تُفتدى، وظنَّ أنه يعرف السبب: بإمكان إنسان بلا مبادئ فقط أن يتجاوب إلى هذا الحد مع الألم.

تابعت تقديم حججها له حتى نهاية الزيارة: قالت إنها لن تذهبْ إلى

الجنازة، لأنها وعدت الحبيب بذلك، رغم أن الدكتور أوربينو اعتقد أنه فهم عكس هذا في إحدى فقرات الرسالة. ولن تسفح دمعة واحدة، ولن تهدر ما تبقى لها من سنيّ الحياة بطهو نفسها على نار هادئة في مرق الذكرى، ولن تدفن نفسها في الحياة لتجهز كفنها بين هذه الجدران الأربعة، كما هي العادة المفضلة للنساء الوطنيات. كانت تفكر في بيع بيت جيرميا دي سانت - آمور، الذي أصبح بكل محتوياته ملكاً لها منذ الآن، كما هو وارد في الرسالة، وستتابع العيش كما عاشت دائماً من دون أن تشكو شيئاً في مماتة الفقراء هذه التي عاشت فيها سعيدة.

لاحقت تلك العبارة الدكتور خوفينال أوربينو وهو في طريق العودة إلى بيته: «مماتة الفقراء هذه». إنه ليس بالتعبير المجاني. فالمدينة، مدينته، ما زالت على هامش الزمن مثلما كانت: المدينة المتقدة والقاحلة نفسها، بمخاوفها الليلية وملذات البلوغ المتوحدة، حيث تصدأ الأزهار ويفسد الملح. المدينة التي لم يصبها شيء خلال أربعة قرون سوى الهرم البطيء ما بين شجيرات الغار الذابلة والمستنقعات المتعفنة. في الشتاء، أمطار فجائية ومخرّبة تجعل المراحيض تفيض، وتحوّل الشوارع إلى برك وحل نتنة. وفي الصيف، غبار لا مرئي، خشن كطباشير حمراء متّقدة، يتسرّب حتى من أكثر فجوات الخيال إحكاماً، هائجاً برياح مجنونة، تنتزع سقوف البيوت وتحمل الأطفال في الهواء. وفي أيام السبت، تغادر جماعات المولدين الفقراء، بصخب، أكواخ الكرتون والصفيح القائمة على ضفاف المستنقعات، مع حيواناتهم الداجنة وأمتعة أكلهم وشربهم الرخيصة، ويحتلون بهجوم مرح الشواطئ الحصوية في القطاع الاستعماري. وقد كان بعضهم، من بين أكبرهم سناً، يحملون حتى سنوات قليلة وسم العبيد الملكي، مطبوعاً بالحديد المحمّى على الصدر. وكانوا يرقصون في نهاية الأسبوع بلا رحمة، ويسكرون حتى الموت بكحول مقطّر في البيوت، ويمارسون الحب الحرّ بين خمائل

الإيكاكو، وفي منتصف ليل الأحد يخربون مهرجانهم بمشاجرات دامية يخوضها الجميع ضد الجميع. إنها جموع الناس المندفعين أنفسهم، الذين يتسربون في بقية أيام الأسبوع إلى ساحات وأزقة الأحياء القديمة، بعربات محمَّلة بكل ما يمكن شراؤه وبيعه، ويبثّون في المدينة الميتة جنون مهرجان بشري له رائحة السمك المقلي: حياة جديدة.

الاستقلال عن السيطرة الإسبانية، ثم إلغاء الرقّ بعد ذلك، قد عجَّلا بحالة الانحطاط المُشرّف التي ولد وترعرع فيها الدكتور أوربينو. حيث كانت عائلات الزمن الغابر العظيمة تغرق بصمت في قصورها المجردة من الأبّهة. أما في تفرعات الشوارع المرصوفة التي قاومت، بفاعلية عالية، مفاجآت الحروب وإنزالات القراصنة، فكانت الشجيرات الملتفة تتدلى من الشرفات وتفتح صدوعاً في جدان الجير والحجر، حتى في البيوت التي ما زالت في حالة حسنة. وكانت علامة الحياة الوحيدة في الساعة الثانية ظهراً هي تمارين البيانو الخافتة في عتمة القيلولة. النساء كنّ يحتمين من الشمس في غرف النوم الباردة والمشبعة بالبخور كاحتمائهن من عدوى فاحشة، بل ويغطين وجوههنّ بالطرحة في صلوات الفجر، وكن يمارسن حبّهن ببطء وصعوبة، وغالباً ما تُعكّر هذا الحب خواطر مشؤومة، بينما الحياة تبدو لهنّ أمراً لا نهائياً. وعند المغيب، في وقت ازدحام حركة المرور، تنطلق من المستنقعات زوبعة من البعوض السفّاح، وموجة خفيفة من أبخرة البراز البشري الحار والكئيب، مثيرة في أعماق النفس قلق الموت.

إن حياة المدينة الاستعمارية، التي اعتاد خوفينال أوربينو الشاب على رسم صورة مثالية لها في لحظات حنينه الباريسية، لم تكن حينئذ إلا وهماً من أوهام الذاكرة. لقد كانت أكثر مدن الكاريبي ازدهاراً في القرن الثامن عشر، لاسيما بتميُّزها كأكبر سوق للرقيق الأفريقي في الأمريكتين، وكونها مقر إقامة حكام مملكة غرناطة الجديدة الذين كانوا

يفضلون مزاولة شؤون الحكم من هنا، مقابل أوقيانوس العالم، بدلاً من العاصمة البعيدة والمتجمدة، التي تشوّش الحس الواقعي بمطرها الأزلي. وكانت تتجمع فيها عدّة مرات في السنة أساطيل السفن المحملة بكنوز بوتوسي، وكيتو، وفيراكروث، وكانت المدينة تعيش سنوات مجدها في ذلك الحين. وفي يوم الجمعة، الثامن من حزيران 1708، في الساعة الرابعة مساء، جرى إغراق السفينة سان خوسيه التي كانت قد أبحرت لتوّها باتجاه قادش وعلى متنها حمولة من الأحجار والمعادن الثمينة، قيمتها نصف مليون بيزو من عملة ذلك الزمن؛ أغرقها أسطول انكليزي مقابل مدخل الميناء، ولم يكن قد جرى استخراجها بعد مرور أكثر من قرنين على غرقها. وكان من عادة المؤرِّخين أن يذكروا تلك الثروة القابعة في القيعان المرجانية، مع جثة القبطان الطافية على جنبها في مقر القيادة، كرمز للمدينة الغارقة في الذكريات.

في الجانب الآخر من الخليج، في حي لامانغا السكني، كان منزل الدكتور خوفينال أوربينو في زمن آخر. إنه بيت فسيح وبارد، مؤلف من طابق واحد، ورواق أعمدة متتالية في المنصة الخارجية، المطلة على مستنقع الأبخرة العفنة وركام السفن الغارقة في الخليج. كانت أرضية البيت مرصوفة ببلاط شطرنجي، أبيض وأسود، من المدخل وحتى المطبخ، وكثيراً ما عُزيَ هذا إلى هوى الشطرنج الذي يسيطر على الدكتور أوربينو، من دون تذكر أنه كان ضعفاً عاماً من جانب البنائين الكتلانيين الذين شادوا في بدايات القرن حي محدثي النعمة ذاك. كانت الصالة فسيحة، وسقفها عال جداً كما هو حال بقية البيت، ولها ست نوافذ واسعة تطل على الشارع، وكانت منفصلة عن غرفة الطعام بباب زجاجي ضخم ومزين بفروع دالية وعناقيد وفتيات فاتنات يحملن نايات آلهة الحقول في غابة من البرونز. أثاث حجرة الاستقبال، بما في ذلك ساعة البندول التي لها شكل حارس حيّ في الصالة، كان كله أثاثاً إنكليزياً

أصيلاً من أواخر القرن التاسع عشر. والمصابيح المعلقة كانت من قطع كريستال صخري، وكانت هنالك في كل الأنحاء أصص ومزهريات من سيفريس وتماثيل آلهة من الرخام المعرّق. لكن ذلك التناسق الأوروبي كان مفقوداً في بقية أجزاء البيت، حيث أرائك الخيزران تختلط مع كراسٍ هزازة من فيينا ومقاعد جلدية من الصناعة اليدوية المحلية. وفي غرف النوم، كانت توجد إضافة إلى الأسرّة، شِباك نوم معلقة رائعة من سان خاثينتو، مطرَّز عليها، بخيوط حريرية، اسم صاحب البيت بحروف قوطية، وكانت حوافها محاطة بهداب ملوَّن. أما الردهة المصمَّمة في الأصل من أجل حفلات العشاء، إلى جوار صالة الطعام، فقد استُخدمت كقاعة موسيقى صغيرة تُقام فيها حفلات موسيقية للخاصة عندما يحضر عازفون شهيرون. وقد جرت تغطية البلاط بالسجاد التركي المُشترى من معرض باريس الدولي لتعميق الصمت في جوّ البيت. وكان هناك فونوغراف من طراز حديث إلى جانب رفّ عليه أسطوانات حسنة الترتيب. وكان البيانو الذي لم يعزف عليه الدكتور أوربينو منذ سنوات في أحد الأركان، مغطى بشرشف من مانيلّا. وفي سائر أرجاء البيت كان يظهر حرص وحكمة امرأة راسخة الأقدام في الأرض.

لم يكن في البيت، رغم ذلك، مكان يكشف جلال المكتبة المرتّبة، والتي كانت هيكل الدكتور أوربينو قبل أن تقوده إلى الشيخوخة. فهناك، حول منضدة خشب الجوز الخاصة بوالده، وأرائك الجلد الوثيرة، جدران مغطاة حتى النوافذ بخزائن ذات رفوف وأبواب زجاجية، رُتّب فيها بنظام شبه جنوني ثلاثة آلاف كتاب متماثلة مجلدة بجلد عجل، وعلى أعقابها الحروف الأولى من اسمه مكتوبة بماء الذهب. وخلافاً للحجرات الأخرى التي تقبع تحت رحمة صخب وروائح الميناء الكريهة، كانت المكتبة تنعم دوماً بصمت دير ورائحته. لقد ولد الدكتور أوربينو وزوجته وترعرعا في ظل الخرافة الكاريبية القائلة بفتح الأبواب والنوافذ لإدخال

البرودة غير الموجودة في الواقع، وقد أحسّا في البدء بقلبيهما يضيقان بفعل الحبس. لكنهما ما لبثا أن اقتنعا بفعالية الطريقة الرومانية لمواجهة الحر، والتي تتلخّص بإغلاق البيوت في قيظ آب حتى لا يدخل هواء الشارع المتقد، وفتحها على مصاريعها لريح الليل، فأصبح بيته منذ ذلك الحين أكثر البيوت رطوبة تحت شمس لامانغا الحارقة. فكان نوم القيلولة في عتمة المخادع يبعث على السعادة، وكذلك الجلوس على الرواق لرؤية مرور سفن الشحن الثقيلة الرمادية القادمة من نيوأورليانز، والسفن الخشبية ذات العجلة الخلفية وهي تضيء أنوارها في العشية، وتُنقّي بنثار الموسيقى المنبعثة منها مزبلة الخليج الراكدة. وكان بيته هو الأكثر مقاومة ما بين كانون الأول وآذار، حين تهدم ريح الشمال المدارية سقوف البيوت، وتقضي الليل مدوّمة كالذئاب الجائعة حول البيت بحثاً عن منفذ تدخل منه. ولم تكن الشكوك تراود أحداً في وجود أسباب تحول دون سعادة الزوجين المقيمين فوق تلك الأسس.

لكن الدكتور أوربينو لم يكن كذلك في صباح ذلك اليوم، عندما رجع إلى بيته قبل الساعة العاشرة، مشوَّشاً من الزيارتين اللتين لم تحولا بينه وبين قداس العنصرة وحسب، بل وهددتا بتغيير يطرأ عليه وهو في سن ظن أن كل شيء فيها قد أنجز. كان يريد أن ينام نوم كلب ريثما يحين موعد وليمة الغداء عند الدكتور لاثيديس أوليفيا، لكنه وجد الخدم هائجين، يحاولون إمساك الببغاء التي طارت إلى أعلى فرع في شجرة المانغا حين أخرجوها من القفص ليقصّوا لها جناحيها. كانت ببغاء منتوفة ومعتوهة، لا تتكلم عندما يطلبون منها الكلام، وإنما عندما ينساها الجميع. وتتكلم حينئذ بوضوح ودقة ليست متوفرة بكثرة لدى الكائنات البشرية. لقد درَّبها الدكتور أوربينو شخصياً، وكان هذا امتيازاً لم يحظ به أحد من أفراد الأسرة، حتى ولا الأبناء عندما كانوا أطفالاً.

كانت الببغاء في البيت منذ أكثر من عشرين سنة، ولا أحد يعرف كم

سنة عاشت قبل ذلك، وكان الدكتور أوربينو يجلس مساء كل يوم، بعد القيلولة على شرفة الفناء، وهو المكان الأكثر برودة في البيت، مستخدماً أصعب الأساليب التربوية، حتى توصل إلى جعل الببغاء تتحدث بالفرنسية كأكاديمي. بعد ذلك، وبدوافع الفضيلة المحضة، علمها مرافقة القداس باللاتينية، وبعض المقاطع المختارة من إنجيل القديس متى، وحاول من دون نجاح تلقينها العمليات الحسابية الأربع بشكل آلي. وفي إحدى رحلاته الأخيرة إلى أوروبا، أحضر معه فونوغرافاً ذا نفير، وعدداً كبيراً من الأسطوانات الشائعة إضافة إلى مقطوعات الكلاسيكيين الأثيرين لديه. ويوماً بعد يوم، ومرّة بعد أخرى خلال عدّة شهور، أسمعَ الببغاء أغنيات إيفيت جيلبرت وأرستيد براون، اللذين كانا بهجة فرنسا وطرَبها في القرن الماضي، إلى أن حفظتها الببغاء عن ظهر قلب، وكانت تغني بصوت امرأة إذا كانت الأغنية لإيفيت، وبصوت رجل إذا كان المغني هو أرستيد، وتنهي الغناء بقهقهة ماجنة هي انعكاس متقن للقهقهات التي تطلقها الخادمات عندما يسمعنها تغني بالفرنسية، وقد وصلت أخبار ظرافتها بعيدا جداً، ممّا جعل بعض الزوار البارزين الذين يأتون في السفن النهرية من أقاليم الداخل يطلبون الإذن أحياناً لرؤيتها. وقد حاول بعض السائحين الإنكليز الذين كانوا يتوافدون بكثرة في تلك الأثناء على متن سفن نيوأورليانز المحمَّلة بالموز، أن يشتروها بأي ثمن. لكن يوم مجدها الأكبر هو اليوم الذي جاء فيه إلى البيت رئيس الجمهورية دون ماركو فيدل سواريس، مع وزراء حكومته بكاملهم، للتأكد من صحة سمعتها. وصلوا في حوالي الساعة الثالثة مساء، مختنقين بقبّعات المراسم وبذلاتها التي لم يخلعوها طوال أيام الزيارة الرسمية الثلاثة، تحت سماء آب المتّقدة، وقد اضطروا للانصراف مخذولين كما جاؤوا، لأن الببغاء رفضت أن تقول حتى أن هذا المنقار هو منقاري، خلال ساعتين من اليأس، رغم التوسلات والتوعدات والخجل العام

الذي أحسَّ به الدكتور أوربينو الذيَ أصرَّ على تلك الدعوة الجريئة على الرغم من تحذيرات زوجته الحكيمة.

إن مجرّد احتفاظ الببغاء بامتيازاتها بعد حادثة العجرفة التاريخية تلك كان دليلاً نهائياً على مكانتها المقدسة. لم يكن مسموحاً إبقاء أي حيوان آخر في البيت، باستثناء السلحفاة البرية، التي عادت للظهور في المطبخ بعد ثلاث أو أربع سنوات ظنّوا خلالها أنها قد ضاعت إلى الأبد. وهذه لم يكن يُنظر إليها ككائن حي، وإنما كانت أشبه بتميمة جامدة من أجل حسن الطالع، ولم يكن أحدٌ يدري على وجه التحديد مكانها. كان الدكتور أوربينو يصرُّ على إعلان كراهيته للحيوانات، ويعلل ذلك بكل أنواع الخرافات العلمية والحجج الفلسفية التي تقنع الكثيرين، لكنها لا تنفع في إقناع زوجته. كان يقول إن من يبالغون في حب الحيوانات هم القادرون على اقتراف أبشع قسوة مع البشر. وكان يقول إن الكلاب ليست وفية وإنما هي ذليلة، وإن القطط انتهازية وخائنة، وإن الطواويس ليست إلا عراقيل مزركشة، وإن الأرانب تثير الجشع، والقرود تعدي البشر بحمّى الشبق، والديكة ملعونة لأنها استُخدمت لإنكار المسيح ثلاث مرات.

أما فيرمينا داثا، زوجته، والتي كان لها من العمر حينئذ اثنتان وسبعون سنة، وكانت قد فقدت مشيتها الغزلانية التي كانت لها في زمن مضى، فهي مولعة حدَّ العبادة بالأزهار الاستوائية والحيوانات الداجنة. ولقد استغلَّت في بدء الزواج تأجّج الحب لتقتني منها في البيت أكثر بكثير ممّا ينصح به الحسُّ السليم. كان أوّل ما اقتنته هو ثلاثة كلاب دلماسية لها أسماء أباطرة رومان تنازعت في ما بينها أفضال أنثى متشرّفة باسم ميسالينا، ما تكاد تلد تسعة جراء حتى تحبل بعشرة آخرين. بعد ذلك جاءت القطط الحبشية بوجوهها التي كوجوه النسور وأخلاقها الفرعونية، والقطط الفارسية الحولاء ذات العيون البرتقالية التي كانت

تذرع حجرات النوم كظلال شبحية، وتملأ الليل صخباً بمواتها في اجتماعات حبّها الشبيهة باجتماعات الساحرات. وكان هناك لبضع سنوات قرد أمازوني مقيَّد من خاصرته إلى شجرة المانغا في الفناء، وكان يثير نوعاً من التعاطف بوجهه الكئيب كوجه الأسقف أوبدوليو، كما كانت لعينيه سذاجة عيني الأسقف، وطلاقة يديه ذاتها، ولم يكن هذا هو السبب الذي دفع فيرمينا داثا للتخلص منه، وإنما عادته الرذيلة بالاستمناء على شرف سيدات المجتمع.

كانت هناك جميع أنواع عصافير غواتيمالا في أقفاص تملأ الممرات، وكراوين متنبئة وبلوشونات المستنقعات ذات القوائم الطويلة الصفراء، وغزال صغير يطل من النوافذ ليأكل ورود المزهريات. وقبل الحرب الأهلية الأخيرة بقليل، عندما دارت للمرة الأولى أحاديث عن زيارة محتملة للبابا، أحضروا من غواتيمالا طائر الجنة الذي تأخر في المجيء وقتاً أطول ممّا تأخر في العودة إلى وطنه، بعد أن تبين أن الإعلان عن الزيارة البابوية كان إشاعة أطلقتها الحكومة لإخافة الليبراليين المتآمرين. وفي مناسبة أخرى، اشتروا من مراكب مهرّبي كوراثاو الشراعية قفص أسلاك معدنية فيه ستة غربان معطّرة، كتلك التي كانت تملكها فيرمينا داثا وهي صبيّة في بيت والدها، ورغبت في اقتنائها وهي متزوجة، لكن أحداً لم يحتمل خفق أجنحتها الدائمة التي كانت تضمّخ جو البيت برائحة أكاليل الموتى. كما جلبوا أفعى أناكوندا طولها أربعة أمتار، كانت أنفاسها الساهرة تبعث القلق في ظلمة غرف النوم، رغم أنهم حققوا ما أرادوه منها، فأنفاسها الأبدية كانت تبعد الخفافيش والسمندرات، ومختلف أنواع الحشرات المؤذية التي تهاجم البيت في شهور المطر. أما الدكتور خوفينال أوربينو المنهمك في ذلك الحين بمسؤولياته المهنية، والغارق في نشاطاته التمدنية والثقافية، فكان يكفيه الافتراض أن زوجته، وسط كل تلك الحيوانات البغيضة، ليست أجمل امرأة في

منطقة الكاريبي وحسب، بل وأكثرهن سعادة أيضاً. ولكنه في أحد الأيام الماطرة، وبعد يوم عمل منهك، وجد في البيت كارثة أعادته إلى الواقع. فمن صالة الاستقبال، وعلى مدى البصر، كانت تتناثر حيوانات ميتة غارقة في بركة من الدماء، بينما الخادمات المتسلقات على الكراسي من دون أن يدرين ما الذي عليهن عمله، لم يكنَّ قد استعدن السيطرة على أنفسهم من هول المجزرة بعد.

القضية هي أن أحد الكلاب البوليسية الألمانية، أصيب بنوبة سعار جنونية مفاجئة، وراح يمزق كل حيوان يجده في طريقه، من أي جنس كان، إلى أن واتت جنائني البيت المجاور الشجاعة لمواجهته وتمزيقه بمنجله. ما كانوا يعرفون كم هي الحيوانات التي عضها، أو نقل إليها العدوى بزبد ريقه الأخضر، فأمر الدكتور أوربينو والحال هذا بقتل ما بقي حياً من الحيوانات وإحراق أجسادها في حقل مهجور، ثم طلب من خدمات مستشفى الرحمة تعقيم البيت تعقيماً شاملاً. والحيوان الوحيد الذي نجا لأن أحداً لم يتذكره، كان ذكر السلحفاة حسَن الطالع.

وللمرة الأولى رأت فيرمينا داثا أن زوجها محق في أحد الشؤون البيتية، وحاذرت من الحديث بعد ذلك عن الحيوانات لفترة طويلة من الزمن. وكانت تعزّي نفسها بصورٍ ملونة من كتاب التاريخ الطبيعي للينيو، قامت بوضعها في أُطُر وعلقتها على جدران الصالة. وربّما كانت ستفقد الأمل في رؤية أي حيوان في البيت ثانية، لولا أن اللصوص خلعوا في فجر أحد الأيام نافذة الحمام وسرقوا المرحاض الفضي الموروث من خمسة أجيال. ركّب الدكتور أوربينو أقفالاً مزدوجة في حلقات النوافذ، وأحكم إقفال الأبواب من الداخل بمزالج حديدية، وخبّأ الأشياء الثمينة في صندوق الكنوز، واعتاد متأخراً على العادة الحربية بالنوم والمسدس تحت الوسادة. لكنه اعترض على شراء كلب باسل، ملقّح أو غير ملقح، مفلت أو مقيّد، حتى ولو تركه اللصوص على العظم.

قال:

– لن يدخل هذا البيت كائن لا يُحسن الكلام.

قال ذلك ليضع حداً لحجج زوجته الواهية، المصرّة مجدداً على شراء كلب، من دون أن يعلم أن ذلك القرار المتعجّل سيكلفه حياته، إذ تمكنت فيرمينا داثا، التي كان طبعها الجاف قد رقّ بفعل السنين، وتشبثت بزلة لسان زوجها: وبعد شهور من السرقة ذهبت إلى مرسى مراكب كوارساو الشراعية، واشترت من هناك ببغاءً ملكية من باراماريبو كانت تحسن إطلاق شتائم البحارة فحسب، لكنها تنطقها بصوت إنساني ممّا جعلها تستحق ثمنها الغالي البالغ اثني عشر سنتافو.

كانت ببغاء جيّدة، أخف ممّا يخيل لمن يراها، رأسها أصفر ولسانها أسود، وهو الشيء الوحيد الذي يميّزها عن ببغاوات المانغلير التي لا تتعلم الكلام حتى ولا بتحاميل زيت البطم. وقد انحنى الدكتور أوربينو، الخاسر الجيد، أمام ذكاء زوجته، وفوجئ هو نفسه بالظرافة التي أضفاها تعليم الخادمات على الببغاء الشعثاء. ففي الأمسيات الماطرة، حين تنحلّ عقدة لسانها لسعادتها بريشها المبتل، كانت تنطق عبارات من أزمان أخرى لا يمكن أن تكون قد تعلمتها في البيت، ممّا يحمل على التفكير بأنها أكبر سنّاً ممّا تبدو عليه. وقد انهارت آخر تحفّظات الطبيب عندما حاول اللصوص في إحدى الليالي دخول البيت ثانية من كوّة السقف، وأخافتهم الببغاء بنباح ما كان له أن يكون أكثر شبَهاً بالنباح لو أن صاحبه كان كلباً حقيقياً، وبالصراخ: لصوص لصوص لصوص لصوص، وهما ظرافتان منقذتان لم تتعلمهما في البيت. وكان حينئذ أن تولّى الدكتور أوربينو مسؤوليتها، فأمر بإقامة عمود حمّالة تحت شجرة المانغا مع إناء للماء وآخر للموز الصغير الناضج، وأرجوحة للقفز عليها. وفي الفترة ما بين كانون الثاني وآذار، عندما يصبح الليل بارداً جداً والجو في الخارج

غير صالح للحياة بسبب رياح الشمال المدارية، ينقلونها للنوم في غرف النوم داخل قفص مغطى ببطانية، رغم أن الشكوك كانت تساور الدكتور أوربينو من أن داء الخَنَب المزمن لدى الببغاء، قد تكون له آثار خطيرة على تنفس البشر. وكانوا طوال عدّة سنوات يقصّون ريش جناحيها ويفلتونها لتسير على هواها بمشيتها المائلة كمشية فارس عجوز. لكنها راحت تتظارف في أحد الأيام بحركات بهلوانية بين دعائم المطبخ، فهوت في قدر الطبيخ وهي تعربد بصبحتها البحرية:

«فلينجُ من يستطيع النجاة».

ولحسن الحظ أن الطاهية تمكنت من إخراجها بالمغرفة، وهي شبه مسلوقة وبلا ريش، ولكنها على قيد الحياة. منذ ذلك الحين صاروا يُبقونها في القفص، حتى أثناء النهار، رغم الاعتقاد الشعبي السائد بأن الببغاوات الحبيسة في أقفاص تنسى ما تعلمته. وما عادوا يخرجونها إلا في برودة الساعة الرابعة لتلقّي دروس الدكتور أوربينو على شرفة الفناء. ولم ينتبه أحد في الوقت المناسب إلى أن أجنحتها قد نمت وأصبحت طويلة بما فيه الكفاية، حتى صباح ذلك اليوم حين كانوا يستعدون لقصّها، فطارت هاربة إلى أعلى شجرة المانغا.

لم يتمكنوا من الإمساك بها طوال ثلاث ساعات. وقد لجأت الخادمات، بمساعدة خادمات الجوار، إلى كل الحيل لجعلها تنزل، لكنها ظلّتْ متشبثة بمكانها، صارخة وهي تكاد تنفجر من الضحك: يحيا الحزب الليبرالي، اللعنة، فليحيا الحزب الليبرالي، وهي صرخة جريئة كلفت أربعة سكارى منتشين حياتهم. كان الدكتور أوربينو يميزها بصعوبة بين أوراق الشجرة الكثيفة، وقد حاول إقناعها بالإسبانية والفرنسية، وحتى باللاتينية، والببغاء ترد عليه باللغات نفسها، والتفخيم نفسه ونبرة الصوت نفسها، لكنها لم تتحرّك عن قمة الشجرة. وحين

اقتنع أن أحداً لن يستطيع إقناعها بالحسنى، أمر الدكتور أوربينو أن يطلبوا مساعدة رجال المطافئ الذين كانوا لعبته التمدّنية الأحدث.

وبالفعل، كان يتولى إطفاء الحرائق، حتى وقت قريب، متطوعون يستخدمون سلالم بنائين وسطول ماء تُجلَب من أي مكان متاح، وكانت الفوضى تغلب على أساليبهم، بحيث إنهم يتسببون في بعض الأحيان بأضراراً تفوق أضرار الحريق. ولكن منذ العام الماضي، وبفضل حملة تبرعات قامت بها جمعية الترقّي العام، والتي كان خوفينال أوربينو رئيس شرف لها، أصبح هناك فريق إطفاء محترف، وشاحنة صهريج مزوَّدة بصفارة إنذار وناقوس وخرطومَيْ ماء عاليَيْ الضغط. كان رجال الإطفاء هم تقليعة تلك الأيام، لدرجة أنهم في المدرسة كانوا يوقفون الدروس عندما يسمعون نواقيس الكنائس تقرع بذعر، كي يذهب الأطفال لرؤيتهم وهم يطفئون النيران. وكان هذا هو كل ما يفعلونه في البدء؛ لكن الدكتور أوربينو روى للسلطات البلدية أنه رأى رجال المطافئ في هامبورغ يبعثون الحياة في طفل عثروا عليه متجمداً في أحد الأقبية بعد ثلج استمر هطوله ثلاثة أيام. كما أنه رآهم في أحد أزقة نابولي، يُنزلون ميتاً في تابوت من شرفة طابق عاشر، لأن أدراج المبنى كانت شديدة الانحناء ولم يتمكن ذوو الميت من إخراجه إلى الشارع. وهكذا كان أن تعلم رجال الإطفاء المحليون تقديم خدمات مستعجلة أخرى، كخلع أقفال أو قتل أفاع سامة، وقدمت لهم مدرسة الطب دورة خاصة بمبادئ الإسعاف الأوّلي في الحوادث الصغرى. وبهذا لم يكن سخفاً أن يُطلب منهم تقديم المعروف بإنزال ببغاء عن شجرة، ولا سيما هذه الببغاء المتميزة بخصال كثيرة كسيد نبيل. قال الدكتور أوربينو:

«قولوا لهم إن هذا بناء على طلبي».

ومضى إلى حجرة النوم ليرتدي ملابس حفلة الغداء. والحقيقة أن

مصير الببغاء لم يكن يهمه في هذه اللحظة التي يشعر فيها بالضيق من رسالة جيرميا دي سانت - آمور.

كانت فيرمينا داثا قد ارتدت ثوباً حريرياً، فضفاضاً ومسدلاً، خصره عند الوركين، ووضعت عقد لآلئ أصيلة بست لفّات طويلة متدرجة، وانتعلت حذاء حفلات ذا كعب عال لا تستخدمه إلا في المناسبات الرسمية، فالسنون لم تعد تسمح لها بعسف كثير. لم يكن ذلك الزّي الذي على الموضة بالزّي المناسب لجدة وقورة، لكنه كان ملائما تماماً لجسدها ذي العظام الطويلة والذي ما زال نحيلاً وممشوقاً، وليديها اللدنتين الخاليتين من أية شامة شيخوخة، ولشعرها الفولاذي الأزرق المقصوص بشكل مائل على مستوى الخد. والشيء الوحيد الذي ما زالت تحتفظ به من صورة زفافها هو عيناها اللوزيتان الصافيتان وكبرياء الأمة، لكن ما كان ينقصها بفعل السن كانت تعوّضه بطبعها وتجعله يفيض بوقارها. كانت تشعر أنها على ما يرام: فعصور مشدّات الخصر المعدنية، والخصور المقيّدة، والأرداف المرفوعة بحيل تعتمد على الخرق القماشية، أصبحت كلها غابرة، وصارت الأجساد المتحررة التي تتنفس حسب مشيئتها، تُعرض كما هي، حتى في الثانية والسبعين من العمر.

وجدها الدكتور أوربينو جالسة مقابل خوان الزينة، تحت رياش المروحة الكهربائية البطيئة، واضعة القبعة التي لها شكل الناقوس والمزيَّنة بأزهار بنفسج مصنوعة من اللباد. كانت حجرة النوم فسيحة ومشعّة، فيها سرير إنكليزي مغطى بكلة وردية، ونافذتان مفتوحتان تطلان على أشجار الفناء حيث ينفذ صرير الزيزان الذاهلة لإحساسها باقتراب المطر. لقد اعتادت فيرمينا داثا، ومنذ عودتهما من رحلة الزفاف، على اختيار ملابس زوجها بما يتلاءم مع حالة الطقس والمناسبة، ووضعها مُرتَّبة على كرسي منذ الليلة السابقة، ليجدها جاهزة عند خروجه من

الحمّام. وهي لا تذكر منذ متى بدأت بمساعدته على ارتداء ملابسه، ثم أخيراً على إلباسه إياها. كانت واعية أنها بدأت تفعل ذلك بدافع الحب في أوّل الأمر، لكنها صارت مضطرة لعمل ذلك منذ نحو خمس سنوات، لأنه لم يعد قادراً على ارتداء ملابسه بنفسه. لقد احتفلا منذ وقت قريب باليوبيل الذهبي لزواجهما، ولم يكن بإمكان أحدهما العيش لحظة واحدة من دون الآخر، أو من دون التفكير به، مع أنهما يعيان ذلك أقل فأقل كلما استفحلت الشيخوخة. ولم يكن بمقدور أيّ منهما القول إن كانت تلك العبودية المتبادَلة ترتكز على الحب أم على الراحة، لكنهما لم يتساءلا عن ذلك أبداً وأيديهما على القلب، إذ فضّل كلاهما دوماً تجاهل الجواب. لقد بدأت تكتشف، شيئاً فشيئاً، تعثّر خطوات زوجها، واضطراب مزاجه، وتصدّع ذاكرته، وعادته الأخيرة بالبكاء وهو نائم، لكنها لم ترَ في ذلك علامات صدأ نهائي بيّن، بل عودة سعيدة إلى الطفولة. ولذا لم تعامله على أنه شيخ صعب، وإنما كطفل هرم. ولقد كانت تلك الخدعة إلهاماً من العناية الإلهية لكليهما، لأنها وضعتهما بمنأى عن الشفقة.

لا بدّ أن الحياة كانت ستصبح شيئاً آخر مختلفاً جداً لكليهما، لو أنهما عرفا في الوقت المناسب أن تصريف كوارث الزواج العظيمة أسهل من تصريف المناكفات اليومية الصغيرة. وإذا كانا قد تعلما شيئاً معاً فهو أن الحكمة تأتينا في الوقت الذي لا تعود به ذات نفع. لقد تحمّلت فيرمينا داثا بقلب مثقل، طوال سنوات، استيقاظات زوجها الاحتفالية الباكرة. كانت تتشبث بآخر خيوط النعاس كي لا تواجه قدر صباح جديد يحمل معه نذير الشؤم، بينما يستيقظ هو ببراءة طفل وليد: كل يوم جديد هو يوم يكسبه في الحياة. كانت تسمعه ينهض مع الديَكة، وأول علامة من علائم الحياة يقوم بها هي كحّة لا مسوّغ لها يبدو وكأنه يتعمّدها لإيقاظ زوجته. كانت تسمعه يهمهم، كي يقلقها وحسب، بينما هو يبحث

باللمس عن خفيّه اللذين يجب أن يكونا إلى جوار السرير. وتسمعه يخطو نحو الحمام متلمساً خطواته في الظلام. وبعد أن يقضي ساعة في مكتبه، وحين تكون قد عادت لتغفو من جديد، تسمعه يعود ليرتدي ملابسه من دون أن يشعل النور حتى هذا الوقت. لقد سألوه يوماً، في لعبة من ألعاب الصالون، كيف يُعَرّف نفسه، فقال: «إنني رجل يرتدي ملابسه في العتمة». كانت تسمعه وهي عارفة أنه لا حاجة لأي صوت من تلك الأصوات التي يصدرها، وأنه يفعل ذلك متعمّداً ومتظاهراً العكس، تماماً مثلما هي مستيقظة وتتظاهر أنها ليست كذلك. وكانت أسبابه صحيحة، فهو لم يحتج إليها أبداً حيّة وصاحية، كما يحتاج إليها في هذه اللحظات العصيبة.

لم تكن هناك مَنْ هي أكثر منها أناقة في النوم، إذ كانت تنام في وضعية راقصة، مسندة إحدى ذراعيها على جبهتها. كما لم يكن هنالك من هو أكثر وحشية منها عندما يقلقون إحساسها بالاعتقاد أنها نائمة وهي ليست كذلك. كان الدكتور أوربينو يعرف أنها تبقى مصغية إلى أدنى ضجة يثيرها، بل وتكون شاكرة له، لأنها تجد بذلك من تلقي عليه اللوم في إيقاظها منذ الخامسة صباحاً، وقد كان الأمر كذلك حقاً، لدرجة أنه في المناسبات القليلة التي كان يتلمس فيها بحثاً عن خُفَّيْه في الظلام، في مكانهما المعتاد، كانت تقول له فجأة بصوت ناعس:

«لقد تركتهما البارحة في الحمام». ثم تردف في الحال بصوت صاح وغاضب:

- أكبر مصيبة في هذا البيت هي أن المرء لا يجد فيه إلى النوم سبيلاً.

وعندئذ تتقلب في الفراش، وتشعل النور من دون أن تأخذها أية رحمة بنفسها، سعيدة بانتصارها الأول لهذا النهار. لقد كانت، في العمق، لعبة لكليهما؛ لعبة خرافية وشريرة، لكنها منعشة في الوقت

نفسه. إنها إحدى سعادات الحب المدجن الخطيرة. ولكن بسبب إحدى هذه الألعاب التافهة كانت الثلاثين سنة الأولى من الحياة المشتركة على وشك الانهيار لأن الصابون لم يكن موجوداً في الحمّام في أحد الأيام.

بدأ الأمر ببساطة روتينية. كان الدكتور أوربينو قد رجع إلى حجرة النوم، في الزمن الذي كان لا يزال يستحمّ فيه من دون مساعدة، وبدأ بارتداء ملابسه من دون إشعال النور. أما هي، فكانت لا تزال في وضعها الجنيني الدافئ كعادتها في مثل هذا الوقت: عيناها مغمضتان، وتنفسها هادئ، وهذه الذراع المستندة إلى الجبهة وكأنها في رقصة مقدسة. لكنها كانت نصف نائمة، كما هي العادة، وكان يعرف ذلك. وبعد صرصرة طويلة من بدلة الكتان المنشاة في العتمة، كلّم الدكتور أوربينو نفسه قائلاً:

- منذ أسبوع وأنا أستحم بلا صابون.

عندما استيقظت، وتذكرت، وانقلبت غضباً ضد العالم، لأنها نسيت بالفعل وضع قطعة صابون جديدة في الحمّام. لقد انتبهت إلى عدم وجود الصابون منذ ثلاثة أيام، وكانت قد أصبحت تحت الدوش، ففكرت بإحضار قطعة صابون في ما بعد، لكنها نسيت في ما بعد إلى اليوم التالي. وفي اليوم الثالث حدث لها الشيء نفسه. لم يكن قد مضى أسبوع في الواقع، كما يدّعي ليضاعف من إحساسها بالذنب، وإنما ثلاثة أيام لا تغتفر، ثم إن الغضب من إحساسها بأنها فوجئت وهي على خطأ أخرجها عن طورها، فسارعت كعادتها للدفاع عن نفسها بالهجوم، فصرخت من دون وعي:

- لقد استحممتُ كل هذه الأيام، وكان الصابون دوماً في مكانه.

ورغم معرفته الجيدة بأساليبها في الحرب، فإنه لم يستطع احتمالها هذه المرّة. ومضى ليعيش في غرف القسم الداخلي في مشفى الرحمة

تحت أية ذريعة مهنية، ولم يعد يظهر في البيت إلا لاستبدال ملابسه عند المساء، قبل أن يقوم بجولة عيادته على بيوت المرضى. وكانت تذهب إلى المطبخ عندما تسمع مجيئه، متصنّعة عمل أي شيء، وتبقى هناك إلى أن تسمع وقع حوافر حصانَيْ العربة في الشارع؛ وكلما حاولا حلّ الخلاف في الشهور الثلاثة التالية، فإن النتيجة الوحيدة الذي كانا يتوصلان إليها هو تعقيده. لم يكن مستعداً للعودة إلى البيت ما دامت لا توافقه على أنه لم يكن يوجد صابون في الحمّام، ولم تكن مستعدة لاستقباله ما دام لا يعترف بأنه كذب وهو واع لتعذيبها.

منحتهما الحادثة، طبعاً، فرصة لاستحضار حوادث أخرى، وتذكر الكثير من المسائل الصغيرة والصباحات القلقة. وبعثت الأحقاد أحقاداً أخرى، وفُتحت جراح قديمة، كانت ملتئمة، لتنزف من جديد. وقد فزع كلاهما لليقين المدمّر بأنهما لم يفعلا شيئاً خلال سنوات طويلة من الصراع الزوجي سوى رعاية الأحقاد. ووصل به الأمر لأن يقترح عليها التقدم معاً للاعتراف المفتوح أمام نيافة الأسقف إذا اقتضى الأمر، ليكون الرب هو الحكم الأخير الذي يقرر إذا كان في مصبنة الحمّام صابون أم لا. أما هي التي كانت تمتلك مرتكزات قوية حتى ذلك الحين، فقد أضاعتها بصرخة هستيرية:

- فليذهب السيّد الأسقف إلى الخراء!

هزّت تلك الشتيمة ركائز المدينة، وكانت منطلقاً لحكاياتٍ وأقاويل ليس من السهل تكذيبها، وبقيت عالقة في المأثور الشعبي كتعبير شائع: «فليذهب السيّد الأسقف إلى الخراء!». ومدركة أنها قد تجاوزت الحدّ، سارعت إلى اتخاذ ردة الفعل التي انتظرتها من زوجها، فهددته بالانتقال لتعيش وحدها في بيت أبيها القديم الذي ما زال ملكاً لها، رغم أنه مؤجَّر كمكاتب عامة. لم يكن ذلك تبجحاً: كانت تريد الذهاب حقاً، غير مبالية بالفضيحة الاجتماعية، وقد تنبه الزوج إلى ذلك في الوقت

المناسب. ولم تكن لديه الشجاعة الكافية لتحدي تهوّرها فاستسلم؛ ليس بمعنى القبول بأنه كان يوجد صابون في الحمّام، لأن ذلك سيكون إهانة للحقيقة، وإنما وافق على أن يستمرا بالعيش في البيت نفسه، ولكن في حجرتين منفصلتين، ومن دون أن يكلم أحدهما الآخر. وهكذا كانا يأكلان، ويصرّفان المواقف ببراعة فائقة بتبادل الطلبات من أحد أطراف المائدة إلى الطرف الآخر بواسطة ابنيهما، من دون أن ينتبه الابنان إلى أنهما لا يتبادلان الكلام.

وبما أنه لا وجود لحمّام في غرفة مكتبه، فقد حلَّت هذه الصيغةُ الخلافَ حول الضوضاء الصباحية، لأنه صار يدخل للاستحمام بعد أن ينتهي من تحضير درسه، ويتخذ الاحتياطات الحقيقية كي لا يوقظ زوجته. وفي أحيان كثيرة كانا يلتقيان وينتظران بالدور لتنظيف أسنانهما قبل النوم. وبعد أربعة شهور، استلقى ليقرأ في الفراش الزوجي فيما هي تستخدم الحمّام، كما كان يحدث كثيراً، فغلبه النعاس، استلقت إلى جانبه بحركة مفرطة في الخشونة لتجعله يستيقظ وينصرف. واستيقظ بالفعل شبه استيقاظ، ولكنه بدلاً من أن ينهض أطفأ مصباح السرير واستراح على وسادته. فهزته من كتفه لتذكّره بأن عليه الذهاب إلى مكتبه، لكنه كان يشعر مجدداً بأنه في حالة جيّدة على فراش الريش الموروث عن أسلافه، ففضل الاستسلام.

قال لها:

- دعيني هنا، بلى، لقد كان هناك صابون.

حين كانا يتذكران هذا الحادث، بعدما أصبحا عند منعطف الشيخوخة، ما كانا ليصدقا الحقيقة المذهلة بأن ذلك الشجار كان الأ

خطر خلال نصف قرن من الحياة المشتركة، والشجار الوحيد الذي بعث فيهما كليهما رغبة الإذعان والبدء في حياة أخرى. وحتى عندما

أصبحا عجوزين وديعين كانا يحاذران من ذكره، لأن الجراح التي لم تلتئم جيداً سرعان ما تعاود النزيف وكأنها جراح الأمس.

كان هو أوّل رجل سمعته فيرمينا داثا يتبوّل. سمعته في ليلة الزفاف في قمرة السفينة التي حملتهما إلى فرنسا، فيما الدوار يُنهكها، وبدا لها وقع تدفقه الحصاني قوياً ومتسلّطاً، ممّا ضاعف رعبها من الأذى الذي يخيفها. وكانت تلك الذكرى تعاود مخيلتها بكثرة، كلما أضعفت السنون من قوة تدفق ذلك الينبوع، لأنها لم تستطع الصبر أبداً على تلويثه حافة مقعد المرحاض كلما استخدمه. وقد حاول الدكتور أوربينو إقناعها، بحجج سهلة الفهم لمن يرغب في فهمها، إن ذلك الحدث يتكرر يومياً ليس بسبب إهماله، كما كانت تصرّ هي، وإنما لسبب عضوي: فتدفق ينبوعه في سنوات صباه كان قوياً وموجّهاً ومستقيماً، حتى إنه كسب، وهو في المدرسة، بطولة التسديد لملء زجاجات بالبول، ولكنه لم يضعف فحسب مع استخدامات السن، وإنما أصبح زائغاً كذلك، وصار يتشعّب، إلى أن أصبح في نهاية الأمر ينبوعاً وهمياً يستحيل توجيهه، رغم الجهود الكثيرة التي يبذلها لتصحيح مساره. كان يقول: «لا بدّ أن مخترع المرحاض ذا المقعد لا يعرف شيئاً عن الرجال». وكان يساهم في السلام البيتي بعمل يومي هو أقرب إلى الذل منه إلى التواضع: كان يمسح بورق صحي حواف مقعد المرحاض كلما استخدمه، وكانت تعرف أنه يفعل ذلك، لكنها لم تكن تقول شيئاً ما لم تفح روائح الأمونياك في الحمّام، عندئذ تعلن الأمر وكأنه اكتشاف جريمة: «إن هذا يثير قرف حظيرة أرانب». وعلى مشارف الشيخوخة، أدّى تثاقل جسد الدكتور أوربينو إلى إلهامه الحل النهائي: صار يبول وهو جالس، مثلما تفعل هي، ممّا حافظ على مقعد المرحاض نظيفاً، وجعله يتخذ وضعاً ظريفاً.

كان يقوم بشؤونه آنذاك بصورة سيئة. لكن انزلاقاً في الحمّام كاد يودي بحياته جعله يتخذ موقفاً حذراً من الدوش. فالبيت، رغم كونه من البيوت

الحديثة، كان يفتقد حوض البانيو المعدني ذا القوائم التي كقوائم الأسد، والذي كان استخدامه شائعاً في بيوت المدينة الاستعمارية، فقد أمر هو بانتزاعه متذرعاً بحجته الصحية: إن حوض البانيو هو إحدى قذارات الأوروبيين الكثيرة، الذين لا يستحمّون إلا في يوم الجمعة الأخير من كل شهر، ثم إنهم يفعلون ذلك في وسط الماء المتسخ بالوساخة نفسها التي يريدون إزالتها عن أجسادهم. وهكذا طلبوا صنع صفيحة كبيرة من الصفيح على قوائم من خشب غواياكان المتين، حيث أصبحت فيرمينا داثا تحمّم زوجها بالطقوس نفسها التي يجري بها تحميم الأطفال حديثي الولادة. كان الحمّام يستمر أكثر من ساعة، بماء فاتر غُليت فيه أوراق نباتات عَطِرة وقشور برتقال، وكان للحمّام تأثير مهدئ عليه يجعله يغفو في النقيع المعطَّر أحياناً. وبعد تحميمه، تساعده فيرمينا داثا على ارتداء ملابسه، وترشه ببودرة التالك ما بين ساقيه، وتدهنه بدهن جوز الهند في مواضع السماط، وتُلبسه سرواله الداخلي بحنان شديد كما لو كان حفاضة طفل رضيع، وتتابع إلباسه الثياب قطعة قطعة، من الجورب حتى ربطة العنق ذات المشبك الياقوتي. وصارت الصباحات الزوجية أكثر سكوناً، لأنه عاد إلى طفولته التي انتزعها منه إبناه. وانتهت هي من جانبها إلى الانسجام مع النظام العائلي، لأن السنوات كانت تمضي بالنسبة لها أيضاً، فأصبحت تنام أقل فأقل، وقبل أن تتم السبعين صارت تستيقظ قبل زوجها.

في يوم أحد العنصرة، عندما رفع الملاءة عن جثة جيرميا دي سانت - آمور، انكشف للدكتور أوربينو أمراً كان يرفض التفكير فيه حتى ذلك الحين في إبحاراته الجلية كطبيب ومؤمن. فبعد سنوات طويلة من التعايش مع الموت، وبعد صراعه ولمسه باطناً وظاهراً لسنوات عديدة، كانت تلك هي المرّة الأولى التي تجرّأ فيها على النظر إلى وجه الموت، وكان الموت ينظر إليه أيضاً. لم يكن إحساسه خوفاً من الموت: لا،

فالخوف كان بداخله منذ سنوات، يحيا معه. كان ظلاً آخر فوق ظله، منذ ليلة استيقظ فيها قلقاً لرؤيته حلماً مشؤوماً جعله يُدرك أن الموت ليس احتمالاً ماثلاً فقط، كما أحس به دائماً، وإنما هو واقع قائم. وبالمقابل، فإن ما رآه يومذاك هو حضور لشيء لم يكن قد تجاوز كونه تصوّراً يقينياً حتى ذلك الحين. وقد أسعده أن يكون أداة العناية الإلهية لهذا الكشف هو جيرميا دي سانت - آمور، الذي اعتبره دوماً قديساً يجهل فضل ذاته، ولكن عندما كشفت له الرسالة حقيقة هويته، وماضيه الفاسد، وقدرته غير المعقولة على الخداع، أحس بأن شيئاً نهائياً لا رجعة فيه قد طرأ على حياته.

ومع ذلك فإن فيرمينا داثا لم تسمح له بنقل عدوى مزاجه المكفهرّ إليها. لقد حاول ذلك بالطبع بينما هي تساعده على دس ساقيه في البنطال، وتزرر صف أزرار القميص الطويل. لكنه لم يصل إلى ما يريد لأن التأثير على فيرمينا داثا لم يكن سهلاً، وخاصة في موضوع موت رجل لم تكن تحبه. لم تكن تكاد تعرف أكثر من أن جيرميا دي سانت - آمور هو رجل مُقعد يستخدم عكازين، لم تره أبداً؛ وأنه قد فرّ من فصيلة الإعدام في إحدى التمرّدات الكثيرة في واحدة من جزر الأنتيل العديدة. وأنه عمل مصوّر أطفال بدافع الحاجة وصار الأكثر شهرة في الإقليم كله، وأنه كسب دور شطرنج من شخص تتذكر هي أن اسمه توريمولينوس بينما الحقيقة أن اسمه كابا بلانكا.

قال لها الدكتور أوربينو:

- لم يكن سوى هارب من كايينا، ومحكوم بالمؤبد على جريمة فظيعة اقترفها. وتصوري أن الأمر وصل به إلى أكل اللحم البشري.

أعطاها الرسالة التي كان يريد منه حمل أسرارها معه إلى القبر، لكنها خبأت الأوراق المطوية في خوان الزينة، من دون أن تقرأها، وأقفلت

الدّرْج بالمفتاح. كانت معتادة على قدرة زوجها الكبيرة على الاندهاش، وعلى أحكامه المبالغ فيها والتي أخذت تصبح أكثر تعقيداً مع مرور السنوات، وعلى ضيق أفق لا يتلاءم مع صورته العامة. لكنه في تلك المرّة تجاوز حدوده المعتادة. وافترضت أن زوجها ليس معجَباً بجيرميا دي سانت - آمور لما كان عليه في ما مضى، وإنما لما بدأ يكونه منذ قدومه بلا متاع سوى حقيبة المنفيين التي كان يحملها، ولم تستطع أن تفهم لماذا فُجع إلى ذلك الحد باكتشاف هويته متأخراً. ولم تفهم لماذا يبدو له فظيعاً أن يكون على علاقة بامرأة سرية إذا كان هذا الأمر عادة وراثية بين الرجال الذين هم من صنفه، بما في ذلك هو نفسه في لحظة جحود. وقد رأت في مساعدتها له على تنفيذ قراره بالموت دليلاً مؤثراً على الحب. وقالت:

- وإذا ما قررت أنت عمل ذلك أيضاً لأسباب جدية كتلك التي كانت لديه، فإن واجبي أن أفعل مثلما فعلت هي.

ووجد الدكتور أوربينو مرّة أخرى نقطة عدم الفهم البسيطة التي أثارت حفيظته طوال نصف قرن. فقال:

- أنت لا تفهمين شيئاً. إن ما يغيظني ليس ما كانه أو ما فعله، وإنما الخدعة التي جعلها تنطلي علينا جميعاً خلال هذه السنوات الطويلة.

بدأت عيناه تغرورقان بدموع سهلة، فيما تصنّعت هي التجاهل وردّت:

- حسناً فعل. فلو أنه قال الحقيقة لما كنت أنت ولا هذه المرأة المسكينة، ولا أحد في البلدة أحبه كما أحببتموه.

ثبّتت الساعة ذات السلسلة في عروة الصداري. وعقدت له ربطة العنق ووضعت له المشبك الياقوتي. ثم مسحت دموعه ونظفت لحيته الباكية بالمنديل المبلل بعطر أغوافلوريدا، ووضعته في جيب الجاكيت

علي الصدر فاتحة أطرافه كزهرة مانوليا. دقت ساعة البندول دقاتها الإحدى عشرة في البيت الراكد، فقالت وهي تقوده من ذراعه:

- أسرع، سنصل متأخرين.

كانت أمينتا ديتشامباس، زوجة الدكتور لايثديس أوليفيا، وبناتها السبع المتحمّسات، قد أعددن كل شيء من أجل أن يكون غداء اليوبيل الفضي هو حدَث السنة الاجتماعي. منزل العائلة القائم في مركز المدينة التاريخي، وهو بيت المال سابقاً، كان قد غيَّر من طرازه المعماري مهندس فلورنسي مرَّ من هنا مثل ريح شؤم، وحوَّل إلى كنائس على الطراز الفينيسي بقايا أكثر من أربعة معابد من القرن السابع عشر. كان في البيت ست حجرات نوم، وصالونان للطعام والاستقبال، واسعان وحسنا التهوية، لكنهما لا يتسعان لمدعوّي المدينة، فضلاً عن النخبة التي ستأتي من الخارج. كان الرواق أشبه بباحة دير، في وسطه نافورة حجرية يغرد الماء فيها، وأحواض من أزهار الهيليوتربو تعطر البيت عند المغيب، لكن الفسحة المقنطرة لم تكن كافية لأصحاب كل تلك الألقاب العظيمة. ولهذا قرروا إقامة حفل الغداء في بيت العائلة الريفي، على بعد عشر دقائق في السيارة على الطريق العام، ففيه ساحة فسيحة وشجيرات غار هندية كثيفة ونيلوفر مهجَّن في مسيل ماء وديع. قام رجال مطعم دون سانتشو، بتوجيه من السيّدة أوليفيا، بنصب مظلات شوادر ملوَّنة في الأماكن التي لا ظلال فيها، وأقاموا تحت أشجار الغار مستطيلاً من الطاولات يتّسع لمئة واثنين وعشرين شخصاً، مع شراشف كتانية بيضاء لجميع الطاولات، وأغصان ورد طازجة على منضدة الشرف. كما أقاموا منصة لفرقة موسيقى الآلات الهوائية، يقتصر برنامجها على موسيقى راقصة وفالسات وطنية، ولفرقة رباعي وتري من مدرسة الفنون الجميلة، هي مفاجأة السيّدة أوليفيا لأستاذ زوجها الموقّر الذي سيرأس الغداء، ومع أن اليوم المحدد للاحتفال لم يكن يتفق تماماً مع ذكرى

التخرّج، فقد اختاروا يوم أحد العنصرة ليضاعفوا من ضخامة معنى الحفل.

بدأت الاستعدادات قبل ثلاثة شهور، خوفاً من نسيان شيء أو عدم إنجازه في الموعد المحدد، أحضروا الدجاج الحي من ثييناغا دي أورو، لشهرة هذا الدجاج في منطقة الساحل كلها، ليس بحجمه وطعمه اللذيذ وحسب، وإنما لأنه في الزمن الاستعماري كان يعفر في أراضي الطمي، فكانوا يجدون في حوصلته حصيات من الذهب الخالص، وكانت السيّدة أوليفيا شخصياً، برفقة بعض بناتها وبعض الخدم، تصعد إلى متن السفن العابرة الفخمة لتنتقي أفضل ما يصل من كل مكان لتشريف مكانة زوجها. لقد احتاطت لكل شيء، باستثناء أن الحفلة ستكون يوم أحد حزيراني في سنة متأخرة الأمطار. وقد أدخلت أمرَ خطر كهذا في حسابها صباح يوم الحفلة بالذات، عندما خرجت إلى القدّاس الكبير وأفزعتها رطوبة الهواء، ورأت أن السماء كثيفة وواطئة وأن البصر لا يصل لرؤية الأفق البحري. ورغم علائم النحس هذه، فقد ذكّرها مدير الأرصاد الجوية الذي التقت به في الصلاة، بأنه لم يحدث في تاريخ المدينة المشؤوم جداً، حتى ولا في أقسى فصول الشتاء، أن هطل المطر في يوم العنصرة. ورغم ذلك، عندما دقت الساعة معلنة الثانية عشرة، وبينما كان معظم المدعوين يتناولون المقبلات في الهواء الطلق، جعل انفجار الرعد الأرض تهتز، وأطاحت ريح بحرية عنيفة بالموائد وحملت المظلات في الجو، وانهارت السماء بمطر كالكارثة.

لقد تمكّن الدكتور خوفينال أوربينو من الوصول بجهود مضنية في فوضى العاصفة، مع آخر الضيوف الذين التقى بهم في الطريق، وكان يريد الوصول إلى البيت قافزاً من العربات مثلهم فوق الأحجار، عبر البهو المضطرب، لكنه قبل أخيراً مذلّة أن يحمله رجال دون سانتشو على

الأذرع تحت مظلة من قماش أصفر، وجرى إعداد الطاولات المنفصلة من جديد على أحسن وجه ممكن داخل البيت، وحتى في غرف النوم، ولم يقم المدعوون بأي جهد لإخفاء مزاجهم الغارق بالماء، كان الحر في البيت كأنه مرجل سفينة، إذ إنهم أغلقوا النوافذ ليمنعوا دخول المطر الذي يهطل مائلاً بفعل الريح. كان يوجد على الطاولة في الفناء بطاقة تحمل اسم كل مدعو وتحدد مكانه، وكان مقرراً أن يكون هناك جانب للرجال وآخر للنساء، كما هي العادة في ذلك الحين، لكن البطاقات التي تحمل الأسماء اختلطت داخل البيت، وجلس كل واحد كيفما استطاع، بفوضى هائلة خالفت لمرة واحدة على الأقل تقاليدنا الاجتماعية البالية. وسط الكارثة، كانت أمينتا دي أوليفيا تبدو وكأنها في كل مكان، بشعرها المبلل وثوبها الرائع الملطخ بالوحل، لكنها تعلو على المصيبة بابتسامة لا تقهر، تعلمتها من زوجها، كي لا تتيح للعوازل أن يشمتوا. وبمساعدة بناتها، المصاغات في الكور نفسه، تمكّنت إلى حدٍّ ما من حجز الأمكنة على منضدة الشرف، فكان الدكتور خوفينال أوربينو في الوسط والأسقف أوبدوليواي ري إلى يمينه. وجلست فيرمينا داثا إلى جانب زوجها، كما اعتادت أن تفعل دوماً، خوفاً من أن يغلبه النعاس أثناء الغداء أو أن يسكب الحساء على قبّة سترته. واحتل الموقع المقابل الدكتور لاثيديس أوليفيا، وهو خمسيني ذو مظهر أنثوي، محتفظ جيداً بقواه، ولا علاقة لروحه الاحتفالية بتشخيصاته الطبية الصائبة. وامتلأت بقية مقاعد الطاولة بممثلي السلطات الإقليمية والبلدية، وملكة جمال العام الفائت، التي قادها الحاكم من ذراعها ليجلسها إلى جواره، ورغم أنه لم تكن هناك عادة طلب زي خاص في الدعوات، ولا سيما في غداء ريفي، فقد كانت السيدات يرتدين فساتين سهرة وحلي أحجار كريمة، ومعظم الرجال يلبسون بدلات قاتمة مع ربطة عنق سوداء، وبعضهم

يرتدي الستر الرسمية البيضاء، وذوو المشاغل الكثيرة وحدهم، ومنهم الدكتور أوربينو، كانوا يرتدون بدلات يومية، وفي كل مكان كانت توجد نسخة من المينو، مطبوعة بالفرنسية مع رسوم مذهبة.

ذرعت السيّدة أوليفيا، المرتعبة من أهوال الحر، البيت راجية من الجميع خلع سترهم لتناول الغداء، لكن أحداً لم يجرؤ على أن يكون قدوة للآخرين. ولقد لفت الأسقف انتباه الدكتور أوربينو إلى أن ذلك الغداء هو غداء تاريخي بطريقة ما: فهنا يجتمع لأوّل مرّة على طاولة واحدة، وبعد التآم الجروح وتبدّد الأحقاد، فريقا الحروب الأهلية التي أغرقت البلاد بالدم منذ الاستقلال. كان هذا التفكير يتلاءم مع حماسة الليبراليين، وخصوصاً الشباب منهم الذين تمكنوا من اختيار رئيس من حزبهم بعد خمس وأربعين سنة من هيمنة المحافظين. ولم يكن الدكتور أوربينو يوافق على ذلك: فرئيس ليبرالي لا يبدو له أقل أو أكثر من رئيس محافظ، سوى أنه أسوأ هنداماً. ومع ذلك، لم يشأ معارضة الأسقف. رغم أنه رغب في أن يلمّح له أن أحداً لم يُدعَ لحضور الغداء من أجل أفكاره وإنما لشرف محتده، وأن هذه كانت دائماً فوق نكبات السياسة وفظائع الحرب. وإذا نظرنا بهذا المنظار، فليس هنالك أي خلل حقاً.

توقف وابل المطر فجأة كما بدأ، والتهبت الشمس في السماء الصافية فوراً، لكن العاصفة كانت من العنف بحيث انتزعت بعض الأشجار من جذورها، وتحوّل الماء المتجمّع حول الفناء إلى مستنقع راكد، أما الكارثة الكبرى فكانت في المطبخ، حيث أقيمت عدّة مواقد من الطوب في القسم الخلفي من البيت، في العراء، وما كاد الطهاة يضعون القدور بمنأى عن المطر، حتى راحوا يضيعون وقتاً ثميناً في نزح الماء من المطبخ الغارق وإقامة مواقد جديدة على عجل في الرواق الخلفي، لكن حالة الطوارئ انتهت في الواحدة ظهراً، ولم يكن ينقص سوى الحلوى التي

كُلفت بصنعها راهبات سانتا كلارا اللواتي وعدن بإرسالها قبل الساعة الحادية عشرة، وكانت الخشية من أن تكون ساقية الطريق الرئيسي قد فاضت كثيراً، كما يحدث عادة في فصول شتاء أقل قسوة، وفي هذه الحالة لن يكون ممكناً وضع الحلوى في الحساب قبل مرور ساعتين. ما إن توقف المطر حتى فتحوا النوافذ، فلطّف الهواء المنقّى بكبريت العاصفة جوّ البيت. ثم أمروا بأن تعزف الفرقة الموسيقية برنامجها على مصطبة الرواق، لكن ذلك لم ينفع سوى في زيادة الجزع، لأن دوي الآلات النحاسية داخل البيت كان يضطرهم إلى تبادل الحديث صراخاً. فأمرت أميتادي أوليفيا المنهكة من الانتظار، والتي كانت تبتسم وهي على حافة الدموع، بتقديم الطعام.

بدأت فرقة مدرسة الفنون الجميلة الوترية بالعزف وسط صمت رسمي استمر حتى النغمات الأولى من معزوفة لاتشاس لموزارت. ورغم الأصوات التي أخذت تعلو أكثر فأكثر وتصبح أشدّ اختلاطاً، ورغم عرقلة خدم دون سانتشو الزنوج الذين لم يكن الفراغ بين الموائد يكفي لمرورهم وهم يحملون الصواني التي يتصاعد منها البخار، فقد تمكّن الدكتور أوربينو من الاحتفاظ بقناة مفتوحة على الموسيقى حتى نهاية البرنامج. كانت قدرته على التركيز تتناقص سنة بعد أخرى، حتى إنه كان يضطر إلى تسجيل كل حركة شطرنج يقوم بها على الورق ليعرف أين صار في اللعب. ومع ذلك، فهو مازال قادراً على مواصلة محادثة جدّية من دون أن يفلت خيط الموسيقى، رغم أنه لا يصل في ذلك إلى الحدّ الذي يصله قائد أوركسترا ألماني، كان صديقاً حميماً له خلال فترة إقامته في النمسا، إذ كان يقرأ نوتة موسيقية لدون جوفاني فيما هو يسمع تانهاوزر.

المقطوعة الثانية في البرنامج كانت الموت والصبية، لشوبرت، وبدا له أنها تعزف بدرامية سهلة. وبينما هو يستمع إليها بمعاناة شديدة، من

خلال الجلبة الجديدة التي أثارتها أدوات الطعام في الصحون، كان يحتفظ بنظره معلقاً بشاب ذي وجه ورديّ حيّاه بانحناءة من رأسه. لا شك أنه رآه في مكان ما، لكنه لا يذكر أين. إن هذا يحدث له كثيراً مع الأسماء، فهو ينسى أحياناً أسماء أقرب الناس إليه، وكذلك مع ألحان زمن آخر، ممّا يثير فيه قلقاً مخيفاً، جعله في إحدى الليالي يفضل الموت على التحمُّل حتى الفجر. وكان على وشك الوصول إلى هذه الحالة عندما أضاء له بريقٌ مشفِقٌ ذاكرته: الأب هو أحد تلاميذه من العام الفائت. وفوجئ برؤيته هنا، في مملكة الصفوة، لكن الدكتور أوليفيا ذكّره بأنه ابن وزير الوقاية الصحية، وقد جاء إلى هنا لتحضير أطروحة في الطب الشرعي. وأشار له الدكتور خوفينال أوربينو بتحية سعيدة من يده، فوقف الشاب وردَّ على التحية باحترام. إنما لم يخطر للدكتور أوربينو حينئذ، ولا في ما بعد، بأنه المتمرن الذي كان معه صباح هذا اليوم في بيت جيرميا دي سانت – آمور.

مع إحساسه بالراحة لهذا الانتصار الجديد على الشيخوخة، غاب عن الغنائية الصافية المنسابة من آخر مقطوعة موسيقية في البرنامج، لم يستطع تحديد هويتها. وقد أخبره بعد ذلك عازف الكمان الشاب في المجموعة، الذي رجع من فرنسا منذ وقت قريب، بأن المقطوعة هي الرباعية الوترية لغابرييل فورييه، الذي لم يكن الدكتور أوربينو قد سمع باسمه رغم ترصّده الدائم لكل جديد من أوروبا. فيرمينا داثا، المنتبهة إليه، كعادتها، وخصوصاً عندما تراه ساهماً وسط الناس، توقفت عن تناول الطعام ووضعت يدها الدنيوية على يده، وقال له: «لا تفكر في الأمر أكثر». فابتسم لها الدكتور أوربينو من الضفة الأخرى للغيبوبة، وكان أن عاد حينئذ إلى التفكير في ما كانت هي تخشاه. تذكر جيرميا دي سانت – آمور، موسداً في هذه الساعة في التابوت، بزيه العسكري الزائف وميدالياته الكاذبة، تحت نظر أطفال الصور المتهمة. التفت نحو

الأسقف ليطلعه على خبر الانتحار، لكنه كان عارفاً به. كان قد تحدث مطولاً في هذا الأمر بعد القدّاس الكبير، بل إنه تلقّى طلباً من الكولونيل جيرونيمو أرغوتي، باسم لاجئ الكاريبي، لدفنه في الأرض الطاهرة. وقال: «إن الطلب بحد ذاته، برأيي، هو قلة احترام» ثم سأله، بلهجة أكثر آدمية، إن كان يعرف سبب الانتحار. ورد عليه الدكتور أوربينو بكلمة صحيحة، ظنَّ أنه اخترعها في تلك اللحظة بالذات: «الخوف من الشيخوخة». والدكتور أوليفييا الذي كان منصرفاً باهتمامه إلى أقرب الضيوف منه، تركهم لبرهة كي يشارك في الحوار مع أستاذه. فقال:

– ومن المؤسف أننا ما زلنا نلتقي بمنتحر دافعه للانتحار ليس الحب».

لم يُفاجأ الدكتور أوربينو من التعرّف على أفكاره في آراء تلميذه النجيب. فقال:

– بل الأسوأ من ذلك أن الانتحار تمّ بسيانور الذهب.

ما إن قال ذلك حتى أحسَّ بأن الشفقة قد عادت لتتغلب على مرارة الرسالة، ولم يُرجع الفضل في ذلك إلى زوجته وإنما إلى معجزة من معجزات الموسيقى، حينئذ حدَّث الأسقف عن القديس الملحد الذي تعرَّف هو نفسه عليه في أمسيات الشطرنج البطيئة، وحدَّثه عن تكريسه لفنّه من أجل إسعاد الأطفال، وعن سعة إطلاعه العجيبة على كل شؤون الدنيا، وعن عاداته الأسبارطية، وقد فوجئ هو نفسه بنقاء الروح الذي مكّنه من الانفصال فجأة وبشكل كامل عن ماضيه. ثم حدّث العمدة عن أهمية شراء أرشيف مسودات الصور، لحفظ صور جيل ربّما لن يعود إلى الشعور بالسعادة خارج صوره تلك، جيل في يديه مستقبل المدينة. لقد ذعر الأسقف لأن كاثوليكياً مواظباً ومطلعاً تجرّأ على التفكير بقدسية منتحر، لكنه وافق على المبادرة إلى أرشفة مسودات الصور، وأراد العمدة أن يعرف ممّن عليه أن يشتريها. فكوى الدكتور أوربينو لسانه بجمرة السرّ، لكنه استطاع احتمالها من دون الكشف عن وارثة

الأرشيف السرية، وقال: «أنا سأتولى الأمر». وأحس بأنه افتدى بوفاته المرأة التي تركها قبل خمس ساعات. لاحظت فيرمينا داثا ذلك، وجعلته يعاهدها بصوت واطئ على حضور الدفن. «طبعاً سأفعل» قال مفرّجاً عن نفسه، وأضاف: «كل شيء إلا هذا».

كانت الخُطب قصيرة وبسيطة، وبدأت فرقة آلات النفخ بعزف موسيقى غوغائية، غير مقررة في البرنامج، وانتقل المدعوون إلى الشرفات بانتظار أن ينتهي رجال فندق دون سانتشو من نزح الماء المتجمّع في الفناء، ليروا إن كان هنالك من سيتحمس للرقص. والوحيدون الذين بقوا في الصالة هم مدعوّو طاولة الشرف الذين كانوا يحتفلون باحتساء الدكتور أوربينو نصف كأس من البراندي دفعة واحدة في نخب أخير. ليس هناك من يذكر أنه فعل ذلك قبل اليوم، ما عدا ارتشافه كأس نبيذ من صنف فاخر، مع وجبة خاصة جداً في مناسبات قليلة، لكن قلبه طلب ذلك في هذا اليوم، وكان ضعفه حسنُ الإثابة: إذ أحسّ مجدداً، بعد سنوات وسنوات، برغبة في الغناء. وكان سيفعل ذلك دون شك، بناء على طلب عازف الكمان الشاب الذي تطوّع لمرافقته، لولا أن سيارة من السيارات الجديدة اجتازت أوحال الفناء بسرعة، ملوّثة الموسيقيين بالوحل ومثيرة طيور البط في الأقفاص بنفيرها الذي كصوت البط، وتوقفت أمام مدخل البيت. نزل الدكتور ماركو أوريليو أوربينو داثا وزوجته وهما غارقان بالضحك، يحملان في كل يد صينية مغطاة بقماش مخرّم. وكانت هناك صوان أخرى مماثلة في المقاعد الخلفية، وعلى أرضية السيارة إلى جانب السائق أيضاً. إنها الحلوى المتأخرة. وبعد أن توقف التصفيق وصفير السخرية الودود، شرح الدكتور أوربينو داثا بجدية كيف أن الراهبات طلبن منه نقل الحلوى قبل أن تبدأ العاصفة، لكنه رجع من الطريق العام لأن أحدهم قال له إن بيت والديه يحترق، أصاب الذعر الدكتور خوفينال أوربينو من دون أن ينتظر انتهاء ابنه من الحكاية. لكن

زوجته ذكرته بأنه هو نفسه قد أمر باستدعاء رجال الإطفاء للإمساك بالبغاء، وقررت أمينتا دي أوليفيا، المتألقة بهجة، أن تقدم الحلوى على الشرفات، حتى ولو كان ذلك بعد تناولهم القهوة، لكن الدكتور أوربينو وزوجته انصرفا من دون تذوقها، لأن الوقت المتبقي لا يكاد يكفيه لنوم قيلولته المقدسة قبل أن يذهب إلى الجنازة.

نام قيلولته، إنما لوقت قصير وبشكل سيئ، لأنه عندما عاد إلى البيت، وجد أن رجال الإطفاء قد تسببوا بأضرار تقارب بخطورتها أضرار حريق، ففي محاولتهم لإخافة الببغاء، أسقطوا إحدى الأشجار بخراطيم الضغط المرتفع، ودخلت دفقة ماء سيئة التصويب من نافذة حجرة النوم الرئيسية محدثة أضراراً لا مجال لإصلاحها في الأثاث وفي صور الأجداد المجهولين المعلقة على الجدران. وقد هرع الجيران عندما سمعوا جرس سيارة الإطفاء، معتقدين أن حريقاً قد شب. وإذا كانت لم تحدث قلاقل أسوأ، فلأن المدارس كانت مغلقة لأن اليوم هو يوم أحد، وعندما أيقنوا أنهم لن يتمكنوا من الوصول إلى الببغاء حتى باستخدام السلالم ذات الأجزاء الإضافية، أخذ رجال الإطفاء يحطمون الأغصان بالفؤوس، وكان ظهور الدكتور أوربينو داثا هو الذي منعهم من بتر جذع الشجرة. فتوقفوا بعدما وعدوا بالرجوع بعد الساعة الخامسة ليروا إن كانوا يسمحون لهم بتقليم الشجرة. وفي طريقهم لوثوا الشرفة والصالة بالوحل، ومزقوا سجادة تركية هي المفضلة لدى فيرمينا داثا، فكانت كارثة بلا طائل. إضافة إلى أن الرأي السائد كان أن الببغاء قد انتهزت فرصة الفوضى لتهرب عبر الباحات المجاورة، وقد بحث عنها الدكتور أوربينو فعلاً بين أوراق الشجرة، ولم يتلق رداً بأية لغة، ولا حتى بالصفير والغناء، فاعتبرها مفقودة ومضى لينام في حوالي الساعة الثالثة، وقبل ذلك تلذذ بالمتعة الآنية لعبق حديقة سرية في بوله المصفّى بالهليون الدافئ.

أيقظه الأسى. ليس الأسى الذي أحسه صباحاً أمام جثة صديقه، وإنما الغمامة غير المرئية التي كانت تضمّخ روحه بعد القيلولة، والتي فسَّرها على أنها إخطار إلهي بأنه يعيش آخر أمسياته. لم يكن يعي، حتى بلوغه الخمسين، حجم ووزن وحالة أحشائه. وشيئاً فشيئاً، بينما هو يرقد مغمض العينين بعد القيلولة اليومية، راح يشعر بأحشائه في جوفه، حشواً فحشواً، يشعر حتى بشكل قلبه المؤرق، وكبده الغامض، وبنكرياسه المتكتم، وراح يكتشف أن الناس جميعاً، بمن فيهم أولئك الأكبر منه سناً، كانوا أصغر منه، وأن الأمر انتهى به إلى أن يكون المتبقي الوحيد على قيد الحياة من بين الصور الأسطورية لمجموعة أبناء جيله. وعندما تنبَّه إلى حالات نسيانه الأولى، لجأ إلى وسيلة سمعها من أحد أساتذته في مدرسة الطب: «من لا ذاكرة لديه، فليصنع ذاكرة من ورق». لكن ذلك لم يكن سوى وهم عابر، إذ إنه وصل إلى أقصى الحدود بنسيان ما تعنيه ملاحظات التذكير التي كان يدسها في جيوبه، وصار يجوب أنحاء البيت بحثاً عن نظارته التي يضعها على عينيه، ويعيد إدارة المفتاح بعد أن يكون قد أقفل الباب، ويضيع خيط القراءة بنسيانه مقدمات البراهين أو أوصاف الشخصيات. لكن أكثر ما كان يقلقه هو ارتيابه بقدرته العقلية ذاتها: وشيئاً فشيئاً، في غرق محتوم، راح يشعر بأنه آخذ بفقدان معنى العدالة.

ومن خلال التجربة وحدها، حتى لو كانت بلا مرتكزات علمية، كان الدكتور خوفينال أوربينو يعرف أن معظم الأمراض المميتة لها رائحتها الخاصة، ولكنّ أياً منها ليس محدَّد الرائحة كما هو داء الشيخوخة. كان يلمس ذلك في الجثث المفتوحة على منضدة التشريح، ويتعرفه حتى في أفضل المرضى اتقاناً في إخفاء عمرهم الحقيقي، وفي عَرَق ثيابه نفسها، وفي التنفس الأعزل لزوجته النائمة. ولو لم يكن في جوهره ما هو عليه: مسيحياً على الطريقة القديمة، فربما كان سيتفق مع جيرميا دي سانت - آمور بأن الشيخوخة هي حالة غير وقورة يجب تفادي بلوغها.

والعزاء الوحيد، حتى لشخص مثله، كان رجلاً جيداً في الفراش، هو الإطفاء البطيء والرحيم لرغبة الجماع: السلام الجنسي. لقد كان وهو في الحادية والثمانين يتمتع بما يكفي من صفاء الذهن ليُدرك أنه مشدود إلى هذا العالم بخيوط واهية يمكن لها أن تنقطع من دون ألم بمجرد حركة بسيطة أثناء النوم. وإذا كان يفعل كل ما يمكنه للاحتفاظ بتلك الخيوط فذلك لخوفه من ألا يجد الرب في ظلمات الموت.

كانت فيرمينا داثا قد انهمكت في ترتيب حجرة النوم التي عاث فيها رجال الإطفاء، وقبيل الساعة الرابعة بقليل حملت إلى زوجها كأس الليمونادة اليومي مع الثلج المكسَّر، وذكرته بأن عليه أن يرتدي ملابسه ليذهب إلى الجنازة. كان تحت متناول يد الدكتور هذا المساء كتابان اثنان: «الإنسان، ذلك المجهول» لألكسيس كاريل، و«قصة سان ميشيل» لأكسيل مونث. ولم تكن صفحات الكتاب الأخير قد فُتحت بعد، فطلب من ديغنا باردو، الطاهية، أن تأتيه بفتاحة الكتب العاجية التي نسيها في حجرة النوم. ولكن عندما جاؤوه بها كان قد بدأ القراءة في كتاب «الإنسان، ذلك المجهول» في الصفحة المعلَّمة بمغلف رسالة.

كانت لا تزال أمامه صفحات قليلة جداً لإنهاء الكتاب. قرأ بتمهُّل، شاقاً الطريق عبر تلويات ألم في الرأس عزاها إلى نصف كأس براندي شربه في النخب الأخير. وفي وقفاته عن القراءة كان يتناول رشفة من الليمونادة، أو يتمهل في قضم قطعة من الثلج. كان لابساً جوربَيه، ومرتدياً قميصه من دون وضع الياقة المنفصلة، بينما حمّالتا البنطال المطاطيتان بخطوطهما الخضراء تتدليان على جانبَيْ خصره، وكان يزعجه مجرّد التفكير بأن عليه استبدال ملابسه من أجل الجنازة. ما لبث أن توقف عن القراءة، ووضع الكتاب فوق الكتاب الآخر، وبدأ يتأرجح على مهل في كرسي الخيزران الهزاز، متأملاً من خلال الأسى شجيرات الموز في مستنقع الفناء، وشجرة المانغا منتوفة الأغصان، ونمل ما بعد

المطر الطيار، والضياء الفاني لمساء آخر ينقضي إلى الأبد. لقد نسي أنه كانت لديه ببغاء في أحد الأيام، وأنه أحبها كما يحب كائناً بشرياً، عندما سمعها فجأة: «ببغاء ملكي». سمعها قريباً جداً منه، إلى جواره تقريباً. ثم رآها في الحال على أوطأ أغصان شجرة المانغا. فصرخ بها:

– عديمة الحياء.

وردت الببغاء بصوت مطابق تماماً:

– عديم الحياء أنت يا دكتور.

تابع الحديث معها من دون أن يرفع نظره عنها، ريثما لبس جزمته بحذر شديد حتى لا يُخيفها، ودسّ يديه في حمالتَيْ البنطال، ونزل إلى الفناء الذي ما زال موحلاً متلمساً الطريق بعكازه كي لا يصطدم بدرجات المصطبة الثلاث. ظلتْ الببغاء بلا حراك. وكانت تقف على ارتفاع منخفض جداً، لدرجة أنه مدَّ لها العكاز لتقف على قبضته الفضية، كما تفعل عادة، لكن الببغاء أعرضت عنها. قفزت إلى غصن مجاور، أعلى قليلاً لكن الوصول إليه أسهل، حيث كان السلَّم الخاص بالبيت مسنداً قبل مجيء رجال الإطفاء. قدَّر الدكتور أوربينو الارتفاع، وفكر أنه بارتقاء عارضتين من عوارض السلَّم سيتمكن من الإمساك بها. صعد الدرجة الأولى، مغنياً أغنية تواطؤ ليشتت انتباه الطائر الفظ الذي كان يكرر الكلمات من دون الموسيقى ويبتعد على الغصن بحركات جانبية. صعد العارضة الثانية من دون مشقة وهو يمسك السلَّم بكلتا يديه، وبدأت الببغاء بترديد الأغنية كاملة من دون أن تبدّل مكانها. ارتقى العارضة الثالثة، ثم الرابعة في الحال، إذ إنه أساء تقدير ارتفاع الغصن، وحينئذ تشبث بيده اليسرى بالسلم وحاول إمساك الببغاء باليد المنى. كانت الخادمة العجوز ديغنا باردو آتية لتنبيهه إلى أنه يكاد يتأخر عن موعد الجنازة، فرأت ظهر الرجل الصاعد على السلّم، ولم تكن لتصدق أنه هو لولا الخطوط الخضراء التي على حمالة البنطال المطاطية.

صرخت:

- يا ربنا المقدس! سيقتل نفسه!

أمسك الدكتور أوربينو بعنق الببغاء وهو يتنهد ظافراً: انتهى الأمر، لكنه أفلتها فوراً، لأن السلّم انزلق تحت قدميه وبقي هو معلقاً لبرهة في الهواء، فأدرك حينئذ أنه قد مات من دون قربان ربّاني، ومن دون أن يتاح له الوقت ليندم على شيء أو ليودِّع أياً كان، في الساعة الرابعة وسبع دقائق من مساء يوم أحد العنصرة.

كانت فيرمينا داثا في المطبخ تتذوق حساء العشاء، عندما سمعت صرخة الرعب التي أطلقتها ديغنا باردو وجلبة خدم البيت ثم خدم البيوت المجاورة. ألقت بملعقة التذوق وحاولت الركض بقدر ما استطاعت مع ثقل سنها الذي لا سبيل إلى هزيمته، صارخة كمجنونة، من دون أن تعرف حتى الآن حقيقة ما جرى تحت أوراق شجرة المانغا، وقفز قلبها مفتتاً عندما رأت رجلها مطروحاً على ظهره في الوحل، ميتاً في الحياة، لكنه ما زال يقاوم ضربة الموت للحظة أخيرة ريثما يتاح لها أن تصل. تمكّن من التعرُّف عليها وسط الحشد من خلال دموع الألم التي لا تتكرر لموته من دونها، ونظر إليها لآخر مرَّة وإلى الأبد بعينين أشدّ بريقاً، وأكثر حزناً، وأعظم امتناناً ممّا رأته طوال نصف قرن من الحياة المشتركة، وتمكّن من أن يقول لها مع النفس الأخير:

- الله وحده يعلم كم أحببتك.

كانت ميتة مشهودة، وليس ذلك من فراغ، فما إن أنهى دراسته التخصصية في فرنسا، حتى ذاع صيت الدكتور خوفينال أوربينو في البلاد بأنه من درأ مسبقاً، بأساليب مستحدثة وصارمة، أخطار جائحة الكوليرا الأخيرة التي تعرَّض لها الإقليم. فالجائحة السابقة، التي جاءت وهو لا يزال في أوروبا، تسببت في موت ربع عدد السكان على الأقل

خلال ثلاثة شهور، بما في ذلك أبوه، الذي كان طبيباً بارزاً أيضاً. بهذه الشهرة السريعة، وبإعانة من الإرث العائلي، أسَّس «المؤسسة الطبية»، فكانت المؤسسة الأولى والوحيدة في أقاليم الكاريبي لسنوات طويلة؛ وكان رئيساً لها مدى الحياة. ثم أنشأ أوَّل تمديدات لمياه الشرب بعد ذلك، وأول نظام للصرف، ودعا لإقامة السوق العام المسقوف الذي جعل شاطئ لاس اينماس صحِّياً بعدما كان مجمَّعاً للنتانة. كما كان رئيساً لأكاديمية اللغة وأكاديمية التاريخ. وقد نصَّبه بطريرك القدس فارساً من رتبة سانتو سيبولكر لخدماته التي قدمها للكنيسة، ومنحته الحكومة الفرنسية وسام جوقة الشرف من رتبة فارس. كما كان محركاً فعالاً في جميع الجمعيات الدينية والمدنية التي أقيمت في المدينة، وبصورة خاصة الجمعية الوطنية، المؤلفة من مواطنين مؤثرين ليست لديهم طموحات سياسية، يمارسون نفوذهم على الحكومات والتجارة المحلية بأفكار متنوّرة تتسم بالجرأة بالمقارنة مع الظرف التاريخي. من تلك الأفكار، وأكثرها جدارة بالذكر، كانت تجربة منطاد حمل في طيرانه الأول رسالة إلى بلده سان خوان دي لاثييناغا، قبل زمن طويل من التفكير بالبريد الجوي كوسيلة عقلانية، ومن أفكاره أيضاً إقامة المركز الفني، الذي أسس مدرسة الفنون الجميلة في المبنى ذاته الذي ما زالت تحتله حتى الآن، كما رعى طوال سنوات عديدة مهرجان الشعر في شهر نيسان.

وهو وحده من تمكَّن من تحقيق ما اعتبر مستحيلاً خلال قرن من الزمن: إعادة افتتاح مسرح الكوميديا، الذي تحوَّل إلى ملعب لصراع الديكة ومربي ديوك منذ العهد الاستعماري. كان ذلك تتويجاً لحملةٍ مدنية استعراضية شاركت بها جميع قطاعات المدينة بلا استثناء، في تحرُّك حاشد اعتبره الكثيرون جديراً بقضية أهم. ومع ذلك، فقد جرى افتتاح مسرح الكوميديا في الوقت الذي لم تكن توجد فيه مقاعد ولا مصابيح،

وكان على الحضور أن يجلبوا معهم ما يجلسون عليه وما يستضيئون به في الاستراحات بين الفصول. وفُرضت آداب الإتيكيت المعمول بها في أعظم مسارح أوروبا، حيث انتهزت سيدات المجتمع الراقي الفرصة لعرض فساتينهن الطويلة ومعاطف الفراء في حرّ الكاريبي الخانق، إنما كان لا بدّ من السماح للخدم بالدخول ليحملوا المقاعد والمصابيح، وكذلك بعض الأطعمة التي يرون أنها ضرورية لتحمّل البرامج الطويلة التي لا تنتهي، والتي استمرَّ أحدها حتى ساعة قداس الفجر الأول. وافتتح الموسم بفرقة أوبرا فرنسية، كان الجديد لديها استخدام قيثارة في الأوركسترا، وكان مجدها التليد في الصوت النقي والموهبة الدرامية لمغنية تركية تغني وهي حافية وتضع خواتم مرصعة بأحجار كريمة في أصابع قدميها. ومنذ الفصل الأول لم تعد مرئية تقريباً، وفقد المغنون أصواتهم بفعل الدخان المنطلق من مصابيح زيت الكوروثو، لكن كتبة وقائع المدينة اهتموا بمحو هذه العوائق الصغيرة، وتعظيم ما هو جدير بالذكر. وقد كانت هذه من دون شك أكثر مبادرات الدكتور أوربينو انتشاراً، إذ انتقلت عدوى حمى الأوبرا إلى قطاعات في المدينة لا تخطر على بال، وكانت منطلقاً لجيل كامل من الأزولدات والعُطيلين، ومن العايدات والسيجفريدين[1]، لكن ذلك كله لم يصل إلى الحد الذي تمنّاه الدكتور أوربينو، ألا وهو رؤية أنصار الموسيقى الإيطالية وأنصار فاغنر يواجهون بعضهم بعضاً بالعكاكيز أثناء الاستراحات.

لم يقبل الدكتور أوربينو قطّ أي منصب رسمي من المناصب التي كثيراً ما كانت تُعرض عليه بلا شروط، وكان ناقداً قاسياً للأطباء الذين يستغلون سمعتهم المهنية ليرتقوا في المناصب السياسية. ورغم أنه

(1) صيغة جمع لأسماء: أزولدة، عطيل، عايدة، سيجفريدو، وهي شخصيات أعمال درامية مشهورة.

اعتُبر ليبرالياً دوماً، واعتاد التصويت في الانتخابات لمرشحي هذا الحزب، فإنه ربما كان كذلك آخر أبناء الأسر الكبيرة الذي يركع في الشارع لدى مرور مركبة الأسقف. وكان يُعَرِّف نفسه كنصير طبيعي للسلام، ونصير للصلح النهائي بين الليبراليين والمحافظين من أجل مصلحة الوطن. لكن سلوكه العام كان ذاتياً لدرجة أن أحداً لم يعتبره موالياً له: فالليبراليون يرون فيه قوطياً من قوطيي الكهوف، والمحافظون يقولون أن ما ينقصه هو أن يكون ماسونياً فقط، ويبتعد عنه الماسونيون باعتباره كاهناً متخفياً يعمل في خدمة الكرسي البابوي. وأقل نقاده دموية كانوا يفكرون بأنه ليس سوى أرستقراطي غارق في ملذات ألعاب عيد الزهور، فيما الأمة تنزف في حرب أهلية لا تنتهي.

عملان وحيدان فقط قام بهما وبديا غير منسجمين مع هذه الصورة. الأول هو انتقاله إلى بيت جديد في حي محدثي الثراء، بدلاً من قصر الماركيز دي كاسالدويرو القديم، والذي كان بيت العائلة لأكثر من قرن من الزمان. والعمل الآخر هو زواجه من آية جمال شعبية، بلا ألقاب ولا ثروة، تلك التي كانت تسخر منها سراً السيدات ذوات الألقاب الطويلة إلى أن اقتنعن بالقوة بأنها قادرة على اللفِّ بهن جميعاً سبع لفات بتميزها وطبعها. وكان الدكتور أوربينو يضع في اعتباره دوماً هذه العثرات وغيرها ممّا يحيط بصورته العامة، ولم يكن هناك من هو أكثر منه وعياً لحالته كآخر رجل من أبناء لقب آخذ بالانقراض. فإبناه كانا نهاية سلالة لا بصيص أمل لها في الاستمرار. ابنه الذكر، ماركو أوريليو، طبيب مثله ومثل جميع أسلافه في كل جيل، لم يفعل شيئاً يستحق الذكر، حتى إنه لم يُنجب ابناً، رغم تجاوزه الخمسين من العمر. وأوفيليا، ابنته الوحيدة، متزوجة من موظف مرموق في مصرف بنيو أورليانز، وقد بلغت سن اليأس ولم تنجب سوى ثلاث بنات، بلا أي مولود ذكر. مع ذلك، وعلى الرغم من أن انقطاع سلالته في ينبوع التاريخ كان يسبب له الأسى، فإن

أكثر ما كان يقلق الدكتور أوربينو من الموت هو الحياة المتوحدة التي ستعيشها فيرمينا داثا من دونه.

لقد أثارت المأساة على كل حال قلقاً، ليس بين ذويه فحسب، بل إنها انتقلت بالعدوى إلى عامة الشعب، الذي خرج إلى الشوارع على أمل التعرُّف ولو على بريق الأسطورة. أُعلنت ثلاثة أيام من الحداد، ونُكّست الأعلام على الدوائر العامة، وقُرعت نواقيس جميع الكنائس بلا توقف إلى أن خُتم الضريح في مدفن العائلة، وقامت مدرسة الفنون الجميلة بطبع وجه الجثة لاستخدامها كقالب لتمثال نصفي بالحجم الطبيعي، إلا أنه تمّ التخلي عن المشروع لأن أحداً لم يرَ أن ملامح الوجه أمينة، بعد التبدل الذي أصابه في رعب اللحظة الأخيرة، ثم رسم فنان شهير مرَّ من هنا مصادفة، وهو في طريقه إلى أوروبا، لوحة زيتية ضخمة بواقعية مؤثرة، يظهر فيها الدكتور أوربينو متسلقاً السلم في اللحظة القاتلة التي مدَّ فيها يده للإمساك بالببغاء. والشيء الوحيد الذي كان يناقض الحقيقة الخام في القصة هو أنه لم يكن يرتدي في اللوحة قميصه الذي بلا ياقة وحمالتَيْ السروال المخططتين بالأخضر، وإنما القبَّعة المدورة والسترة السوداء المأخوذة عن صورة منشورة في الصحف خلال سنوات الكوليرا. وقد عُرضت هذه اللوحة، بعد شهور قليلة من المأساة، كي يراها الجميع بلا استثناء، في «صالة السلك الذهبي» الفسيحة، وهي دكان لبيع المواد المستوردة يؤمّها سكان المدينة بأسرها. بعد ذلك عُلقت على جدران عدد من المؤسسات العامة والخاصة التي رأت أنه من الواجب تقديم فروض الاحترام لذكرى نبيل مشهور، ونُقلت أخيراً في جنازة ثانية لتُعلّق في مدرسة الفنون الجميلة، حيث أخرجها من هناك بعد سنوات طويلة طلاب الرسم بالذات، لإحراقها في ساحة الجامعة، كرمز لجماليات وأزمنة بغيضة.

منذ اللحظة الأولى في حياتها كأرملة، بدا أن فيرمينا داثا ليست بائسة

كما خشي زوجها. فقد اتخذت موقفاً متصلباً بالإصرار على عدم السماح باستخدام الجثة في سبيل أية قضية، كما اتخذت موقفاً مماثلاً من برقية رئيس الجمهورية، الذي أمر بعرض الجثمان في الحجرة الخانقة في صالة الاحتفالات التابعة للسلطة المحلية، وعارضت بالصرامة نفسها أن يجري السهر على الجثمان في الكاتدرائية، كما طالب الأسقف شخصياً، ووافقت على نقله إلى هناك خلال قداس الجسد الحاضر في المراسم الجنائزية؛ وعلى الرغم من توسُّط ابنها، المذهول لكثرة هذه المطالب وتنوعها، حافظت فرمينا دائا بإصرار على فكرتها الريفية القائلة بأن الموتى لا ينتمون إلى أحد سوى عائلاتهم، وبأنه سيجري السهر على الجثمان في البيت مع تقديم القهوة المرَّة وكعك الجبن والدقيق، وإفساح المجال لكل من يشاء لأن يبكيه كما يرغب. لم يجرِ السهر التقليدي الذي يدوم سبع ليال، بل أغلقت الأبواب بعد الدفن ولم تعد تُفتح إلا لزيارات حميمة.

وُضع البيتُ تحت نظام الموت. كل شيء ذي قيمة نُقل إلى مكان آمن، ولم يبقَ على الجدران العارية سوى آثار الصور المنزوعة من مكانها. وصُفَّت الكراسي الخاصة، وتلك المستعارة من الجيران، بمحاذاة الجدران في الصالة، وحتى في غرف النوم. وقد بدت المساحات الفارغة فسيحة جداً؛ وكان للأصوات رنين خاص، لأن قطع الأثاث الكبيرة قد أبعدت، باستثناء بيانو الكونشيرتو القابع في ركنه تحت ملاءة بيضاء. وفي وسط المكتبة، فوق منضدة مكتب أبيه، كان ممدداً، بلا تابوت، مَنْ كان خوفينال أوربينو دي لاكايي، وقد تصلبت على وجهه ملامح الرعب الأخيرة التي أحسَّها، ومعه العباءة السوداء والسيف الحربي لفرسان القبر المقدس. وإلى جانبه، بملابس حِداد كاملة، تقف فيرمينا دائا مرتعدة، ولكن مسيطرة على نفسها تماماً، تتلقى التعازي بلا دراماتيكية، ومن دون أن تتحرّك تقريباً، حتى الساعة الحادية

عشرة من صباح اليوم التالي، عندما ودَّعت زوجها من الرواق الخارجي قائلة له وداعاً بمنديل في يدها.

لم يكن من السهل عليها أن تتماسك هكذا مذ سمعت صرخة ديغنا باردو في الفناء، ووجدت شيخ حياتها يحتضر في الوحل. كان ردُّ فعلها الأول مشبعاً بالأمل، لأن عينيه كانتا مفتوحتين وفيهما بريق ضوء مشعّ لم تره في حدقتيه قَطّ من قبل. رجت الله أن يمنحه لحظة من الحياة على الأقل، كي لا يمضي من دون أن يعرف كم أحبته فوق شكوكهما كليهما، وأحسَّت باستعجال لا يقاوَم للبدء معه بالحياة ثانية منذ البداية لتقول له كل ما لم تقله، ولتفعل على أحسن وجه كل شيء كانت قد أساءت صنعَه في الماضي. ولكنها اضطرت للاستسلام أمام عناد الموت، لقد تحلل ألمها إلى غضب أعمى ضد العالم، بل وضد نفسها بالذات، وهذا ما رسَّخ سيطرتها على نفسها ومنحها الشجاعة لمواجهة العزلة منفردة. لم تجد هدنة منذ ذلك الحين، لكنها حاذرت من الإتيان بأيِّ حركة قد يبدو فيها ما ينم عن ألمها. واللحظة الوحيدة التي أحسَّت فيها بشيء من التأثر، وكان تأثراً لا إرادياً، كانت في الساعة الحادية عشرة من ليل الأحد، عندما حملوا التابوت الذي ما زالت تنبعث منه روائح طلاء السفن، بمقابضه النحاسية وتنجيد بطانته الحريري الوثير. لقد أمر الدكتور أوربينو داثا بإغلاقه فوراً، فجوّ البيت كان مخلخلاً بروائح كل تلك الزهور في الحر الخانق، وأحسَّ بأنه قد رأى أولى الظلال البنفسجية على عنق أبيه. وبينما هي ساهية، سمعت في الصمت: «إن المرء في مثل هذه السن يصبح شبه متعفّن وهو حي». وقبل أن يغلقوا التابوت، نزعت فيرمينا داثا خاتم الزواج من يدها ووضعته في يد زوجها الميت، ثم غطَّت يده بيدها كما كانت تفعل دائماً كلما فاجأته شارداً وسط الناس. وقالت له:

- سنلتقي قريباً جداً.

أحس فلورينتينو أريثا، غير المرئي بين جموع الوجهاء والأعيان،

بحربة تخترق خاصرته. لم تكن فيرمينا داثا قد ميزته وسط صخب التعزيات الأولى، مع أن أحداً لم يكن أكثر حضوراً ولا أكثر فائدة منه في شؤون تلك الليلة المستعجلة. فهو من نظّم العمل في المطابخ الغاصة كي لا تغيب القهوة عن الحضور. وحصل على كراسٍ إضافية عندما لم تعد كراسي الجيران كافية، وأمر بوضع الأكاليل الزائدة في الفناء عندما لم يعد في البيت متسع لإكليل آخر. وتولى أمر عدم نفاد البراندي من أجل ضيوف الدكتور لاثيديس أوليفيا، الذين علموا بالخبر المشؤوم وهم في أوج الاحتفال باليوبيل الفضي، فجاؤوا فزعين ليتابعوا احتفالهم وهم جالسون على شكل دائرة تحت شجرة المانغا. وكان هو وحده من أحسن التصرف حين ظهرت الببغاء الهاربة عند منتصف الليل في صالة الطعام رافعة رأسها وفاتحة جناحيها، ممّا أشاع قشعريرة ذهول في البيت، إذ كانت تبدو كأنها تقدم عرض توبة وتكفير. أمسكها فلورينتينو أريثا من عنقها من دون أن يتيح لها الوقت لتصرخ بأي من صرخاتها الحمقاء، وحملها إلى الإسطبل في قفص مغطّى. لقد فعل كل تلك الأمور بصمت كامل وفعالية فائقة، لم تتيحا مجالاً لأحد كي يفكّر بأن ما يفعله هو تدخل في شؤون الآخرين، وإنما مساعدة لا تثمّن في ساعة النحس التي يمرُّ بها البيت.

هذا ما بدا عليه: رجل عجوز خدوم وجِدّي. له جسد عظمي وقامة منتصبة، بشرته بنية ومرداء، وعيناه شرهتان تطلان من وراء النظارة المستديرة ذات الإطار المعدني الأبيض، له شارب رومنسي طرفاه المدببان مثبتان بمادة صمغية، بطريقة متخلفة قليلاً عن العصر. وكان آخر ما تبقى له من الشعر على الصدغين مُسرَّحاً إلى أعلى ومثبتاً بمثبّت شعر في وسط رأسه اللامع، كحلٍّ أخير لصلعة متكاملة. إن مروءته الطبيعية وأساليبه الهادئة تسلب اللب في الحال، ولكن كان هناك أمران يثيران الشكوك في عازب متمادٍ في عزوبيته: لقد أنفق مالاً كثيراً، وبذل

حيلة واسعة وتصميماً شديداً كي لا تظهر آثار السنوات الست والسبعين التي أتمّها في شهر آذار الأخير، وكان مقتنعاً في عزلة روحه بأنه قد أحب بصمت أكثر بكثير من أي شخص في هذا العالم.

في ليلة موت الدكتور أوربينو كان يرتدي الملابس التي كانت عليه عندما فاجأه الخبر، وقد كانت الملابس نفسها التي يرتديها دائماً بالرغم من حرِّ حزيران الجهنّمي: بدلة من القماش الأسود مع صداري، وشريط حريري معقود على الياقة القاسية، وقبّعة من اللبد، ومظلة من مخمل أسود يستخدمها كعكاز أيضاً. ولكن ما إن بدأ الفجر ينبلج حتى اختفى من مكان السهر على الميت لمدة ساعتين، عاد بعدهما مع أوّل أشعة الشمس بمظهر طازج، فقد حلق ذقنه جيداً وتطيّب بمستحضرات تجميل، وارتدى سترة سوداء من تلك التي لم تعد تُستخدم إلا في الجنازات أو في مراسم الاحتفال بالجمعة الحزينة، وياقة ذات ربطة عنق مع شريطة فنّان بدلاً من الكرافتة، وقبعة مستديرة. كما كان يحمل المظلة، وليس ذلك بفعل العادة وحدها، وإنما لأنه كان متأكداً من أن المطر سيهطل قبل الثانية عشرة، وقد أخبر بذلك الدكتور أوربينو دائا ليرى إن كان بالإمكان تقديم موعد الدفن، وقد حاولوا ذلك فعلاً، لأن فلورينتينو أريثا ينتمي إلى عائلة ملّاحين، وهو نفسه يرأس شركة الكاريبي للملاحة النهرية، ممّا يسمح بافتراض أنه يفهم بالأرصاد الجوّية. لكنهم لم يتمكنوا من إخطار السلطات المدنية والعسكرية في الوقت المناسب، وكذلك المؤسسات العامة والخاصة، والفرقة الموسيقية الحربية، وفرقة موسيقى الفنون الجميلة، والمدارس والجمعيات الدينية التي كانت متفقة على الساعة الحادية عشرة، وهكذا فإن الجنازة التي كان مقرراً لها أن تكون حدثاً تاريخياً انتهت بتفرُّق فوضوي بفعل وابل المطر المدمِّر. وكان قليلاً عدد الذين تمكنوا من الغوص في الوحل للوصول إلى مدفن العائلة الذي تظلله شجرة ثيبا استعمارية، تمتد أيكتها إلى ما فوق

جدار المقبرة. وتحت هذه الأيكة بالذات، إنما في المنطقة الخارجية المخصصة للمنتحرين، كان لاجئو الكاريبي قد دفنوا في عصر اليوم السابق جيرميا دي سانت - آمور، وكلبه بجواره، تنفيذاً لمشيئته.

كان فلورينتينو أريثا أحد القلائل الذين واصلوا إلى حين الانتهاء من الدفن. لقد ابتلَّ حتى ملابسه الداخلية، ووصل إلى بيته مذعوراً من تعرضه للإصابة بنزلة صدرية بعد كل هذه السنوات من الرعاية الدقيقة والاحتياطات المفرطة. طلب إعداد ليمونادة دافئة مع قليل من البراندي، وتناولها في السرير مع قرصَيْ أسبيرين، وتعرّق عرقاً غزيراً وهو متدثر بدثار صوفي إلى أن استعاد جسده حرارته العادية. وعندما رجع إلى بيت التعزية أحس بالحماسة الكاملة. كانت فيرمينا داثا قد توّلت من جديد قيادة البيت المكنوس والمهيّأ لاستقبال المعزين، وكانت قد وضعت على المذبح الذي في المكتبة صورة لزوجها المتوفى مرسومة بالباستيل، وعلى إطارها شريط حداد. في الساعة الثامنة كان هناك حشد كبير من الناس. وكان الحرُّ خانقاً كما في الليلة السابقة، ولكن بعد قدّاس الصباح، بثَّ أحدهم رجاء يطلب إلى الناس الانصراف باكراً كي تستريح الأرملة للمرة الأولى منذ عصر يوم الأحد.

ودَّعت فيرمينا داثا معظم المعزين وهي إلى جانب المذبح، لكنها رافقت المجموعة الأخيرة من الأصدقاء الحميمين حتى الباب الخارجي، لتغلقه بنفسها، كما اعتادت أن تفعل دائماً، وكانت تستعد لعمل ذلك بآخر نفَس متبقٍّ في صدرها عندما رأت فلورينتينو أريثا مرتدياً ملابس الحداد، في وسط الصالة الخاوية. أحست بالسعادة، لأنها كانت قد محته من حياتها منذ سنوات طويلة، وكانت هذه هي المرَّة الأولى التي تراه فيها بوعي طهّره النسيان. ولكن قبل أن تتمكن من شكره لهذه الزيارة، وضع قبّعته فوق موضع القلب، وشقَّ الدُّمل الذي كان قوام حياته بأن قال لها بصوت مرتعش ووقور:

- فيرمينا... لقد انتظرتُ هذه الفرصة لأكثر منذ نصف قرن، كي أكرر لك مرَّة أخرى قَسَم وفائي الأبدي وحبي الدائم.

ظنَّت فيرمينا داثا أنها تقف أمام معتوه، ولم تكن لديها أسباب لتفكر بأن فلورينتينو أريثا كان ملهَماً في تلك اللحظة بنعمة الروح القدس. فكان رد فعلها الأوَّلي أن لعنته لانتهاكه حرمة البيت بينما جثة زوجها ما زالت ساخنة في القبر. لكن الوقار منعها من الغضب، فقالت له:

- انصرف، ولا تدعني أراك ثانية في السنوات المتبقية لك في الحياة.

ثم أعادت فتح الباب الخارجي على اتساعه بعدما كانت قد بدأت بإغلاقه، واختتمت قائلة:

- وأرجو أن تكون سنوات قليلة.

عندما سمعت خطواته تنطفئ في الشارع المقفر، أغلقت الباب ببطء شديد، وأقفلته بالقفل والرتاجات، وواجهت قدَرَها وحيدة. لم تكن تعي تماماً، حتى اليوم، وزن وحجم المأساة التي أثارتها وهي في الثامنة عشرة من عمرها، والتي ستلاحقها حتى موتها. بكت لأوَّل مرَّة منذ مساء المصيبة، من دون شهود، وكانت هذه هي طريقتها الوحيدة في البكاء. بكت لموت زوجها، ولعزلتها وغضبها، وعندما دخلت مخدعها الخاوي بكت نفسها، لأنها لم تنم في هذا الفراش وحيدة منذ فقدت عذريتها إلا مرَّات قليلة. كل أشياء زوجها كانت تستثير بكاءها: الخفّ ذو الشرابة، البيجاما التي تحت الوسادة، مكانه الفارغ في خوان الزينة، رائحته الشخصية على بشرتها بالذات. وهزها خاطر مبهم: «على الناس الذين يحبهم المرء أن يموتوا مع كل أشيائهم». لم تكن بحاجة لمساعدة أحد كي تنام، ولم ترغب في أكل شيء قبل النوم. وتوسلت إلى الله، وهي مثقلة بالأسى، أن يبعث لها الموت في هذه الليلة بالذات وهي نائمة، وعلى هذا الأمل نامت. نامت من دون أن تدري أنها نائمة،

لكنها كانت تدري أنها حيّة في نومها، وأن لديها نصف سرير فائض عن حاجتها، وأنها ترقد على جنبها في الطرف الأيسر، كما هي عادتها، إنما ينقصها توازن الجسد الآخر على الطرف المقابل من السرير. وبينما هي نائمة تفكر، فكرت بأنها لن تستطيع النوم أبداً على هذه الحال، وبدأت تنتحب وهي نادمة، ونامت منتحبة من دون أن تغيِّر وضعها على حافة السرير، إلى ما بعد انتهاء صياح الديكة بكثير. وأيقظتها شمس الصباح غير المرغوبة من دونه. وحينئذ فقط أدركت أنها قد نامت طويلاً من دون أن تموت منتحبة في الحلم. وبينما هي تنام منتحبة، كانت تفكر بفلورينتينو أريثا أكثر من تفكيرها بزوجها الميت.

لم يكن فلورينتينو أريثا، بالمقابل، قد توقَّف عن التفكير لحظة واحدة بفيرمينا داثا منذ صدّته بلا استئناف بعد غراميات طويلة متناقضة، وقد انقضت منذ ذلك الحين إحدى وخمسون سنة وتسعة شهور وأربعة أيام. لم يكن عليه تسجيل حساب النسيان بوضع خط صغير يومي على جدران زنزانة، لأنه لم يكن يمرُّ يوم إلّا ويحدث ما يُذكِّره بها. كان له من العمر عند القطيعة اثنتان وعشرون سنة، ويعيش وحيداً مع أمه، ترانسيتو أريثا، في نصف بيت مستأجر في شارع لاس بينتاناس، حيث كانت لأمه منذ سنوات شبابها تجارة أدوات خياطة، وحيث كانت تنسل كذلك نسيج قمصان ومزق قماشية قديمة لتبيعها كقطنٍ لجرحى الحرب. لقد كان ابنها الوحيد، أنجبته من لقاء عابر مع صاحب السفن المعروف دون بيو الخامس لوايثا، أكبر الأشقاء الثلاثة الذين أسسوا شركة الكاريبي للملاحة النهرية، مقدّمين بذلك اندفاعة جديدة للملاحة البخارية في نهر مجدلينا.

لقد مات دون بيو الخامس لوايثا عندما كان الابن في العاشرة من العمر. وعلى الرغم من أنه كان يتولى دوماً أمر نفقاته سراً، إلّا أنه لم يعترف به أبداً كابن له أمام القانون، ولم يترك له ما يضمن مستقبله، وهكذا ظلَّ فلورينتينو أريثا يحمل لقب أمه فقط، مع أن حقيقة نسبه كانت

معروفة للجميع. وبعد موت الوالد، كان على فلورينتينو أريثا أن يترك المدرسة ليعمل كمتمرن في وكالة البريد، حيث كلفوه بفتح الأكياس وترتيب الرسائل وإعلام الجمهور بوصول البريد عن طريق رفع راية البلد الذي وصل منه كيس البريد فوق باب المكتب.

ولقد لفتت حصافته انتباه عامل التلغراف، المهاجر الألماني لوتاريو توغوت الذي كان يعزف الأرغن أيضاً في حفلات الكاتدرائية الكبيرة، ويعطي دروساً في الموسيقى في البيوت. وقد علمه لوتاريو توغوت منهاج رموز المورس وطريقة استخدام جهاز التلغراف، وكانت دروس الكمان الأولى كافية ليتابع فلورينتينو أريثا العزف السماعي كمحترف. عندما تعرف على فيرمينا داثا، وهو في الثامنة عشرة من عمره، كان أكثر الشبان شهرة في وسطه الاجتماعي، فهو أفضل من يرقص على أنغام الموسيقى الدارجة ومَنْ يلقي القصائد العاطفية التي يحفظها عن ظهر قلب، كما كان دوماً رهن طلب أصدقائه الذين يريدون من يعزف لهم سيرناد كمان منفرد تحت شرفات حبيباتهم. كان نحيلاً منذ ذلك الحين، له شعر هندي يبسطه بمرهم ذي رائحة، ويضع نظارة قصر النظر التي تضاعف من حدّة خذلان مظهره. وإضافة إلى نقيصة قصر النظر، كان يُعاني من إمساك مزمن اضطره إلى استخدام الحقن الشرجية المليّنة طوال حياته. كانت لديه بدلة احتفالية واحدة، ورثها عن أبيه المتوفى، لكن ترانسيتو أريثا كانت تحافظ عليها جيداً بحيث تبدو جديدة في كل يوم أحد. وبالرغم من هزاله، وعزلته، وطريقة لبسه الكئيبة، فإن فتيات مجموعته كن يضربن قرعة سرية ليلعبن لعبة البقاء معه، وكان هو نفسه يلعب ليبقى معهن، حتى اليوم الذي تعرّف فيه على فيرمينا داثا وانتهت براءته.

لقد رآها أول مرة في عصر يوم كلَّفه فيه لوتاريو توغوت بإيصال برقية إلى شخص بلا عنوان واضح اسمه لورينثو داثا. وقد وجده في منطقة

حديقة البشارة، في واحد من أقدم البيوت، شبه مهدَّم، وفناؤه الداخلي يبدو كفناء دير، فيه شجيرات كثيفة في الأجزاء المزروعة، ونافورة حجرية بلا ماء. لم يشعر فلورينتينو أريثا بأي صوت آدمي وهو يتبع الخادمة الحافية تحت قناطر الممر، حيث كانت توجد صناديق أمتعة لم تفتح بعد، وأدوات بنّائين بين بقايا الجص وأكياس إسمنت مكوَّمة، فقد كانوا يقومون بأعمال ترميم شاملة للبيت. وفي عمق الفناء، كانت توجد غرفة مكتب مؤقّت، حيث كان ينام القيلولة، وهو جالس وراء منضدة، رجلٌ بدين جداً بسالفين طويلين مجعَّدَين يختلطان بشاربه. وكان اسمه فعلاً لورينثو داثا، ولم يكن معروفاً تماماً في المدينة لأنه وصلها منذ أقل من سنتين، ولم يكن رجلاً ذات صداقات كثيرة.

تلقى البرقية كما لو أنها استمرار لحلم مشؤوم. ولاحظ فلورينتينو أريثا العينين شديدتا الشحوب بنوع من الشفقة الرسمية، وراقب الأصابع المرتبكة تحاول تفتيت شمع ختم البرقية، ولاحظ خوف القلب الذي رآه مرَّات كثيرة على وجوه من يتلقّون البرقيات، ممَّن لم يتوصلوا بعد إلى التفكير بالبرقيات من دون أن يربطوها بالموت. عندما قرأها استعاد السيطرة على نفسه. تنهّد: «أخبار جيدة». ومنح فلورينتينو أريثا إكرامية الخمسة ريالات الإجبارية، موضحاً له بابتسامة اطمئنان أنه ما كان سيعطيه تلك النقود لو أن الأخبار كانت سيئة. ثم ودَّعه مصافحاً، وهي ليست عادة شائعة في معاملة موزّع البرقيات، ورافقته الخادمة حتى الباب المؤدي إلى الشارع، ليس ذلك لإرشاده بقدر ما هو لمراقبته. اجتازا الطريق نفسه باتجاه معاكس عبر الممر المقنطر، لكن فلورينتينو أريثا عرف هذه المرّة بأن هناك شخصاً آخر في البيت، لأن ضياء الفناء كان مفعماً بصوت امرأة تردّد درس قراءة. ولدى مروره مقابل حجرة الخياطة، رأى عبر النافذة امرأة مسنة وصبية، تجلسان على مقعدين متجاورين، وكلتاهما تتابعان القراءة في الكتاب ذاته الذي تحمله المرأة

مفتوحاً في حضنها. بدا له ذلك كرؤيا غريبة: الابنة تعلم أمها القراءة. كان تقديره خاطئاً جزئياً، لأن المرأة هي عمّة الصبية وليست أمها، رغم أنها ربَّتها كما لو كانت أمها. لم يتوقف الدرس، لكن الصبية رفعت نظرها لترى مَن الذي يمرُّ من خلال النافذة، وكانت تلك النظرة العابرة أصل كارثة حب لم تنته بعد مرور نصف قرن من الزمان عليها.

الشيء الوحيد الذي استطاع فلورينتينو أريثا أن يتحرّاه عن لورينثو داثا هو أنه قَدِم من سان خوان دي لا ثييناغا مع ابنته الوحيدة وشقيقته العزباء بعد فترة قصيرة من جائحة الكوليرا. والذين رأوه ينزل إلى البر لم يراودهم الشك بأنه قد جاء ليقيم، إذ أحضر معه كل ما يحتاجه بيت حسن التجهيز. توفيت زوجته عندما كانت ابنته لا تزال طفلة صغيرة. أما أخته فتدعى اسكولاستيكا، ولها من العمر أربعين عاماً. وهي تفي نذراً بلبس مسوح القديس فرانسيسكو عند خروجها إلى الشارع، وتكتفي بربط حبل الطائفة على خصرها فقط حين تكون في البيت. أما الصبية فعمرها ثلاث عشرة سنة، وتحمل اسم أمها الميتة نفسه: فيرمينا.

كان يُفترض أن لورينثو داثا رجل ذو موارد، لأنه يعيش في بحبوحة من دون ممارسة مهنة معروفة، وقد اشترى نقداً بيت البشارة غير المكتمل، والذي يتطلب إصلاحه، على الأقل، ضعف المائتي بيزو ذهبية التي دفعها ثمناً له. كانت الابنة تدرس في مدرسة ظهور العذراء المقدسة، حيث كانت تتعلم آنسات المجتمع الراقي منذ قرون فنّ ومهنة التحوُّل إلى زوجات مدبِّرات ومطيعات. في العهد الاستعماري وخلال السنوات الجمهورية الأولى، ما كانوا يقبلون في المدرسة إلا وارثات الألقاب الكبيرة فقط. ثم اضطرت العائلات القديمة المنهارة بفعل الاستقلال إلى الخضوع لوقائع الأزمنة الجديدة، ففتحت المدرسة أبوابها لجميع المتقدمات اللواتي يستطعن دفع نفقاتها، من دون الاهتمام بأنسابهن، والشرط الوحيد الجوهري الذي بقي قائماً هو أن يكنَّ بنات

شرعيات لزواج كاثوليكي. لقد كانت مدرسة باهظة التكاليف على أية حال، ومجرَّد كون فيرمينا داثا تدرس هناك، هو بحدِّ ذاته مؤشر إلى الوضع العائلة المادي، وإن لم يكن مؤشراً إلى وضعها الاجتماعي. لقد شجَّعت هذه الأخبار فلورينتينو أريثا، إذ أوضحت له أن الصبية الجميلة ذات العينين اللوزيتين في متناول أحلامه. ولكن سرعان ما تكشَّف أن نظام أبيها الصارم يشكل عائقاً لا سبيل إلى تجاوزه. فخلافاً للتلميذات الأخريات اللاتي يذهبن إلى المدرسة في جماعات أو ترافقهن خادمة متقدمة في السن، كانت فيرمينا داثا تمضي دوماً مع عمتها العزباء، وكان سلوكها يشير إلى أنه ليس مسموحاً لها بأي نوع من اللهو.

وبهذه الطريقة البريئة بدأ فلورينتينو أريثا حياته الصامتة بقلب متوحِّد. كان يجلس منذ الساعة السابعة صباحاً، وحيداً، على أقل مقاعد الحديقة ظهوراً للعيان، متظاهراً بقراءة ديوان شعر في ظل أشجار اللوز؛ إلى أن يرى مرور الصبية المستحيلة بزيها المدرسي ذي الخطوط الزرقاء، وجرابها الذي يصل حتى الركبتين، وحذائها الذكوري برباطه المتقاطع، وبضفيرة شعر وحيدة ثخينة مربوطة بشريط ومتدلية على الظهر حتى خصرها. كانت تمشي بكبرياء طبيعي، رأسها مرفوع، ونظرها ثابت، وخطوتها سريعة، وأنفها شامخ، وحقيبة كتبها المدرسية مشدودة بيديها المتصالبتين إلى صدرها، وبمشية غزالة تجعلها تبدو محصنة على الرصانة. وإلى جانبها، تمضي شادة خطواتها بصعوبة، عمتها بمسوحها البنِّي وحزام طائفة القديس فرانسيسكو، بحيث لا تترك أدنى ثغرة للاقتراب. كان فلورينتينو أريثا يراهما تمرَّان في الذهاب والإياب أربع مرات في اليوم، ومرَّة واحدة أيام الآحاد عند الخروج من القدَّاس الكبير، وكانت رؤية الصبية تكفيه. وشيئاً فشيئاً، راح يحولها في مخيلته إلى صورة مثالية، بفضائل غير ممكنة ومشاعر خيالية. وبعد مرور أسبوعين لم يعد يفكِّر بأي شيء سواها. وهكذا فكَّر بأن يبعث إليها رسالة بسيطة

مكتوبة على وجهَيْ ورقة بخطه الرائع كخطاط. لكنه احتفظ بها عدّة أيام في جيبه، مفكراً بطريقة لتسليمها إليها، وبينما هو يفكّر كان يكتب عدَّة صفحات جديدة قبل أن ينام، بحيث أخذت الرسالة الأصلية تتحوَّل إلى معجم في الغزل المستوحى من الكتب التي حفظها عن ظهر قلب لكثرة ما قرأها وهو ينتظر في الحديقة.

وفي بحثه عن وسيلة لإيصال الرسالة، حاول التعرُّف على بعض تلميذات المدرسة، لكنهن كن بعيدات جداً عن عالمه. أضف إلى ذلك أنه، بعد تفكير طويل، بدا له من غير الحكمة إطلاع أحد على نواياه. ومع ذلك، توصل لأن يعرف أن فيرمينا داثا كانت قد دُعيت إلى حفلة رقص من حفلات السبت بُعيد مجيئها إلى البلدة، وأن أباها لم يسمح لها أن تذهب متعللاً بعبارة حاسمة: «كل شيء في وقته المناسب». صارت الرسالة تضم أكثر من ستين ورقة مكتوبة على الوجهين عندما لم يعد بمقدور فلورينتينو أريثا تحمُّل ضغط سرِّه أكثر. ففتح قلبه من دون تحفظ لأمِّه، وهي الشخص الوحيد الذي كان يبيح لنفسه مفاتحتها ببعض أسراره. تأثرت ترانسيتو أريثا حتى الدموع لسذاجة ابنها في شؤون الحب، وحاولت توجيهه بأنوارها. بدأت بإقناعه بعدم تسليم مجلد كتاباته الغنائية، لأنه لن يتوصل من خلاله إلا إلى إفزاع فتاة أحلامه التي يُفترض أنها ليست ذات خبرة مثله في أمور القلب. وقالت له إن الخطوة الأولى هي جعلها تنتبه إلى اهتمامه بها، حتى لا يأخذها بالتصريح لها عن حبه على حين غرة، ويكون لديها متسع من الوقت للتفكير. وقالت له:

- ومَن عليك الوصول إليها أولاً وقبل كل شيء هي العمّة وليس الفتاة.

النصيحتان كلتاهما كانتا حكيمتين بلا شك، لكنهما جاءتا متأخرتين. فالواقع أنه منذ اليوم الذي أهملت فيه فيرمينا داثا، لبرهة قصيرة، درس

القراءة الذي كانت تلقّنه لعمتها، ورفعت بصرها لترى مَن الذي يمرّ في الرواق، كان فلورينتينو أريثا قد أثّر فيها بمظهره المخذول. وفي الليل، أثناء تناول الطعام، تحدَّث أبوها عن البرقية، وكان أن عرفت، بهذه الطريقة، ما الذي جاء يفعله فلورينتينو أريثا في البيت، وما هي مهنته. وقد ضاعفت هذه المعلومات من اهتمامها، إذ كان اختراع التلغراف بالنسبة لها، كما هو بالنسبة لأناس كثيرين في تلك الحقبة، أمراً له علاقة بالسحر. وهكذا تعرفت على فلورينتينو أريثا منذ المرَّة الأولى التي رأته فيها يقرأ تحت أشجار الحديقة الصغيرة، ولم يُخلف فيها أي نوع من القلق إلى أن لفتت العمة نظرها إلى أنه كان يجلس هناك منذ عدّة أسابيع. وعندما رأتاه في ما بعد، أثناء الخروج من القدّاس، ترسَّخت قناعة العمَّة بأن كل تلك اللقاءات لا يمكن أن تكون مصادفة، وقالت: «لا يمكن أن يكون تجشُّمه كل هذا العناء من أجلي». إذ رغم سلوكها الصارم ومسوح العفّة الذي تتسربل به، كانت العمَّة اسكولاستيكا تحمل غزيرة الحياة وتميل إلى المشاركة فيها، وهما أفضل صفتين فيها. ومجرَّد الفكرة بأن هناك رجلاً مهتماً بابنة أخيها كان يثير فيها انفعالاً لا يقاوَم. أما فيرمينا داثا فكانت لا تزال بمنجى من مجرَّد الفضول بشأن الحب، والشيء الوحيد الذي أثاره فيها فلورينتينو أريثا هو قليل من الأسى، إذ بدا لها عليلاً. لكن العمَّة قالت لها إنه لا بدَّ من العيش طويلاً لمعرفة الطبيعة الحقيقية للرجل، وكانت مقتنعة بأن ذاك الذي يجلس في الحديقة ليراهما تمران، لا يمكن إلا أن يكون مريضاً بداء الحب.

كانت العمّة اسكولاستيكا ملجأ تفهُّم وعطف للابنة الوحيدة لزواج بلا حب. لقد ربَّتها منذ موت أمها، وبالمقارنة مع لورنثو داثا، كانت تتصرَّف كمتواطئة معها أكثر منها كعمَّة. وهكذا كان ظهور فلورينتينو أريثا بالنسبة لهما تسلية جديدة تضاف إلى التسليات التي تبتدعانها لتمضية الوقت الميِّت. أربع مرات في اليوم، كلما اجتازتا حديقة البشارة، كانتا تسرعان

للبحث بنظرة فورية عن ذلك الحارس الضامر، الخجول، ضئيل الشأن، والذي يرتدي بصورة شبه دائمة ملابس سوداء، رغم الحرّ، ويتظاهر بالقراءة تحت الأشجار. «ها هو هناك»، تقول التي تكتشفه أولاً، كاتمة ضحكتها، قبل أن يرفع نظره ويرى المرأتين الصارمتين، البعيدتين عن حياته، وهما تجتازان الحديقة من دون أن تنظرا إليه.

قالت العمَّة في إحدى المرَّات:

- يا للمسكين. لا يجرؤ على الاقتراب لأنني معك، لكنه سيحاول ذلك يوماً إذا كانت نواياه جدِّية، وعندئذ سيعطيك رسالة.

واحتياطاً لأي نوع من المصاعب علَّمتها التواصل بحروف يدوية، وكانت تلك وسيلة لا بد منها للغراميات المحرَّمة. وقد أثارت تلك الألاعيب العرضية، شبه الصبيانية، فضولاً مستجداً لدى فيرمينا داثا، إلَّا أنه لم يخطر لها أبداً، طوال عدَّة شهور، أنها ستصل إلى ما هو أبعد من ذلك. لم تعرف أبداً متى بدأ لهوها يتحوَّل إلى جزع، ويتحوَّل دمها إلى زبد بتلهُّفها لرؤيته، وفي إحدى الليالي استيقظت مذعورة لأنها رأته يتأملها في الظلام من طرف السرير. عندئذ تمنت من أعماقها روحها أن تتحقق تكهُّنات العمَّة، وتوسَّلت إلى الله في صلواتها أن يمنحه الشجاعة كي يسلمها الرسالة، لتعرف فقط ما الذي يقوله فيها.

لكن دعواتها لم تُستَجَب، بل كانت الوقائع معاكسة. حدث هذا في الفترة التي صارح فيها فلورينتينو أريثا أمه، وثنته هذه عن عزمه بتسليم السبعين ورقة من الغزل، وهكذا واصلت فيرمينا داثا الانتظار طوال ما تبقى من السنة. أخذ تلهُّفها يتحوّل إلى يأس كلما اقتربت عطلة كانون الأول المدرسية، وصارت تتساءل بقلق عمّا ستفعله كي تراه، وكي يراها هو أيضاً، خلال الشهور الثلاثة من عدم ذهابها إلى المدرسة، وقد ألحَّت عليها الشكوك من دون أن تجد لها حلاً في ليلة الميلاد، حين هزَّها

إحساس بأنه ينظر إليها من بين جموع المصلين في قدّاس منتصف الليل. وقد أثار هذا الإحساس القلق في قلبها. ولم تكن لتجرؤ على الالتفات وهي تجلس بين أبيها وعمتها، وكان عليها أن تكبح نفسها كي لا يلاحظا اضطرابها. ولكنها أحسَّت به، في فوضى الخروج، قريباً جداً منها، وواضحاً جداً وسط الحشد؛ ودفعتها قوة لا تقاوَم للنظر من فوق كتفها وهي تغادر المعبد من الممر الأوسط، ورأت حينئذ، على بُعد شبرين من عينيها، العينين الأخريين الجليديتين، والوجه الملوَّح، والشفتين المتحجِّرتين برعب الحب. اضطربت لجسارتها، وتشبثت بذراع العمَّة اسكولاستيكا كي لا تسقط أرضاً، فأحسَّت هذه بالعرق البارد على اليد عبر القفاز المخرَّم، وشجعتها بإشارة تواطؤ خفيَّة. ووسط دويّ الألعاب النارية والطبول، وأعمدة الأضواء الملونة أمام الأبواب، وصخب الجموع المتعطشة للسلام، هام فلورينتينو أريثا على وجهه كمن يمشي وهو نائم حتى الفجر، يرى الاحتفال من خلال دموعه، مستغرقاً في هذيان تخيُّله أنه هو نفسه، وليس الرب، من وُلد في تلك الليلة.

ازداد هذيانه في الأسبوع التالي، وقت القيلولة، حين مرَّ بلا أمل ببيت فيرمينا داثا. ورآها تجلس مع عمَّتها تحت أشجار اللوز في الفناء. كان المشهد تكراراً للوحة رآها مساء أول يوم في حجرة الخياطة: الصبية تلقن العمَّة درس القراءة. لكن فيرمينا داثا كانت مختلفة الهيئة وهي من دون زيِّها المدرسي، إذ كانت ترتدي عباءة من الكتَّان الأبيض فيها ثنايا كثيرة تنسدل من كتفيها وكأنها رداء أغريقي، وعلى رأسها إكليل من أزهار الياسمين الطبيعية يمنحها مظهر إلهة متوَّجة. جلس فلورينتينو أريثا في الحديقة، حيث تأكد أنه سيكون مرئياً، ولم يلجأ عندئذ إلى أسلوب التظاهر بالقراءة، وإنما جلس، والكتاب مفتوح، مركزاً بصره على الآنسة السامية، التي لم تبادله ولو نظرة شفقة.

ظنَّ في البدء أن الدرس تحت أشجار اللوز هو تغيير طارئ، ربَّما

بسبب الإصلاحات التي لا تنتهي في البيت، لكنه أدرك في الأيام التالية أن فيرمينا داثا ستكون هناك، تحت نظره، في مساء كل يوم وفي الساعة ذاتها طوال شهور العطلة الثلاثة، وألهمه هذا اليقين حماسة جديدة. لم يشعر بأنها رأته، ولم يلمح أية علامة تدل على اهتمام أو إهمال. ولكن في لا مبالاتها كان ثمة بريق مختلف شجعه على المثابرة. وفجأة، في عصر يوم من أيام كانون الثاني، وضعت العمَّة شغلها على الكرسي، وتركت ابنة أخيها وحدها في الفناء بين نثارة الأوراق الصفراء المتساقطة من أشجار اللوز. ومدفوعاً باعتقاده المتهوِّر بأنها الفرصة المناسبة، اجتاز فلورينتينو أريثا الشارع وانتصب أمام فيرمينا داثا، قريباً جداً منها بحيث شعر بتنفسها وبشهقتها الوردية التي سيميزها بها طوال ما تبقى من حياته. تكلم إليها برأس مرفوع وبتصميم لن يصل إليه ثانية إلا بعد نصف قرن وللسبب نفسه.

– الشيء الوحيد الذي أطلبه منك هو أن تتقبلي رسالة مني. قال لها.

لم يكن الصوت الذي انتظرته فيرمينا داثا منه: كان صوتاً واثقاً ومتسلطاً لا علاقة له بأساليبه الخاملة. ومن دون أن ترفع نظرها عن التطريز، أجابته: «لا أستطيع قبولها من دون إذن والدي». ارتعش فلورينتينو أريثا بدفء ذلك الصوت الذي لن ينسى جرسه المنطفئ طوال حياته. لكنه استمر على ثباته، وردّ في الحال: «احصلي على الإذن». ثم رفق من لهجة الأمر برجاء: «إنها مسألة حياة أو موت». لم تنظر فيرمينا داثا إليه، ولم تتوقف عن التطريز، لكن قرارها فتح له باباً يتّسع للعالم بأسره، حين قالت:

– عد مساء كل يوم وانتظر إلى أن أبدِّل مقعدي.

لم يفهم فلورينتينو أريثا ما عنَته حتى يوم الاثنين من الأسبوع التالي، عندما رأى، وهو على مقعده في الحديقة، المشهد نفسه الذي كان يراه كل يوم مع تبدُّل وحيد فقط: حين دخلت العمَّة اسكولاسيكا إلى البيت،

نهضت فيرمينا داثا وجلست على المقعد الآخر. عندئذ اجتاز فلورينتينو أريثا الشارع وهو يضع زهرة كاميليا بيضاء في عروة سترته، وانتصب أمامها. وقال: «هذه هي أعظم لحظة في حياتي».

لم ترفع فيرمينا داثا نظرها إليه، وإنما تفحّصت الجوار بنظرة دائرية ورأت الشوارع المقفرة في سبات الجفاف وزوبعة أوراق ميتة تتقاذفها الريح. وقالت: «أعطني إياها».

كان فلورينتينو أريثا قد فكّر بأن يحمل إليها السبعين ورقة التي صار قادراً على استظهارها من الذاكرة لكثرة ما أعاد قراءتها، لكنه حسم أمره بعد ذلك بالاكتفاء بنصف ورقة مختصرة وواضحة، يعاهدها فيها على ما هو جوهري فقط: وفاؤه تحت أية ظروف، وحبّه الأبدي. أخرجها من جيب سترته الداخلي، ووضعها أمام عيني المُطرِّزة الحزينة التي لم تتجرّأ حتى ذلك الحين على النظر إليه. رأت المغلف الأزرق يرتعش في يدٍ جمدها الرعب، ورفعت طارة التطريز كي يضع الرسالة، لأنها لا تستطيع السماح له برؤية ارتعاش أصابعها. وحدث حينئذ أن ارتعش عصفور بين أوراق أشجار اللوز، وأفلت في الوقت ذاته ذَرَقة على التطريز. فأبعدت فيرمينا داثا الطارة، وخبأتها وراء المقعد كي لا ينتبه لما حدث، ونظرت إليه للمرة الأولى بوجه متقد. فقال فلورينتينو أريثا المتجمّد والرسالة في يده: «إن هذا فأل خير». شكرته بابتسامتها الأولى إليه، وانتزعت منه الرسالة، ثم طوتها وأخفتها في صدريتها. قدّم لها حينئذ زهرة الكاميليا التي كانت في عروته، فرفضتها قائلة: «إنها زهرة التزام». وعادت فوراً للاختباء في رصانتها، وقد وعت أن الوقت قد نفد. وأضافت: «اذهب الآن ولا ترجع إلى أن أخبرك».

عندما رآها فلورينتينو أريثا أوّل مرّة، اكتشفت أمه ذلك قبل أن يخبرها، لأنه فقد النطق والشهية، وصار يقضي الليالي مسهّداً يتقلب في

الفراش. لكنه حين بدأ ينتظر الرد على رسالته الأولى، تضاعف الجَزَع ونحول إلى اختلاطات مترافقة مع براز وقيء أخضرَين، وفقد القدرة على التوجُّه وعانى من إغماءات مفاجئة، ففزعت أمه لأن حالته لا تنتمي إلى اضطرابات الحب وإنما إلى اختلاطات الكوليرا. وكذلك فإن عرَّاب فلورينتينو أريثا، وهو طبيب تجانسي عجوز وأمين أسرار ترانسيتو داثا مذ كانت عشيقة سرِّية، فزع أيضاً للوهلة الأولى من حالة المريض، لأن نبضه كان ضعيفاً وتنفسه رملياً وعرقه شاحباً كحالة المحتضرين. لكن الفحص كشف له عدم وجود حمًّى، ولا آلام في أي موضع، والشيء الوحيد الذي كان يشعر به هو حاجة مستعجلة للموت. واكتفى باستجواب مخاتل، للابن أولاً ثم للأم، ليتأكد مرَّة أخرى أن أعراض الحب هي نفس أعراض الكوليرا. فوصف له نقيع أزهار الزيزفون لتماسك أعصابه، واقترح عليه تغيير الجو للبحث عن العزاء في البعد، لكن ما كان يتلهف إليه فلورينتينو أريثا هو عكس ذلك تماماً: الاستمتاع بعذابه.

كانت ترانسيتو أريثا امرأة أربعينية حرة، لديها ميل محبِط إلى السعادة بفعل الفقر، وكانت تشارك في آلام ابنها كما لو أنها آلامها، فهي تقدم له المشروبات المهدّئة حين تلاحظ أنه أخذ يهذي أو تدثّره بأغطية صوف لتخدع القشعريرة التي تنتابه، لكنها تشجعه في الوقت ذاته على الترويح عن نفسه حتى الإنهاك، فهي تقول له:

– انتهز الفرصة لتتألم بقدر ما تستطيع الآن وأنت شاب، لأن هذه الأمور لا تدوم طول الحياة.

أما في وكالة البريد فلم يكونوا يفكرون بهذه الطريقة طبعاً. إذ كان فلورينتينو أريثا يهمل في عمله، ويمضي ساهياً فيخلط بين الأعلام التي يعلن بها عن وصول البريد. ففي أحد أيام الأربعاء رفع العلم الألماني بينما كانت السفينة القادمة تابعة لشركة ليلاند وتحمل بريد ليفربول.

وكان يرفع في أي يوم آخر علم الولايات المتحدة مع أن السفينة القادمة تتبع لشركة جنرال ترانساتلانتك وتحمل بريد سان نازير. وقد كانت تشوشات الحب تلك تسبب تأخيراً في توزيع البريد وتثير احتجاجات كثيرة من جانب الجمهور، وإذا كان فلورينتينو أريثا لم يطرد من عمله فلأن لوتاريو توغوت احتفظ به في قسم التلغراف وأخذه ليعلمه العزف على الأرغن في كورال الكاتدرائية. كانا يرتبطان بحلف عصيّ على الفهم بسبب فارق السن بينهما، إذ كان بالإمكان اعتبارهما جداً وحفيداً، لكن علاقتهما كانت حسنة جداً، سواء في العمل أو في حانات الميناء، حيث يلتقي محبُّو السهر حتى ساعة متأخرة من الليل من دون وساوس طبقية، اعتباراً من سكارى الصدقات وحتى الشبّان الراقين ذوي الملابس البروتوكولية الذين يهربون من حفلات النادي الاجتماعي ليأكلوا فطائر الجبن المقلية مع أرز جوز الهند. لقد اعتاد لوتاريو توغوت الذهاب إلى هناك بعد وردية التلغراف الأخيرة، وكان يدركه الصباح في معظم الأحيان وهو لا يزال يشرب البنوتش الجمايكي ويعزف الأوكورديون مع طواقم ملّاحي سفن جزر الأنتيل الحمقى. كان بديناً، يشبه السلحفاة، له لحية مذهبة ويضع لدى خروجه ليلاً طاقية من تلك التي تمثل رمز الجمهورية الفرنسية، ولم يكن ينقصه إلا درع مضيء ليصبح مشابها تماماً للقديس نيقولا. وكان يُجهز مرَّة واحدة كل أسبوع على الأقل على واحدة من عصفورات الليل، كما اعتاد تسمية أولئك اللواتي يبعن الحب الطارئ للبحارة في فندق للعابرين. وكان أوَّل ما فعله بشيء من اللذة المتقنة، حين تعرُّف على فلورينتينو أريثا، هو تعريفه على أسرار فردوسه. كان يختار له العصفورات اللواتي يبدون له أفضل من سواهن، ويساومهن في السعر والطريقة، ثم يعرض عليه أن يدفع له من ماله الخاص مقابل الخدمات التي يقدّمنها. لكن فلورينتينو أريثا لم يكن يُوافق: كان يحتفظ بعذريته، وقد قرَّر عدم التخلي عنها ما لم يفعل ذلك عن حب.

كان الفندق قصراً من العهد الاستعماري جارَ عليه الزمن، قُسمت صالوناته الكبيرة وغرف المرمر فيه إلى حجرات صغيرة بورق مقوَّى مليء بثقوب أُحدثت بدبابيس، وكانت تؤجَّر لممارسة الحب أو للتفرُّج على من يمارسه. وثمة أحاديث تدور عن متلصِّص سملوا له عينه بمسلة حياكة، وعن آخر تعرف على زوجته بالذات فيما هو يتلصص، وعن نبلاء من الطبقة الراقية كانوا يتنكرون بزيِ بائعات خضار ليغرقوا أنفسهم مع العسكريين العابرين، وعن حوادث أخرى حول متلصِّصين ومُتلصَّص عليهم، ممّا جعل مجرَّد التفكير بالنظر إلى الحجرة المجاورة أمراً مرعباً بالنسبة لفلورينتينو أريثا. ولم يتمكن لوتاريو توغوت من إقناعه بأن النظر والسماح للآخرين بالمشاهدة هي من آداب أمراء أوروبا.

وعلى العكس من الاعتقاد الذي قد تثيره بدانته، كانت للوتاريو توغوت دوامة شاروبيم تبدو كأنها برعم وردة، ويبدو أن هذا كان عيباً حسن الطالع، لأن أكثر العصفورات استعمالاً كن يتنازعن النوم معه، وكانت صرخاتهن المذبوحة تهز أدراج القصر. وتبعث رعشة الرهبة في أشباحه. كان يُقال إنه يستخدم مرهماً محضَّراً من سم الثعابين يلهب به أرحام النساء، لكنه يُقسم بأنه لا يملك أية وسائل سوى تلك التي وهبه الله إياها. كان يقول منفجراً بالضحك: «إنه الحب وحده». وكان لا بدَّ من انقضاء سنوات طويلة ليدرك فلورينتينو أريثا بأنه ربَّما كان يقول الصدق. ثم انتهى إلى الاقتناع من خلال تربيته العاطفية في زمن متأخر، حين تعرف على رجل يعيش حياة ملك باستغلاله ثلاث نساء في الوقت ذاته. كانت النساء الثلاث يقدمن له الحساب في الفجر، ذليلات عند قدميه ليغفر لهن احتفاظهن بمبالغ زهيدة، والمكافأة الوحيدة التي كن يرغبن فيها هي قبوله بمضاجعة مع من تأتيه بأكبر قدر من المال. وكان فلورينتينو أريثا يعتقد بأن الخوف وحده قادر على إيصالهن إلى مثل هذا الذل. لكن إحدى الفتيات الثلاث فاجأته بالحقيقة المعاكسة حين قالت له:

- إن مثل هذه الأمور لا يمكن تحقيقها إلا بالحب.

ولم يكن السبب في توصل لوتاريو توغوت لأن يكون أحد أهم زبائن الفندق هو فجوره، بقدر ما كان طرافته الشخصية. ولقد كسب فلورينتينو أريثا كذلك احترام صاحب المحل لكونه صَموتاً ومرناً، وقد اعتاد في أقسى مراحل كربه أن يحبس نفسه ليقرأ الأشعار وكتيِّبات الدموع في الحجرات الخانقة، وكانت أحلامه تخلف أعشاش سنونوات سوداء على الشرفات، وهمس قبلات وخفق أجنحة في خمود الظهيرة. وفي المساء، حين يخفُّ الحر، كان يستحيل عليه ألا يستمع إلى أحاديث الذين يأتون من العمل لإغراق أنفسهم في حب سريع، وهكذا أصبح فلورينتينو أريثا يعرف خياناتٍ زوجية كثيرة، بل وبعض أسرار الدولة، من الزبائن المرموقين، ومن رجال السلطات المحلية الذين كانوا يأتمنون عشيقاتهم العابرات من دون أن يحتاطوا كي لا يسمعهم مَن هم في الغرف المجاورة. وكان أن علم على هذا النحو أيضاً بأنه على بعد أربعة فراسخ بحرية إلى الشمال من سوتافينتو ترقد غارقة، في قاع البحر منذ القرن السابع عشر، سفينة إسبانية محملة بأكثر من خمسمائة ألف مليون بيزو من الذهب الخالص والأحجار الكريمة. لقد أذهلته القصة، لكنه لم يعد للتفكير فيها إلا بعد مضي عدّة شهور، عندما أثار جنون الحب شوقه لاستخراج الثروة الغارقة كي يجعل فيرمينا داثا تستحم في أحواض من الذهب.

بعد سنوات من ذلك، عندما كان يحاول أن يتذكر كيف كانت في الواقع تلك الصبية التي رسم لها في ذهنه صورة مثالية بسيمياء الشعر، لم يكن يستطيع تمييز ملامحها وسط أمسيات تلك الأزمنة المؤثرة، وحتى حين كان يلمحها من دون أن تراه، في أيام الجزع التي انتظر فيها الرد على رسائله الأولى، كان يراها بصورة مختلفة في وهج الساعة الثانية ظهراً تحت وابل من زهر اللوز، حيث كان الوقت نيساناً في أي شهر من شهور

السنة. كان اهتمامه الوحيد في ذلك الحين منصباً على مرافقة لوتاريو توغوت بالكمان على المنصة المخصصة للكورال، وذلك ليرى كيف تتموج عباءتها بنسيم الإنشاد. لكن هذيانه بالذات كان السبب في القضاء على متعته هذه، إذ أصبحت الموسيقى الدينية الصوفية مناسبة جداً لحالة روحه، ممّا جعله يحاول إلهابها بفالسات حب، ورأى لوتاريو توغوت نفسه مضطراً لطرده من الكورال. وكان أن استسلم في هذه الفترة لأكل أزهار الياسمين التي تزرعها ترانسيتو أريثا في أحواض الفناء؛ فتعرَّف بهذه الطريقة على طعم فيرمينا داثا. وفي هذه الفترة أيضاً وجد في قاع أحد صناديق أمه زجاجة تحتوي لتراً من ماء الكولونيا التي كان يبيعها مهربةً بحارةٌ شركة هامبورغ أميركان لاين، ولم يقاوم إغراء تذوقها للبحث فيها عن طعم آخر للمرأة المحبوبة. وواصل شرب الزجاجة حتى الفجر، منتشياً بفيرمينا داثا من خلال رشفات كاوية، في حانات الميناء أولاً ثم إلى جوار البحر بعد ذلك، وهو غائب عن الوعي فوق كاسر الأمواج، حيث يتعزى العشاق، ممن لا سقف لديهم، بممارسة الحب، إلى أن راح في غيبوبة. انتظرته ترانسيتو أريثا حتى الساعة السادسة صباحاً بروح معلقة في خيط، ثم مضت تبحث عنه في المخابئ التي لا تخطر ببال أحد، وبعيد منتصف الليل وجدته يتخبط في بركة من القيء المعطر في إحدى تعرجات الشاطئ، حيث يقذف البحر الغرقى.

انتهزت فترة النقاهة لتؤنبه على سلبيته في انتظار الرد على الرسالة. ذكرته بأنه لا يمكن للضعفاء دخول مملكة الحب، لأنها مملكة قاسية وصارمة، وأن النساء لا يستسلمن إلّا للرجال المصممين، لأنهم يبعثون فيهن الطمأنينة التي يتعطشن إليها لمواجهة الحياة. وربّما استوعب فلورينتينو أريثا الدرس أكثر ممّا ينبغي. فلم تستطع ترانسيتو أريثا إخفاء إحساسها بالفخر، كقوّادة أكثر منها كأم، حين رأته يخرج من دكان أدوات الخياطة بالبدلة السوداء والقبعة القاسية وربطة الشاعر على ياقة العنق

الصلبة، فسألته ممازحة إن كان ذاهباً إلى جنازة فأجاب وأذناه تتقدان: «يكاد الأمر يكون سواء». وقد انتبهت إلى أنه يكاد لا يستطيع التنفس من الخوف، لكن تصميمه كان حاسماً. قدمت له النصائح النهائية، وباركته، ووعدته وهي غارقة في الضحك بزجاجة أخرى من ماء الكولونيا ليحتفلا معاً بانتصاره.

مذ سلم الرسالة، قبل شهر، نقض عدَّة مرات الوعد الذي قطعه بعدم العودة إلى الحديقة، لكنه كان حذراً جداً في التخفّي. كل شيء كان يسير على حاله: ينتهي درس القراءة تحت الأشجار في حوالي الثانية ظهراً، حين تستيقظ المدينة من القيلولة، ثم تتابع فيرمينا داثا التطريز مع عمَّتها حتى انخفاض الحر. لم ينتظر فلورينتينو أريثا إلى أن تدخل العمَّة إلى البيت، بل اجتاز الشارع بخطوات عسكرية أتاحت له تجاوز ارتعاش ركبتيه. لكنه لم يتوجه إلى فيرمينا داثا وإنما إلى العمَّة. وقال لها:

– تفضلي واتركيني على انفراد مع الآنسة للحظة، فلدي شيء هام أود أن أقوله لها.

فقالت العمّة:

– وقح! لا يوجد أمر من أمورها لا أستطيع سماعه.

– لن أقول شيئاً إذن، لكنني أحذرك بأنك ستكونين المسؤولة عمّا سيحدث.

لم يكن هذا هو الأسلوب الذي انتظرته اسكولاستيكا داثا من العريس المثالي، لكنها نهضت مرتعبة، لأنها أحست لأوّل مرّة بإحساس مفاجئ أن فلورينتينو أريثا إنما كان يتكلم بوحي من الروح القدس. وهكذا دخلت إلى البيت لاستبدال إبر التطريز، وتركت الشابين وحدهما تحت أشجار اللوز عند مدخل البيت.

لم تكن فيرمينا داثا تعرف في الواقع إلا القليل عن معدن العاشق

الصامت الذي ظهر في حياتها مثل سنونوة شتوية، والذي لم تكن تعرف حتى اسمه لولا توقيعه على الرسالة. ولقد استقصت حينئذ وعرفت أنه ابن بلا أب لامرأة عزباء مجدَّة وجدِّية، لكنها موسومة بوسم ناري لا شفاء منه لخطيئتها الوحيدة وهي شابة. وقد علمت أنه ليس صبي التلغراف، كما افترضت، وإنما هو مساعد جيّد التأهيل وذو مستقبل واعد، وفكرت بأنه أوصل البرقية إلى أبيها كذريعة ليراها فقط. وقد فتنها هذ الافتراض. كما كانت تعرف أنه واحد من موسيقي الكورال، رغم أنها لم تتجرّأ أبداً على رفع بصرها لتتأكد من وجوده أثناء القدّاس، إلا أنها في أحد أيام الآحاد وبينما مجموعة الآلات تعزف للجميع، أحسَّت بأن الكمان يعزف لها وحدها. لم يكن نموذجاً للرجل الذي كانت ستختاره. إنما نظارته وزيه الكهنوتي، وأساليبه الغامضة أثارت فيها فضولاً من الصعب مقاومته، لكنها لم تتصوَّر أبداً أن يكون الفضول هو أحد مصائد الحب الكثيرة.

هي نفسها لم تستطع أن تفهم كيف قبلت الرسالة. لم تؤنِّب نفسها، لكن وعدها الملح بردِّ الجواب أخذ يتحوَّل إلى عائق أمام الحياة. إن كل كلمة من أبيها، وكل نظرة عابرة، وأدنى حركة يقوم بها كانت تبدو لها مصيدة لكشف سرِّها. على هذا الحال من الذعر كانت، فهي تمتنع عن الحديث على المائدة خوفاً من زلَّة تفضحها، وأصبحت مراوغة حتى في تعاملها مع العمَّة اسكولاستيكا، رغم أن هذه كانت تشاطرها جزعها المكتوم كما لو كان خاصاً بها. وصارت تحبس نفسها في الحمَّام في أي وقت، دونما حاجة، وتعيد قراءة الرسالة محاولة اكتشاف رموز سرية، أو معادلة سحرية مخبَّأة في واحد من الثلاثمئة وأربعة عشر حرفاً في الثماني وخمسين كلمة، على أمل أن تجد فيها أكثر ممّا تقوله. لكنها لم تجد شيئاً أكثر ممّا فهمته في القراءة الأولى، عندما هرعت لتحبس نفسها في الحمَّام بقلب مجنون، ومزَّقت المغلف آملة برسالة مطوَّلة ومحمومة، ولم تجد سوى ورقة صغيرة معطَّرة أفزعها اقتضابها.

لم تفكر أوّل الأمر جدياً بأنها مضطرة إلى الرد، لكن الرسالة كانت واضحة جداً بحيث لم تكن هناك وسيلة لتصريفها. وفي أثناء ذلك، ووسط اضطراب شكوكها، فاجأت نفسها وهي تفكّر بفلورينتينو أريثا أكثر وباهتمام أكبر ممّا تريده لنفسها، بل وكانت تتساءل مكدَّرة لماذا لم يأت إلى الحديقة في موعده المعتاد، من دون أن تتذكر أنها هي التي طلبت منه عدم الرجوع إلى أن تفكر بالرد. وهكذا صارت تفكر به بشكل لم تتصوَّر يوماً أنها ستفكر فيه بأحد، كانت تهجس به حين لا يكون، متمنية وجوده حيث لا يمكن أن يكون، مستيقظة فجأة يراودها إحساس بأنه يراقبها وهي نائمة في الظلام، لدرجة أنها حين سمعت وقع خطواته الحاسمة فوق نثارة أوراق الحديقة الصفراء لم تستطع أن تصدق أنها ليست سخرية أخرى من خيالها. ولكن عندما طالبها بالرد على رسالته بتسلط لا علاقة له بنحافته، تمكنت من السيطرة على ذعرها وحاولت مداراته بقول الحقيقة: إنها لا تعرف بماذا تردُّ عليه. ومع ذلك فإن فلورينتينو أريثا لم ينجُ من هاوية ليتردد أمام التي تليها، فقال لها:

- إذا كنت قد قبلت استلام الرسالة، فمن سوء التحضر عدم الردّ عليها.

كانت هذه هي نهاية المتاهة. فقد اعتذرت فيرمينا داثا، وهي تسيطر على نفسها، عن تأخرها ووعدته رسمياً بأنه سيحصل على الردّ قبل انتهاء العطلة المدرسية. وقد وفت بوعدها. ففي يوم الجمعة الأخير من شهر شباط، قبل ثلاثة أيام من إعادة افتتاح المدارس. ذهبت العمَّة اسكولاستيكا إلى مكتب التلغراف لتسأل عن تكلفة إرسال برقية إلى قرية بيدرا دي مولير، وهي قرية لا يرد ذكرها في قائمة الخدمات البرقية، وسعت لأن يتولى الردَّ على استفسارها فلورينتينو أريثا، متظاهرة بأنها لم تره أبداً من قبل، لكنها عند الخروج تعمَّدت أن تنسى على الطاولة كتاب صلوات مجلد بجلد ضب، فيه مغلف من ورق مبطن ومزين بصورة

مذهبة. أمضى فلورينتينو أريثا، الذي اختل من السعادة، بقية ذلك المساء وهو يأكل الورود ويقرأ الرسالة، ويراجعها حرفاً حرفاً مرّة بعد أخرى، وكلما قرأ أكثر كان يأكل المزيد من الورد، وعند منتصف الليل كان قد قرأها مرّات ومرّات وأكل ورداً كثيراً جعل أمه تشدُّه من أذنه كخروف وتجبره على شرب زيت الخروع.

كانت تلك هي سنة الحب المتأجِّج. لم يكن في حياة أي منهما شيء سوى التفكير بالآخر، وانتظار الرسائل بشوق كشوق الردِّ عليها. ولم يحدث طوال ذلك الربيع من الهذيان، ولا في السنة التالية، أن أتيحت لهما فرصة للتواصل بالصوت الحي. بل وأكثر من ذلك: منذ أن رأى كل منهما الآخر أوَّل مرَّة وإلى أن كرر عليها قراره بعد نصف قرن، لم يحصلا أبداً على فرصة للقاء منفردين ولا لتبادل الحديث عن حبهما. ولكن لم يكن يمرُّ يوم واحد خلال الشهور الثلاثة الأولى من دون أن يتبادلا الرسائل، بل كانا يكتبان الرسائل مرتين يومياً في إحدى الفترات، إلى أن فزعت العمَّة اسكولاستيكا من شراهة النار التي ساهمت هي نفسها في إضرامها.

فبعد الرسالة الأولى التي حملتها هي نفسها إلى مكتب التلغراف، وكأنها تريد بذلك أن تثأر من حظها بالذات، راحت تسهِّل عملية تبادل الرسائل شبه اليومية، في لقاءات تبدو عرضية في الأزقة، ولكن لم تكن تملك الشجاعة لرعاية تبادل حديث بينهما، مهما كان ذلك الحديث تافهاً وقصيراً. ثم أدركت بعد مرور ثلاثة شهور أن ابنة أخيها ليست مؤهلة لغرام فتيٌّ، كما بدا لها أوّل الأمر، وأن حياتها صارت مهددة بفعل نار ذلك الحب. لم تكن لدى اسكولاستيكا بالفعل وسيلة أخرى للعيش سوى إحسان أخيها، وكانت تعلم أن طبعه المتسلط لن يغفر لها أبداً تلاعباً كهذا بالثقة التي منحها إياها. ولكن قلبها لم يطاوعها في نهاية الأمر على تعريض ابنة أخيها لمحنة قاسية كالتي رعَتها هي منذ شبابها،

فسمحت لها باستخدام وسيلة تمنحها وهم الإحساس بالبراءة. وكانت وسيلة بسيطة: تضع فيرمينا داثا رسالتها في مخبأ في طريقها اليومي بين البيت والمدرسة، وفي هذه الرسالة تخبر فلورينتينو أريثا عن المكان الذي ستجد الردَّ فيه. ثم يفعل فلورينتينو أريثا الشيء ذاته، وهكذا أخذ تأنيب الضمير الذي كانت تحسُّه العمّة اسكولاستيكا ينتقل إلى زوايا الكنائس، وفجوات الأشجار، وشقوق أنقاض الحصون الاستعمارية. كانا يجدان الرسائل مبللة بالمطر أحياناً، أو ملوثة بالوحل، أو ممزقة لضيق الفجوة، كما فُقدت بعض الرسائل لأسباب مختلفة، لكنهما كانا يجدان دوماً وسيلة لإعادة الاتصال.

كان فلورينتينو أريثا يكتب كل ليلة من دون أن تأخذه رحمة بنفسه، متسمماً حرفاً فحرفاً بدخان مصباح زيت الكوروسو في الحجرة الخلفية من دكان أدوات الخياطة، وكانت رسائله تصبح أكثر إسهاباً وجنوناً كلما أجهد نفسه في محاكاة شعرائه المفضلين ممن تُنشر أعمالهم في سلسلة المكتبة الشعبية، التي وصل عدد أجزائها في ذلك الحين إلى أكثر من ثمانين مؤلفاً. أما أمه التي حثته على الاستمتاع في عذابه، فأخذت تصاب بالذعر لاعتلال صحته، وصارت تصيح به من غرفة النوم عندما تسمع صياح أوّل الديكة: «ستستنزف دماغك. ما من امرأة تستحق كل هذا». فهي لا تذكر أنها عرفت أحداً بمثل هذه الحالة من الضياع. أما هو فلم يكن يعيرها اهتماماً. كان يصل إلى المكتب أحياناً من دون أن يكون قد نام، شعره مشعث من الحب، بعد أن يكون قد أودع الرسالة في المخبأ المتفق عليه لتجدها فيرمينا داثا وهي في طريقها إلى المدرسة. أما هذه بالمقابل، فكانت خاضعة لحراسة الأب ولرصد الراهبات المشين، ولم تكد تستطيع كتابة ملء نصف صفحة من الدفتر المدرسي وهي حابسة نفسها في الحمّام أو متظاهرة بتسجيل ملاحظات أثناء الدرس. لكن ذلك لم يكن بسبب التسرُّع والخوف من المفاجآت فحسب، إنما بسبب

طبعها كذلك، فكانت رسائلها تتجنب أية إشارات عاطفية وتقتصر على سرد وقائع حياتها اليومية بأسلوب يوميات رحلات الملاحة البحرية المتسرِّع. لقد كانت في الواقع رسائل لهو، تسعى إلى الاحتفاظ بالجمر متقداً ولكن من دون أن تضع يدها في النار، فيما فلورينتينو أريثا يحترق ويتحوَّل إلى رماد في كل سطر يخطّه. وفي سعيه لينقل إليها عدوى جنونه، كان يرسل إليها أبيات شعر محفورة برأس دبوس على وريقات زهرة كاميليا. وكان هو، وليس هي، مَن تجرّأ على وضع خصلة من شعره في إحدى الرسائل، لكنه لم يتلق أبداً الردَّ المرجو، إذ أصبح يتلقى منذ ذلك الحين أوراق زهور مجففة في معاجم ضخمة، وأجنحة فراشات، وريش عصافير فاتنة، ثم إنها أهدت إليه في عيد ميلاده سنتيمتراً مربعاً من مسوح القديس بيدرو كلافير، تلك التي كانت تباع بالخفاء في تلك الأيام بسعر لا يمكن لتلميذة في سنها أن تدفعه. وفي إحدى الليالي، ومن دون سابق انذار، استيقظت فيرمينا داثا مرتعدة لسماعها سيرناد كمان منفرد تعزف فالساً محدداً. لقد اهتزت فرحاً وهي تشعر أن كل نغمة إنما هي بمثابة شكر على نباتاتها المجففة، وعلى الوقت الذي تختلسه من درس الحساب لتكتب رسائلها، وعلى خوفها من الامتحانات وهي تفكر فيه أكثر من تفكيرها بالعلوم الطبيعية، لكنها لم تتجرَّأ على تصديق أن فلورينتينو أريثا قادر على اقتراف مثل ذلك التهوُّر.

في صباح اليوم التالي، وأثناء تناول الفطور، لم يستطع لورينثو داثا مقاومة الفضول. أولاً، لأنه لم يكن يعرف ما تعنيه معزوفة واحدة في لغة السيرناد، وثانياً، لأنه رغم اهتمامه في الإصغاء لم يستطع أن يحدِّد عند أي بيت كان العزف. وأكدت العمَّة اسكولاستيكا، بهدوء أعصاب أعاد النفَس إلى ابنة الأخ، أنها رأت من خلال ستارة نافذة غرفة نومها أن عازف الكمان المنفرد كان في الجانب الآخر من الحديقة، وقالت إن معزوفة وحيدة على أية حال هي إبلاغ بالقطيعة. وفي رسالته لذلك

اليوم، أكّد فلورينتينو أريثا أنه هو صاحب السيرناد، وأن هذا الفالس من تأليفه، وأنه أطلق عليه التسمية نفسها التي يطلقها على فيرمينا داثا في قلبه: «الربّة المتوَّجة».

لم يعد لعزف هذا اللحن في الحديقة، لكنه كان يختار الليالي المقمرة ليعزفه في أماكن منتقاة بحيث تسمعه من دون أن يتولاها الذعر في مخدعها. وقد كان أحد أماكنه المفضلة هو مقبرة الفقراء، المكشوفة للشمس والمطر فوق تلة جرداء، تتخذ منها نسور الرخمة مكاناً للنوم، حيث كانت الموسيقى تصدح بأصداء ما ورائية. ثم تعلّم في ما بعد التعرُّف على اتجاه الريح، وبهذا صار يتأكد من أن صوته يصل إلى حيث يريده أن يصل.

في شهر آب من تلك السنة، نشبت حرب أهلية جديدة من تلك الحروب الكثيرة التي عاثت خراباً في البلاد منذ أكثر من نصف قرن، وكانت تهدد بالاتساع لتشمل البلاد بأسرها؛ ففرضت الحكومة قوانين الطوارئ، وحظر التجوُّل من الساعة السادسة مساء في ولايات ساحل الكاريبي. ورغم حدوث بعض الاضطرابات واقتراف القوّات العسكرية لجميع أشكال التنكيل التعسفي، استمر فلورينتينو أريثا في غيبوبته غير عابئ بحال الدنيا، وفاجأته دورية عسكرية في فجر أحد الأيام وهو يُقلق عفة الموتى باستفزازاته الغرامية. ولقد نجا بمعجزة من تحقيق أوَّلي بتهمة أنه جاسوس يبعث الأخبار بإشارات ضوئية إلى السفن الليبرالية التي تجوب المياه المجاورة متحينة الفرصة للانقضاض. وقال فلورينتينو أريثا:

– أي جاسوس وأية لعنة. أنا لست سوى عاشق بائس.

نام ثلاث ليال مكبلاً من كاحليه في زنازين الحامية المحلية. وحين أطلقوا سراحه أحسَّ بأنه قد غُبن لقصر مدّة الحبس، وبقي حتى أيام

شيخوخته، عندما أصبحت تختلط في ذاكرته ذكرى حروب أخرى كثيرة، يفكِّر بأنه الرجل الوحيد في المدينة، وربَّما في البلاد، الذي جرَّ بقدميه أصفاداً زنتها خمسة أرطال من أجل قضية حب.

كادت تنقضي سنتان على بريدهما المحموم عندما بعث فلورينتينو أريثا إلى فيرمينا داثا، رسالةً من فقرة واحدة فقط، يعرض عليها الزواج رسمياً. كان قد بعث إليها عدَّة مرَّات في الشهور الستة السابقة زهرة كاميليا بيضاء، لكنها كانت تعيدها إليه في الرسالة التالية، حتى لا يرتاب من استمرار كتابتها إليه، إنما من دون المخاطرة بأي التزام. والحقيقة أنها كانت ترى دائماً في ذهاب زهرة الكاميليا ومجيئها مداعبة غرامية، ولم يخطر لها يوماً أن تفكر فيها كنقطة انعطاف في مصيرها. أما عندما وصلها عرض الزواج الرسمي، أحسَّت أنها تتمزق بأول ضربة من مخالب الموت. وبينما هي فريسة الهلع، روت الأمر للعمَّة اسكولاستيكا، فتناولت العمَّة الاستشارة بالشجاعة والفطنة اللتين لم تمتلكهما وهي في العشرين من عمرها عندما كان عليها أن تقرِّر مصيرها. وقالت لها:

- أجيبيه بنعم، حتى ولو كنت تموتين خوفاً، وحتى لو ندمت في ما بعد، لأنك على أية حال ستندمين طوال حياتك إن أنت أجبته بلا.

ولكن فيرمينا داثا كانت مشوشة جداً إلى حدٍّ طلبت معه مهلة لتفكر في الأمر. طلبت شهراً في البدء، ثم شهراً آخر وآخر، وعندما انقضى الشهر الرابع من دون أن تعطي ردّها عادت تتلقى زهرة الكاميليا البيضاء، ولكن ليس الزهرة وحدها في المغلف كما في مرَّات سابقة، وإنما تكون مرفقة بإخطار حازم بأنها ستكون المرَّة الأخيرة: إما الآن وإما القطيعة النهائية. لقد كان فلورينتينو أريثا حينئذ هو الذي رأى وجه الموت في مساء ذلك اليوم بالذات، عندما تلقى مغلفاً فيه قصاصة ورقة طويلة منتزعة من هامش دفتر مدرسي، كُتب عليها الردُّ في سطر واحد، بقلم رصاص:

- حسناً، أوافق على الزواج منك إن أنت وعدتني بألّا تجبرني على أكل الباذنجان.

لم يكن فلورينتينو أريثا مهيئاً لمثل هذا الردّ، لكن أمه كانت كذلك. فمنذ كلمها لأوّل مرَّة، قبل ستة شهور، عن نيته بالزواج، بدأت ترانسيتو أريثا مشاوراتها لاستئجار كامل البيت الذي كانت تتقاسمه حتى ذلك الحين مع عائلتين أخريين. لقد كان البيت بناءً مدنياً من القرن السابع عشر، مؤلفاً من طابقين، حيث كانت توجد إدارة التبغ إبان السيطرة الإسبانية، وقد أفلس مالكوه واضطروا لتأجيره مجزءاً لافتقارهم إلى الموارد اللازمة لاستمراره في العمل. قسم من البيت كان يطلّ على الشارع، حيث كانت صالة البيع سابقاً، وقسم آخر في نهاية باحة مرصوفة حيث كان المعمل، وهنالك إسطبل واسع جداً يستخدمه المستأجرون الحاليون جميعهم لغسل الملابس ونشرها. كانت ترانسيتو أريثا تشغل القسم الأول، وهو الأكثر ملاءمة والأفضل حالاً، رغم كونه الأضيق أيضاً. وفي صالة البيع القديمة أقامت دكانها لأدوات الخياطة، ببوابة تطل على الشارع، وإلى جانبها المستودع القديم الذي لا وجود فيه لأية فتحة تهوية سوى كوة السقف، وفيه كانت تنام ترانسيتو أريثا. وفي ما وراء الدكان، حيث نصف الصالة الآخر، المقسوم بباب خشبي ثلاثي المصاريع، كانت توجد فيه طاولة حولها أربع كراس تستخدم للطعام والكتابة في الوقت ذاته، وهناك كان يعلق فلورينتينو أريثا أرجوحة نومه حين يباغته الفجر وهو يكتب. كان المكان مناسباً لهما، لكنه غير كاف لشخص آخر معهما، وخصوصاً إذا كان هذا الشخص إحدى آنسات مدرسة ظهور العذراء المقدسة، التي رمَّم أبوها أنقاض بيت مُهدَّم حتى أعاده وكأنه جديد، بينما العائلات ذات السبعة ألقاب تنام خائفة من انهيار أسقف المنازل فوقها أثناء النوم. وقد تمكنت ترانسيتو أريثا من

الحصول على وعد من صاحب البيت بالسماح لها بشغل رواق الفناء لمدة خمس سنوات، على أن ترمّم البيت وتجعله في حالة حسنة.

كانت تملك الموارد اللازمة. فإلى جانب دخلها الحقيقي من دكان أدوات الخياطة ومن نسالات النسيج التي توقف النزف، وهو دخل يكفيها لعيش حياتها المتواضعة، كانت قد ضاعفت مدخراتها بتقديمها القروض لزبائنها من الفقراء الجدد الخجولين الذين يوافقون على فوائدها الباهظة بسبب كتمانها الأسرار. كن سيدات لهن مظهر الملكات، ينزلن من عربات فاخرة أمام باب دكان أدوات الخياطة، من دون وصيفات أو خدم مزعجين، فيتظاهرن بأنهن يردن شراء مطرزات هولندية وحواشي من الحرير المحبوك، ثم يرهنَّ بين دمعتين آخر مصاغ فردوسهن المفقود. وتُخرجهن ترانسيتو أريثا من حرجهن بتقديرها الشديد لأصولهن النبيلة، إلى حدٍّ أن معظمهن كن ينصرفن وهن شاكرات لتقديرها الشرف أكثر من حمدهنَّ للجميل. وخلال أقل من عشر سنوات كانت ضمن ممتلكاتها تلك الحليُّ المستردة مرَّات عديدة والمعادة للرهن وسط الدموع مجدداً، وكذلك الأرباح المتحولة إلى ذهب قانوني والتي كانت مدفونة في جرَّة تحت السرير عندما اتخذ ابنها قرار الزواج. حينئذ راجعت حساباتها. واكتشفت أنها لا تستطيع القيام بعملية صيانة البيت من الانهيار لمدة خمس سنوات فحسب، بل ربّما تستطيع ببعض الحيلة وشيء من الحظ أن تشتريه لأحفادها الاثني عشرة الذين كانت ترغب في أن ينجبهم ابنها. وكان فلورينتينو أريثا قد عُيِّن معاوناً أوَّل لمسؤول مكتب التلغراف بصفة مؤقتة، وكان لوتاريو توغوت يريد تسليمه إدارة المكتب حين يذهب هو لتولي إدارة مدرسة التلغراف والمغنطة المنتظر افتتاحها في العام التالي.

وهكذا كان الجانب العملي من الزواج محلولاً. ومع ذلك، رأت

ترانسيتو أريثا ضرورة الاهتمام بشرطين نهائيين. الأول هو الاستعلام عن حقيقة لورينثو داثا الذي لا تترك لهجته أية شكوك حول أصله، أما هويته ووسائله في الحياة فليس هناك من يعرف عنها خبراً يقيناً. والثاني هو أن الخطوبة يجب أن تطول حتى يتعارف الخطيبان بعمق عبر العلاقة الشخصية وأن يُحفظ أمر الخطوبة طي الكتمان الصارم إلى أن يتأكدا كلاهما من عواطفهما. واقترحت أن ينتظرا حتى تنتهي الحرب. وقد وافق فلورينتينو أريثا على الاحتفاظ بالسرية المطلقة، سواء للأسباب التي عرضتها أمه أو لطبعه المحب للكتمان. وكان موافقاً كذلك على إطالة مدَّة الخطوبة لكن النهاية بدت له لا واقعية، لأن البلد لم يعرف خلال نصف قرن من الاستقلال يوماً واحداً من السلام الأهلي. فقال:

- سنشيخ ونحن ننتظر انتهاء الحرب.

ولم يكن عرَّابه، الطبيب التجانسي الذي كان يشارك مصادفة في الحديث، يعتقد بأن الحروب عائق. وكان يرى أنها ليست سوى مشاكل فقراء يسوقهم ملاكو الأرض كالثيران، ضد جنود حفاة تسوقهم الحكومة. وقال:

- الحرب في الجبل. ومنذ أدركت أنا بأنني أنا، لم يقتلونا هنا في المدينة بالرصاص وإنما بالقرارات.

لقد حُلَّت على أي حال جميع تفاصيل الخطوبة في رسائل الأسبوع التالي. ووافقت فيرمينا داثا، بناء على نصيحة العمَّة اسكولاستيكا، على استمرار الخطوبة لمدة سنتين وعلى التكتم المطلق، واقترحت أن يطلب فلورينتينو أريثا يدها عندما تنتهي من المدرسة الثانوية في عطلة أعياد الميلاد. وأن يتفقا في الوقت المناسب على طريقة إعلان الخطوبة حسب درجة القبول التي ستكون قد حصلت عليها من أبيها. وحتى ذلك الحين، تابعا تبادل الرسائل بنفس الحماسة ونفس الكثرة، ولكن من دون

المخاوف السابقة. وأخذت رسائلهما تميل إلى لهجة عائلية وتبدو كأنها رسائل زوجَيْن. ولم يكن هناك ما يعكر أحلامهما.

لقد طرأ تبدُّل على حياة فلورينتينو أريثا. إذ منحه الحب المتبادل أماناً وقوة لم يعرفهما قطّ، وأصبح دؤوباً في العمل ممّا سمح للوتاريو توغوت بتعيينه نائباً له في السلطات من دون بذل أي مجهود. وكان مشروع مدرسة التلغراف والمغنطة قد فشل في ذلك الحين، فكرَّس الألماني وقت فراغه للأمر الوحيد الذي يحبه فعلاً، ألا وهو الذهاب إلى الميناء لعزف الأوكورديون وتناول البيرة مع البحارة، ثم الانتهاء من ذلك كله في فندق العابرين. وقد انقضى زمن طويل قبل أن يعرف فلورينتينو أريثا أن تأثير لوتاريو توغوت في مكان المتعة ذاك إنما هو عائد إلى امتلاكه المحل، وكونه رب عمل عصفورات الميناء. لقد اشتراه شيئاً فشيئاً، بمدَّخراته خلال سنوات طويلة، لكن من كان يدير الفندق بدلاً منه هو رجل قصير، نحيل وأعور، رأسه كالفرشاة، وأليف وقلبه طيِّب إلى حدٍّ أن أحداً لم يكن يفهم كيف بإمكانه أن يكون وكيلاً مناسباً. لكنه كان كذلك. أو على الأقل هذا ما بدا لفلورينتينو أريثا عندما قال له الوكيل، من دون أن يكون هو قد طلب منه، بأنه هيّأ له غرفة دائمة في الفندق، لا ليحل فيها مشاكل ما تحت البطن فقط، حين يقرر ذلك، بل ليجد مكاناً أكثر هدوءاً لمطالعته ولرسائل الحب التي يكتبها. وبينما كانت الشهور المتبقية لاعلان الخطوبة تمضي، أخذ يقضي في الفندق وقتاً أطول ممّا يقضيه في المكتب والبيت، وجاءت فترات لم تعد ترانسيتو أريثا تراه إلا عندما يأتي لاستبدال ملابسه.

تحولت المطالعة إلى إدمان لا يرتوي منه. فمنذ علمته أمه القراءة، كانت تشتري له كتب المؤلفين الشماليين المزينة بالرسوم، والتي كانت تُباع على أنها حكايات للأطفال، لكنها في الواقع كانت أقسى وأفسد ما يمكن قراءته في جميع الأعمار. كان فلورينتينو أريثا يسردها عن ظهر

قلب وهو في الخامسة، سواء في الدروس أو في سهرات المدرسة، لكن تآلفه معها لم يُهدِّئ من رعبه. بل على العكس، كان يفاقمه. وهكذا كان لتحوله إلى الشعر مفعول المسكِّن. فما إن بلغ سنَّ الرشد حتى كان قد استَهلك حسب ترتيب صدورها، جميع كتيبات المكتبة الشعبية تشتريها له ترانستو أريثا من المكتبيين الذين يعرضون بضاعتهم عند بوابة الكتَبة العموميين، حيث توجد جميع أنواع الكتب، ابتداء من هوميروس وحتى أقل الشعراء المحليين قيمة. لم يكن يميز ما يقرأه: فهو يقرأ الكتيب الذي يأتيه، كما لو كان شأناً من شؤون القدر. ولم تكفه كل سنوات القراءة ليعرف الغث من الثمين في العالم الذي قرأه. والشيء الوحيد الذي كان واضحاً لديه هو أنه عند المفاضلة بين النثر والشعر يفضل الشعر، ومن بين الأشعار يفضل أشعار الحب التي كان يحفظها غيباً، من دون قصد، منذ القراءة الثانية؛ وبسهولة أكبر حين تكون مقفاة وموزونة جيداً، وعندما تكون مؤثرة كثيراً.

كان هذا هو المنهل الأساسي لرسائله الأولى إلى فيرمينا داثا، حيث كان يورد مقاطع كاملة من دون طهي من أشعار الرومنسيين الإسبان، وبقيت رسائله كذلك إلى أن اضطرته الحياة الواقعية إلى الاهتمام بالشؤون الدنيوية أكثر من الاهتمام بشجون القلب. وكان في ذلك الحين قد خطا خطوة أخرى نحو قصص الدموع المسلسلة، وأنواع أخرى أكثر دنيوية من نثر عصره. وكان قد تعلَّم البكاء مع أمه وهو يقرأ دواوين الشعراء المحليين التي تباع في الساحات وتحت القناطر، في كتيبات بسعر ستافوَين اثنين لكل منها. لكنه كان قادراً في الوقت نفسه على إلقاء أفضل أشعار العصر الذهبي القشتالي عن ظهر قلب. وعموماً كان يقرأ كل ما يقع بين يديه، وحسب ترتيب وقوعه بين يديه، حتى إنه بعد زمن طويل من سنوات حبه الأول القاسية تلك، وعندما لم يعد شاباً، قرأ من أوّل صفحة وحتى آخر صفحة مجلدات كنز الشباب العشرين،

ومجموعة الكلاسيكيين الكاملة حسب طبعة جارنير هنس المترجمة، والأعمال الأكثر سهولة التي كان ينشرها دون فيثنتي بلاسكو ايبانيث في سلسلة « بروميثيوس».

ولم تكن فترة فتوّته في فندق العابرين على أية حال تقتصر على المطالعة وكتابة الرسائل المحمومة، وإنما أدخلته أيضاً في أسرار ممارسة الحب من دون حب. كانت الحياة تدب في البيت بعد انتصاف النهار، عندما تستيقظ صديقاته العصفورات عاريات كما ولدتهن أمهاتهن، وهكذا كان فلورينتينو أريثا يجد نفسه لدى عودته من العمل في قصر مسكون بحوريات عاريات، يعلقن صارخات على أسرار المدينة التي يطّلعن عليها ببوح أصحابها بالذات. وكانت كثيرات منهن يعرضن في عريهم آثاراً من الماضي: ندوب طعنات خناجر في البطن، أو آثار أعيرة نارية تبدو كالنجوم، أو أخاديد ضربات بسكاكين الحب. أو خياطات عمليات قيصرية يجريها لهن الجزارون. وتُحضر بعضهن خلال النهار أبنائهن الصغار، أبناء مرارة الشباب وتهوره التعساء، وينزعن عنهم ملابسهم فور دخولهم حتى لا يشعر الصغار بأنهم مختلفون في جنة العراة. وقد كانت كل واحدة منهن تطهو طعامها وحدها، ولم يكن هناك من يأكل خيراً من فلورينتينو أريثا عندما يدعونه، لأنه يختار أفضل ما لدى كل منهن. كان ذلك احتفالاً يومياً يستمر حتى المساء، حين تصطف العاريات لدخول الحمّام وهن يغنين، بينما يستعرن من بعضهن الصابون، أو فرشاة الأسنان، أو المقصات، وكانت بعضهن تقص شعر الأخريات، ثم يرتدين ملابسهن سهلة الخلع، ويطلين وجوههن كمهَرّجات مبكيات، ويخرجن لاصطياد أوّل طرائدهن الليلية. وحينئذ تصبح حياة البيت غامضة ولا إنسانية وتصبح المشاركة فيها مستحيلة من دون دفع الثمن.

لم يكن لفلورينتينو أريثا مكان أفضل منه يقضي فيه وقته مذ تعرف

على فيرمينا داثا، فهو المكان الوحيد الذي لا يشعر فيه بالوحدة. بل أكثر من ذلك: إنه المكان الوحيد الذي صار يشعر وهو فيه بأنه معها. وربّما لهذه الأسباب نفسها كانت تعيش هناك امرأة متقدمة في السن، أنيقة، ذات شعرٍ فضيٍّ بديع، لا تشارك في حياة العاريات الطبيعية، ويكنن لها جميعهن احتراماً قدسياً. لقد حملها إلى هناك حبيب مبكر وهي شابة، وبعدما تمتع بها لبعض الوقت هجرها لمصيرها. وقد توصلت رغم وصمَتها إلى زواج سعيد، وعندما أصبحت متقدمة في السن، ووحيدة، تنازع ابناها وبناتها الثلاث متعة حملها للعيش معهم، أما هي فلم يخطر لها مكان أكثر جدارة بالحياة من فندق الماجنات الحنونات ذاك. وكانت حجرتها الدائمة هناك هي بيتها الوحيد، وهذا ما جعلها تتوافق فوراً مع فلورينتينو أريثا، الذي كانت تقول عنه أنه سيصير عالماً مشهوراً في العالم بأسره، لأنه قادر على إغناء روحه بالمطالعة في جنّة الشبَق. وقد أبدى لها فلورينتينو أريثا من جانبه عطفاً شديداً، فكان يساعدها في شراء حاجاتها من السوق، واعتاد أن يمضي بعض الأماسي في تبادل الحديث معها، وكان يفكّر بأنها امرأة عالمة في الحب، إذ قدّمت له إضاءات كثيرة حول حبه، من دون أن يكون مضطراً لأن يكشف لها عن سرّه.

وإذا كان لم يسقط في الإغراءات الكثيرة التي في متناول يده قبل أن يعرف حب فيرمينا داثا، فإنه لن يفعل ذلك بعدما أصبحت خطيبته الرسمية. وهكذا كان فلورينتينو أريثا يعيش مع الفتيات، يقاسمهن الأفراح والأتراح، من دون أن يخطر بباله، أو ببالهنّ، المضي إلى ما هو أبعد من ذلك. وقد جاء حادث طارئ ليؤكد صرامة قراره. ففي الساعة السادسة من مساء أحد الأيام، وبينما الفتيات يرتدين ملابسهن استعداداً لاستقبال زبائن الليل، دخلت إلى حجرته العاملة المكلفة بالتنظيف في الطابق: امرأة شابة لكنها مترهلة وشاحبة، ترتدي ملابسها كتائبة في مملكة العاريات. وكان يراها يومياً من دون أن يشعر بأنها تراه. كانت تتنقل بين

الحجرات حاملة المكانس، وسطل القمامة وممسحة خاصة تلتقط بها عن الأرض الواقيات الذكرية المستعملة. دخلت إلى الغرفة حيث كان فلورينتينو أريثا يقرأ كعادته، وكنست الأرض بحذر شديد كعادتها، كي لا تزعجه. وفجأة مرَّت بمحاذاة السرير، وأحسَّ باليد الدافئة والطرية فوق تصالب بطنه، وأحس بها تبحث عنه، أحسّ بها تجده، وأحس بها تحل الأزرار فيما أنفاسها تملأ الغرفة. وتظاهر بأنه يقرأ إلى أن لم يعد قادراً على تحمل المزيد، واضطر إلى الاستدارة بجسده.

فزعت المرأة، فقد كان تحذيرهم الأول لها من أجل منحها وظيفة عاملة هو ألا تضاجع أحداً من الزبائن. ولم يكن عليهن أن يقلن لها ذلك، لأنها كانت ممّن يفكرن بأن الدعارة ليست في المضاجعة مقابل المال، وإنما في مضاجعة الغرباء. كان لها ابنان، كل منهما من زوج مختلف، وليس ذلك في مغامرات عرضية، وإنما لأنها لم تتمكن من حب رجل يرجع إليها بعد المرّة الثالثة. لقد كانت حتى ذلك الحين امرأة ليست على عجلة من أمرها، وكانت مهيأة بطبعها للانتظار من دون يأس، ولكن الحياة في ذلك البيت كانت أقوى من عفّتها. لقد كانت تدخل إلى العمل في السادسة مساء، وتقضي الليل كله متنقلة من حجرة إلى أخرى، كانسة الأرض بأربع ضربات من مكنستها، جامعة الواقيات الذكرية المستعملة، ومستبدلة ملاءات الأسرّة. لم يكن سهلاً تصوّر كمية الأشياء التي يخلفها الرجال بعد الحب. أنهم يتركون قيئاً ودموعاً، وهذا كان يبدو لها مفهوماً. لكنهم كانوا يخلفون كذلك الكثير من ألغاز العلاقات الجنسية: بقع دم، لطخات براز، عيون زجاجية، ساعات ذهبية، أسنان اصطناعية، علب تحتوي على خصل شعر ذهبية، رسائل حب، رسائل تجارية، رسائل تعزية.. رسائل من كل صنف. وكان بعضهم يعود بحثاً عن أشيائه المفقودة، لكن معظم الأشياء كانت تبقى هناك، وكان لوتاريو توغوت

يحفظها تحت قفل، مفكراً بأن ذلك القصر الساقط في المحنة، مع آلاف الأشياء الشخصية المنسية، سيتحول عاجلاً أم آجلاً إلى متحف للحب.

كان العمل قاسياً وأجره ضئيلاً، لكنها كانت تقوم به على أحسن وجه. أما ما لم تكن قادرة على تحمُّله فهو التنهدات، والتأوّهات، وصرير نوابض الأسرّة التي كانت تترسّب في دمها بحرقة وألم شديدين، وما إن يأتي الفجر حتى تكون عاجزة عن تحمل لهفتها لمضاجعة أوّل شحاذ تلتقي به في الشارع، أو أي سكير يقدّم لها هذه الخدمة من دون مطالب أو أسئلة أخرى. كان ظهور رجل بلا امرأة، كفلورينتينو أريثا، فتيٌّ ونظيفٌ، بمثابة هدية من السماء بالنسبة إليها. ذلك أنها لاحظت منذ اللحظة الأولى أنه مثلها: معوز للحب، أما هو، فلم يكن يحسُّ بما تعانيه. لقد احتفظ بعذريته في سبيل فيرمينا داثا، وليست هناك قوة أو منطق في هذا العالم يثنيه عن عزمه.

وعلى هذا المنوال كانت حياته تسير قبل أربعة شهور من الموعد المحدد لإعلان الخطوبة، عندما ظهر لورينثو داثا في الساعة السابعة صباحاً في مكتب التلغراف، وسأل عنه. وبما أنه لم يكن قد حضر بعد، فقد انتظره جالساً على المقعد حتى الساعة الثامنة وعشر دقائق، ناقلاً من أصبع إلى آخر الخاتم الذهبي الثقيل المرصع بياقوتة نقية، وعندما رآه يدخل عرفة فوراً على أنه موظف التلغراف، فأمسكه من ذراعه وقال له:

- تعال معي أيها الشاب. لدينا ما نتحدث فيه معاً لخمس دقائق حديث رجل لرجل.

انقاد له فلورينتينو أريثا الذي صار لونه أخضر مثل ميت. لم يكن مهيئاً لهذا اللقاء، لأن فيرمينا داثا لم تجد الفرصة ولا الوسيلة لإنذاره. والقضية هي أنه في يوم السبت الفائت، دخلت الأخت فرانكا ديلا لوث، رئيسة راهبات مدرسة ظهور العذراء المقدسة، إلى درس المعارف

العامة، بصمت أفعى، وبينما هي تتجسس على التلميذات من فوق اكتافهن، اكتشفت أن فيرمينا داثا تتظاهر بأنها تسجل ملاحظات على الدفتر بينما هي تكتب، في الواقع، رسالة حب. كانت هذه الخطيئة، حسب قوانين المدرسة، سبباً كافياً للطرد. ولدى استدعائه على عجل إلى مكتب الإدارة، اكتشف لورينثو داثا الثقب الذي كان يتسرّب منه نظامه الحديدي. وقد اعترفت فيرمينا داثا، بقوّة طبعها، بخطيئة الرسالة، لكنها رفضت الكشف عن هوية الحبيب السري. وعادت ترفض أمام محكمة الانضباط، التي أبرمت لهذا السبب حكم الطرد. ورغم ذلك، قام الأب بتفتيش غرفة نومها التي كانت حتى ذلك الحين مكاناً مقدّساً لا يجوز خرق حرمته، ووجد في الصندوق ذي القاع المزدوج رسائل ثلاث سنوات، مخبأة بمحبة تضاهي المحبة المبذولة في كتابتها. لم يكن توقيع المرسل يحتمل الخطأ، لكن لورينثو داثا لم يستطع أن يصدق حينئذ، ولا فيما بعد، أن ابنته لا تعرف عن خطيبها الخفي سوى مهنته في التلغراف وهوايته في عزف الكمان.

ولقناعته أن علاقة على هذا القدر من الصعوبة لا يمكن فهمها إلا بتواطؤ أخته وتستّرها، فإنه لم يمنح هذه الأخيرة ولو نعمة الاعتذار، وإنما أجبرها على الإبحار بلا عودة في سفينة متوجهة إلى سان خوان دي لاثييناغا. ولم تشفَ فيرمينا داثا إلى الأبد من عذاب ذكراها الأخيرة، في مساء اليوم الذي ودعتها فيه عند البوابة وهي تتقد بالحمَّى في مسوحها البنّي الشاحب. ورأتها تختفي بعظامها البارزة وشحوبها تحت مطر الحديقة حاملة متاعها الوحيد المتبقي لها في الحياة: حقيبة العزباء، وبعض النقود، لا تكاد تكفيها للحياة شهراً، ملفوفة بمنديل في طرف كمها. وما إن تحررت من سلطة والدها، فيما بعد، حتى بعثت مَن يبحث عنها في مقاطعات الكاريبي، سائلة عنها كل مَن قد تعرَّف إليها، ولم تجد أي خبر عن آثارها إلا بعد مرور حوالي ثلاثين سنة، عندما تلقّت

رسالة تناقلتها أيد كثيرة خلال زمن طويل، وفيها يخبرونها بأنها ماتت في حوالي المئة من العمر، في محجر أغوادي دي ديوس الصحي. لم يتنبأ لورينثو داثا بالشراسة التي سترد بها ابنته على العقاب الظالم الذي راحت ضحيته العمَّة اسكولاستيكا، تلك العمَّة التي كانت ترى فيها أمها التي لا تكاد تتذكرها. لقد حبست نفسها مقفلة الباب بالرتاج في غرفة النوم، من دون طعام أو شراب، وعندما تمكَّن أخيراً من جعلها تفتح الباب، بالتهديد أولاً ثم بالتوسلات المُرائية، وجد نفسه أمام لبوة جريح، وإلى الأبد لن تعود ابنة الخمس عشرة سنة.

حاول إغراءها بكل أنواع التملّق. حاول إفهامها أن الحب في سنّها ما هو إلا سراب، وحاول إقناعها بالحسنى أن تعيد الرسائل وترجع إلى المدرسة لتطلب الصفح جاثية، ووعدها بكلمة شرف أنه سيكون أوّل من سيساعدها لتكون سعيدة مع خطيب محترم. لكنه كان كمن يُكلم ميتاً. أحسَّ بالهزيمة، وانتهى إلى فقدان أعصابه أثناء غداء يوم الاثنين، وبينما هو يشرق بالسباب والشتائم على حافة الهيجان، تناولت سكين اللحم ووضعتها على عنقها، بلا دراماتيكية وإنما بنبض ثابت وعينين ذاهلتين لم يجرؤ على تحديهما. وكان أن قرّر حينئذ المجازفة بالحديث لخمس دقائق، كرجل لرجل، مع الدخيل المشؤوم الذي لا يذكر أنه رآه يوماً، والذي وقف في طريق حياته في ساعة نحس. وبمحض العادة تناول المسدس قبل أن يخرج، لكنه حرص على حمله مخبأً تحت القميص.

لم يكن فلورينتينو أريثا قد استرد أنفاسه عندما قاده لورينثو داثا من ذراعه، عبر ساحة الكاتدرائية، إلى رواق الأقواس في مقهى الأسقفية، ودعاه للجلوس على الشرفة الخارجية، لم يكن هناك زبائن آخرون في مثل ذلك الوقت، وكانت امرأة زنجية تمسح بلاط الصالة الضخمة ذات الواجهات الزجاجية المتشظية والمغبرة، حيث الكراسي لا تزال موضوعة بالمقلوب فوق المناضد الرخامية. كان فلورينتينو أريثا قد رأى

لورينثو داثا مرَّات كثيرة وهو يلعب ويشرب النبيذ هناك مع استوريي السوق العام الذين يشتبكون في مشادَّات صارخة حول حروب مزمنة أخرى غير حروبنا. ولقد تساءل مرَّات كثيرة، وهو يعي قَدَرية الحب، كيف سيكون لقاؤه الذي سيتم عاجلاً أم آجلاً مع هذا الرجل، ذلك اللقاء الذي لن تحول دونه قوة إنسانية، لأنه مكتوب منذ الأزل في قَدَر كل منهما. لقد رأى في الأمر شجاراً لا متكافئاً، ليس لأن فيرمينا داثا لم تكن قد نبَّهته في رسائلها إلى طبع أبيها العاصف وحسب، بل لأنه هو نفسه لاحظ من قبل أن له عينين غاضبتَين حتى حين يقهقه ضاحكاً على منضدة اللعب. إن كل ما فيه كان محصِّلة شراسة: كرشه اللئيم، وطريقته المفخَّمة في الكلام، وساقاه اللتان كساقَي وشق، ويداه الغليظتان مع البنصر المختنق بفصّ الياقوت. الشيء الوحيد اللين فيه، والذي تنبه إليه فلورينتينو أريثا مذ رآه يمشي أول مرَّة، هو مشيته الغزلانية التي تماثل مشية ابنته. ومعه ذلك، فإنه لم يره فظاً كما كان يظن حين أشار له إلى الكرسي كي يجلس، ثم إنه استرد أنفاسه عندما دعاه لتناول كأس من خمرة لها طعم اليانسون. لم يكن فلورينتينو أريثا قد تناول مشروباً كهذا في الثامنة صباحاً من قبل، لكنه وافق شاكراً، لأنه كان بحاجة إليه وبسرعة.

لم يتأخر لورينثو داثا فعلاً أكثر من خمس دقائق في عرض غرضه، وفعل ذلك بصراحة مجردة جعلت الأمر يختلط على فلورينتينو أريثا. لقد وضع نصب عينيه، منذ وفاة زوجته، هدفاً وحيداً، هو أن يجعل من ابنته سيدة عظيمة. وكان السبيل إلى ذلك طويلاً وشائكاً بالنسبة لتاجر بغال لا يحسن القراءة ولا الكتابة، رغم أن سمعته كلص مواشي لم تكن مؤكدة بمثل درجة انتشارها في مقاطعة سان خوان دي لا ثييناغا. أشعل سيجار بغّال، وقال متحسراً: «الشيء الوحيد الذي اعتبره أسوأ من اعتلال الصحة هو سوء السمعة». ومع ذلك - قال - أن سرَّ ثروته الحقيقي هو أنه

لم يكن يجعل أي من بغاله يعمل بقدر ما كان هو نفسه يعمل وبتصميمه، حتى في أكثر أزمنة الحرب مرارة، حين كانت القرى تستيقظ متحوِّلة إلى ركام والحقول إلى هشيم. ورغم أن ابنته لم تطّلع يوماً على مخطط مصيرها، إلا أنها كانت تتصرف كشريكة متحمسة. فهي ذكية ومنظمة، حتى إنها علَّمت أباها القراءة بالسرعة نفسها التي تعلَّمتها هي بها. وفي الثانية عشرة من عمرها كانت مطلعة على الواقع بصورة تؤهلها لتسيير شؤون البيت من دون الحاجة إلى العمة اسكولاستيكا. وتنهد: «إنها بغلة ذهبية». وعندما أنهت ابنته المدرسة الابتدائية، بدرجات قصوى في كافة المواد، مع تنويه شرف في حفل الختام، أدرك أن بلده سان خوان دي لا ثييناغا أصبحت ضيِّقة على أحلامه. عندئذ صفى ممتلكاته من الأراضي والمواشي، وانتقل بقوى جديدة وسبعين ألف بيزو ذهباً إلى هذه المدينة المنهارة، ذات الأمجاد المنخورة، ولكن حيث المجال متاح لامرأة جميلة ومؤدبة، على الطريقة القديمة، أن تولد من جديد بزواج محظوظ. لقد كان اقتحام فلورينتينو أريثا حياتهما عائقاً غير منتظر في ذلك المخطط الصارم.

- إنني آت لأتقدم منك برجاء.

قال لورينثو أريثا. ثم بلل عقب السيجار بخمر اليانسون، وأخذ منه نفساً بلا دخان، واختتم بصوت مغموم:

- ابتعد عن طريقنا.

كان فلورينتينو أريثا قد أصغى إليه وهو يتناول رشفات من خمر اليانسون، منذهلاً من اكتشاف ماضي فيرمينا داثا، حتى إنه لم يسأل نفسه عمّا سيقوله عندما سيتكلم. وما إن حان وقت الكلام حتى انتبه إلى أن تقرير مصيره متوقف على ما سيقوله. فسأل:

- هل كلمتها؟

قال لورينثو داثا:

- هذا ليس من اختصاصك.

وقال فلورينتينو أريثا:

- انني أسأل لأنني أرى أنها هي التي عليها أن تقرِّر.

فقال لورينثو داثا:

- لا شيء من هذا. فالقضية قضية رجال ويجب تسويتها بين الرجال.

أصبحت نبرة صوته متوعّدة، والتفت زبون على المنضدة المجاورة لينظر إليهما. وتكلم فلورينتينو أريثا بأخفض صوت ممكن ولكن بأقصى ما لديه من تصميم.

- لا أستطيع إجابتك من دون أن أعرف رأيها. فذلك سيكون خيانة.

حينئذ شدّ لورينثو داثا نفسه إلى الوراء في المقعد، بأجفانه المحمرَّة والرطبة، ودارت عينه اليسرى في حجرها لتستقر مائلة إلى الخارج. ثم خفض صوته أيضاً وقال:

- لا تجبرني على قتلك بإطلاق النار عليك.

أحسَّ فلورينتينو أريثا أن أحشاءه قد امتلأت برغوة باردة، لكن صوته لم يرتعش، لأنه أحسَّ أيضاً بأنه ملهَم بوحي من الروح القدس. فقال واضعاً يده على صدره:

- أطلق.

كان على لورينثو داثا أن ينظر إليه مجانبة، كالببغاوات، ليراه بالعين المائلة. ولم ينطق الكلمات الثلاث، وإنما بدا كأنه يبصقها مقطعاً مقطعاً:

- يا - ابن - العا - هر - ة!

في ذلك الأسبوع بالذات حمل ابنته إلى رحلة النسيان. لم يقدِّم لها أي تفسير، سوى أنه اقتحم غرفة نومها وشاربه ملوَّث بالغضب المختلط مع السيجار الممضوغ، وأمرها بأن تجهِّز أمتعة السفر. سألته إلى أين

سيذهبان، فأجابها: «إلى الموت». وحاولت وهي فزعة من هذا الجواب الذي يشابه الحقيقة كثيراً مواجهته بشجاعة الأيام الماضية، لكنه نزع حزامه ذا الإبزيم النحاسي، وطواه على قبضته، ثم هوى على الطاولة بضربة دوّت في أرجاء البيت كأنها طلقة بندقية. فعرفت فيرمينا داثا جيداً مدى قوَّتها وتناسبها. وهكذا أعدت أمتعة السفر ولفَّتها ببساطين وأرجوحة نوم، ووضعت كل ملابسهما في صندوقين كبيرين، وهي متأكدة من أنها رحلة بلا عودة. وقبل أن ترتدي ثيابها، حبست نفسها في الحمَّام وتمكنت من كتابة رسالة وداع قصيرة إلى فلورينتينو أريثا على ورقة منتزعة من مجموعة الورق الصحي. ثم قصّت ضفيرتها كاملة من مستوى الرقبة بمقص تقليم، ولفتها في علبة من المخمل مطرزة بخيوط ذهبية وبعثت بها مع الرسالة.

كانت رحلة جنونية. مرحلتها الأولى وحدها استغرقت أحد عشر يوماً برفقة قافلة بغّالي الأنديز، على صهوة بغلة فوق جروف سلسلة سييرا نيفادا الوعرة، وقد أمضوها مخدَّرين بالشموس اللاهبة أو مبللين بأمطار تشرين الأفقية، وبأنفاس متحجِّرة في معظم الأحيان بفعل الأبخرة المُنوِّمة التي تنبعث من الجروف. وفي اليوم الثالث للرحلة انزلقت بغلة هائجة بسبب ذباب الدواب وهوت مع فارسها ساحبة معها مجموعة البغال المربوطة بها كلها، وقد استمرت زعقة الرجل وعنقوده المؤلف من سبع بهائم، مربوطة إلى بعضها، تتردد في الأودية والوهاد لعدة ساعات بعد الكارثة، وبقيت تطنُّ في ذاكرة فيرمينا داثا لسنوات وسنوات. لقد هوى كل متاعها مع البغال، ولكنها في لحظة القرون التي استغرقها السقوط إلى أن انطفأت صرخة البغّال في القاع، لم تفكر بالرجل المسكين الذي مات ولا بالقافلة التي تمزقت، وإنما كانت ترى الكارثة في أن بغلتها التي تمتطيها لم تكن مربوطة مع البغال الأخرى.

كانت المرَّة الأولى التي تمتطي فيها صهوة بهيمة، ولكن رعب

الرحلة وآلامها التي لا حصر لها ما كانت لتبدو لها بهذه المرارة لولا قلقها من كونها لن ترى فلورينتينو أريثا بعد اليوم، ولن تجد العزاء في رسائله. منذ بدء الرحلة لم تبادل أباها الحديث، وكان هو بدوره مضطرباً يكاد لا يكلمها إلا في بعض الأمور الضرورية، أو يكتفي بإرسال بعض التعليمات إليها مع البغّالين. وحين كان الحظ يحالفهم، يجدون نزلاً على الطريق يُقدَّم فيه طعام جبلي ترفض تناوله، ويؤجّرونهم فراشاً متسخاً بعرق وبول زنخين. أما معظم الليالي فكانوا يقضونها في أكواخ هنود، أو في منامات عامة في الهواء الطلق مشيَّدة على حافة الدروب في صفوف من أكواخ خشبية ذات سقوف من النخيل، حيث لكل من يصل الحق في البقاء حتى الفجر. لم تتمكن فيرمينا داثا من النوم ليلة كاملة وهي تتعرّق خوفاً، وتحسُّ في الظلام بحركة المسافرين الرشيقة وهم يربطون دوابهم في الأكواخ الخشبية ويعلقون أراجيح نومهم حيث يستطيعون.

في المساء، عند وصول أوّل المسافرين، يكون المكان بهياً وهادئاً، لكنه يتحوَّل في الصباح إلى ساحة مهرجان، مليئة بحشد من أراجيح النوم المعلقة على عدَّة مستويات، وبهنود أرواكو الجبليين الذين ينامون مقرفصين، وبتململ الماعز المربوطة وصخب ديكة المصارعة في صناديقها الفرعونية، والصمت اللاهث للكلاب الجبلية المدرَّبة على عدم النباح خوفاً من مخاطر الحرب.

لقد كانت تلك الأجواء مألوفة للورينثو داثا، الذي عمل تاجراً في المنطقة خلال نصف حياته، وكان يلتقي بصورة شبه دائمة بأصدقاء قدماء عند الفجر. أما بالنسبة للإبنة، فكانت الرحلة احتضاراً مؤبَّداً. فنتانة شحنات السمك المملح، مضافٌ إليها فقدانها الشهية، توصلا إلى إتلاف عادة الأكل لديها، وإذا كان لم يصبها مسٌّ من اليأس فلأنها وجدت الفرج دوماً في ذكرى فلورينتينو أريثا. ولم تشك للحظة في أن تلك الأرض هي

أرض النسيان. وكان هناك رعب ماثل آخر هو رعب الحرب. فمنذ بدء الرحلة جرى حديث عن خطر الالتقاء بالدوريات المنتشرة، وقد درَّبهم البغَّالون على مختلف الأساليب لمعرفة الجهة التي ينتمون إليها كي يتصرفوا بما يتلاءم مع الوضع. وكثيراً ما كانوا يلتقون بإرسالية جند على الخيول، تحت إمرة ضابط، تقوم بحملة تجنيد إجباري لمجندين جدد، وذلك بربطهم كالعجول وإجبارهم على الجري.

مثقلة بكل هذه المخاوف، نسيت فيرمينا داثا ذاك الذي بدا لها أكثر خرافية من الأمور الوشيكة الحدوث، إلى أن اختطفت دورية بلا انتماء معروف مسافرَيْن من القافلة في إحدى الليالي وشنقتهما على شجرة كايلي على بعد فرسخ واحد من المنامة. لم يكن للوريثو داثا أي علاقة بهما، لكنه أنزلهما عن الأنشوطة، ودفنهما كمسيحيين وذلك بدافع الحمد والامتنان لأنه لم يلقَ المصير نفسه. وكان هذا أقل ما يمكن عمله، لأن المهاجمين كانوا قد أيقظوه وفوهة بندقية مصوبة إلى بطنه، واقترب منه قائد بأسمال، وجهه مطلي بسناج أسود، وصوّب نحوه ضوء مصباح يدوي، وسأله إن كان ليبرالياً أم محافظاً. فقال لوريثو داثا:

- لست هذا ولا ذاك. أنا مواطن إسباني.

فقال الكومندان: - يا لك من محظوظ!

ثم ودَّعه رافعاً يده إلى أعلى وقال: فليحيا الملك!

بعد يومين من ذلك نزلوا إلى السهل الساطع، حيث تقع بلدة فاييدوبار السعيدة. كانت تُقام هناك مصارعات ديكة في الباحات، وتُعزف موسيقى أوكورديون في المنعطفات، كما كان هناك فرسان يمتطون صهوات جياد كريمة، وألعاب نارية وقرع نواقيس. وكانوا قد نصبوا كذلك قلعة أسهم نارية. لكن فيرمينا داثا لم تُعِر أي اهتمام حتى للجوقة الموسيقية. استضافهما الخال ليسيماكو سانتشيث، شقيق

أمها الذي خرج لاستقبالهم على الطريق الرئيسي ترافقه كوكبة من الفرسان الأقارب الشباب الذين يمتطون بهائم من أفضل السلالات في المقاطعة، وقادوهما عبر شوارع البلدة وسط فرقعة الألعاب النارية. كان البيت في نطاق الساحة الكبرى، إلى جوار الكنيسة الاستعمارية المرممة عدَّة مرَّات والتي كانت أشبه بمستودع محاصل بحجراتها الفسيحة والمظلمة، وممرها العابق برائحة عصير قصب السكر الدافئ، مقابل بستان أشجار مثمرة.

وما إن ترجَّلوا في الإسطبلات، حتى امتلأت صالات الاستقبال بأعداد من الأقارب المجهولين الذين كانوا يزعجون فيرمينا داثا بسيل عواطفهم الذي لا يطاق، لأنها كانت عاجزة عن حب أحد آخر في هذا العالم، إضافة إلى تسلُّخ بشرتها من امتطائها البهيمة، وإنهاكها من النعاس والإسهال، والشيء الوحيد الذي كانت تتشوّق إليه هو مكان منعزل وهادئ لتبكي فيه. وكانت ابنة خالها هيلديبراندا، التي تكبرها بسنتين ولها كبرياؤها الإمبراطوري ذاته، هي الوحيدة التي تفهَّمت حالتها مذ رأتها أوَّل مرَّة، لأنها كانت تكتوي كذلك بجمرات حب متهوِّر. رافقتها عند المساء إلى حجرة نومها التي أعدتها لتتقاسمها وإياها، ولم تستطع أن تفهم كيف ما زالت على قيد الحياة بهذه القروح النارية في إليتيها. وبمساعدة أمها، وهي امرأة عذبة وشبيهة جداً بزوجها حتى ليبدوان وكأنهما توأمان، أعدت لها مغطساً وخففت لها حرارة الحمى بكمادات من أزهار جبلية، بينما كانت أسهم قلعة البارود النارية تهز أعماق البيت.

انصرف الزوار عند منتصف الليل، وتفرَّقت الحفلة العامة إلى جذوات مبعثرة، وأعارت ابنة الخال هيلديبراندا قميص نوم قطنياً أبيض لفيرمينا داثا، وساعدتها على الاستلقاء في سرير ذي شراشف نظيفة ووسادة ريش أوحت لها، بغتة، برعب السعادة المفاجئ. وعندما ظلتا وحدهما أخيراً، أغلقت الباب بالمزلاج، وأخرجت من تحت فرشة سريرها مغلَّفاً

مختوماً بشعار التلغراف الوطني. وكانت رؤية تعابير المكر المشعَّة من وجه ابنة الخال تبرعم في ذاكرة قلب فيرمينا داثا رائحة أزهار ياسمين بيضاء، قبل أن تفتت بأسنانها خاتم الشمع الأحمر وتبقى حتى الفجر متخبطة في بركة دموع البرقيات الإحدى عشر الخارقة.

وعرفت عندئذ كل شيء. فقبل الانطلاق بالرحلة، ارتكب لورينثو داثا خطيئة إرسال برقية إلى حميه ليسيماكو سانتشيث يخبره فيها برحلته، وبعث هذا الأخير بدوره الخبر إلى حلقة أقربائه الواسعة والمعقدة، المنتشرة في عدد كبير من قرى ودروب المقاطعة. وهكذا لم يتمكن فلورينتينو أريثا من معرفة مسار الرحلة كله فحسب، وإنما أقام كذلك جمعية واسعة من عاملي التلغراف لاقتفاء آثار فيرمينا داثا حتى آخر قرية في كابو دي لافيلا. وقد أتاح له ذلك الاحتفاظ باتصال مكثف معها منذ وصولها إلى فيدوبار، حيث أقامت ثلاثة شهور، وحتى نهاية الرحلة في ريو هاتشا، بعد سنة ونصف، حين هُيِئ للورينثو داثا أن ابنته قد نسيت، وقرّر الرجوع إلى بيته. ربّما لم يكن هو نفسه واعياً لمدى تراخي مراقبته، في انشغاله بمداهنات أنسبائه السياسيين الذين تخلوا، بعد كل تلك السنين، عن أوهامهم القبلية وقبلوه بقلب مفتوح كواحد منهم. لقد كانت زيارة مصالحة متأخرة، رغم أن الغرض الأساسي منها لم يكن كذلك. كانت عائلة فيرمينا سانتشيث قد عارضت فعلاً، وبكل إصرار زواجها من مهاجر بلا أصل، متوحش وكثير الكلام، يمضي عابراً في كل الأماكن، بتجارة بغال شبقة تبدو شديدة البساطة حتى ليُشَك في نظافتها. كان لورينثو داثا يلعب لعبة كبيرة، لأن محبوبته هي أفضل فتاة في عائلة تقليدية من عائلات المنطقة: قبيلة متشابكة من النساء الباسلات والرجال طيبي القلب وسهلي الزناد، ممن يهيجون إلى حدِّ الجنون في مسائل الشرف. ومع ذلك، فقد أصرَّت فيرمينا شانتشيث بكبريائها على قرار حبها الأعمى، وتزوجت منه رغم غضب العائلة بسرعة كبيرة

وأسرار كثيرة، فبدت وكأنها لم تفعل ذلك بدافع الحب، وإنما لإخفاء زلة مبكرة بغطاء الزواج المقدس.

وبعد خمس وعشرين سنة، من دون أن ينتبه لورينثو داثا إلى أن عناده أمام حب ابنته هو تكرار لتاريخه المعيب ذاته، كان يشكو بلواه أمام أحمائه الذين عارضوا زواجه، كما شكا هؤلاء في حينهم أمام أحمائهم. ولكن الوقت الذي كان يضيعه في حسراته كانت ابنته تكسبه في غرامياتها. وفيما هو منصرف إلى خصي العجول وترويض البغال في أرض أحمائه السعيدة، كانت هي تمضي مُفلتة الأعنة مع فوج من بنات خؤولتها تقودهن هيلديبراندا سانتشيث، أجملهن وأسرعهن في تقديم الخدمات، والتي كانت تكتفي بنظرات مختلسة في حبها الطائش لرجل يكبرها بعشرين سنة، متزوج وأب لأولاد.

بعد الإقامة الطويلة في فاييدوبار، تابعا الرحلة عبر المرتفعات المجاورة لسلسلة الجبال، مجتازين مروجاً مزهرة وتلالاً حالمة، واستُقبلوا في جميع القرى بمثل الاستقبال الأول، مع الموسيقى والمفرقعات، وبنات خؤولة جديدات متواطئات ورسائل منتظمة في مكاتب التلغراف. وسرعان ما تنبهت فيرمينا داثا إلى أن وصولها إلى فاييدوبارو لم يكن مختلفاً، وأن جميع أيام الأسبوع في تلك المقاطعة الغنية كانت تعاش وكأنها أيام أعياد. كان الضيوف ينامون حيث يفاجئهم الليل ويأكلون حيث يصادفهم الجوع، فالبيوت مشرعةُ الأبواب وفيها دائماً أرجوحة نوم معلقة وطبيخ فيه بضع قطع من اللحم يغلي على موقد، تحسُّباً لقدوم أحد قبل وصول برقية الإعلان عن مجيئه، كما كان يحدث بشكل شبه دائم. رافقت هيليبدراندا سانتشيث ابنة عمتها في بقية مراحل الرحلة، وقادتها بسعادة عبر تشابكات الدم حتى منابع أصلها. وتعرَّفت فيرمينا داثا على ذاتها، وأحسَّت بأنها سيدة نفسها للمرة الأولى، أحسَّت بأنها مرافقة ومحمية، وأن رئتيها ممتلئتان بهواء حرية أعاد إليها

الطمأنينة وإرادة الحياة. وبقيت تذكر تلك الرحلة حتى سنواتها الأخيرة وتشعر بها أقرب عهداً في ذاكرتها، مع صحوات الحنين المضللة.

وفي إحدى الليالي، رجعت من جولتها اليومية مذهولة لاكتشافها أنه لا يمكن للمرء أن يكون سعيداً من دون الحب وحسب، وإنما كذلك بأن يكون ضده. وقد أفزعها هذا الاكتشاف لأن إحدى بنات أخوالها استمعت مصادفة إلى حديث بين آبائهن ولورينثو داثا، لمَّح هذا الأخير خلاله إلى موافقته على فكرة زواج ابنته من وارث ثروة كليوفاس موسكوتي الخيالية. كانت فيرمينا داثا تعرفه. فقد رأته وهو يذرع الساحات على متن جياده الكريمة، ذات السروج الفاخرة التي تبدو كأنها زينة القدَّاس، وكان أنيقاً وجذاباً، له رموش حالمة تجعل الأحجار تتنهد، لكنها قارنته في ذاكرتها بفلورينتينو أريثا الجالس تحت أشجار اللوز في الحديقة، بائساً وضامراً، مع كتاب الأشعار في حضنه، ولم تجد في قلبها ظلاً من الشك.

كانت هيلديبراندا سانتشيث تمضي في تلك الأيام مهووسة بالأحلام بعد زيارة قامت بها لعرافة أذهلتها دقة بصيرتها. فذهبت فيرمينا داثا، المرتعبة من نوايا أبيها، لاستشارتها كذلك. وقد أنبأها الورق بأنه لا وجود في مستقبلها لأي عائق أمام زواج طويل سعيد، وقد أعادت لها تلك النبوءة أنفاسها، لأنها لم تكن تتصوَّر أنه يمكن لمصير موفق إلى هذا الحد أن يكون مع رجل آخر سوى الذي تحبه. وتولَّت حينئذ مقاليد اختيارها وهي سعيدة بهذا اليقين. وهكذا لم تعد مراسلاتها مع فلورينتينو أريثا مجرّد كونشيرتو من النوايا والوعود الخيالية، بل عادت لتصبح منهجية وعملية، وأكثر زخماً من كل ما سبق. حددا المواعيد، وأقرّا الأساليب، ورهنا حياتيهما بقرارهما المشترك في الزواج من دون الرجوع إلى أحد، في أي مكان وبأية طريقة، وذلك فور لقائهما من جديد. كانت فيرمينا داثا تعتبر هذا الوعد حاسماً لدرجة أنها، في

الليلة التي سمح لها فيها أبوها بحضور الحفلة الراقصة الأولى كراشدة، في بلدة فونسيكا، لم ترَ أنه من الوقار القبول بالذهاب من دون موافقة خطيبها. وفي تلك الليلة كان فلورينتينو أريثا يلعب الورق مع لوتاريو توغوت في فندق العابرين، عندما أخبروه بأنه مطلوب في اتصال برقي مستعجل.

كان المتصل هو موظف التلغراف في فونسيكا، وقد عشَّق مفاتيح اتصال سبع محطات وسيطة، لتطلب فيرمينا داثا الإذن بحضور الحفلة الراقصة. ولكنها حين حصلت على التصريح، لم تكتف بمجرد الردِّ الإيجابي، وإنما طلبت ما يثبت أن فلورينتينو أريثا هو من يضرب مفاتيح الإرسال في الطرف الآخر من الخط فعلاً. فصاغ، وهو مذهول أكثر منه مغازِلاً، عبارة تحدد هويته: قل لها إنني أقسم بالربة المتوجة. وهكذا تعرفت فيرمينا داثا على الإشارة، وظلت في حفلتها الراقصة الأولى كراشدة حتى الساعة السابعة صباحاً، عندما أصبح عليها الذهاب لاستبدال ملابسها كي لا تصل متأخرة إلى القدّاس.

كانت تملك حينئذ في قاع صندوقها كمية من الرسائل والبرقيات أكبر من تلك التي انتزعها أبوها منها. وكانت قد تعلّمت أن تسلك سلوك النساء المتزوِّجات. وقد اعتبر لورينثو داثا تلك التبدُّلات التي طرأت على سلوكها بأنها شفاء لا شك فيه من أوهام شبابها، أوصلها إليه البعد والزمن، لكنه لم يطرح عليها أبداً مشروع الزواج المتفق عليه. وأصبحت علاقتها بأبيها أكثر انسياباً، ضمن التحفظات الشكلية التي فرضتها منذ طرد العمَّة اسكولاستيكا، ممّا أتاح لهما نوعاً من التعايش المريح، ما كان لأحد أن يشك بأنه ليس قائماً على المحبة.

وكان أن قرَّر فلورينتينو أريثا في هذه الفترة إخبار فيرمينا داثا في رسائله بأنه مشغول في الكشف لها عن كنز السفينة الغارقة. كان يفعل

ذلك حقاً، وقد خطر له الأمر كنفحة إلهام، ذات مساء منير بينما البحر يبدو وكأنه مرصوف بالألمنيوم، لكميات السمك الطافية على سطح الماء بفعل أزهار البارباسكو. كانت جميع طيور السماء قد هاجت للمجزرة، بينما تولى الصيادون أمر إفزاعها بالمجاذيف كي لا تشاركهم ثمار تلك المعجزة المحرمة. فاستخدام البارباسكو، الذي يخدِّر الأسماك فقط، كان محظوراً في القانون منذ العهد الاستعماري، لكنه بقي سائداً ومستخدماً في وضح النهار بين صيادي الكاريبي، إلى أن استُبدل بالديناميت. إن إحدى متع فلورينتينو أريثا، أثناء رحلة فيرمينا داثا، كانت مشاهدة الصيادين، من فوق مانع الأمواج، وهم يملأون زوارقهم بالشباك المترعة بالأسماك المخدرة. كما كانت هناك عصبة صبيان يسبحون كأسمالك القرش، ويطلبون من الفضوليين إلقاء قطع نقدية لاستخراجها من قاع الماء. أنهم أولئك الذين ينطلقون سابحين للغرض ذاته للقاء عابرات المحيطات، والذين كُتبت عنهم مقالات وتحقيقات رحَّالة كثيرين في الولايات المتحدة وأوروبا، لمهارتهم في فن الغوص. لقد كان فلورينتينو أريثا يعرفهم منذ الأزل، بل وقبل أن يعرف الحب، ولكن لم يخطر بباله يوماً أنهم قادرون على استخراج كنز السفينة سباحة. وقد فكَّر بذلك مساء هذا اليوم، ومنذ يوم الأحد التالي وحتى عودة فيرمينا داثا، بعد حوالي سنة، كان لديه سبب آخر للهذيان.

لقد فُتن أوكليديس، أحد الصبية السباحين، كثيراً كما فتن هو نفسه بفكرة الاستكشاف تحت الماء، بعد محادثة لم تتجاوز العشر دقائق. لم يكشف له فلورينتينو أريثا عن حقيقة مشروعه، بينما استفسر منه بالتفصيل عن إمكاناته كغوَّاص وبحَّار. سأله إن كان يستطيع النزول من دون هواء إلى عمق عشرين متراً، وقال له أوكليديس نعم. سأله إن كان في وضع يؤهله لقيادة زورق صياد بمفرده في عرض البحر وسط عاصفة، من دون أية أدوات أخرى سوى غريزته، وقال له أوكليديس:

نعم. سأله إن كان قادراً على تحديد موقع معين على بعد ستة عشر ميلاً بحرياً إلى الشمال الشرقي من الجزيرة الكبرى في أرخبيل سوتافينتو، وقال له أوكليديس: نعم. سأله إن كان قادراً على الإبحار ليلاً والتوجُّه مهتدياً بالنجوم، وقال له أوكليديس: أي نعم. سأله إن كان مستعداً للعمل معه بالأجر نفسه الذي يدفعه له الصيادون لقاء مساعدتهم في الصيد، وقال له أوكليديس: نعم، إنما مع إضافة خمسة ريالات في أيام الآحاد. سأله إن كان يحسن حماية نفسه من أسماك القرش، وقال له أوكليديس: نعم، وأن لديه تعاويذ سحرية لإفزاعها. سأله إن كان قادراً على كتمان السرَّ حتى ولو وضعوه على آلات التعذيب في قصر محكمة التفتيش، وقال له أوكليديس: نعم. لم يقل له «لا» عن أي شيء إذاً، وكان يعرف كيف يقول نعم بخصوصية لا يرقى إليها الشك. ثم عرض عليه أخيراً حساب النفقات: استئجار الزورق، استئجار المجداف، استئجار عدَّة صيد حتى لا يرتاب أحد بحقيقة رحلاتهم. إضافة إلى حمل الطعام وقربة ماء عذب، ومصباح زيت، وحزمة شموع من الشحم، وقرن صياد لطلب النجدة في حالة الطوارئ.

كان عمره حوالي اثني عشر عاماً، وكان سريعاً وماكراً، ومتحدثاً لا يملُّ الكلام، له جسد حنكليس يبدو وكأنه قد تكوَّن ليمرَّ بخفة من نافذة سفينة. وكانت عوامل الجو قد دبغت بشرته بحيث أصبح مستحيلاً معرفة لونها الأصلي؛ وهذا جعل عينيه الواسعتين الصفراوين تبدوان أكثر بريقاً. وقرّر فلورينتينو أريثا على الفور أنه الشريك المناسب لمغامرة بمثل هذا الحجم، وانطلقا في تلك المغامرة يوم الأحد التالي من دون أي إجراءات أخرى.

أبحرا من مرفأ الصيادين عند الفجر، مموَّنين جيداً وعاقدين العزم أكثر. كان أوكليديس شبه عار، لا يكاد يغطي جسده سوى المئزر الذي يضعه دوماً حول خصره. وكان فلورينتينو أريثا يرتدي السترة الرسمية،

والقبعة القائمة، وجزمته الصقيلة، ويضع ربطة الشاعر حول عنقه، ويحمل الكتاب الذي سيشغل نفسه به أثناء الرحلة إلى الجزر. ومنذ يوم الأحد الأول انتبه إلى أن أوكليديس بحّارٌ حاذق بقدر ما هو غوّاص ماهر، وأن له قدرة مذهلة على الحديث عن طبيعة البحر وخردة الحديد التي على الشاطئ. فهو قادر على سرد حكاية كل هيكل من هياكل السفن التي عاث فيها الصدأ، بأدق تفاصيلها التي لا ترد على بال، ويعرف عمر كل جسم طافٍ ومنشأ كل حطام، وعدد حلقات السلسلة التي كان الإسبان يغلقون بها الخليج. وخوفاً من أن يكون قد عرف كذلك الغرض من هذه الحملة، وجه إليه فلورينتينو أريثا بعض الأسئلة المراوغة، وعرف من خلالها أنه لا تراود أوكليديس أية شكوك حول مسألة السفينة الغارقة.

مذ سمع حكاية الكنز، أوّل مرّة، في فندق العابرين، جمع فلورينتينو أريثا كل ما أمكنه من معلومات عن دروب ذلك النوع من السفن. وعرف أن السفينة سان خوسيه ليست السفينة الوحيدة في تلك الأعماق المرجانية. لقد كانت بالفعل سفينة القيادة في أسطول تيرا فيرميه، وقد جاءت هنا بعد شهر أيّار من عام 1708، قادمة من مهرجان بورتوبيلّو الخرافي في بنما، حيث حملت جزءاً من كنزها: ثلاثمائة صندوق من فضة البيرو وفيراكروث، ومئة وعشر لآلى جُمعت وأحصيت في جزيرة كونتادورا. وخلال توقفها الذي استمر لأكثر من شهر هنا، كانت أيامها ولياليها مهرجانات واحتفالات شعبية متواصلة، وقد قاموا بتحميلها ببقية الكنز المرصود لإخراج مملكة إسبانيا من الفقر: مئة وستة عشر صندوقاً من زمرد موثو وسوموندوكو، وثلاثون مليون مسكوكة ذهبية.

كان أسطول تيرا فيرميه مؤلفاً ممّا لا يقل عن اثنتي عشرة سفينة متنوعة الأحجام. وقد أبحر من هذا الميناء في رحلة يحميها أسطول فرنسي جيد التسليح، لم يستطع رغم ذلك حماية الحملة من مدافع الأسطول الإنكليزي الدقيقة التصويب، بقيادة القومندان كارلوس واغير

الذي كان ينتظر في أرخبيل سوتا فينتو، عند مخرج الخليج. وهكذا لم تكن «سان خوسيه» هي السفينة الوحيدة الغارقة، مع أنه لا وجود لتوثيق دقيق لعدد السفن التي تحطمت، وعدد تلك التي استطاعت النجاة من نيران الإنكليز. لكن الذي لا شك فيه هو أن سفينة القيادة كانت من السفن الأولى التي غرقت بكامل طاقمها مع قائدها الذي لم يتزحزح من مقصورة القيادة، وأنها هي وحدها التي كانت تحمل الشحنة الكبيرة.

لقد تعرَّف فلورينتينو أريثا على طريق السفن القديمة من خلال رسائل قباطنة السفن في ذلك العصر، وظنَّ أنه قد حدّد مكان الغرق أيضاً. خرجا من الخليج ما بين حصنَيْ بوكا تشيكا، وبعد أربع ساعات من الإبحار دخلا في الماء الراكد ما بين جزر الأرخبيل، ذلك الماء ذي الأعماق المرجانية، حيث بالإمكان إمساك أسماك جراد البحر النائمة باليد. كان الهواء خفيفاً، والبحر هادئاً وصافياً، حتى إن فلورينتينو أريثا رأى نفسه معكوساً في الماء. وبعد تجاوز المياه الراكدة، على بُعد ساعتين من الجزيرة الكبرى، وصلا إلى موقع الغرق.

أشار فلورينتينو أريثا، المحتقن بالشمس الجهنَّمية وهو في ملابسه المأتمية، على أوكليديس أن يحاول النزول إلى عمق عشرين متراً وجلب أي شيء يجده في القاع. لقد كان الماء صافياً لدرجة أنه رآه وهو يتحرك في الأسفل، مثل سمكة قرش متسخة بين أسماك القرش الزرقاء التي تمرُّ إلى جانبه من دون أن تمسَّه. ثم رآه يختفي في عرق مرجاني، وعندما فكر بأنه لم يعد لديه أي قدر من الهواء سمع الصوت وراء ظهره. كان أوكليديس واقفاً ويداه مرفوعتان والماء يغمره حتى خصره. وتابعا البحث على هذا المنوال عن أماكن أعمق، متوجهين دائماً نحو الشمال، ومبحرين فوق أسماك الماتاراتا الدافئة، والحباري الهيابة، وورود الظلمات، إلى أن أدرك أوكليديس بأنهما يضيِّعان وقتهما. فقال له:

- إذا لم تقل لي ما الذي تريدني أن أجده، فلست أدري كيف سأتمكن من العثور عليه.

لكنه لم يخبره. عندئذ اقترح عليه أوكليديس أن يخلع ملابسه وينزل للغوص معه، ولو لمجرد رؤية تلك السماء الأخرى للكون التي في الأعماق المرجانية. لكن فلورينتينو أريثا اعتاد على القول أنَّ الله إنما خلق البحر لنراه من النافذة، ولم يحاول يوماً أن يتعلم العوم. بعد قليل من ذلك صار المساء غائماً، وتحوَّل الهواء إلى رطب وبارد، وأظلمت الدنيا بسرعة ممّا اضطرهما إلى الاسترشاد بالفنار ليصلا إلى المرفأ. وقبل أن يدخلا الخليج، رأيا عابرة المحيطات الفرنسية تمرُّ قريباً جداً منهما وجميع أنوارها مضاءة، كانت ضخمة وبيضاء، وخلفت وراءها أثراً من رائحة لحم طازج مطبوخ وقنَّبيط يغلي.

لقد أضاعا ثلاثة آحاد على تلك الحال، وكانا سيضيعان جميع أيام الآحاد لو لم يقرر فلورينتينو أريثا مشاركة أوكليديس في سره. فقام هذا عندئذ بتعديل خطة البحث كلها، ومضيا للإبحار في القنال القديم الذي كانت تسلكه السفن، والذي يبعد أكثر من عشرين فرسخاً بحرياً إلى الشرق من المكان الذي خمَّنه فلورينتينو أريثا. وقبل انقضاء شهرين، في مساء يوم بحري ماطر، بقي أوكليديس وقتاً طويلاً في القاع، وكان الزورق قد انحرف كثيراً ممّا جعله يسبح حوالي نصف ساعة للحاق به، لأن فلورينتينو أريثا لم يستطع تقريبه بالمجداف. وعندما تمكَّن من الإمساك بالزورق أخيراً، أخرج من فمه قطعتي حلي نسائية وعرضهما بإحساس المثابر الفائز.

إن ما رواه حينئذ كان أخَّاذاً، ما جعل فلورينتينو أريثا يقطع على نفسه عهداً بتعلم السباحة، والغوص إلى حيث يستطيع، ليتأكد من ذلك بعينيه فقط. روى أنه توجد في ذلك المكان، وعلى عمق ثمانية عشر متراً فقط،

أعداد من السفن الشراعية القديمة جاثمة بين الصخور المرجانية، وأنه يستحيل عليه حصر عددها، وأنها موزعة في مجال فسيح لا يحيط به البصر، وروى أن أكثر ما فاجأه هو أنه لا يوجد قارب واحد بين القوارب الكثيرة الطافية في الخليج، أحسن حالاً من السفن الغارقة. روى أن هناك عدَّة سفن شراعية ما زالت أشرعتها في حالة جيِّدة، وأن السفن الغارقة كانت تبدو للنظر في الأعماق كما لو أنها غرقت بمكانها وزمانها، حتى إنها ما زالت مضاءة بشمس الساعة الحادية عشرة من صباح يوم السبت، التاسع من حزيران، الذي غرقت فيه. وروى، مختنقاً باندفاع خياله، أن أسهل سفينة يمكن تمييزها هي سان خوسيه، التي يبدو اسمها للعيان مكتوباً على مقدمتها بحروف من الذهب، لكنها في الوقت ذاته السفينة التي لحق بها أكبر ضرر من مدافع الإنكليز. وروى أنه رأى بداخلها أخطبوطاً عمره أكثر من ثلاثة قرون، تخرج ملامسه من فتحات المدافع، وأنه قد تضخم كثيراً في صالة الطعام لدرجة أن إخراجه يستوجب تفكيك السفينة. وروى أنه رأى جسد قبطان السفينة بزيه الحربي طافياً على جانبه في الحوض المائي المتشكل في مقصورة القيادة، وقال إنه إذا كان لم ينزل إلى عنابر الكنز فلأن هواء رئتيه لم يكفه لذلك. وها هي الأدلة: قرط فيه زمردة، وميدالية عليها رسم السيدة العذراء مع سلسلتها المتآكلة بفعل الأملاح.

هكذا ذكر فلورينتينو أريثا الكنز، أول مرَّة، في رسالة موجهة إلى فيرمينا داثا، بعثها إليها وهي في فونسيكا، قبل عودتها بقليل. لقد كانت قصة السفينة الغارقة مألوفة لديها، إذ سمعت عنها عدَّة مرَّات من فلورينتينو أريثا الذي أضاع وقتاً ومالاً في محاولة لإقناع مؤسسة غوَّاصين ألمان بالتعاون معه في استخراج الكنز الغارق. وكان سيلحُّ على المهمة، لولا أن عدداً من أعضاء أكاديمية التاريخ أقنعوه بأن أسطورة السفينة الغارقة ابتدعها أحد حكام المستعمرات اللصوص الذي استولى بهذه الوسيلة

على ثروات التاج. وكانت فيرمينا داثا تعرف، على أية حال، أن السفينة تجثم على عمق مئتي متر، حيث لا يستطيع كائن بشري الوصول إليها، وليس على عمق عشرين متراً كما يقول فلورينتينو أريثا. لكنها كانت معتادة جداً على شطحاته الشاعرية لدرجة أنها احتفلت بمغامرة السفينة، باعتبارها واحدة من أكبر شطحات خياله. ولكن حين توالى تلقيها رسائل أخرى تتضمن تفاصيل أكثر غرابة، مكتوبة بجدية تضاهي جدِّية وعوده في الحب، اضطرت للاعتراف أمام هيلديبراندا بمخاوفها من أن يكون خطيبها المخبول قد فقد عقله.

كان أوكليديس قد خرج في هذه الأيام بأدلة عديدة على أسطورته، بحيث لم تعد القضية هي متابعة اللعب بأقراط وخواتم مبعثرة ما بين الصخور المرجانية، وإنما تمويل عملية ضخمة لاستخراج الخمسين سفينة مع الثروة البابلية التي تحملها في جوفها. حينئذ حدث ما كان سيحدث عاجلاً أو آجلاً، إذ طلب فلورينتينو أريثا من أمه أن تساعده للوصول بمغامرته إلى نهايتها الطبيعية، فاكتفت هي بعضِّ معدن الحليِّ بأسنانها، والتمعُّن في الأحجار الزجاجية أمام الضوء لتدرك أن هناك من يتعيَّش على سذاجة ابنها. وأقسم أوكليديس لفلورينتينو أريثا وهو جاث على ركبتيه أنه لا وجود لأية شائبة تشوب أعماله، لكنه اختفى من ميناء الصيادين في يوم الأحد التالي، ثم اختفى نهائياً ولم يعد يظهر في أي مكان.

الشيء الوحيد الذي بقي لفلورينتينو أريثا من كل تلك المغامرة الفاشلة هو ملجأ الهوى في الفنار. كان قد وصل إلى هناك في الزورق مع أوكليديس، في ليلة فاجأتهم فيها العاصفة وهما في عرض البحر، واعتاد منذ ذلك الحين الذهاب في المساء لتبادل الحديث، مع عامل الفنار، حول عجائب البر والبحر التي لا حصر لها، والتي كان عامل الفنار يعرفها. فكانت تلك بداية صداقة عاشت متجاوزة التبدلات الكثيرة

التي طرأت على الدنيا. وتعلم فلورينتينو أريثا هناك تغذية ضوء الفنار بشحنات من الحطب أوّل الأمر، ثم ببراميل الزيت، قبل أن تصلنا الطاقة الكهربائية. كما تعلم توجيه الضوء ومضاعفته بالمرايا، وكان يحرس ليل البحر من أعلى البرج حين يحول عائق دون قيام عامل الفنار بعمله. فتعلّم التعرُّف على السفن من أصواتها، ومن حجم أنوارها في الأفق، وصار يحسُّ بأن شيئاً منها يصله عائداً مع ومضات الفنار.

أما المتعة أثناء النهار فكانت شيئاً آخر، لا سيما أيام الآحاد. ففي حي البيريِّس، حيث يعيش أثرياء المدينة القديمة، كان الشاطئ المخصص للنساء مفصولاً عن الشاطئ المخصص للرجال بجدار من الطين: شاطئ إلى يمين الفنار وآخر إلى يساره. وقد نصب عامل الفنار منظاراً، يمكن بواسطته، وبدفع سنتافو واحد، مراقبة شاطئ النساء. ومن دون أن يعلمن بأنهن مراقبات، كانت آنسات المجتمع الراقي يعرضن خير ما لديهن من ملابس الاستحمام ذات الكشاكش الكبيرة مع أحذية خفيفة وقبعات تخفي الأجساد كما ملابس الخروج تقريباً، إضافة إلى كونها أقل جاذبية. وكانت الأمهات تقمن بالحراسة من الشاطئ وهنَّ جالسات على كراسي الخيزران الهزازة تحت الشمس، بالملابس نفسها، وقبعات الريش، والمظلات التي يذهبن بها إلى القدَّاس الكبير، خوفاً من أن يغوي بناتهن رجال الشاطئ المجاور بالتسلل تحت الماء. والحقيقة أنه لم يكن ممكناً من خلال المنظار رؤية أي شيء أكثر إثارة ممّا يمكن رؤيته في الشارع. لكن زبائن كثيرين كانوا يتهافتون كل يوم أحد، متنازعين المنظار لمجرد اللذة التافهة بتذوق ثمار ما هو ملك للغير ومحرَّم.

كان فلورينتينو أريثا واحداً منهم، دافعه إلى ذلك الملل أكثر مما هو المتعة، من دون أن يكون هذا الدافع الإضافي هو السبب في توطيد صداقته مع عامل الفنار. فالسبب الحقيقي هو أنه بعد صدِّ فيرمينا داثا، وعندما عاكس حمى الحب المبدد في محاولة لاستبداله، لم يعش أسعد

الساعات في أي مكان آخر غير الفنار، ولم يجد عزاءً أفضل منه لمحنته. كان الفنار مكانه الأثير، حتى إنه حاول خلال سنوات إقناع أمه أولاً، ثم عمُّه ليون الثاني عشر، لمساعدته في شرائه. إذ كانت فنارات الكاريبي في ذلك الحين ملكية خاصة، وكان أصحابها يتقاضون حق العبور إلى الميناء بحسب حجم السفينة. فاعتقد فلورينتينو أريثا بأنها الوسيلة الشريفة الوحيدة لأداء عمل مناسب إلى جانب الشعر. أما أمه، وعمُّه أيضاً، فلم يكونا يفكران بشيء من هذا، وعندما أصبح بإمكانه شراء الفنار من موارده الخاصة، كانت الفنارات قد انتقلت إلى ملكية الدولة.

ومع ذلك، لم يضِع أي من هذه الأحلام سدى. فأسطورة السفينة الغارقة، ثم قصة الفنار فيما بعد، خففت عنه من غياب فيرمينا داثا، وعندما لم يعد يفكّر في ذلك كثيراً، جاءه خبر عودتها. وفعلاً، كان فلورينتينو أريثا قد قرَّر العودة بعد إقامة طويلة في ريوهاتشا. لم يكن الوقت الأنسب للسفر في البحر، بسبب رياح كانون الأول الموسمية. فالسفينة الشراعية التاريخية، وهي الوحيدة التي تتجرَّأ على مثل هذه الرحلة، قد تجد نفسها عند الفجر عائدة إلى المرفأ الذي خرجت منه، مدفوعة برياح معاكسة. وكان هذا ما حدث. لقد أمضت فيرمينا داثا ليلة من الاحتضار، متقيئة الصفراء، ومقيَّدة إلى سرير قمرة تبدو كأنها مرحاض حانة، لا بسبب ضيقها الخانق فقط، وإنما بسبب النتانة والحر أيضاً. وكانت حركة السفينة عنيفة حتى خيِّل إليها عدَّة مرَّات أن أحزمة السرير ستتقطع، وكانت تصلها من سطح المركب نتف من صرخات محزونة، تبدو كأنها صرخات غرقى، وشخير والدها في السرير المجاور الذي يشبه شخير النمر، كان عنصراً آخر من مكونات الرعب. ولأول مرة منذ ما يقارب ثلاث سنوات، أمضت ليلة كاملة من دون أن تفكر لحظة واحدة بفلورينتينو أريثا، بينما كان هو مؤرقاً في أرجوحة النوم في الفناء الخلفي، يحصي الدقائق السرمدية التي تفصله عن موعد عودتها دقيقة

فدقيقة. توقفت الرياح فجأة عند الفجر، وعاد الهدوء إلى البحر، وتنبهت فيرمينا داثا إلى أنها قد نامت رغم آلام الدوار، إذ أيقظها صخب سلاسل المرساة. نزعت عنها الأحزمة عندئذ، وتطلعت من خلال الكُوة آملة برؤية فلورينتينو أريثا في فوضى الميناء، لكن ما رأته كان عنابر الجمارك بين أشجار النخيل الذهبية بفعل أوّل أشعة الشمس، ورصيف ميناء ريوهاتشا ذي العوارض الخشبية المنخورة الذي أبحرت منه السفينة في الليلة الماضية.

انقضت بقية النهار كالحلم في البيت نفسه الذي كانا فيه حتى يوم أمس، يستقبلان الزوار ذاتهم الذين ودَّعوهما، ويتبادلان الحديث معهم في الأمور نفسها، وذُهلت لإحساسها بأنها تعيش للمرة الثانية جزءاً من الحياة كانت قد عاشته من قبل. وبعثت تلك الإعادة الأمنية للأحداث قشعريرة في فيرمينا داثا لمجرد تفكيرها بأن رحلة السفينة ستكون كذلك أيضاً، لأن ذكراها كانت تسبب لها الهلع. لكن الاحتمال الآخر الوحيد للعودة إلى البيت هو في قضاء أسبوعين على متن بغلة فوق نتوءات الجبال، وفي ظروف أشد خطورة من المرَّة الأولى، لأن حرباً أهلية جديدة كانت قد نشبت في ولاية كاوكا في جبال الأنديز، وأخذت تتسع متنشرة في مقاطعات الكاريبي. وهكذا ذهبت ثانية إلى المرفأ في الساعة الثامنة ليلاً، برفقة موكب الأقارب الصاخب نفسه، وبدموع الوداع نفسها، والصُّرَر المتنوعة نفسها التي تضم هدايا اللحظة الأخيرة والتي لا تتسع لها القمرات. وفي لحظة الإبحار، ودَّع رجال العائلة السفينة بإطلاق النار في الهواء معاً، فرد عليهم لورينثو داثا من سطح السفينة بإطلاق رصاصات مسدسه الخمس. وما لبث قلق فيرمينا داثا أن تبدَّد سريعاً، لأن الريح كانت مواتية طوال الليل، وكانت للبحر رائحة زهور ساعدتها على النوم نوماً هادئاً من دون أحزمة الأمان. حلمت بأنها ستعود لرؤية فلورينتينو أريثا، وأن هذا قد نزع الوجه الذي رأته فيه دوماً،

لأنه كان قناعاً في الحقيقة، لكن الوجه الحقيقي كان مطابقاً. استيقظت باكراً، مفكرة بأحجية الحلم، ووجدت أباها يتناول القهوة مع البراندي في مقصورة القبطان، وقد أزاغ الكحول عينيه، إنما بقدر قليل لا يثير إلى وجود شك في العودة.

كانوا يدخلون الميناء، وكانت السفينة تنزلق بصمت عبر متاهة القوارب الشراعية الراسية في خليج السوق العام الذي تصل رائحته النتنة إلى عدَّة فراسخ في البحر، وكان الفجر مشبعاً برذاذ خفيف ما لبث أن تحوَّل إلى وابل غزير. تعرَّف فلورينتينو أريثا، وكان يرابط عند شرفة مكتب التلغراف، على السفينة وهي تعبر خليج لاس انيماس بأشرعة أخمدها المطر، وترسو مقابل مرفأ السوق. لقد انتظر في اليوم السابق حتى الساعة الحادية عشرة صباحاً، عندما عرف من خلال برقية عابرة بتأخر السفينة بسبب الرياح المعاكسة، وعاد للانتظار في ذلك اليوم منذ الساعة الرابعة صباحاً. وتابع الانتظار من دون أن يرفع نظره عن الزوارق التي تحمل إلى الشاطئ قلة من المسافرين قرروا النزول إلى البرِّ رغم العاصفة. وقد اضطر معظمهم إلى مغادرة الزوارق التي توقفت في منتصف المسافة، والوصول إلى الرصيف متخبطين في الوحل. وفي الساعة الثامنة، بعد انتظار لا طائل منه لتوقف المطر، تقدّم حمَّال زنجي غاطس في الماء حتى وسطه وأنزل فيرمينا داثا عن حافة السفينة وحملها بين ذراعيه حتى الشاطئ، لكنها كانت مبتلَّة إلى الحدِّ الذي لا يستطيع معه فلورينتينو أريثا التعرُّف عليها.

لم تكن هي نفسها تعي كم نضجت خلال الرحلة، إلى أن دخلت البيت المقفل وبدأت على الفور بالعملية البطولية لإعادته صالحاً للمعيشة بمساعدة غالا بلاثيديا، الخادمة الزنجية التي عادت إلى موقعها السابق كعبدة بمجرد أن أعلموها بالعودة. لم تعد فيرمينا داثا الابنة الوحيدة، مدللة أبيها وضحيته في الوقت نفسه، بل أصبحت ربَّة البيت

وسيدة مملكة من الغبار ونسيج العنكبوت لا يمكن إنقاذها إلا بقوة حبٍّ عصيٍّ على الهزيمة. لم تخف، لأنها أحسَّت أنها ملهمة بروح سموٍ كافية لجعلها قادرة على تحريك العالم. وفي ليلة العودة بالذات، وبينما هم يتناولون الشوكولاته مع فطيرة الجبن على منضدة المطبخ، فوَّض أبوها إليها سلطات إدارة البيت. وفعل ذلك بطقوس كطقوس عمل قدسي، قائلاً لها:

- إني أسلمك مفاتيح البيت.

تولَّت المسؤولية بحزم، مع إكمالها السبعة عشر عاماً من العمر، واعية أن كل شبر من الحرية المكتسَبة إنما حصلت عليه بقدرة الحب. وفي اليوم التالي، بعد ليلة من الأحلام الكابوسية، عانت للمرة الأولى كآبة العودة عندما فتحت نافذة الشرفة ورأت من جديد رذاذ الحديقة الحزين، وتمثال البطل مقطوع الرأس، والمقعد الرخامي حيث اعتاد فلورينتينو أريثا الجلوس مع كتاب الأشعار. ما عادت تفكر فيه كخطيب مستحيل، إنما كزوجها الذي عليها الارتباط به تماماً. وأحسَّت كم كان ثقيلاً الزمن الضائع منذ ذهابها، وكم يكلفها بقاؤها على قيد الحياة من جهد، وكم من الحب يلزمها لتحب رجلها ما يشاء الله. فوجئت بأنه ليس في الحديقة، كما كان يفعل في أحيان كثيرة غير عابئ بالمطر، وبأنها لم تتلق أية إشارة منه بأي وسيلة، ولا حتى بالإيحاء. وفجأة فكَّرت بأن ربما يكون قد مات. لكنها استبعدت فكرة الشؤم في الحال، لأنها في احتدام برقيات الأيام الأخيرة، وأمام اقتراب موعد العودة، نسيت الاتفاق معه على وسيلة لمتابعة الاتصال عندما تعود.

والحقيقة أن فلورينتينو أريثا كان يظن موقناً أنها لم ترجع بعد، إلى أن أكَّد له عامل تلغراف ريوهاتشا أنها قد أبحرت منذ يوم الجمعة في السفينة ذاتها التي لم تتمكن من المغادرة في اليوم السابق بسبب الرياح غير المواتية. وهكذا أمضى نهاية الأسبوع مترصِّداً أية علامة حياة في

بيتها، وفي مساء يوم الاثنين رأى من خلال النوافذ ضوءاً متنقلاً ما لبث أن انطفأ بعد الساعة التاسعة بقليل في حجرة النوم المطلة على الشرفة. لم ينم تلك الليلة، وطاردته الأشواق الهائجة نفسها التي أقلقت ليالي حبِّه الأولى. نهضت ترانسيتو أريثا مع صياح أول الديوك مذعورة، لأن ابنها قد خرج إلى الفناء ولم يعد للدخول منذ منتصف الليل، ولكنها لم تجده في البيت. لقد مضى يتسكع هائماً على حائل الأمواج، وراح يلقي أشعار الحب على الريح، ويبكي طرباً حتى مطلع الفجر. وفي الثامنة صباحاً كان يجلس تحت قناطر مقهى الأبرشية، وقد أفقده السهر توازنه، محاولاً ابتداع طريقة يوصل بها إلى فيرمينا داثا ترحيبه بقدومها، حين أحسَّ فجأة بهزَّة مزلزلة تمزق أحشاءه.

كانت هي نفسها، تجتاز ساحة الكاتدرائية برفقة غالا بلاثيديا التي تحمل سلال المشتريات، وللمرة الأولى رآها تسير بملابس غير الزي المدرسي، وتبدو أطول قامة ممّا كانت عليه عند ذهابها، وأكثر كمالاً ونضوجاً، وبجمال مصفًّى بمقدرة امرأة واعية. كانت ضفيرتها قد نمَت مجدداً، لكنها لم تكن تسدلها على ظهرها، وإنما تتنكبها فوق كتفها الأيسر، ولقد نزع عنها ذلك التغيير الطفيف كل أثر للطفولة. وقف فلورينتينو أريثا في مكانه مصعوقاً، إلى أن اجتازت مخلوقة الحلم الساحة من دون أن ترفع بصرها عن طريقها. ولكن القوة التي جمَّدته هي نفسها التي دفعته بعد ذلك للإسراع في أثرها حين انعطفت عند زاوية الكاتدرائية وضاعت في زحمة السوق التي تبعث على الصمم.

لاحقها من دون أن تراه، مستكشفاً الحركات اليومية، والنضج المبكر، وطرافة أكثر الكائنات محبة في هذا العالم، والتي كان يراها لأوَّل مرّة وهي منطلقة على سجيَّتها. أذهلته السهولة التي تشقُّ بها طريقها وسط الجموع. فبينما كانت غالا بلاثيديا تصطدم بالناس، وسلالها تتشابك وتضطر للركض كي لا تضيع أثرها، كانت هي تبحر

في فوضى الشارع بجو خاص بها وزمن مختلف، من دون أن تصطدم بأحد، وكأنها خفاش في الظلام. لقد خرجت مرّات كثيرة إلى السوق من قبل مع العمّة اسكولاستيكا، ولكن المشتريات كانت ضئيلة القيمة، فوالدها كان يتولى شخصياً مسؤولية تزويد البيت بالمؤن، وليس بالأثاث والمأكولات فحسب، بل وبالملابس النسائية أيضاً. ولهذا كان خروجها الأول ذاك مغامرة أخّاذة تمثلتها أحلامها كطفلة.

لم تعِر اهتماماً لتعجّل المشعوذين الذين كانوا يقدمون لها أكسيراً للحب الأبدي، ولا لرجاء المتسولين المستلقين في الدهاليز بقروحهم المدخنة، ولا للهندي المزيّف الذي يحاول بيعها تمساحاً أليفاً. لقد قامت بجولة واسعة ومفصّلة، من دون مسار مدروس، وبتوقفات لا سبب لها سوى متعة عدم التسرّع في روح الأشياء. دخلت في كل زقاق يوجد فيه شيء للبيع، وفي كل مكان وجدت شيئاً غذّى رغبتها في الحياة. تمتعت بحفيف أزهار الأقمشة في الصناديق الكبيرة المزخرفة، ولفّت نفسها بالحرير المزيّن بالرسوم، وضحكت لضحكتها وهي ترى نفسها متشحة بالملابس الشعبية، مع مشط زينة ومروحة مزينة برسوم أزهار، مقابل مرآة كبيرة في محلات السلك الذهبي. وفي دكان البحريات دفعت غطاء برميل يحتوي أسماك رنكة في ماء مملح ذكرها بليالي الشمال الشرقي، وهي طفلة صغيرة، في سان خوان دي لاثييناغا. وقدموا لها سجقاً من اليكانتي لتتذوقه فكان له طعم عرق السوس، فاشترت قطعتين منه لفطور يوم السبت، كما اشترت بضع شرائح من سمك القدّ وقطرميز كشمش مع الخمر. وفي دكان البهارات، ومن أجل التمتع بالرائحة فقط، عصرت بين كفيها أوراق مريمية وصعتر، واشترت حفنة قرنفل ذي رائحة، وحفنة يانسون مطحون، وحفنات أخرى من الزنجبيل والعرعر، وخرجت مبللة بدموع الضحك لكثرة ما عطست من روائح فلفل كايينا. وفي البوتيك الفرنسي، وبينما هي تشتري صابون روتير وعطر البان الهندي، وضعوا

لها وراء أذنها لمسة من عطر كان شائع الاستعمال في باريس يومها، وأهدو إليها قرصاً مزيلاً للرائحة يستعمل بعد التدخين.

راحت تلعب لعبة الشراء حقاً، لكنها كانت تشتري ما هي بحاجة إليه فعلاً بلا مواربة، وبمقدرة لا تسمح بالظن بأنها إنما تفعل ذلك للمرة الأولى، فقد كانت مدركة أنها لا تشتري لنفسها فقط وإنما له كذلك: اثنتي عشرة ياردة من الكتان كشراشف لمائدتهما معاً، ونسيجاً قطنياً لشراشف سرير الزفاف ولتهتكهما معاً عند الصباح، ومن كل صنف ما هو أكثر روعة ليتمتعا به معاً في بيت الحب. كانت تطلب تخفيضاً في السعر وتتقن طلب ذلك، وتجادل بظرافة ووقار حتى تحصل على أفضل الأصناف بأفضل الأسعار، وتدفع بمسكوكات ذهبية يقوم الباعة بتجريبها للاستمتاع فقط بسماع رنينها فوق رخام المنضدة.

كان فلورينتينو أريثا يراقبها مبهوراً، ويلاحقها مقطوع الأنفاس، فاصطدم عدّة مرّات بسلال الخادمة التي كانت تردّ بابتسامة على اعتذاراته، وقد مرّت هي نفسها قريباً جداً منه حتى أنه شم شذى رائحتها، وإذا كانت لم تره حينئذ فليس لعجزها عن ذلك، وإنما لشموخ طريقتها في المشي. كانت تبدو له جميلة جداً، فاتنة جداً، ومختلفة جداً عن الناس العاديين، بحيث لم يُدرك كيف لا يختل الآخرون مثله بصناجات كعبها على بلاط الشارع، ولا تضطرب قلوبهم بهواء تنهدات كشكشها، ولا يصاب العالم كله بالجنون حباً بحركة ضفيرتها، وطيران يديها، ولجين ضحكتها. لم يُضع حركة واحدة من حركاتها، ولا علامة واحدة من علامات طبعها، لكنه ما كان ليجرؤ على الاقتراب منها خوفاً من أن يُفسد السحر. ولكن عندما ولجت زحمة زقاق الكتبة العموميين، تنبه إلى أنه يخاطر بتبديد الفرصة التي تشوّق لها خلال سنوات.

كانت فيرمينا داثا تشاطر زميلاتها في المدرسة الفكرة الغريبة

السائدة بأن زقاق الكتبة العموميين هو مكان ضياع، وأرض محرّمة على الآنسات المحترمات طبعاً. كان عبارة عن رواق ذي قناطر مقابل ميدان صغير، حيث تتوقف عربات الأجرة وطنابر الشحن التي تجرها الحمير، وحيث تصبح التجارة الشعبية أكثر زخماً وصخباً. اسمه موروث من أيام المستعمرة، فهناك كان يجلس منذ ذلك الحين الكتبة المكفهرّون ذوو الستر الكتانية والأكمام المنفصلة التي تصل حتى المرفقين، والذين كانوا يكتبون جميع أنواع الوثائق بأسعار بائسة: مذكرات اتهام أو استرحام، واستدعاءات قانونية، وبطاقات تهنئة أو تعزية، ورسائل حب في أي سن كان. وليسوا هم، بكل تأكيد، سبب سوء السمعة التي لحقت بذلك السوق الصاخب، وإنما الباعة المتجولون المحدثون الذين كانوا يقدمون من تحت طاولاتهم جميع أنواع الحيل الغامضة التي تصل تهريباً في السفن القادمة من أوروبا، ابتداءً من بطاقات صور الداعرات والمراهم المهيّجة، وحتى واقيات الحمل الكتلانية الشهيرة ذات الأعراف العضائية التي تتحرك أثناء العملية، أو تلك التي تنتهي بأزهار تتفتح أوراقها حسب مشيئة المنتفع. لقد ولجت فيرمينا داثا، العديمة الخبرة في الشوارع، ذلك الزقاق من دون أن تنتبه إلى أين هي ماضية، باحثة عن ظل يخفف عنها وطأة شمس الساعة الحادية عشرة.

غرقت في ضجة ماسحي الأحذية وبائعي العصافير، وعارضي الكتب الرخيصة ومشعوذي التداوي ومناديات الحلوى اللواتي يعلنّ بصراخ أعلى من الضجة عن حلوى كوكادا الأناناس للصبايا، وحلوى جوز الهند للحمقى، وحلوى السكر بالعجين لميكائيلا. ولكنها كانت تسير غير مبالية بالصخب، وفتنها على الفور ورّاق كان يقدم عرضاً لأنواع من حبر الكتابة السحري: حبر أحمر له لون الدم، وحبر ذو بريق حزين لبطاقات التعزية، وحبر فوسفوري لقراءته في الظلام، وحبر خفي ينكشف ببريق الضوء. كانت تريد من كل الأنواع لتلعب مع فلورينتينو

أريثا، وتذهله باستنباطها، ولكنها بعد عدّة تجارب قررت شراء زجاجة حبر ذهبي، بعد ذلك مضت إلى بائعات الحلوى الجالسات وراء صناديقهن الزجاجية الكبيرة، واشترت ست قطع حلوى من كل صنف، مشيرة إلى ما تريده بإصبعها، من وراء الزجاج، لأنها لم تكن لتتمكن من إسماعهن ما تريد بسبب الضوضاء: ست قطع من شعر الملاك، وستة قوالب صغيرة من حلوى الحليب، وستة مكعبات سمسمية، وست قطع من كعكة اليُكة، وستة أقراص من الشوكولاته، وست قطع بسكويت محشو، وست من لقمة الملكة، وستة من هذا وستة من ذاك، وستة من كل شيء، وكانت تضع كل ذلك في سلال الخادمة بظرافة لا تقاوم، غير عابئة بسحابة الذباب السوداء الهائجة فوق المربّى، وغير مبالية بالتعفن المتواصل، وغير مبالية برائحة العرق الزنخ الذي يلمع في الحر القاتل. أيقظتها من هذا الخدر زنجية سعيدة تضع خرقة ملونة على رأسها المكور والبديع، قدمت لها قطعة أناناس مغروسة على رأس سكين جزار. فتناولتها ودستها كاملة في فمها تذوقتها، وكانت تتذوقها ونظرها شارد في الجموع، عندما سمّرتها اختلاجة اضطراب في مكانها. فوراءها. وقريباً جداً من أذنها بحيث لم يسمع في الضجة أحد سواها الصوت الذي قال لها:

- ليس هذا بالمكان المناسب لربَّةٍ متوَّجة.

التفتت ورأت على بعد شبرين من عينيها، العينين الأخريين الجامدتين، والوجه الأزرق الضارب إلى السواد، والشفتين المتصلبتين خوفاً، تماماً كما رأتها في زحمة صلاة منتصف الليل عندما كان قريباً منها أوّل مرّة، لكنها لم تشعر بهيجان الحب كما في المرّة السابقة وإنما بهاوية خيبة الأمل. وبلحظة واحدة انكشف لها حجم الورطة التي أوقعت نفسها فيها، وتساءلت مذعورة كيف استطاعت أن تحتضن طوال هذا الوقت، وبكل هذه القسوة، حرقة قلب كتلك. وبالكاد استطاعت أن

تفكر: «رباه، يا للرجل البائس!». ابتسم فلورينتينو أريثا، وحاول أن يقول شيئاً، حاول اللحاق بها لكنها محته من حياتها بحركة من يدها قائلة له:
- لا، أرجوك، انسَ كل شيء.

في مساء ذلك اليوم، وبينما والدها ينام قيلولته، بعثت إليه مع غالا بلاثيديا رسالة في سطرين: عندما رأيتك اليوم، أدركت أن ما كان بيننا ليس إلا وهماً. وحملت إليه الخادمة كذلك برقياته، وأشعاره، وأزهار كاميلياه الجافة، وطلبت منه أن يعيد الرسائل والهدايا التي بعثتها إليه: كتاب صلوات العمّة اسكولاستيكا، وأوراق النباتات المجففة، والسنتمتر المربع من مسوح سان بيدرو كلافير، وميداليات القديسين، وضفيرتها وهي في الخامسة عشرة مع شريط الزي المدرسي الحريري. فكتب في الأيام التالية، وهو على حافة الجنون، عدداً كبيراً من الرسائل اليائسة، وحاصر الخادمة لتحمل تلك الرسائل، لكن هذه نفّذت التعليمات الصارمة بعدم استلام أي شيء سوى الهدايا المعادة. وأصرت على ذلك بحسم جعل فلورينتينو أريثا يُعيد إليها كل شيء ما عدا الضفيرة التي لم يشأ إعادتها ما لم تستقبله فيرمينا داثا، شخصياً، ليتحدثا معاً ولو للحظة واحدة. لم يتوصّل إلى ذلك. وتنازلت ترانستو أريثا عن كبريائها، خشية أن يتخذ ابنها قراراً قاتلاً، وطلبت من فيرمينا داثا أن تمنحها خمس دقائق من وقتها، فاستقبلتها للحظة واحدة في دهليز البيت، واقفة، من دون أن تدعوها إلى الدخول، وبلا ذرّة وَهَن. بعد يومين من ذلك، ومع انتهاء مشادة مع أمه، نزع فلورينتينو أريثا عن جدار غرفة نومه العلبة الزجاجية المغبرة، حيث كان يعلّق الضفيرة كأنها أيقونة مقدّسة، وأعادتها ترانسيتو أريثا بنفسها في علبة المخمل المطرزة بخيوط ذهبية. ولم تُتح لفلورينتينو أريثا الفرصة أبداً لرؤية فيرمينا داثا على انفراد، ولا التحدث إليها أثناء لقاءاتهما الكثيرة في حياتَيْهما الطويلتين، إلا بعد انقضاء إحدى وخمسين سنة وتسعة شهور وأربعة

أيام، عندما كرر لها يمين الوفاء الأبدي والحب الدائم في ليلتها الأولى كأرملة.

كان خوفينال أوربينو، العازب المُشتهى وهو في الثامنة والعشرين، قد عاد من إقامة طويلة في باريس، حيث أجرى دراسات عليا في الطب والجراحة، ومنذ نزوله إلى البرّ، قدّم أدلة قاطعة على أنه لم يُضِع لحظة واحدة من وقته. لقد رجع أجمل بكثير ممّا كان عليه عند ذهابه، وأكثر تحكّماً بأهوائه، ولم يكن أي من زملاء جيله ليبدو أكثر صرامة منه وأكثر معرفة بعلومه، كما لم يكن أي منهم ليرقص خيراً منه على الموسيقى الدارجة أو يعزف، مرتجلاً، أفضل منه على البيانو. وكانت فتيات وسطه الاجتماعي، المفتونات بمحاسنه الشخصية والمتيقنات من ثروته العائلية، يقترعن سراً ليلعبن أيّهن ستحظى به، وكان هو يلعب كذلك للبقاء معهن، لكنه تمكّن من الحفاظ على نفسه في حالة الطهارة، صحيحاً ومغرياً، إلى أن سقط من دون مقاومة أمام مفاتن فيرمينا داثا العاميّة.

كان يحب أن يقول إن ذلك الحب هو ثمرة تشخيص طبي خاطئ. ولم يكن ليصدق بأن ذلك قد حدث، خصوصاً في تلك الفترة من حياته، حين كان كل احتياطه من الشغف منصباً على مصير مدينته، التي كثيراً ما قال عنها، بلا تردد، أنه لا مثيل لها في العالم. ففي باريس، وفيما هو يتنزه ممسكاً بذراع خطيبةٍ عرضية في خريف متأخر، كان يرى أنه من المستحيل تخيّل سعادة أكثر صفاء من سعادة تلك الأمسيات الذهبية الباريسية، المختلطة برائحة حبّات الكستناء الجبلية فوق مواقد الجمر، وأنغام الأكورديونات الخافتة، والعشاق الذين لا يرتوون من قبلات متصلة لا تنتهي على الشرفات المفتوحة؛ ورغم ذلك، فقد قال هو نفسه، ويده على قلبه، إنه غير مستعد لاستبدال هذا كله بلحظة واحدة من لحظات موطنه الكاريبي في نيسان. كان لا يزال شاباً لا يعرف أن ذاكرة

القلب تمحو كل الذكريات السيئة وتضخّم الذكريات الطيبة، وأننا بفضل هذه الخدعة نتمكن من تحمل الماضي. ولكنه حين عاد ورأى من شرفة السفينة رابية الحي الاستعماري البيضاء، وطيور الرخمة الجاثمة فوق السطوح، وملابس الفقراء المنشورة لتجف على الشرفات، حينئذ فقط أدرك إلى أي حدّ كان ضحية سهلة لأحابيل الحنين الخادعة.

شقّت السفينة طريقاً لها في الخليج عبر فرشة طافية من الحيوانات الغارقة، والتجأ معظم المسافرين إلى القمرات هرباً من الرائحة النتنة. نزل الطبيب الشاب من السفينة على جسر المرور الصغير مرتدياً بدلة كاملة من جوخ الألبكة، مع صدرية ورداء طويل يقي من الغبار، بلحية كلحية باستور الشاب، وشعر مفروق من وسطه بفرق واضح وشاحب، وبسيطرة كافية على نفسه لإخفاء عقدة في الحنجرة لم يكن سببها الحزن، وإنما الرعب. كان الميناء شبه خاو، يحرسه جنود حفاة بلا زيّ عسكري، وكانت شقيقتاه وأمه ينتظرن برفقة أحب أصدقائه إليه. وجدهم شاحبين وبلا مستقبل، رغم مظهرهم الدنيوي، وكانوا يتحدثون عن الأزمة وعن الحرب الأهلية كأمر بعيد وغريب، ولكن أصواتهم جميعاً كانت تشي برعشة مراوغة، وفي حدقات عيونهم بريق يقين يخون كلماتهم. كانت أمه هي أكثر من أثار أشجانه، تلك المرأة التي فرضت نفسها على الحياة، وهي لا تزال فتية، بأناقتها واندفاعها الاجتماعي، يراها الآن تذوي على نار هادئة وسط روائح الكافور التي تعبق من ملابسها كأرملة. ولا بدّ أنها رأت نفسها في اضطراب ابنها، فسارعت تسأله وكأنها تدافع عن نفسها، لماذا هو عائد بهذه البشرة الشاحبة الشفافة كالبارفان.

فقال لها: إنها الحياة يا أماه. فالمرء يتحوّل أخضر في باريس.

بعد قليل، وبينما هو إلى جانبها يغرق في حَرِّ العربة المغلقة، لم يعد قادراً على تحمل قسوة الواقع الذي ينفذ إليه غلياناً من النافذة. كان البحر

يبدو كأنه من رماد، وقصور النبلاء القديمة كأنها توشك على الانهيار أمام تكاثر المتسوّلين، وكان من المحال العثور على رائحة الياسمين اللاهبة فيما وراء أبخرة المجارير المكشوفة. كل شيء بدا له أضأل ممّا كان عليه عند ذهابه، وأشد فقراً وكآبه؛ وكانت هناك أعداد كبيرة من الجرذان الجائعة في مزابل الشوارع تجعل حصانَيْ العربة يجفلان فزعين. وعلى امتداد الطريق الطويل من الميناء إلى البيت، في حي البيريّس، لم يجد ما هو جدير بمشاعر الحنين التي كانت تملأه. رأى نفسه مهزوماً، فأدار وجهه كي لا تراه أمه، وأطلق لبكائه الصامت العنان.

لم يكن قصر المركيز دي كاسالدويرو القديم، ومقر الإقامة التاريخي لآل أوربينو دي لا كايه، بالقصر الذي ما زال يحتفظ بشموخه وسط الانهيار. وقد اكتشف الدكتور خوفينال أوربينو ذلك وقلبه يتفتت مذ عبر الدهليز المُظلم ورأى نافورة الحديقة الداخلية المغبرة، والأعشاب البرية التي بلا أزهار تعبث فيها السحالي، وانتبه إلى نقص عدد كبير من قطع بلاط المرمر، إضافة إلى تهشم عدد من درجات السلم الرخامي الفسيح ذي الدرابزين النحاسي الذي يؤدي إلى الحجرات الرئيسية. لقد مات أبوه الذي كان طبيباً متفانياً أكثر منه عِلماً، في جائحة الكوليرا الآسيوية التي محقت السكان منذ ست سنوات، ومعه ماتت روح البيت. فدونيا بلانكا، الأم، المختنقة بحداد أبدي، استبدلت السهرات الغنائية والحفلات الموسيقية بصلوات مسائية يومية لذكرى الزوج المتوفى. وتحولت الشقيقتان رغم طبيعتهما وميلهما الاحتفالي إلى وقود للدير.

لم يغفَ الدكتور أوربينو لحظة واحدة في ليلة وصوله، كان مرتعباً من الظلمة والصمت. وردد صلاة الروح القدس بعدد ثلاث سبحات، وكذلك كل الصلوات التي يذكرها لدرء الرزايا والانهيارات وأنواع المصائب الليلية الأخرى، بينما دخل كروان إلى حجرة النوم من النافذة التي لا تقفل جيداً، وراح يصدح كل ساعة، عند تمام الساعة بالضبط.

وعذبته الصرخات الهذيانية التي تطلقها المجنونات في مستشفى الراعية الإلهية للمجاذيب، والقطرة الرتيبة عديمة الرحمة التي ترشح من الجرّة الفخارية إلى الجفنة ويملأ صداها جو البيت، وخطوات الكروان الطويلة التائهة في حجرة النوم، وخوفه الخلقي من الظلمة، والحضور اللامرئي للأب الميّت في البيت الرحب الهاجع. عندما صدح الكروان في الساعة السادسة، مرافقاً بذلك ديكة الجوار، أسلم الدكتور أوربينو نفسه جسداً وروحاً إلى كنف العناية الإلهية، لأنه لم يعد يشعر بالحماسة للحياة يوماً آخر في وطنه المنهار أنقاضاً. ولكن عطف ذويه، وأيام الأحاد الريفية، وتملّقات عازبات طبقته الجشعة، خففت كلها من مرارة الوهلة الأولى. وأخذ يعتاد شيئاً فشيئاً على قيظ تشرين الأول، وعلى الروائح الحادة بمبالغة، وعلى أحكام أصدقائه المبكرة: غداً نرى يا دكتور، فلا تبال، إلى أن انتهى به الأمر إلى الاستسلام لشعوذة العادة. ولم يتأخر طويلاً في صياغة تبرير بسيط لخذلانه. فقال إن تلك هي دنياه، دنياه الكئيبة والجائرة التي منحه الرب إياها، وهو مدين لها.

أوّل ما فعله هو الاستيلاء على عيادة أبيه. احتفظ بالأثاث الإنكليزي نفسه في مكانه، ذلك الأثاث الصلب والصارم الذي تتنهد أخشابه مع برودة الفجر، لكنه بعث إلى حجرة المهملات مؤلفات العلوم التي تعود إلى زمن نواب الملك الاستعماريين وكتب الطب الرومنطيقي، ووضع في الخزائن ذات الواجهات الزجاجية كتب المدرسة الفرنسية الجديدة. وانتزع عن الجدران جميع الرسوم الباهتة، باستثناء رسم الطبيب الذي ينازعُ الموتَ مريضةً عارية، وقَسَم أبقراط المكتوب بحروف قوطية، وعلّق مكانها، إلى جانب شهادة والده الوحيدة، الشهادات الكثيرة والمتنوعة التي نالها من مدارس أوروبية مختلفة.

حاول أن يفرض معايير تجديدية في مستشفى الرحمة، ولكن الأمر لم يكن بالبساطة التي ظنها وهو في اندفاع الشباب. فبيت الطب القديم

المتمسك بخرافاته الموروثة، مثل وضع قوائم الأَسِرّة في أوعية مليئة بالماء لمنع صعود الأمراض إليها، أو المطالبة بارتداء ملابس الإتيكيت وقفازات الشمواه في صالة الجراحة، إذ كان الاعتقاد السائد حينئذ أن الأناقة شرط جوهري للتعقيم. وما كانوا يطيقون تذوّق الطبيب الشاب القادم حديثاً بول المريض ليكتشف وجود السكر، أو استشهاده بآراء شاركوت وتروسو كما لو كانا زميلاه في الحجرة، وتحذيره الصارم، في درسه، من مخاطر اللقاحات القاتلة، وإيمانه مقابل ذلك إيمانا مريباً بالاختراع الجديد المدعو تحاميل. لقد كان يتعثر بكل شيء: روحه المجدِّدة، تَحَضّره الجنوني، وميله البطيء لفهم المزاح في أرض المزاح السرمدي. وكانت جميع فضائله الملموسة تثير في الحقيقة حسد زملائه الكبار والسخرية المنافقة من جانب الشباب.

كان هاجسه الدائم هو الوضع الصحي الخطير في المدينة. لجأ إلى أعلى المراتب مطالباً بردم المجاري المكشوفة التي تعود إلى العهد الاستعماري، وتشكّل مرتعاً خصباً للجرذان؛ وإقامة مجار مغلقة بدلاً منها لا تصب بقاياها في خليج السوق، كما هي الحال منذ الأزل، وإنما في مجمّع ناءٍ للفضلات. كانت توجد في البيوت الاستعمارية حسنة التجهيز مراحيض ذات حفر عميقة تتخمر فيها الفضلات، أما ثلثا الأهالي المكدسين في أكواخ على ضفاف المستنقعات، فكانوا يقضون حاجتهم في العراء. فكان البراز يجف تحت الشمس، متحولاً إلى غبار، يتنفسه الجميع ببهجة فِصح مع نسمات كانون الباردة السعيدة. لقد حاول الدكتور خوفينال أوربينو أن يفرض في المجلس الإداري إقامة دورة تأهيل إجبارية، كي يتعلم الفقراء بناء مراحيضهم الخاصة. وناضل من دون جدوى لوقف رمي النفايات بين أشجار المنغلار التي تحوّلت، منذ قرون، إلى مستودعات عفونة؛ ولجمع تلك النفايات مرتين في الأسبوع على الأقل وإحراقها في مكان مهجور.

لقد كان واعياً لشرك مياه الشرب القاتل. لكن مجرّد التفكير ببناء شبكة مائية كان يبدو فكرة خيالية، لأن من يستطيعون دعمها كانوا يملكون آباراً تحت الأرض يخزنون فيها مياه أمطار سنوات عديدة تحت قشدة كثيفة من الإخضرار الطحلبي. ومن بين أبرز قطع أثاث تلك الحقبة كانت خزائن تصفية الماء المصنوعة من خشب منقوش، حيث تقطر مساماتها الحجرية ليل نهار في الخوابي. وللحيلولة دون أن يتمكن أي شخص من شرب الماء بطاسة الألمنيوم التي يُخرجون بها الماء الجرار، يعمدون إلى تسننين حواف تلك الطاسة لتبدو وكأنها تاج ملك المساخر. كان الماء رائقاً وبارداً في عتمة الفخار، يترك في الفم طعماً كمذاق الزهر. لكن الدكتور خوفينال أوربينو لم يكن لينساق وراء خدع النقاء تلك، لأنه يعرف أن قاع الخوابي، رغم كل الاحتياطات، كان هيكلاً ومستقراً لكل أنواع الدوبيات. لقد أمضى ساعات طفولته البطيئة وهو يتأملها باندهاش شبه صوفي، مقتنعاً مثل معظم الناس حينئذ بأن تلك الدوبيات هي الأرواح، وأنها مخلوقات ماورائية تزفّ إلى الآنسات من ترسبات المياه الراكدة، وأنها قادرة على الإتيان بانتقامات حب خانقة. لقد رأى وهو طفل خراب بيت لازثارا كوندي، معلمة المدرسة التي تجرّأت على استثارة غضب الأرواح، ورأى فتات الزجاج المنثور في الشارع وكومة الأحجار التي قذفت طوال ثلاثة أيام وثلاث ليال على النوافذ. ولقد انقضى وقت طويل قبل أن يتعلم أن تلك الدوبيات ليست في الحقيقة سوى يرقات بعوض الثنكودو، لكنه تعلّم ذلك كي لا ينساه أبداً، لأنه أدرك منذ ذلك الحين أن ليس الدوبيات وحدها، وإنما أرواح شريرة كثيرة أخرى، قد تمر بسلام عبر مصافينا الحجرية البريئة.

لقد عُزي فتق كيس الخصية خلال زمن طويل، وبفخر شديد، إلى مياه آبار الجمع، ذلك الفتق الذي يصبر على تحمله عدد كبير من رجال المدينة ليس من دون خجل فحسب، بل وبنوع من الكبرياء الوطنية

أيضاً. وعندما كان خوفينال أوربينو طفلاً يذهب إلى المدرسة الابتدائية، لم يكن يستطيع كبح اختلاجة الرعب لدى رؤيته المفتوقين وهم يجلسون أمام أبواب بيوتهم في الأمسيات الحارة، ويهوون بمروحة يدوية على الخصية الضخمة كما لو كانت طفلاً ينام بين أفخاذهم. وكان يشاع بأن الفتق يحاكي تغريد عصفور حزين في الليالي العاصفة، وأنه يتلوى بألم لا يطاق حين يحرقون قريباً منه ريشة طائر رخمة، لكن أحداً لم يكن يتذمّر من تلك المحن، لأن فتقاً كبيراً ومحتملاً بصبر هو شرف للرجل قبل كل شيء. عندما رجع الدكتور خوفينال أوربينو من أوروبا كان يعرف جيداً التفسير العلمي لهذه المعتقدات، ولكنها كانت متأصلة في الإيمان الخرافي المحلّي إلى حدّ دفع الكثيرين لمعارضة إغناء مياه الآبار بالمعادن خوفاً من أن ينزعوا منها خاصية تسبيب فتق مشرّف.

وكقلقه من تلوّث المياه، كان الدكتور خوفينال أوربينو قلقاً كذلك للحالة الصحية في السوق العام، ذلك الامتداد الفسيح مقابل خليج لاس اينماس، حيث ترسو سفن جزر الأنتيل الشراعية. والذي وصفه أحد الرحّالة الشهيرين بأنه واحد من أكثر الأسواق غنى وتنوعاً في العالم، وقد كان غنياً ووافراً وصاخباً حقاً، ولكنه ربّما كان كذلك أكثر الأسواق مدعاة للقلق. كان يقوم فوق مزبلته بالذات، تحت رحمة أهواء البحر المرتفع، حيث تجشؤات الخليج تعيد إلى اليابسة نفايات المجاري. وكانت تُرمى هناك فضلات المسلخ المجاور من رؤوس مقطوعة، وأحشاء متعفّنة، وروث الحيوانات الطافي بهدوء تحت الشمس في مستنقع من الدماء. وتأتي طيور الرخمة لتتنازع تلك الفضلات مع الجرذان والكلاب في ازدحام دائم، وسط الغزلان وديوك سوتافينتو المخصية والمعلقة على أفاريز العنابر، وخضروات أرخونا الربيعية المعروضة فوق حصر على الأرض. أراد الدكتور أوربينو جعل المكان صحياً بنقل المسلخ إلى مكان آخر، وتشييد سوق جديد مسقوف بقباب

من زجاج ملون كذلك السوق الذي رآه في برشلونة، حيث البضائع والمؤن زاهية ونظيفة، حتى إن أكلها يثير الندم. ولكن نواياه تلك جعل أكثر أصدقائه مجاملة يضيقون ذرعاً بأحلامه الخيالية. فهم يقضون حياتهم متغنين بأصلهم المجيد، وبمزايا المدينة التاريخية، وقيمة آثارها الدينية، وبطولتها وجمالها، لكنهم لا يرون سوس السنين الذي ينخرها. أما الدكتور أوربينو بالمقابل، فإنه يكنّ لها حباً عظيماً يجعله يراها بعيني الحقيقة، لذا كان يقول:

- كم هي نبيلة هذه المدينة التي ما فتئنا نحاول القضاء عليها منذ أربعمئة سنة، ولم نتوصل إلى ذلك حتى الآن.

ومع ذلك، كانوا على وشك القضاء عليها. فوباء الكوليرا، الذي سقطت أولى ضحاياه في مستنقعات السوق، تسبب خلال أحد عشر أسبوعاً بأعلى نسبة وفيات في تاريخنا. كان بعض الموتى البارزين يُدفنون تحت بلاط الكنائس، إلى جوار الأساقفة والمستشارين، والآخرون الأقل ثراء يدفنون في فناء الأديرة، أما الفقراء فيمضون بهم إلى المقبرة الاستعمارية، على الرابية التي تصفعها الرياح، وتفصلها عن المدينة قناة مياه جافة، على جسرها الطيني لوحة تحميها مظلة نُحت عليها بأمر أحد الحكام المتبصرين: lasciate ogni speranza voichentrate.[1] في أسبوعَيْ الكوليرا الأوّلين امتلأت المقبرة، ولم يعد هناك مكان للدفن في الكنائس، رغم أنهم نقلوا إلى مستودع العظام العام الرفات المتآكل لعدد كبير من الأعيان الذين غيّب النسيان أسماءهم. ولقد اختلط هواء الكاتدرائية بأبخرة سراديب الدفن غير المحكمة الإغلاق، ممّا اضطرهم إلى عدم فتح أبواب الكاتدرائية إلا بعد ثلاث سنوات، في الحقبة التي

---

(1) العبارة بالإيطالية في الأصل، وهي التي علقها دانتي في «الكوميديا الإلهية» على باب الجحيم، وتقول: أيها الداخلون هنا، اقطعوا كل أمل!

رأت فيها فيرمينا داثا للمرة الأولى فلورينتينو أريثا عن قرب، في قداس منتصف الليل. وامتلأ رواق دير سانتا كلارا بالقبور حتى وصلت إلى الممرات بين أشجار الحور في الأسبوع الثالث، وكان لا بدّ من تحويل بستان الدير، وهو أوسع من الرواق بمرتين، إلى مقبرة. حفروا هناك قبوراً عميقة ليدفنوا فيها على ثلاثة مستويات، وعلى عجل وبلا توابيت، لكنهم اضطروا للتخلي عنها لأن الأرض الطافحة أصبحت مثل اسفنجة ترشح تحت وطء الأقدام دماً فاسداً كريه الرائحة. عندئذ تقرّر متابعة عمليات الدفن في «لامانو دي ديوس»، وهي مزرعة لتسمين الأبقار على بعد أقل من فرسخ واحد عن المدينة، وقد كُرّست في ما بعد باسم المقبرة الكونية.

مذ أذيع بلاغ الكوليرا، بدأ حصن الحامية المحلية بإطلاق قذيفة مدفع كل ربع ساعة، في الليل والنهار، إيماناً بالشعوذة الحضارية القائلة إن البارود يطهّر الجو. وقد كانت الكوليرا أشدّ فتكاً بين السكان الزنوج، لأنهم الأكثر عدداً وفقراً، ولكنها في الحقيقة لم تكن تأخذ اللون أو الأصل بعين الاعتبار. وتوقفت فجأة كما بدأت، من دون أن يُعرف عدد ضحاياها، ليس لأن حصرهم كان مستحيلاً، وإنما لأن إحدى فضائلنا السائدة هي الحشمة أمام المصائب الخاصة.

كان الدكتور ماركو أوريليو أوربينو، والد خوفينال، بطلاً مدنياً في تلك المرحلة المشؤومة، وأبرز ضحاياها أيضاً. فاستناداً إلى قرار رسمي، وضع الاستراتيجية الصحية وأشرف شخصياً على تنفيذها، لكن مبادراته دفعته إلى التدخل في كل شؤون النظام الاجتماعي، حتى صار يبدو في أحرج لحظات الوباء أنه لا وجود لسلطة فوق سلطته. وعندما راجع الدكتور خوفينال أوربينو، بعد عدّة سنوات، وقائع تلك الأيام، ثبت له أن منهج أبيه كان يعتمد على العاطفة أكثر من اعتماده على العلم، وأنه كان مناقضاً للعقل في أحيان كثيرة، وبهذا أفسح المجال واسعاً أمام

شراهة الوباء. وتأكد له ذلك في عاطفة الأبناء الذين حوّلتهم الحياة شيئاً فشيئاً إلى آباء لآبائهم، فتألم للمرة الأولى لأنه لم يكن إلى جوار أبيه في عزلة أخطائه. لكنه لم يتعرّض لجدارة والده. فبنشاطه وتفانيه، وشجاعته الشخصية قبل كل شيء، استحق التشريفات الكثيرة التي قُدّمت له عندما تخلصت المدينة من الكارثة، وبقي اسمه محفوظاً بجدارة إلى جانب أعداد من أبطال حروب أخرى أقل نبلاً.

لم يعش ليرى مجده. فعندما اكتشف في نفسه الأعراض التي لا شفاء منها، والتي عاينها ورقّ لها في الآخرين، لم يحاول حتى مجرّد خوض معركة لا طائل منها، وإنما ابتعد عن الجميع كي لا ينقل العدوى إلى أحد. وفي وحدته في إحدى غرف الخدمة بمستشفى الرحمة، صاماً أذنيه عن نداءات زملائه وتوسلات ذويه، غير عابئ بهلع الموبوئين المحتضرين في الممرات الغاصة، كتب لزوجته وأبنائه رسالة حب محمومة، يعبر فيها عن امتنانه لأنه جاء إلى الوجود، ويكشف لهم كم أحب الحياة، وبأي نهم أحسّ بذلك الحب. كانت رسالة وداع في عشرين ورقة مؤثرة يبدو فيها تقدم المرض في اضطراب الكتابة، ولم يكن ضرورياً معرفة لمن كتبت تلك الأوراق لإدراك أن التوقيع قد وضع عليها مع النفس الأخير. ووفقاً لمشيئته ضاع رماد جسده في المقبرة العامة، من دون أن يراه أحد ممّن أحبوه.

تلقى الدكتور خوفينال أوربينو برقية الإشعار بالوفاة بعد ثلاثة أيام في باريس، أثناء تناوله العشاء مع أصدقائه، فرفع نخب شمبانيا لذكرى أبيه قائلاً: «لقد كان رجلاً طيباً». وكان عليه في ما بعد أن يؤنب نفسه على قلة نضجه: ذلك أنه تجنب الواقع كي لا يبكي. ثم تلقى بعد ثلاثة أسابيع نسخة من رسالة أبيه، فاستسلم حينئذ للواقع. لقد انكشفت له دفعة واحدة، وبعمق، صورة الرجل الذي عرفه قبل أي رجل سواه، الرجل الذي ربّاه وعلّمه، والذي نام وزنى مع أمه طوال اثنتين وثلاثين سنة،

والذي لم يكن يتبينه مع ذلك جسداً وروحاً قبل هذه الرسالة، وذلك لمجرد الحَياء وحده. لقد كان الدكتور خوفينال أوربينو وعائلته حتى ذلك الحين يتصورون الموت محنة تصيب الآخرين، آباء الآخرين، وأشقاء الآخرين وأزواجهم، لكنها لا تقرب ذويهم. فحيواتهم بطيئة، لا يبدو أن الشيخوخة تلحق بهم، ولا المرض أو الموت كذلك، وإنما هي حيوات تضمحل شيئاً فشيئاً في زمانها، متحولة إلى ذكريات وضباب زمن آخر، إلى أن يبتلعها النسيان. لقد وضعته رسالة أبيه، أكثر من برقية الخبر المشؤوم، وجهاً لوجه مع يقين الموت. رغم أن إحدى أقدم ذكرياته، حين كان في التاسعة، أو ربّما في الحادية عشرة، هي نوع من المؤشر المبكر إلى الموت من خلال أبيه. كانا وحيدين في مكتب البيت ذات مساء يوم ماطر، وكان يرسم قبّرات ودوار شمس بالطباشير على بلاط الأرضية، بينما كان أبوه يقرأ مولياً ظهره لضوء النافذة، وصداره مفتوح الأزرار، وعلى كمَّيْ قميصه أربطة مطاطية. وفجأة قطع القراءة ليحك ظهره بمحكاك ذي ذراع طويلة تنتهي بكف فضية في طرفها. وحين لم يستطع، طلب من ابنه أن يحك له بأظافره، ففعل ذلك يراوده شعور غريب يحسّ معه بأنه يحك جسده بالذات. وأخيراً تطلع إليه أبوه من فوق كتفه بابتسامة حزينة وقال له:

– إذا ما مت الآن فإنك لن تكاد تتذكرني حين تصبح في مثل سني.

قال ذلك من دون أي سبب ظاهر، وطاف ملاك الموت للحظة في ظلمة المكتب البارد، وعاد للخروج من النافذة تاركاً وراءه نثارة ريش، لكن الطفل لم يرها. لقد انقضت أكثر من عشرين سنة منذ ذلك الحين، وقريباً سيصل خوفينال أوربينو إلى السن التي كان فيها أبوه في ذلك اليوم. كان يعرف أنه يشبهه تماماً، ولوعيه بأنه كذلك، ارتقى الآن إلى الوعي المرعب بأنه سيفنى مثله أيضاً.

صارت الكوليرا هاجسه. لم يكن يعرف عنها شيئاً أكثر ممّا يتعلمه

بشكل روتيني في دورة هامشية، ولم يكن ليصدق أن هذا المرض قد سبب منذ ثلاثين سنة فقط، في فرنسا، بما في ذلك باريس، أكثر من مئة وأربعين ألف وفاة. ولكنه بعد موت أبيه، تعلم كل ما يمكن أن يتعلمه حول مختلف أشكال الكوليرا، بشكل أشبه بعقاب النفس لتهدئة ذاكرته. وكان واحداً من طلاب أبرز علماء الأوبئة في ذلك الزمان، ومبتدع الأحزمة الصحية، البروفسور أدريان بروست، والد الروائي الكبير. وبهذا فإنه لدى عودته إلى وطنه، وإحساسه مذ كان في البحر برائحة السوق النتنة، ثم رؤيته للجرذان في المجاري المشكوفة والأطفال الذين يتمرغون عراة في مستنقعات الشوارع، لم يُدرك أن الكارثة قد وقعت بالفعل فقط، بل وأيقن أنها ستتكرر في أية لحظة.

ولم يمض وقت طويل. فقبل أن يمرّ العام، طلب منه تلاميذه في مستشفى الرحمة أن يساعدهم بشأن مريض إحسان تغطي كل أنحاء جسده بقع زرقاء غريبة. وكانت رؤية الدكتور خوفينال أوربينو للمريض من الباب كافية ليتعرّف على العدو. لكن الحظ حالفهم: فالمريض وصل منذ ثلاثة أيام على متن سفينة قادمة من كوراساو، وقد حضر بنفسه إلى العيادات الخارجية في المستشفى، وليس هناك احتمال بأن يكون قد نقل العدوى إلى سواه. وعلى كل حال، حذر الدكتور خوفينال أوربينو زملاءه، وتمكّن من جعل السلطات تنقل الإنذار إلى الموانئ المجاورة ليتم تحديد موقع السفينة الملوَّثة وإجراء الحجر الصحي عليها، وكان عليه أن يُهدئ من اندفاع القائد العسكري للموقع، الذي أراد إعلان حالة الطوارئ وتطبيق العلاج بقذائف المدفعية كل ربع ساعة في الحال.

وقال له بألمعية عالية:

– اقتصد بالبارود إلى أن يأتي الليبراليون. فنحن لم نعد في العصور الوسطى.

مات المريض بعد أربعة أيام، مختنقاً بقيء حُبيبي أبيض، إنما لم تظهر أية حالة أخرى خلال الأسابيع التالية رغم الاستنفار الدائم. بعد ذلك بقليل، نشرت صحيفة دياريو دي كوميرثيو خبراً عن طفلين ماتا بالكوليرا في مكانين مختلفين من المدينة. ثم تأكد أن أحدهما كان مصاباً بالديزنطاريا العادية، أما الآخر، وهي طفلة في الخامسة، فيبدو أنها كانت مصابة بالكوليرا فعلاً. فتم الحجر على أبويها وإخوتها الثلاثة، وعزل كل منهم على انفراد في الحجر الصحي، كما أُخضع الحي بأسره إلى رقابة طبية صارمة. كان أحد الأطفال مصاباً بعدوى الكوليرا، ولكنه استعاد عافيته بسرعة، ثم عادت الأسرة كلها إلى البيت عندما زال الخطر. وخلال ثلاثة شهور سُجلت إحدى عشرة حالة أخرى، ثم حدث استفحال مخيف في الشهر الخامس؛ ولكن ما إن انتهت السنة حتى اعتُبر أنه قد تمّ تجاوز مخاطر الوباء. ولم يشك أحد في أن صرامة الدكتور خوفينال أوربينو الصحية، إضافة إلى مقدرة مناديه الجَوّالين، هي التي جعلت تحقيق المعجزة أمراً ممكناً. ومنذ ذلك الحين، وحتى وقت متقدم من القرن الحالي، أصبحت الكوليرا داءً مستوطناً ليس في المدينة فقط، وإنما في ساحل الكاريبي كله تقريباً، وفي حوض نهر ماجدلينا؛ ولكن المرض لم يكن يتفاقم متحولاً إلى جائحة. لقد أفادت حالة الذعر في تطبيق تنبيهات الدكتور خوفينال أوربينو بجدية أكبر من جانب السلطات العامة. ففرضت حصص إجبارية خاصة بالكوليرا والحمى الصفراء في مدرسة الطب، وجرى الإسراع في ردم المجاري وبناء سوق جديد بعيداً عن المزبلة. ولكن الدكتور أوربينو لم يكن يعبأ حينئذ بإعلان انتصاره، كما أنه لم يعد متحمساً للاستمرار في مهماته الاجتماعية، لأنه هو نفسه كان مكسور الجناح في ذلك الحين، مذهولاً ومشتتاً، ومستعداً لتغيير كل شيء ونسيان كل شيء في الحياة من أجل ومضة حب فيرمينا داثا.

لقد كانت ومضة الحب تلك، بالفعل، نتيجة تشخيص طبي خاطئ.

إذ إن طبيباً صديقاً ظن أنه لمح بداية أعراض الكوليرا على مريضة في الثامنة عشرة، وطلب من الدكتور خوفينال أوربينو الذهاب لعيادتها. ذهب مساء ذلك اليوم بالذات، مذعوراً من احتمال أن يكون الوباء قد دخل قدس أقداس المدينة القديمة؛ فجميع الإصابات، حتى ذلك الحين، اقتصرت على الأحياء الهامشية، وكانت كلها تقريباً بين الزنوج. ووجد هناك مفاجآت أخرى ليست أقل جحوداً. كان البيت الغارق في ظلال أشجار لوز حديقة البشارة يبدو مخرباً من الخارج كغيره من البيوت ذات الأسوار الاستعمارية، أما في الداخل فكان يسود نظام جميل وضوء خافت يبدوان كأنهما من عصر آخر من عصور العالم. كان دهليز المدخل يؤدي مباشرة إلى بهو أشبيلي، مربع ومطلي بكلس أبيض حديث، وفيه أشجار برتقال مزهرة وأرضية مرصوفة ببورسلين كبورسلين الجدران. كان هناك خرير ماء متواصل لا مرئي، وأصص قرنفل على الأفاريز، وأقفاص عصافير نادرة بين قناطر الرواق. وأكثر تلك الطيور غرابة هي ثلاثة غربان في قفص كبير جداً، تُضمّخ جو البيت برائحة عطر مبهَم حين تحرك أجنحتها. بدأت عدّة كلاب مقيّدة في مكان ما من البيت بالنباح فجأة، وقد أفقدتها رائحة الغريب صوابها، لكن صرخة امرأة جعلت الكلاب تسكت تماماً، وقفزت أعداد من القطط من كل الجهات، واختبأت بين الأزهار مرتعدة من سلطة ذلك الصوت. حينئذ ساد صمت شفاف، جعل أنفاس البحر الكئيب مسموعة من خلال اضطراب العصافير ووقع ماء النافورة على الحجر.

وفكر الدكتور خوفينال أوربينو، وهو يرتعش ليقينه بحضور الرب جسدياً، أن بيتاً كهذا يجب أن يكون عصياً على الوباء. لحق غالا بلاثيديا عبر رواق القناطر، ومرّ مقابل نافذة حجرة الخياطة، حيث رأى فلورينتينو أريثا، أوّل مرّة، فيرمينا داثا حين كان البهو لا يزال مليئاً بالأنقاض؛ ثم صعد الأدراج الرخامية الجديدة إلى الطابق الثاني، وانتظر نقل خبر

وصوله قبل أن يدخل مخدع المريضة. لكن غالا بلاثيديا رجعت بملاحظة لدى خروجها:

– تقول الآنسة أنه لا يمكنك الدخول الآن لأن والدها ليس في البيت.

وهكذا كان عليه أن يعود ثانية في الخامسة مساء، حسب تعليمات الخادمة، وفتح له الباب حينئذ لورينثو داثا شخصياً وقاده إلى حجرة نوم ابنته، وبقي جالساً في عتمة الركن مقاطعاً ذراعيه ومحاولاً بلا جدوى السيطرة على أنفاسه المتسارعة خلال الوقت الذي استغرقه الفحص. لم يكن من السهل معرفة من هو الأكثر ارتباكاً، أهو الطبيب بلمسه الخجول، أم المريضة بخفر العذراء في قميص نومها الحريري، لكن أياً منهما لم ينظر في عيني الآخر، وإنما كان يسألها بصوت مبهم وتجيبه بصوت مرتعش، وكلاهما متعلق بالرجل الجالس في العتمة. وأخيراً طلب الدكتور خوفينال أوربينو من المريضة أن تجلس، وفتح قميص نومها حتى الخصر بحرص لذيذ: تلألأ صدرها الشامخ غير الممسوس، ذو الحلمتين الطفوليتين، للحظة وكأنه وميض برق في ظلالة المخدع، قبل أن تسرع لتخفيه بذراعيها المتقاطعتين. فأزاح الطبيب ذراعيها بحزم من دون أن ينظر إليها، وقام بإجراء الفحص المباشر بوضع أذنه على الجلد، بادئاً بالصدر أولاً ثم الظهر.

وقد اعتاد الدكتور خوفينال أوربينو على القول بأنه لم يشعر بأي انفعال عندما تعرّف على المرأة التي سيعيش معها حتى يوم مماته. كان يتذكر قميص النوم السماوي ذي التطريز المخرّم، والعينين المحمومتين، والشعر الطويل المنسدل على الكتفين، ولكنه كان متفاجئاً من اقتحام الوباء للسور الاستعماري، فلم يتمعّن في شيء من المحاسن الكثيرة التي تمتلكها كمراهقة يانعة، وإنما انصب اهتمامه على تقصّي أدنى احتمال من أن يكون الوباء موجود لديها. بينما كانت هي أكثر

وضوحاً: لقد بدا لها الطبيب الشاب الذي كثيراً ما سمعت باسمه أثناء الحديث عن الكوليرا، متحذلقاً عاجزاً عن حب أحد سوى نفسه. وكانت نتيجة التشخيص أنها مصابة بالتهاب معوي، ذي منشأ غذائي، برئت منه باستخدامها علاج بيتي لمدة ثلاثة أيام. اطمأن لوريثو داثا للتأكيد بأن ابنته ليست مصابة بالكوليرا، فرافق الدكتور خوفينال أوربينو حتى باب العربة، ودفع له تسعيرة البيزو الذهبي التي بدت له غالية جداً حتى بالنسبة لطبيب يعالج الأثرياء، لكنه ودّعه بامتنان مفرط. كان مبهوراً ببريق كنيته وألقابه، ولم يفعل شيئاً لمداراة ذلك الانبهار، بل إنه كان مستعداً للإقدام على عمل أي شيء للالتقاء به ثانية، في ظروف أقل رسمية.

كان لا بدّ من اعتبار المسألة منتهية. لكن الدكتور خوفينال أوربينو رجع ثانية بلا مناسبة في الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الثلاثاء التالي، من دون أن يستدعيه أحد ومن دون أن يُنبئ أحداً بقدومه. كانت فيرمينا داثا في حجرة الخياطة، تتلقى درساً في الرسم الزيتي مع صديقتين أخريين عندما ظهر من النافذة بسترته البيضاء الناصعة، وقبعته العالية والبيضاء أيضاً، وأشار لها بأن تدنو. وضعت أدوات الرسم على الكرسي وسارت نحو النافذة على رؤوس أصابعها رافعة كشكش تنورتها حتى الكاحلين لتحول دون جرّها على الأرض. كانت تضع إكليلاً مثبتاً على جبهتها بمشبك فيه حجر كريم، لبريقه لون متفلت كلون عينيها؛ وكان كل ما فيها ينفث برودة. وقد لفت انتباه الطبيب أنها ترتدي للرسم في البيت ملابس الخروج إلى حفلة. جسّ نبضها من خارج النافذة، وطلب منها أن تخرج لسانها، وفحص حلقها مستخدماً خافضة لسان من المنيوم، ونظر إلى ما تحت جفنها الأسفل، وكان كلما انتهى من شيء يشير بحركة ارتياح. كان أقل ارتباكاً من الزيارة السابقة، بينما كانت هي أكثر ارتباكاً لأنها لم تفهم سبباً لهذا الفحص الطارئ، إذا كان هو نفسه قد قال بأنه لن يعود إلا إذا

استدعوه لأي شيء يستجد. بل أكثر من ذلك: لم تكن راغبة في رؤيته إلى الأبد. عندما انتهى الفحص، خبأ الطبيب خافضة اللسان في الحقيبة المتخمة بالأدوات وقناني الدواء، وأغلقها بضربة قوية، ثم قال لها:

– إنك كزهرة متفتحة لتوّها.

– شكراً.

– الشكر لله – قال لها، واستشهد استشهاداً خاطئاً بالقديس توما:

– تذكري أن كل ما هو طيّب، مهما كان منشؤه، إنما هو من الروح القدس. أتحبين الموسيقى؟

سأل ذلك عرضاً، مع ابتسامة ساحرة، لكنها لم تجبه. بل سألت بدورها:

– ما قصدك من هذا السؤال.

فقال: – الموسيقى مهمّة للصحة.

كان يؤمن بذلك أحياناً، وستعرف هي نفسها عمّا قريب، وحتى نهاية حياتها، أن الموسيقى كانت أشبه بمعادلة سحرية يستخدمها لإقامة صداقة، لكنها فهمت الأمر في ذلك الحين على أنه سخرية. ثم إن صديقتيها اللتين تظاهرتا بالرسم فيما هما تتحدثان، أفلتتا ضحكات فئران وخبأتا وجهيهما بخشبة مزج الألوان، وهذا ما أفقد فيرمينا داثا صوابها، فصفقت النافذة بقوة وقد أعماها الغضب. حاول الطبيب الحائر أمام مصراع النافذة المخرّم أن يجد طريقه إلى البوابة الخارجية، لكنه أخطأ الاتجاه، وفي اضطرابه اصطدم بقفص الغربان العطرية، فأطلقت هذه زعقة صمّاء، وخفقت بأجنحتها مرتعبة، مضمّخة ملابس الطبيب بعطر نسائي. جمدّه صوت لورينثو داثا الراعد في مكانه.

– دكتور.. انتظرني حيث أنت.

كان قد رأى كل شيء من الطابق العلوي، فنزل الدرج وهو يزرّر

قميصه متغطرساً ومتورداً، وسالفاه الطويلان لا يزالان مشعثين بعد حلم قيلولة سيء. حاول الطبيب أن يتغلب على الحرج:

- لقد قلت لابنتك إنها تبدو كزهرة.

فقال لورينثو داثا:

- إنها كذلك، ولكنها زهرة كثيرة الأشواك.

مرّ بجانب الدكتور أوربينو من دون أن يحييه. ودفع مصراعَيْ نافذة حجرة الخياطة وأمر ابنته بصرخة خشنة:

- تعالي واعتذري من الدكتور.

حاول الطبيب أن يتوسط ليحول دون ذلك، لكن لورينثو داثا لم يعره اهتماماً. وأصر: «اسرعي». نظرتْ إلى صديقتيها بتوسّل خفي لتتفهما، وردت على أبيها بأنه لا يوجد ما يستوجب الاعتذار، وبأنها أغلقت النافذة لتمنع استمرار دخول الشمس فقط. حاول الدكتور أوربينو تأييد حججها، ولكن لورينثو داثا أصرّ على الأمر. حينئذ رجعت فيرمينا داثا إلى النافذة، شاحبة من الغضب، وقدمت قدمها اليمنى فيما هي ترفع تنورتها بأطراف أصابعها، وانحنت للطبيب انحناءة مسرحية وقالت:

- أقدم لك أخلص اعتذاري أيها السيّد المبجَّل.

جاراها الدكتور خوفينال أوربينو بمزاج رائق، رافعاً قبعته العالية بحركة كحركات الفرسان، لكنه لم ينل ابتسامة الرحمة التي كان ينتظرها. دعاه لورينثو داثا بعد ذلك ليتناول في المكتب قهوة المصالحة فوافق مبتهجاً، حتى لا تبقى أية شكوك في أنه أزال من روحه كل أثر للضغينة.

الحقيقة أن الدكتور خوفينال أوربينو لم يكن يشرب القهوة، باستثناء فنجان واحد في الصباح قبل الطعام، ولم يكن يتعاطى الكحول أيضاً، ما عدا كأس نبيذ مع الطعام في بعض المناسبات الجليلة. لكنه لم يتناول القهوة التي قدمها إليه لورينثو داثا فحسب، بل ووافق كذلك على شرب

كأس من خمرة اليانسون. ثم قبل فنجاناً قهوة آخر وكأساً أخرى من الخمر، ثم أخرى وأخرى، على الرغم من أنه كان عليه أن يزور بعض المرضى الذين لم يزرهم بعد. استمع أوّل الأمر إلى الاعتذارات التي تابع ليورنثو داثا تقديمها باسم ابنته التي وصفها بأنها طفلة ذكية وجدّية، جديرة بأمير من هنا أو من أي مكان آخر، وعيبها الوحيد، حسب زعمه، هو طبعها الذي يشبه طبع بغلة. لكنه بعد الكأس الثانية ظن أنه يسمع صوت فيرمينا داثا يأتي من طرف الفناء، ومضى خياله في أثرها، ولاحقها في الليل الذي بدأ يلف البيت فيما هي تشعل أضواء الممر وترش غرف النوم بمضخة مبيد الحشرات، وتكشف الغطاء عن قدر الحساء الذي ستتناوله هذه الليلة مع أبيها، هو وهي وحدهما على المائدة، من دون أن يرفعا بصرَيْهما، ومن دون أن يرتشفا الحساء بصوت مسموع كيلا يكسرا سحر الغضب، إلى أن يستسلم الأب ويطلب الصفح منها لقسوته عليها هذا المساء.

كان الدكتور أوربينو يعرف النساء جيداً، فأدرك أن فيرمينا داثا لن تقرب المكتب ما لم ينصرف هو منه، لكنه تأخر على أية حال، لأنه كان يحسّ أن كبرياءه الجريح لن يتيح له العيش بسلام بعد إهانة هذا المساء. ويبدو أن لوريثو داثا، الذي نال منه السكر، لم يلاحظ عدم اهتمامه به، إذ كان يكفي نفسه بطلاقة لسانه التي لا كابح لها. كان يتكلم طويلاً وهو يمضغ عقب سيجاره المنطفئ، ويسعل بصوت عال، وينفّ، ويحاول الاسترخاء بصعوبة على الكرسي الدوار الذي تئن نوابضه كأنين حيوان متهيّج. لقد شرب ثلاث كؤوس مقابل كل كأس شربه ضيفه، ولم يتوقف عن الكلام إلا عندما انتبه إلى أن كلاً منهما لم يعد يرى الآخر، فنهض ليشعل المصباح. تأمله الدكتور خوفينال أوربينو من الأمام على نور الضوء الجديد، ورأى أن إحدى عينيه مائلة كعين سمكة، وأن كلماته لا تتفق مع حركة شفتيه، وفكر بأنها تخيلات تراوده لإسرافه في الكحول.

حينئذ نهض وإحساس أخّاذ يسيطر عليه بأنه في جسد ليس جسده، وإنما جسد شخص لا يزال على المقعد حيث كان. واضطر للقيام بمجهود شاق كي لا يفقد اتزانه.

كانت الساعة قد تجاوزت السابعة عندما خرج من المكتب يسبقه لورينثو دائا. كان القمر بدراً. وكان البهو الذي زينه له خياله يطفو في حوض مائي، والأقفاص المغطاة بقطع قماشية بدت وكأنها أشباح نائمة تحت الرائحة الدافئة لأزهار البرتقال الجديدة، وكانت نافذة حجرة الخياطة مفتوحة، وعلى طاولة العمل يوجد مصباح مضيء، بينما اللوحات غير المكتملة معلقة على الحوامل وكأنها في معرض «أين أنت أيتها الغائبة»، قال الدكتور أوربينو لدى مروره، لكن فيرمينا دائا لم تسمعه، ولم يكن بمقدورها أن تسمعه، لأنها كانت تبكي غيظاً في مخدعها وهي منبطحة على بطنها فوق السرير، بانتظار والدها لتقاضيه على إذلالها هذا المساء. لم يكن الطبيب ليتنازل عن وداعها، لكن لورينثو دائا لم يعرض عليه ذلك. لقد حنّ إلى براءة نبضها، وإلى لسانها الذي كلسان قطة، ولوزتيها الطريتين، ولكنه فقد الحماسة حين فكر بأنها لم تعد ترغب برؤيته أبداً ولن تسمح له بأن يحاول ذلك. عندما دخل لورينثو دائا في الدهليز، أطلقت الغربان المستيقظة تحت الشرشف صرخة جنائزية، فقال الطبيب بصوت عال: «ستقلع عينيك»، وكان يفكّر بها، فالتفت إليه لورينثو دائا ليسأله ما الذي قاله.

فأجاب: - لست أنا الذي قلت، وإنما هي الخمرة.

رافقه لورينثو دائا حتى العربة محاولاً إقناعه بقبول البيزو الذهبي كأجرة للزيارة الثانية، لكنه لم يقبله. أعطى الخوذي تعليمات صحيحة ليوصله إلى بيت المريضين اللذين عليه زيارتهما، وصعد إلى العربة من دون مساعدة، لكنه بدأ يشعر بالإعياء بفعل اهتزاز العربة فوق الشوارع

المرصوفة بالأحجار، فما كان منه إلّا أن أمر الحوذي بتغيير الاتجاه. نظر لبرهة في المرآة ورأى أن صورته أيضاً ما زالت تفكر بفيرمينا داثا، فهزّ كتفيه. وأخيراً أطلق جشأة رملية، وأسند رأسه على صدره وأغفى، وفي الحلم بدأ يسمع نواقيس الحداد. سمع نواقيس الكاتدرائية أولاً، ثم نواقيس جميع الكنائس، بما فيها أجراس كنيسة سان خوان هوسبِتاليريو المكسرة.

فدمدم وهو نائم: - يا للخراء، لقد مات الموتى.

كانت أمه وشقيقتاه تتناولن عشاءً مؤلفاً من القهوة بالحليب وكعكة الجبن والدقيق على منضدة المآدب في صالة الطعام الكبيرة، عندما رأينه يظهر في الباب بوجه منهك، تفوح منه رائحة مخزية هي رائحة عطر المومسات التي نفثتها الغربان. كان الناقوس الكبير في الكاتدرائية المجاورة يرن في السكون المخيم على البيت. سألته أمه مذعورة أين كان، لأنهم بحثوا عنه في كل الأنحاء ليعالج الجنرال إغناسيو ماريا، آخر أحفاد المركيز دي خاريث دي لافيرا، الذي مات هذا المساء باحتقان دماغي، ومن أجله كانت تقرع الأجراس. انصت الدكتور خوفينال أوربينو إلى أمه من دون أن يسمعها، وأمسك بإطار الباب، ثم دار نصف دورة محاولاً الوصول إلى حجرته، لكنه هوى على وجهه وسط انفجار قيء خمر مدو.

صرخت أمه:

- يا مريم المقدسة. لا بدّ أن أمراً غريباً جعلك تجيء إلى بيتك في مثل هذه الحالة.

لكن الأكثر غرابة لم يكن قد حدث بعد. فقد انتهز زيارة عازف البيانو المعروف روميو لوسيتش، الذي عزف مجموعة سونيتات لموزارت، بعد انتهاء حداد المدينة على الجنرال إغناسيو ماريا مباشرة. فحمّل

الدكتور خوفينال أوربينو بيانو مدرسة الموسيقى على عربة تقودها البغال، وأحيا لفيرمينا داثا سيرناداً أصبح مضرب المثل. استيقظت هي مع النغمات الأولى، ولم تكن بحاجة للنظر من تخريمات الشرفة لتعرف من هو صاحب هذا التكريم الفريد. والشيء الوحيد الذي أسفت له هو عدم امتلاكها شجاعة غيرها من الآنسات المجرّبات اللواتي يفرغن محتويات المبولة فوق رأس العاشق غير المرغوب فيه. أما لورينثو داثا فقد ارتدى ملابسه على عجل أثناء عزف السيرناد، ودعا الدكتور خوفينال أوربينو وعازف البيانو للدخول وهما لا يزالان بالملابس والزينة الخاصة بحفلة الكونشيرتو، وشكرهما على السيرناد بكأس جيد من البراندي.

سرعان ما تنبهت فيرمينا داثا إلى أن والدها يحاول أن يليّن قلبها. ففي اليوم التالي للسيرناد قال لها بمواربة:

- تصوري شعور أمك لو أنها عرفت بأنك مرغوبة من أحد آل أوربينو دي لا كايي.

فردت عليه بجفاء:

- كانت ستموت ثانية وهي في التابوت.

وروت لها صديقاتها اللواتي يرسمن معها أن لورينثو داثا قد ذهب إلى النادي الاجتماعي بدعوة من الدكتور خوفينال أوربينو، وأن هذا الأخير كان محط تنبيه صارم لمخالفته تعليمات النادي. وحينئذ فقط علمت أيضاً أن أباها قد طلب عدّة مرّات الانضمام إلى النادي الاجتماعي، وأن طلبه رُفض في كل مرّة بعدد من الكرات السوداء لا يتيح المجال للتفكير بمحاولة أخرى. لكن لورينثو داثا كان يبتلع الإهانة بكبد سكّير، ويتابع استنباط الوسائل للالتقاء مصادفة بالدكتور خوفينال أوربينو، من دون أن يلاحظ بأن خوفينال أوربينو هو الذي كان يفعل المستحيل ليجعله يلتقي

به. كانا يقضيان أحياناً عدّة ساعات وهما يتبادلان الحديث في المكتب، فيبدو البيت حينئذ كأنه غارق على هامش الزمان، لأن فيرمينا داثا لم تكن تسمح لشيء بأن يتابع خط حياته المعتاد قبل انصرافه. وكان مقهى الأبرشية ملجأ وسطاً لا بأس به. وهناك علّم لورينثو داثا أوّل دروس الشطرنج لخوفينال أوربينو، وكان هذا تلميذاً مجدّاً، وأصبح الشطرنج داءً آخر لا شفاء منه عذّبه حتى يوم مماته.

في إحدى الليالي، بعد مدّة قصيرة من سيرناد البيانو المنفرد، وجد لورينثو داثا رسالة مختومة بالشمع في مدخل بيته، موجهة إلى ابنته وقد طبعت على الشمع حروف: خ. أو. ك. فدسّها من تحت الباب لدى مروره أمام مخدع فيرمينا، ولم تستطع هي أن تُدرك كيف وصلت الرسالة إلى هناك، إذ رأت أنه من غير المعقول أن يكون أبوها قد تغيّر إلى حدّ إيصال رسائل عاشقها إليها. تركتها فوق الكومودينو، من دون أن تدري ما تفعله بها حقاً، وبقيت الرسالة هناك مغلقة عدّة أيام، حتى مساء يوم ماطر حلمت فيه فيرمينا داثا أن خوفينال أوربينو قد رجع إلى البيت ليهدي إليها خافضة اللسان التي فحص بها حلقها. ولم تكن خافضة الحلم من الألمنيوم وإنما من معدن آخر شهي كانت قد تذوقته بلذة في أحلام أخرى، ورأت أنها كسرتها إلى جزأين غير متساويين وأعطته القطعة الصغرى.

عندما استيقظت، فتحت الرسالة. كانت قصيرة ومهذبة، والشيء الوحيد الذي كان يرجوه خوفينال أوربينو منها هو السماح له بأن يطلب من أبيها الإذن بزيارتها. لقد تأثرت ببساطته وجديته، والغيظ الذي رعته بالحب خلال تلك الأيام خمد فجأة. خبّأت الرسالة في علبة مهملة في قاع الصندوق، لكنها تذكرت أنها كانت تخبّئ هناك أيضاً رسائل فلورينتينو أريثا المعطرة، فأخرجتها من العلبة لتضعها في مكان آخر، وقد هزّتها موجة من الخجل. عندئذ رأت أن خير ما تفعله هو أن تعتبر

الرسالة لم تصلها، فأحرقتها بلهب المصباح، وهي ترى قطرات الشمع تنتفخ في فقاعات زرقاء فوق اللهب. تنهدت «يا للرجل المسكين». وفجأة تذكرت أنها المرّة الثانية التي تقول فيها ذلك خلال أكثر بقليل من سنة، وفكرت لهنيهة بفلورينتينو أريثا، وقد فوجئت هي نفسها كم صار بعيداً عن حياتها: يا للرجل المسكين.

في تشرين الأول، ومع الأمطار الأخيرة، وصلتها ثلاث رسائل أخرى، مع الأولى منها علبة أقراص بنفسج من دير فلافيغني. رسالتان سلمهما عند مدخل البيت حوذي الدكتور خوفينال أوربينو، الذي حيّا غالا بلاثيديا من نافذة العربة، وذلك كي لا تكون هنالك شكوك في أن الرسائل ليست منه أولاً، وحتى لا يستطيع أحد الادعاء بأن الرسائل لم تصل ثانياً. ثم إن الرسالتين كانتا مختومتين بالحروف الأولى نفسها على الشمع الأحمر، ومكتوبتين بالخط الرديء الذي كانت فيرمينا داثا تعرفه: خط طبيب. والرسالتان كلتاهما تقولان من حيث الجوهر ما جاء في الرسالة الأولى، وهما مصاغتان بروح الخنوع ذاتها، ولكن في أعماق لياقته بدأ يشع اشتياق لم يكن ليظهر أبداً في رسائل فلورينتينو أريثا الرصينة. وقد قرأتهما فيرمينا داثا فور استلامهما، بفارق أسبوعين بينهما. وعندما كانت على وشك الإلقاء بهما إلى النار، غيّرت رأيها من دون أن تفسر الأمر لنفسها. ولكنها رغم ذلك لم تفكر أبداً في الرد عليهما.

الرسالة الثالثة من رسائل شهر تشرين الأول دُسّت من تحت باب البيت الخارجي، وكانت مختلفة في كل شيء عن الرسائل السابقة. فالخط كان صبيانياً لدرجة لا تدع مجالاً للشك في أنها كتبت باليد اليسرى، لكن فيرمينا داثا لم تفكر بشيء من هذا إلا عندما كشف لها النص بالذات عن مجهول لئيم. فكاتب الرسالة يضع كأمر واقع أن فيرمينا داثا قد سحرت بأكاسيرها الدكتور خوفينال أوربينو، ومن هذا الافتراض يستخلص النتائج المشؤومة. وينتهي بتهديد: إذا لم تتراجع

فيرمينا داثا عن محاولتها الاستيلاء على الرجل المرغوب أكثر من أي رجل آخر في المدينة، فإنها ستعرّض نفسها للفضيحة العامة.

أحسّت بأنها ضحية ظلم مجحف، لكن ردّة فعلها لم تكن انتقامية، وإنما على العكس تماماً: كانت ترغب في الكشف عن الفاعل المجهول لصرفه عن خطئه بكل التفسيرات المناسبة، إذ كانت موقنة بأنها لن تتأثر أبداً، ومهما كانت الأسباب، بمغازلات خوفينال أوربينو. ثم تلقت في الأيام التالية رسالتين أخريين مغفلتَي التوقيع. فيهما من الحقد مثلما في تلك الأولى، ولكن لم يكن يبدو في أي من الرسائل الثلاث أن كاتبها هو الشخص نفسه. فإما أنها وقعت ضحية مكيدة، أو أن قصة حبها المزيّف قد وصلت إلى أبعد ممّا تصورته. لقد أقلقتها فكرة أن كل ذلك إنما هو نتيجة تهوّر خوفينال أوربينو ليس إلّا. وخطر لها بأنه قد يكون رجلاً مختلفاً عمّا يوحي به مظهره الوقور، وأن لسانه ربّما ينطلق في زيارته فيتبجح بغزوات وهمية، كما يفعل كثيرون من أمثاله. فكرت في أن تكتب له موبّخة على إهانته شرفها، ولكنها تخلت عن الفكرة، فقد يكون هذا ما يريده. وحاولت أن تستعلم من صديقاتها اللواتي يأتين للرسم معها في غرفة الخياطة، لكن الشيء الوحيد الذي سمعته هي تعليقات سليمة العاقبة حول سيرناد البيانو المنفرد. أحسّت بالغضب، والعجز، والمهانة. وعلى العكس من البداية، حين رغبت في العثور على العدو الخفي لإقناعه بأخطائه، أصبحت تريد فرمه الآن بمقص تشذيب الحديقة. صارت تُمضي الليالي مستيقظة، محللة تفاصيل وتعابير الرسائل المجهولة، على أمل العثور على بارقة عزاء. وكان ذلك وهماً باطلاً: ففيرمينا داثا بطبعها كانت غريبة عن عالم آل أوربينو دي لا كايي الداخلي، وكانت تمتلك الأسلحة لمواجهة فنونهم الخيّرة، أما الشريرة فلا.

وأصبحت هذه القناعة أشدّ مرارة بعد رعب الدمية السوداء التي

وصلتها في تلك الأيام من دون أية رسالة، ولكن بدا لها أنه من السهل تصوّر مصدرها: فالدكتور خوفينال أوربينو وحده يمكن أن يكون مرسلها. إنها مشتراة من المارتينيك، حسب بطاقة المنشأ، وترتدي فستاناً محكماً، لها شعر أجعد فيه خيوط ذهبية، وهي تغمض عينيها عند وضعها مستلقية. لقد رأت فيها فيرمينا داثا تسلية جعلتها تتغلب على وساوسها، فكانت تمدّدها على مخدتها في النهار. واعتادت على النوم معها في الليل. وبعد فترة من الزمن، إثر حلم منهك، اكتشفت أن الدمية كانت تكبر: فالثياب الأصلية التي وصلت بها أصبحت تكشف عن فخذيها، والحذاء تمزق بضغط نمو القدمين. كانت فيرمينا داثا قد سمعت من قبل عن رقيات سحرية أفريقية مشؤومة، ولكن أياً منها لم يكن رهيباً كهذه. ولم تستطع، من جهة أخرى، تصوّر أن يكون رجل كخوفينال أوربينو قادراً على ارتكاب فظاعة مماثلة. وكانت محقّة: فالدمية لم يوصلها الحوذي، وإنما بائع قريدس عابر، لم يستطع أحد أن يقدم لها خبراً يقيناً عنه. وفي محاولة لحل اللغز، فكّرت فيرمينا داثا للحظة بفلورينتينو أريثا، الذي كان تجهّمه يثير فزعها، لكن الحياة تكفلت بإقناعها بخطئها. ولم يتضح السرّ أبداً؛ وكان مجرّد تذكّرة يبعث فيها قشعريرة رعب إلى ما بعد زمن طويل من زواجها، وإنجابها أولاداً، واعتقادها بأنها مختارة القدر وأسعد النساء.

محاولة الدكتور أوربينو الأخيرة كانت توسط الأخت فرانكا ديلا لوث، رئيسة راهبات مدرسة ظهور العذراء المقدسة، والتي لا تستطيع رفض طلب من عائلة أيّدت طائفتها منذ استقرار هذه الطائفة في الأمريكتين. حضرت برفقة راهبة مستجدة في الساعة التاسعة صباحاً، وتسلتا كلتاهما لمدة نصف ساعة بأقفاص العصافير ريثما تنتهي فيرمينا داثا من الاستحمام. كانت ألمانية مسترجلة، تتكلم بنبرة معدنية، ولها نظرة آمرة لا علاقة لها بعواطفها الصبيانية.

لم يكن في هذا العالم ما تكرهه فيرمينا داثا أكثر من كرهها لها وممّا رأته على يديها، ومجرّد تذكر شفقتها الكاذبة كان يسبب لها حرقصة عقرب في أحشائها. وما إن تعرّفت عليها من باب الحمّام حتى عادت تعيش دفعة واحدة جميع عذابات المدرسة، وحلم القدّاس اليومي الذي لا يطاق، ورعب الامتحانات، ومساعي الراهبات المستجدات الدنيئة، وكل الحياة المُفسَدة بموشور الفقر الروحي. أما الأخت فرانكا ديلا لوث بالمقابل، فقد حيّتها بمرح بدا نزيهاً. وأبدت دهشتها لنموّها ونضجها، وأطرت على حكمتها في تدبير شؤون البيت، وذوقها الرقيق الظاهر في الفناء، وفي مجمرة أزهار البرتقال. ثم أمرت المستجدة بانتظارها، وعدم الاقتراب كثيراً من الغربان القادرة على انتزاع عينيها في لحظة إهمال، وبحثت عن مكان منعزل تجلس فيه لتتحدث على انفراد مع فيرمينا داثا. فدعتها هذه إلى الصالة.

كانت زيارة قصيرة وفظّة. فالأخت فرانكا ديلا لوث، ومن دون إضاعة الوقت في الديباجات، عرضت على فيرمينا داثا ردّ اعتبار مشرّف. كما أن سبب الطرد سيُمحى، ليس من المحاضر فقط، وإنما من ذاكرة الطائفة أيضاً، وهذا سيتيح لها استكمال دراستها والحصول على الشهادة الثانوية في الآداب.

أرادت فيرمينا داثا الحائرة أن تعرف السبب. فقالت الراهبة:

- كل ذلك بناء على طلب شخص جدير بكل شيء، ورغبته الوحيدة هي إسعادك. أوتعرفين مَن هو؟

حينئذ فهمت الأمر. وسألت نفسها كيف يمكن لامرأة غيّرت مسار حياتها من أجل رسالة بريئة أن تقوم الآن بدور رسول الحب، لكنها لم تتجرّأ على قول ذلك. وقالت بالمقابل إنها عرفت الرجل المعني، وإنها تعرف كذلك أنه لا يملك الحق بالتدخل في حياتها.

فقالت الراهبة:

- الشيء الوحيد الذي يرجوه هو أن تسمحي له بالتحدث إليك لخمس دقائق. وأنا متأكدة أن أباك سيوافق.

أصبح غضب فيرمينا داثا أشدّ زخماً لفكرة أن أباها متواطئ في تلك الزيارة. فقالت:

- لقد التقينا مرتين حين كنت مريضة. وما من سبب يدعو للقاء الآن.

وقالت الراهبة:

- إن هذا الرجل هو بمثابة هدية من العناية الإلهية بالنسبة لأي امرأة لها دماغ عرضه إصبعان.

وتابعت الكلام عن فضائله، وعن ورعه، وانكبابه على خدمة المعذَّبين. وفيما هي تتكلم أخرجت من كمّها مسبحة ذهبية تنتهي بمسيح منحوت من العاج، وهزّتها أمام عيني فيرمينا داثا. إنها من آثار العائلة، وعمرها أكثر من مئة سنة، صاغها صائغ من سيينا وباركها البابا كليمنت الرابع. وقالت لها:

- إنها لك.

أحسّت فيرمينا داثا بتيار دافق من الدم في أوردتها، وتجرأت حينئذ على القول:

- لا أستطيع أن أفهم كيف تقبلين القيام بمهمة كهذه، إذا كنت ترين في الحب خطيئة.

تظاهرت الأخت فرانكا ديلا لوث بأنها لم تُدرك مغزى الملاحظة، لكن أجفانها التهبت. وتابعت تحريك المسبحة مقابل عينيها. وقالت:

- خير لك أن تتفاهمي معي، فقد يجيء بعدي نيافة الأسقف، وسيكون الحال معه مختلفاً.

فقالت فيرمينا داثا: - فليأتِ.

خبّأت الأخت فرانكا ديلا لوث المسبحة الذهبية في كمها، ثم أخرجت من الكم الآخر منديلاً مستعملاً كثيراً، ومجعداً على شكل طابة، واحتفظت به مضغوطاً في قبضتها، وبينما هي تنظر إلى فيرمينا داثا من بعيد جداً، بابتسامة حانية، تنهدت:

- مسكينة أنت يا بنيتي، ما زلت تفكرين بذلك الرجل.

ابتلعت فيرمينا داثا الإهانة وهي تنظر إلى الراهبة من دون أن يرمش لها جفن، وحدقت في عينيها، من دون أن تتكلم، وهي تمضغ بصمت، إلى أن رأت بسعادة لا نهائية عينيها الرجوليتين تغرورقان بالدموع. مسحتهما الأخت فرانكا ديلا لوث بالمنديل المكوّر، ونهضت واقفة وهي تقول:

- لقد صدق والدك حين قال إنك بغلة.

لم يأت الأسقف. وكان الحصار سينتهي في ذلك اليوم، لولا أن هيلديبراندا سانتشيث جاءت لقضاء أعياد الميلاد مع ابنة عمتها، فتبدلت الحياة لكلتيهما. استقبلوها في السفينة القادمة من ريوهاتشا في الساعة الخامسة صباحاً، وسط اضطراب مسافرين يحتضرون من الدوار، فيما نزلت هي من السفينة مشرقة، كامرأة ناضجة جداً، بروح مضطربة بفعل الليلة البحرية السيئة. جاءت محمَّلة بأقفاص الديكة الرومية الحية وبكل أنواع الثمار التي تطرحها بساتينهم الزاهرة، كي لا ينقص الطعام على أحد أثناء زيارتها. وبعث والدها ليسيماكو سانتشيث يسأل إن كانوا بحاجة إلى موسيقيين من أجل حفلة الفصح، لأن أفضل الموسيقيين متوفرون وتحت تصرفه، ويعد بأنه سيبعث فيما بعد شحنة ألعاب نارية. ويعلن أيضاً أنه لن يستطيع المجيء لاخذ ابنته قبل شهر آذار، وهذا يعني أن لديهما متسعاً من الوقت تعيشانه معاً.

بدأت الفتاتان في الحال. استحمتا معاً منذ مساء اليوم الأول، عاريتين، وطهّرتا بعضهما بماء البركة. تعاونتا على دلك جسديهما

بالصابون، وأخرجت كل منهما الصيئبان من شعر الأخرى، وقارنتا أردافهما، ونهودهما الصلبة، وتأملت كل منهما في مرآة الأخرى لترى قسوة الزمن عليهما مذ رأت كل منهما الأخرى عارية آخر مرّة. كانت هيلديبراندا ضخمة ومتينة، ذات بشرة ذهبية، لكن شعر جسمها بأسره كان شعر مولدة، قصير ومفتول وكأنه رغوة أسلاك. أما فيرمينا داثا فكانت ذات عري شاحب، خطوطه طويلة، وبشرتها صافية ناعمة الزغب. وضعت غالا بلاثيديا لهما سريرين متماثلين في حجرة النوم. لكنهما كانتا تستلقيان في سرير واحد أحياناً وتتحدثان بعد إطفاء النور حتى الفجر، وتدخنان سيجاراً من النوع الرفيع الذي يدخنه قطّاع الطرق كانت هيلديبراندا قد أحضرته معها مخبّأ في بطانة الصندوق، وكان عليهما أن تحرقا بعد التدخين أوراق أرمينا لتنقية هواء الحجرة الذي يصبح كهواء أكواخ الرعاة. لقد دخّنت فيرمينا داثا للمرة الأولى في فايدوبار، وتابعت التدخين في فونسيكا، وفي ريوهاتشا، حين كانت تحبس نفسها مع عشر من بنات أخوالها في حجرة ليتحدثن عن الرجال ويدخنّ في الخفاء. وتعلمت التدخين بالمقلوب، وذلك بوضع طرف السيجار المشتعل في فمها، كما يدخن الرجال في ليالي الحرب كي لا تفضح جمرة السيجار وجودهم. لكنها لم تدخن أبداً منفردة. وأصبحت تفعل ذلك مع هيلديبراندا في بيتها كل ليلة قبل أن تناماً. ومنذ ذلك الحين اكتسبت عادة التدخين، رغم أنها كانت تدخن في الخفاء دوماً، وحتى خفية عن زوجها وأولادها، ليس ذلك لأنه كان يُنظر إلى المرأة المدخنة في العلن بغير الرضى، وإنما لأن متعتها كانت تكتمل بالسرّية.

كانت رحلة هيلديبراندا قد فُرضت عليها كذلك من جانب أبويها، في محاولة لإبعادها عن حبها المستحيل، رغم أنهم أقنعوها بأنها مسافرة لمساعدة فيرمينا داثا على حسم أمرها في وجهة حسنة، وقد وافقت هيلديبراندا على أمل مغافلة النسيان، واتفقت مع موظف التلغراف في

فونسيكا ليوصل رسائلها بأقصى قدر من الكتمان. ولذا كان يأسها مريراً حين علمت أن فيرمينا داثا قد صدّت فلورينتينو أريثا لأن هيلديبراندا كانت تملك رؤية كونية للحب، وتفكر أن ما يطرأ على حب يؤثر على جميع غراميات العالم بأسره. ولكنها لم تتخلَ عن مشروعها. ذهبت، بجرأة سببت لفيرمينا داثا أزمة رعب، إلى مكتب البريد بغرض كسب جميل فلورينتينو أريثا.

ما كان لها أن تتعرف عليه، إذ لم يكن فيه أي ملمح من الصورة التي رسمتها له في خيالها من خلال كلام فيرمينا داثا. وللوهلة الأولى رأت أنه من المحال أن تكون ابنة عمتها قد أوشكت على الجنون من أجل ذلك الموظف الذي يكاد لا يلفت الانتباه، والذي له ملامح كلب مضروب بالعصا، بملابسه التي كملابس حاخام منكوب، وأساليبه غير القادرة على استثارة قلب أحد. لكنها ما لبثت أن ندمت لهذا الانطباع الأول عندما وضع فلورينتينو أريثا نفسه في خدمتها بلا أية شروط، وحتى من دون أن يعرف من تكون. ولم يعرف ذلك أبداً. ما كان لأحد أن يفهمها مثله، فلم يطلب منها الإفصاح عن هويتها، كما لم يطلب أي عنوان. ووضع حلاً بمنتهى البساطة: عليها أن تمرّ بمكتب التلغراف مساء كل أربعاء ليسلمها الردود باليد، ولا شيء سوى ذلك. وعندما قرأ رسالة هيلديبراندا المكتوبة، سألها إن كانت توافق على تعديل يقترحه، فوافقت. فكتب فلورينتينو أريثا بعض التعديلات بين السطور، ثم شطبها، وأعاد كتابتها، حتى لم يعد لديه فراغ بين السطور، وأخيراً مزق الورقة وكتب رسالة مختلفة تماماً بدت لها مثيرة. وعندما خرجت هيلديبراندا من مكتب التلغراف كانت على حافة الدموع.

وقد قالت لفيرمينا داثا:

- أنه قبيح وكئيب. لكنه ينضح حباً.

وكان أكثر ما لفت انتباه هيلديبراندا هو عزلة ابنة عمتها. وقالت لها إنها تبدو كعانس في العشرين من العمر. فهيلديبراندا المعتادة على أسرة كثيرة العدد وموزعة في بيوت لا أحد يعرف بالتحديد عدد الذين يعيشون فيها، ولا من هم الذين سيتناولون الطعام في كل وجبة، لم تستطع أن تتصور فتاة في مثل سنها تحجز نفسها في الحياة الخاصة. وهكذا كانت فيرمينا داثا: فمنذ استيقاظها في السادسة صباحاً، وإلى أن تطفئ نور حجرة النوم، كانت تكرّس نفسها لإضاعة الوقت. فالحياة تُفرض عليها من الخارج: أولاً، ومع صياح الديكة الأولى، يوقظها بائع الحليب بمقرعة الباب. ثم تدق بائعة السمك على صندوق أسماك الأبرميس التي ما زالت تحتضر فوق فرشة من الأعشاب البحرية، وتأتي التشكيلة الفاخرة من خضروات بساتين ماريا السفلى وفواكه سان خاثينتو. بعد ذلك، وطوال النهار، يقرع الجميع الباب: المتسولون، بائعات اليانصيب، راهبات الإحسان، المجلخ مع نايِه، ومشتري القناني الفارغة، ومشتري الذهب الكسر، ومشتري ورق الجرائد، والغجريات المزيَّفات اللاتي يقرأن الحظ في أوراق اللعب، وفي خطوط الكف، وفي بقايا القهوة، وفي ماء الجفنة. كان الأسبوع يمرّ على غالا بلاثيديا وهي تفتح الباب وتغلقه لتقول لا، عد في يوم آخر، أو لتصرخ من الشرفة بمزاج متعكّر أن توقفوا عن الإزعاج، يا للعنة، لقد اشترينا كل ما نحتاج إليه. كانت قد حلّت محل العمّة اسكولاستيكا بحماسة شديدة وظرافة كبيرة، حتى إن فيرمينا داثا كانت تخطئ فتظنها العمّة، وتحبها على أنها كذلك. كانت مسكونة بهواجس عبدة. فما إن تجد لحظة فراغ حتى تمضي إلى غرفة الأشغال لتكوي الملابس البيضاء، وتتركها على أحسن حال، وتحفظها في الخزائن مع أزهار الخزامى، ولم تكن تكوي وتطوي ما كانت قد غسلته فقط وإنما كذلك الملابس التي فقدت رونقها لقلة الاستخدام. وبالاهتمام ذاته كان تحافظ على ملابس فيرمينا سانتشيث، والدة فيرمينا،

المتوفاة منذ أربعة عشر عاماً خلت. لكن فيرمينا داثا هي التي كانت تتخذ القرارات. فهي من يأمر بإعداد ما يجب إعداده للطعام، وما يجب أن يُشترى، وما يجب عمله في كل حالة، وبهذا كانت تقرّر مسار حياة بيت لا يوجد فيه في الواقع ما يجب تقريره. فبعد أن تنتهي من تنظيف الأقفاص ووضع الطعام للعصافير، والتأكد من أن الأزهار ما عادت بحاجة لشيء، تفقد التوجّه ولا تعود تدري ماذا تفعل. وبعد طردها من المدرسة، كثيراً ما كانت تبقى نائمة منذ القيلولة ولا تستيقظ حتى اليوم التالي. ولم تكن دروس الرسم إلا وسيلة مسلية أخرى لإضاعة الوقت.

كانت علاقاتها بأبيها خالية من العواطف منذ نفي العمّة اسكولاستيكا، لكنهما وجدا سبيلاً إلى العيش معاً من دون عراقيل. فحينما تستيقظ، يكون أبوها قد خرج إلى أعماله. ونادراً ما كان يتخلف عن طقس الغداء، مع أنه لم يكن يأكل شيئاً تقريباً، إذ إنه يكتفي ببعض المقبلات ولقيمات من الأصناف الغاليسية الخفيفة التي تُقدَّم في مقهى الأبرشية. ولم يكن يتناول العشاء أيضاً: كانوا يتركون له حصته من العشاء على المائدة، في صحن واحد مغطى بصحن آخر، رغم معرفتهم بأنه لن يأكلها حتى اليوم التالي، بعد إعادة تسخينها، على الفطور. وكان يعطي ابنته النقود اللازمة للنفقات مرّة كل أسبوع، ويحسب تلك النقود جيداً، وكانت تتصرف بها بصرامة، مع أنه يلبي عن طيب خاطر أي طلب تطلبه لنفقات طارئة. لم يساومها على قرش في يوم من الأيام، ولم يطلب منها بياناً بالحساب يوماً، لكنها كانت تتصرّف وكأنها ستقدم كشفاً بالحساب أمام محكمة قدسية. لم يحدّثها أبداً عن طبيعة أعماله وحالتها، كما لم يرافقها لتتعرف على مكاتبه في الميناء، تلك التي في موقع محظور على الآنسات دخوله حتى وهنّ بصحبة آبائهن. ولم يكن لورينثو داثا يرجع إلى بيته قبل الساعة العاشرة ليلاً، وهي ساعة حظر التجول في مراحل الحرب الأقل خطراً. وكان يبقى حتى ذلك الحين في مقهى الأبرشية، يلعب

كل شيء، لأنه كان متخصصاً في جميع ألعاب الصالونات، ومعلماً جيداً لهذه الألعاب أيضاً. وكان يعود دوماً إلى بيته في حالة من الاتزان العقلي، من دون أن يوقظ ابنته، رغم أنه كان يتناول أوّل كأس من خمر اليانسون عند استيقاظه، ويتابع مضغ عقب سيجاره المنطفى، وشرب عدد من الكؤوس المتفرقة طوال النهار. لكن فيرمينا داثا أحسّت بدخوله في إحدى الليالي. سمعت وقع خطواته كخطوات قوزاقيّ على الدرج، ولهاثه الضخم في ممر الطابق الثاني، وضرباته بكف يده على باب غرفة النوم. فتحت له الباب، وفزعت للمرة الأولى من عينه المنحرفة وكلماته المضطربة.

قال: – لقد افلسنا. إنه الانهيار التام، وها أنتِ قد علمت.

كان ذلك هو كل ما قاله لها، ولم يعد لقول ذلك أبداً، ولم يحدث ما يشير إلى أنه قال الحقيقة، لكن فيرمينا داثا وعت بعد تلك الليلة أنها وحيدة في الدنيا. كانت تعيش على أحد هوامش المجتمع، فصديقاتها القديمات في المدرسة كن في سماء محرّمة عليها، وقد أصبح الأمر أكثر صعوبة بعد فضيحة طردها، ولم تكن بمثابة جارة لجيرانها أيضاً، لأن هؤلاء تعرفوا عليها بلا ماضٍ، وبزي مدرسة ظهور العذراء المقدسة. أما عالم أبيها فكان عالم التجار وحمّالي السفن، عالم لاجئي الحروب في وكر مقهى الأبرشية العام، عالم رجال متوحّدين. لقد خففت دروس الرسم من عزلتها في السنة الأخيرة، لأن المعلمة كانت تفضل الدروس الجماعية، وقد اعتادت أن تأتي معها بتلميذات أخريات إلى حجرة الخياطة، لكنهن فتيات من أوساط اجتماعية مشوَّشة وغير محددة. لم يكنَّ بالنسبة لفيرمينا داثا أكثر من صديقات مستعارات، ينتهي تأثيرهن مع انتهاء كل درس. أرادت هيلديبراندا أن تفتح البيت، أن تهويه، أن تأتي بالموسيقيين والألعاب النارية وقلاع البارود من عند أبيها وإقامة حفلة رقص كرنفالية يقوّض عصفها حالة ابنة عمتها المعنوية المنخورة، لكنها

سرعان ما تنبهت إلى أن نواياها غير مجدية. والسبب بسيط: لا يوجد من يشارك في الحفلة.

وكانت هيلديبراندا، على أي حال، هي التي وضعتها في الحياة. ففي الأماسي، وبعد دروس الرسم، كانت ترافقها إلى الشارع لتتعرف على المدينة، وقد أرتها فيرمينا داثا الطريق الذي كانت تقطعه يومياً مع العمّة اسكولاستيكا، ومقعد الحديقة حيث كان فلورينتينو أريثا يتظاهر بالقراءة لينتظرها، والأزقة التي كان يلاحقها فيها، ومخابئ الرسائل، والقصر المشؤوم الذي كان سجن محكمة التفتيش فيما مضى وتحول إلى مدرسة ظهور العذراء المقدسة التي تكرهها من أعماق روحها. صعدتا إلى رابية مقبرة الفقراء، حيث كان فلورينتينو أريثا يعزف الكمان حسب اتجاه الريح لتسمعه وهي في الفراش، ومن هناك رأتا المدينة التاريخية بكاملها، والسقوف المتهالكة والجدران المتآكلة، وأنقاض الحصون بين الأجام، والجزر المتناثرة في الخليج، وأكواخ البؤس حول المستنقعات، والكاريبي الرحب. في ليلة عيد الميلاد ذهبتا إلى القدّاس في الكاتدرائية، وجلست فيرمينا في المكان الذي تصلها فيه موسيقى فلورينتينو أريثا على أحسن وجه، وأرت ابنة خالها المكان الدقيق الذي رأت فيه لأوّل مرّة، عن قرب، عينيه المرتعبتين في ليلة كهذه الليلة. وغامرتا بالذهاب وحدهما إلى زقاق الكتبة العموميين، واشترتا الحلوى، وتوقفتا في دكان الأوراق السحرية، وأرت فيرمينا داثا ابنة خالها المكان الذي اكتشفت فيه فجأة أن حبها لم يكن أكثر من سراب. ولم تنتبه هي نفسها إلى أن كل خطوة خطتها من البيت إلى المدرسة، وكل مكان في المدينة، وكل لحظة من ماضيها القريب ما كان لها من وجود إلا بفضل فلورينتينو أريثا. ولفتت هيلديبراندا انتباهها إلى ذلك، لكنها لم توافق على الأمر، لأنها لم تقبل يوماً حقيقة أن فلورينتينو أريثا، بخيره أو شره، هو الشيء الوحيد الذي حدث لها في الحياة.

في تلك الأيام جاء إلى المدينة مصوّر فوتوغرافي بلجيكي، وأقام استوديو تصويره في أعالي زقاق الكتيبة العموميين، وانتهز كل قادر على الدفع الفرصة ليلتقط صورة. وكانت فيرمينا وهيلديبراندا من الأوائل. أفرغتا خزانة ملابس فيرمينا سانتشيث، واقتسمتا أزهى الملابس، والمظلات، وأحذية الاحتفالات والقبعات، وارتدتا ملابس سيدات كانت سائدة منذ نصف قرن. ساعدتهما غالا بلاثيديا في شدّ أحزمة الخصر، وعلمتهما كيف تتحركان في هياكل التنانير الداخلية المصنوعة من الأسلاك، وكيف تلبسان القفازات، وتزرران الأحذية ذات الكعوب العالية. وفضلت هيلديبراندا قبعة عريضة الحواف مزينة بريش نعام يتدلى على ظهرها. ووضعت فيرمينا قبعة أكثر حداثة، مزينة بفواكه من الجصّ ملونة وأزهار كرينولينا. ثم ضحكتا لمظهرهما عندما رأتا في المرآة أنهما تشبهان صور الجدات، وانطلقتا سعيدتين، ضاحكتين، لتلتقطا صورة عمرهما. رأتهما غالا بلاثيديا وهما تجتازان الحديقة وقد فتحتا مظلتيهما، مستندتين كيفما اتفق على كعوب أحذيتهما، ودافعتين تنانيرهما المكشكشة مع جسدَيهما كله في مشية كمشية الأطفال، فباركتهما كي يساعدهما الله في صورهما.

كانت هناك جلبة مقابل استوديو البلجيكي، إذ كان يلتقط صوراً لبيني ثيتينو الذي كسب في تلك الأيام بطولة الملاكمة في بنما. كان يرتدي سروال الملاكمة والقفازات ويضع التاج على رأسه، ولم يكن تصويره بالأمر السهل، إذ كان عليه أن يقف في وضعية الهجوم لمدة دقيقة، وأن يتنفس أقل ما يمكن، لكنه ما إن يتخذ وضعية الاحتراس حتى ينطلق أنصاره المتعصبون بالتصفيق والهتاف، فلا يستطيع مقاومة إغراء إسعادهم بعرض فنونه. وعندما جاء دور الفتاتين، كانت السماء قد تلبدت بالغيوم وبدا أن المطر سيهطل حتماً، لكنهما سمحتا للمصوّر بتعفير وجهيهما بالنشاء واستندتا إلى عمود رخامي بشكل طبيعي،

وتمكنتا من الوقوف من دون حراك لوقت بدا أطول من المعقول بكثير. وكانت صورة خالدة. عندما توفيت هيلديبراندا، وهي على مشارف المئة من عمرها، في مزرعتها المسماة فلوريس دي ماريا، وجدوا نسختها من الصورة في خزانة مخدعها المقفلة ما بين ثنايا شراشف معطرة، إلى جانب بقايا رسالة محتها السنون. وقد احتفظت فيرمينا داثا بنسختها لسنوات طويلة، في الصفحة الأولى من ألبوم عائلي، حيث اختفت من دون أن يعرف أحد كيف أو متى، ووصلت إلى يدي فلورينتينو أريثا إثر سلسلة من المصادفات التي لا تصدَّق، بعدما تجاوز كلاهما السبعين.

كانت الساحة المقابلة لزقاق الكتبة العموميين تغصّ بالنساء حتى الشرفات عند خروج فيرمينا وهيلديبراندا من استوديو البلجيكي. لقد نسيتا أن وجهيهما أبيضان بالنشاء وشفتيهما مطليتان بمرهم له لون الشوكولاته، وأن ملابسهما لا تناسب الساعة ولا الحقبة الحالية. فاستقبلهما الشارع بفيض من السخرية. فانزوتا جانباً وحاولتا الهرب من الاستهزاء العام، حين شقت العربة التي يقودها جوادان أشقران ذهبيان طريقها وسط الحشد. فتوقفت السخرية وتفرقت الجموع المعادية. لن تستطيع هيلديبراندا أن تنسى أبداً رؤيتها الأولى للرجل الذي ظهر على ركاب العربة، بقبعته الملساء، وسترته البروكار وحركاته الماهرة، وعذوبه عينيه، وسلطة حضوره.

ورغم أنها لم تكن قد رأته من قبل، إلا أنها عرفته في الحال. كانت فيرمينا داثا قد حدثتها عنه، فعلت ذلك مصادفة وبلا أية مصلحة، في مساء يوم من أيام الشهر الماضي، حين لم تشأ المرور قرب بيت المركيز ذي كاسالدويرو لأن عربة الخيول الذهبية كانت تقف أمام الباب. فأخبرتها من هو صاحب العربة، وحاولت أن تشرح لها سبب نفورها، من دون أن تقول لها كلمة واحدة عن طلبه الزواج منها. كانت هيلديبراندا قد نسيته. ولكنها عندما تعرفت عليه وهو عند باب العربة وكأنه طيف من

حكاية خيالية، إحدى قدميه على الأرض والأخرى على ركاب العربة، لم تستطع أن تفهم أسباب نفور ابنة عمتها منه.

قال لهما الدكتور خوفينال أوربينو:

- اصعدا من فضلكما، سأوصلكما حيث تأمران.

بدأت فيرمينا داثا القيام بحركة تمنّع، لكن هيلديبراندا كانت قد وافقت. أنزل الدكتور خوفينال أوربينو قدمه إلى الأرض، وساعدها على الصعود إلى العربة بأطراف أصابعه، وهو لا يكاد يلمسها. وحين لم تجد فيرمينا مفرّاً صعدت وراءها، بوجه يتّقد حرَجاً.

كان البيت يبعد أربع كوادرات فقط، ولم تتنبه الفتاتان إلى أن الدكتور أوربينو قد اتفق مع الحوذي، ولكن لا بدّ أن الأمر كذلك، لأن العربة استغرقت أكثر من نصف ساعة في الوصول. كانتا تجلسان على المقعد الرئيسي، وجلس هو مقابلهما مولياً ظهره لاتجاه سير العربة. التفتت فيرمينا بوجهها نحو النافذة وغرقت في الفراغ. أما هيلديبراندا، فكانت مفتونة، وكان الدكتور أكثر فتنة بافتتانها. وما إن انطلقت العربة حتى أحسّت برائحة جلد المقاعد الطبيعي الدسمة، وحميمية العربة من الداخل، فقالت إنها تراها مكاناً مناسباً للعيش فيه. وسرعان ما أخذا يضحكان ويتبادلان المزاح كصديقين قديمين، وعرجا على لعبة كلمات ذات رطانة بسيطة، تتلخص بادخال مقطع صوتي متوافق بين كل مقطعَين. كانا يتظاهران بالاعتقاد أن فيرمينا لا تفهمهما، رغم معرفتهما بأنها ليست فاهمة وحسب، بل هي منصتة إليهما كذلك، ولذا كانا يتابعان اللعب. بعد هنيهة قصيرة، وكثير من الضحك، اعترفت هيلديبراندا بأنها ما عادت تتحمل الآلام التي يسببها لها الحذاء، فقال الدكتور أوربينو:

- الأمر في غاية البساطة. هلمي لنر من ينتهي أولاً.

وبدأ بحل رباط حذائه، وقبلت هيلديبراندا التحدّي. لم يكن الأمر

سهلاً لأن مشدّ الأسلاك ما كان يسمح لها بالانحناء، لكن الدكتور أوربينو تأخر متعمّداً، إلى أن أخرجت حذاءها من تحت التنورة بضحكة ظافرة، وكأنها اصطادت الحذاء لتوّها من بركة. عندئذ نظرا معاً إلى فيرمينا، ورأيا بروفيل وجهها أكثر حدّة من أي وقت آخر على خلفية المساء القائظ. لقد كانت غاضبة ثلاثاً: للوضع غير اللائق الذي هي فيه، ولسلوك هيلديبراندا الشائن، وليقينها بأن العربة تجول على غير هدى لتأخير الوصول. لكن هيلديبراندا كانت متفلتة من عقالها. وقالت:

- لقد أدركت الآن أن ما يزعجني ليس الحذاء وإنما هذ القفص من الأسلاك.

وأدرك الدكتور أوربينو أنها تعني التنورة الداخلية، فأمسك بالسانحة على الفور، وقال: «الأمر في غاية البساطة، اخلعيها». وبحركة شعوذة سريعة أخرج منديلاً من جيبه وعصب عينيه قائلاً: «أنا لا أرى».

أبرزت العصابة نقاء شفتيه بين اللحية المستديرية السوداء والشارب ذي الطرفين المدببين وأحسّت هي بارتعاشة ذعر تهز كيانها. فنظرت إلى فيرمينا، ولم تجدها غاضبة الآن، وإنما مرتعبة من أن تكون على استعداد لخلع تنورتها. فاتخذت هيلديبراندا وضعاً جدياً وسألت بإشارات من يديها «ماذا نفعل؟». وأجابتها فيرمينا داثا بالطريقة ذاتها بأنها ستلقي بنفسها من العربة إذا هم لم يذهبوا إلى البيت مباشرة.

قال الطبيب: - إنني أنتظر.

فقالت هيلديبراندا: - بإمكانك أن ترى.

عندما نزع الدكتور خوفينال أوربينو العصابة عن عينيه، وجدها قد تغيّرت، وأدرك أن اللعب قد انتهى، وأنه انتهى بصورة سيئة. وبإشارة منه دار الحوذي بالعربة دورة كاملة، ودخل في حديقة البشارة في اللحظة التي كان فيها مُشعل الأنوار يُشعل المصابيح العامة، وقرعت جميع

الكنائس نواقيسها داعية إلى صلاة التبشير. نزلت هيلديبراندا مسرعة ومضطربة بعض الشيء لأنها أغضبت ابنة عمتها، وودعت الطبيب بمصافحة سطحية. وفعلت فيرمينا مثلها، ولكن حين حاولت سحب يدها بالقفاز الأملس. ضغط الدكتور أوربينو بقوة على إصبعها الوسطي قائلاً:

- ما زلت انتظر ردّك.

حينئذ سحبت فيرمينا يدها بقوة، فبقي القفاز الفارغ معلقاً في يد الطبيب، لكنها لم تنتظر لاستعادته. وذهبت إلى النوم من دون أن تأكل. أما هيلديبراندا، فبعدما تناولت العشاء في المطبخ مع غالا بلاثيديا، دخلت إلى حجرة النوم وكأن شيئاً لم يحدث، وعلقت بظرافتها الطبيعية على أحداث المساء. ولم تخف حماستها للدكتور أوربينو، وأطرت على أناقته ولطفه، ولم تعقب فيرمينا على كلامها بشيء، ولكنها كانت محتاطة للمناكفة. واعترفت هيلديبراندا أنها في لحظة معينة، حين عصّب الدكتور أوربينو عينيه ورأت بريق أسنانه المنتظمة بين شفتيه الورديتين، أحسّت برغبة لا تُقاوَم لأكله بالقبلات. فانقلبت فيرمينا دانا نحو الجدار ووضعت حداً للحديث من دون رغبة في الإساءة، بل إنها كانت تضحك، ومن أعماق قلبها، وقالت:

- يا لك من عاهرة!

نامت متقافزة، وكانت ترى الدكتور أوربينو في كل مكان، رأته يضحك، ويغني، ويطلق شرر كبريت من أسنانه وعيناه معصوبتان، ويسخر منها برطانة لا قواعد لها في عربة أخرى مختلفة تصعد نحو مقبرة الفقراء. واستيقظت قبل الفجر بكثير منهوكة، وظلت مستيقظة وعيناها مغمضتان تفكّر بالسنوات الطويلة التي ما زال عليها أن تعيشها. بعد ذلك، وبينما هيلديبراندا تستحم، كتبت رسالة بأقصى سرعة، وطوتها بأقصى سرعة، ودسّتها في مغلف، وقبل أن تخرج هيلديبراندا

من الحمّام بعثتها مع غالا بلاثيديا إلى الدكتور خوفينا أوربينو. كانت واحدة من رسائلها. بلا أي حرف زائد أو ناقص، تقول له فيها: أجل يا دكتور، وتطلب منه أن يكلّم أبوها.

حين علم فلورينتينو أريثا أن فيرمينا داثا ستتزوج من طبيب نبيل وثريّ، متعلم في أوروبا وذي سمعة فريدة لمن هو في مثل سنة، لم تكن هنالك قوة قادرة على إخراجه من مذَلّته. وقد فعلت ترانسيتو أريثا أكثر ممّا هو ممكن لتعزيته بأساليب كأساليب عروس عندما رأت أنه فقد النطق والشهية، وأنه يقضي الليل مسَهداً يبكي من دون راحة، إلى أن تمكنت بعد أسبوع من جعله يأكل. حينئذ تحدثت إلى ليون الثاني عشر لوايثا، الحيّ الوحيد من الإخوة الثلاثة، ورجته من دون أن توضح الأسباب أن يقدّم عملاً لابن أخيه ليقوم بأي شيء في المؤسسة البحرية، على أن يكون ذلك في أي ميناء منسيّ وسط الأدغال من موانئ نهر مجدلينا، حيث لا وجود لبريد ولا لتلغراف، وحيث لا يلتقي بأحد ينقل إليه شيئاً عن مدينة الضياع هذه. لم يمنحه العم عملاً احتراماً لزوجة أخيه، التي لم تكن تتحمل مجرّد وجود ابن الزنا، لكنه حصل له على وظيفة عامل تلغراف في فيا دي ليفا، مدينة الأحلام الواقعة على بُعد أكثر من عشرين مرحلة، والتي ترتفع حوالي ثلاثة آلاف متر فوق مستوى شارع لاس فينتاناس.

لم يعِ فلوريتينو أريثا أبداً تلك الرحلة العلاجية. وسيتذكرها دوماً مثل كل ما حدث له في تلك الفترة، من خلال زجاج محنته الغَبش. عندما استلم برقية التعيين في المنصب، لم يفكّر بأخذها على محمل الجد، لكن لوتاريو توغوت أقنعه بحجج ألمانية أن مستقبلاً باهراً ينتظره في الإدارة العامة. وقال له: «إن التلغراف مهنة المستقبل». وأهدى إليه زوجاً من القفازات الملساء ومعطفاً ذا ياقة من الفرو مجرَّباً في شهور كانون الجليدية في بافيرا. وأهداه العم ليون الثاني عشر بدلتين وجزمة

واقية من المطر كانت لشقيقه الأكبر، وقدّم له بطاقة سفر في قمرة خاصة في السفينة التالية. قيّفت ترانسيتو أريثا الملابس على مقاس ولدها الذي كان أقل بدانة من أبيه، وأقصر قامة بكثير من الألماني، واشترت له جوارب صوف وسراويل داخلية طويلة كي لا ينقصه شيء في مواجهة قسوة مناخ السهب. وكان فلورينتينو أريثا، المتصلب من شدّة المعاناة، يساعد في الإعداد للرحلة كما بإمكان ميت أن يساعد في مراسم جنازته. لم يقل لأحد أنه ذاهب، ولم يودع أحداً، واحتفظ بالكتمان الحديدي الذي لم يكشف فيه لأحد سوى أمه سر عاطفته المقهورة، لكنه في عشية السفر اقترف حماقة قلبية أخيرة كان يمكن لها أن تكلفه حياته. ارتدى في منتصف الليل بدلة يوم الأحد، وعزف وحيداً تحت شرفة فيرمينا داثا فالس الحب الذي وضعه لها، والذي لا يعرفه أحد سواهما، وكان يمثل خلال ثلاث سنوات شعار توافقهما المتناقض. عَزَفَه مدمدماً بكلمات الأغنية، على الكمان الغارق بالدموع، وبإلهام زخم جعل كلاب الشارع تبدأ بالنباح منذ النغمات الأولى، ثم تلتها كلاب المدينة بأسرها، ولكنها أخذت تصمت بعد ذلك شيئاً فشيئاً في أفق الموسيقى، إلى أن انتهى الفالس بصمت ما ورائي. لم تُفتح الشرفة، ولم يطلّ أحد إلى الشارع، حتى ولا الحارس الليلي الذي يهرع عادة بفانوسه، محاولاً التحضر بالاستماع إلى فتات موسيقى السيرنادات الليلية. لقد كان ذلك الفصل رقية تفريج عن فلورينتينو أريثا، لأنه ما إن خبّأ الكمان في علبته وابتعد في الشوارع الميتة من دون أن يلتفت إلى الوراء، حتى فقد الشعور بأنه سيغادر في صباح اليوم التالي، وانتابه إحساس بأنه قد غادر منذ سنوات طويلة وبقرار قاطع ألّا يعود أبداً.

كان قد أعيد تعميد السفينة، وهي واحدة من ثلاث سفن متشابهة لدى شركة الكاريبي للملاحة النهرية، باسم مؤسس الشركة: بيوس الخامس لوائيا. كانت عبارة عن بيت عائم من طابقين خشبيين فوق هيكل من

الحديد، عريض ومستوٍ، وبغاطس حده الأقصى خمسة أقدام يتيح للسفينة التغلب على أعماق النهر المتفاوتة على أحسن وجه. السفن الأقدم كانت تقوم بالعبور من نهر أوهايو إلى الميسيسبي، وكان لها في كل جانب عجلة دفع تتحرّك بطاقة مرجل بخاري وقوده الحطب. ومثل هذه كانت سفن شركة الكاريبي للملاحة النهرية، ففي الطبقة السفلية، وعلى مستوى الماء تقريباً، هناك الآلات البخارية والمطابخ، والحظائر الكبيرة حيث كان البحارة يعلّقون شباك نومهم، متقاطعة على عدّة مستويات. وكان الطابق العلوي يضم مقصورة القيادة وقمرات القبطان وضبّاطه، وصالة اللهو وصالة الطعام، حيث كان يُدعى المسافرون المرموقون، مرّة واحدة على الأقل، لتناول العشاء ولعب الورق. أما في الطبقة الوسطى فكانت توجد ست قمرات من الدرجة الأولى على جانبَي ممر يُستخدم كقاعة طعام عادية، وهناك في المقدمة صالة جلوس مفتوحة فوق النهر، لها شرفة خشبية مزخرفة وأعمدة من الحديد، حيث كان المسافرون العاديون يعلقون شباك نومهم ليلاً. وخلافا للنماذج القديمة، لم تكن لهذه السفن عجلتا دفع على الجانبين، وإنما عجلة واحدة في المؤخرة، ذات رياش أفقية تحت مراحيض طبقة المسافرين الخانقة. لم يتكلف فلورينتينو أريثا مشقة استكشاف السفينة فور صعوده إلى متنها، في الساعة السادسة صباحاً من يوم أحد حزيراني، كما يفعل عادة مَن يسافرون أوّل مرّة، بدافع الغريزة. وقد وعى الحالة التي هو فيها عند الظهيرة فقط، وبينما كانت السفينة تبحر مقابل دسكرة كالامار، حين ذهب للتبول في المؤخرة ورأى من فتحة المرحاض العجلة العملاقة ذات العوارض الخشبية تدور تحت قدميه بقعقعة بركانية وزبد وبخار ملتهبين.

لم يكن قد سافر أبداً من قبل. كان يحمل صندوقاً من الصفيح فيه ملابس السهب، والروايات المصوّرة التي كان يشتريها في أجزاء شهرية،

وكان يخيطها بنفسه مع أغلفة من الورق المقوى، وكُتب أشعار الحب التي يحفظها ويلقيها عن ظهر قلب، والتي توشك أن تتحوّل إلى رماد لكثرة ما أعاد قراءتها. كان قد خلف الكمان الذي يرتبط إلى حدّ بعيد بنكبته، لكن أمه أجبرته على حمل صرّة السفر التي تضم عدّة نوم شعبية وعملية: وسادة، ودثار، ومبولة من التوتياء، وكلّة مخرَّمة للحماية من البعوض، كل ذلك ملفوف بحصيرة مربوطة بحبلين لتعليقها كأرجوحة نوم في حالة الطوارئ. لم يكن فلورينتينو أريثا يريد حملها، فقد ظن أنها لن تفيده بشيء في قمرة مزوَّدة بأسرّة مستوية، ولكن كان عليه أن يشكر لأمه حسن تدبيرها منذ الليلة الأولى. وفعلاً، فقد صعد في اللحظة الأخيرة إلى المركب مسافر يرتدي ملابس بروتوكولية كان قد وصل ذلك الصباح في سفينة قادمة من أوروبا، وكان يرافقه حاكم المقاطعة شخصياً. وهو يريد متابعة الرحلة فوراً مع زوجته وابنته، وكذلك خادمه الذي يرتدي زيّ الخدم، والصناديق السبعة ذات الحواشي المذهبة والتي صعدت بمشقة على السلالم. وتمكّن القبطان، وهو مارد من كورثاو، من إثارة الشعور الوطني بين الكريوليين لتأمين راحة المسافر الطارئ. وشرح لفلورينتينو أريثا بمزيج من القشتالية والبابيامنتو[1] أن الرجل البروتوكولي هو الوزير المفوّض الجديد لإنكلترا، المسافر إلى عاصمة الجمهورية. وذكّره بأن تلك المملكة قد قدمت موارد حاسمة لاستقلالنا من الهيمنة الإسبانية، وبناء عليه فان أية تضحية ستكون ضئيلة الشأن في سبيل أن تشعر عائلة رفيعة المقام، وهي في بيتنا، بأنها أحسن حالاً من بيتها. وطبعاً تخلى فلورينتينو أريثا عن قمرته.

لم يأسف لذلك في البدء، إذ كان ماء النهر غزيراً في تلك الفترة من السنة، وكانت السفينة تبحر من دون عوائق في الليلتين الأوليين. كان

---

(1) لهجة محلية شائعة في كوراساو، وهي مزيج من الإسبانية والهولندية. (م)

أفراد طاقم السفينة يوزعون على المسافرين بعد العشاء، في الخامسة مساء نوعاً من الأسرّة المطوية سطحها من قماش الخيم المتين، وكان كل مسافر يفتح سريره حيث يستطيع، ويجهزه بالخرق التي في صرّة سفره ثم ينصب فوقه الكلّة المخرمة. أما الذين يملكون أراجيح نوم فكانوا يعلقونها في الصالون والذين لا يملكون شيئاً ينامون على موائد صالة الطعام متدثرين بشراشف الطاولات التي لم تستبدل إلا مرّتين خلال الرحلة. كان فلورينتينو أريثا يمضي معظم الليل ساهراً متخيلاً أنه يسمع صوت فيرمينا داثا في نسيم النهر البارد، راعياً الوحدة بذكرياته، مستمعاً إلى غناء في لهاث السفينة المتقدمة بخطوات حيوان ضخم في الظلمات، إلى أن تظهر أولى البقع الوردية في الأفق وينشقّ النهار الجديد فجأة على صحارى فسيحة ومستنقعات ضباب. فكانت الرحلة تبدو له حينئذ دليلاً آخر على حكمة أمه، وأحسّ بحماسة لتجاوز النسيان.

بعد ثلاثة أيام من المياه المواتية، أصبح الإبحار أكثر مشقة بين المصاطب الرملية المفاجئة، وعكر الماء الذي يخفي مقدار عمق النهر. لقد صار النهر عكراً، وراح يضيق أكثر فأكثر وسط غابة عظيمة من الأشجار المتشابكة، حيث كان يظهر، من حين إلى آخر، كوخ من القش إلى جانب أكوام الحطب المعدّة لمراجل السفن. ويبدو أن لغط الببغاوات وصياح القردة اللامرئية كان يفاقم من قيظ الظهيرة. أما في الليل، فكان لا بدّ من ربط السفينة للنوم، فيصبح مجرّد كون المرء حياً حينئذ أمراً لا يطاق. فإضافة إلى الحرّ والبعوض تأتي روائح شرائح اللحم المملح المنشورة على درابزينات السفينة لتجف. فكان معظم المسافرين، وخاصة الأوروبيين منهم، يغادرون نتانة القمرات ويقضون الليل وهم يذرعون سطح المركب، ويهشّون جميع أنواع الهوام بالمناشف نفسها التي يمسحون بها العرق المتواصل، ويدركهم الصباح وهم منهكون ومتورمون بفعل اللسع.

وكان قد اندلع في تلك السنة أيضاً فصل جديد من الحرب الأهلية المتقطعة بين الليبراليين والمحافظين، فاتخذ القبطان احتياطات شديدة الصرامة لحفظ النظام الداخلي وأمن المسافرين. وفي محاولة لمنع وقوع الأخطاء والاستفزازات، حظر ممارسة التسلية المفضلة في رحلات ذلك الزمان، ألا وهي إطلاق النار على التماسيح القابعة تحت الشمس على الضفاف. وفي ما بعد، حين انقسم المسافرون إلى فريقين متعاديين أثناء إحدى المناقشات، قام بمصادرة أسلحة الجميع واعداً، بكلمة شرف، أن يعيدها عند انتهاء الرحلة. كان صارماً في هذا الأمر حتى مع الوزير البريطاني الذي خرج منذ صباح اليوم التالي لبدء الرحلة بملابس الصيد، حاملاً غدّارة احتياطية وبندقية صيد بسبطانتين من تلك المستخدمة في صيد النمور. ثم أصبحت القيود أكثر تشدداً بعد اجتياز مرفأ تينيريفي، حيث التقوا بمركب يرفع راية صفراء، هي علامة الوباء. ولم يحصل القبطان على أيّ معلومات حول تلك العلامة المرعبة، لأن السفينة الأخرى لم تجب على إشارتهم. لكنهم التقوا في ذلك اليوم بالذات بسفينة أخرى محمَّلة بمواشٍ من جامايكا، وأعلمتهم هذه بأن سفينة الراية الوبائية تحمل على متنها مريضين بالكوليرا، وأن الوباء كان يُحدث أضراراً وخسائر في مجرى النهر الذي عليهم الإبحار فيه، عندئذ مُنع المسافرون من مغادرة السفينة ليس في الموانئ التالية فحسب، بل وفي الأماكن غير المأهولة، حيث كانوا يتوقفون للتزوّد بالحطب. وهكذا اعتاد المسافرون فيما تبقى من الرحلة حتى مرفأ النهاية، والتي استمرت ستة أيام أخرى، على عادات السجون. ومن هذه العادات، المشاهدة الضارة لرزمة من بطاقات الصور الجنسية الهولندية التي كانت تنتقل من يد إلى أخرى من دون أن يعلم أحد علم اليقين من أين أتت، مع أن أي مجرّب للسفر في النهر لم يكن ليجهل أنها لا تكاد تشكّل إلا عيّنة من مجموعة القبطان الخرافية. ولكن حتى هذه التسلية التي لا أمل فيها انتهت إلى مضاعفة السأم.

تحمّل فلورينتينو أريثا قسوة الرحلة بصبر معدني كان يحزن أمه ويغيظ أصدقاءه. لم يخالط أحداً. وكانت الأيام بالنسبة إليه تمضي سهلة وهو جالس مقابل الدرابزين، يراقب التماسيح الجاثمة تحت الشمس على الضفاف بأشداق مفتوحة لاقتناص الفراشات، ويتأمّل قطعان مالك الحزين المفزوعة التي تنطلق فجأة من المستنقعات، والأطم[1] التي تُرضع صغارها من أثدائها الأمومية الضخمة، وتفاجئ المسافرين ببكائها النسوي. وفي أحد الأيام رأى ثلاثة أجساد آدمية تطفو في الماء، كانت منتفخة وخضراء، وفوق كل منها عدد من نسور الرخمة. مرّ أولاً جسدا رجلين، أحدهما بلا رأس، ثم جسد طفلة صغيرة السن راح شعرها المفلت، كشعر ميدوزا، يتموج متلوياً من أثر مخور السفينة في الماء. لم يعرفوا أبداً، لأنه لا سبيل إلى معرفة، إن كان هؤلاء من ضحايا الكوليرا أم ضحايا الحرب، لكن الرائحة النتنة لوثت ذكرى فيرمينا داثا في ذاكرته.

هكذا كان دائماً: فأي حدث، خيراً كان أم شراً، يذكّره بها. وفي الليل، عندما كانوا يربطون السفينة ويتمشى معظم المسافرين بلا سلوى على السطح، كان هو يراجع عن ظهر قلب تقريباً الروايات المصوّرة تحت مصباح الكربور في صالة الطعام، وهو المصباح الوحيد الذي يبقى مضاء حتى الصباح. وكانت المآسي التي قرأها مرّات ومرّات تستعيد سحرها حين يستبدل أبطالها المتخيلين بمعارفه في الحياة الواقعية، ويحتفظ لنفسه ولفيرمينا داثا بأدوار الحب المستحيل. وفي ليال أخرى كان يكتب لها رسائل مكروبة، ما تلبث مقاطعها أن تتبدّد في المياه الجارية دون توقف نحوها. وهكذا كانت تمر أقسى الساعات عليه متقمصاً شخصية أمير خجول أو فارس عاشق أحياناً، وملتحماً في أحيان أخرى بجلده

---

(1) الأطم: جمع أطوم وهو حيوان لبون، يأوي إلى الماء، مؤخره يشبه السمك، له يدان وليس له رجلان وطوله نحو ثمانية أقدام. يعرف كذلك ببقر الماء.

المكوي كعاشق في رحلة نسيان، إلى أن تهب أولى النسمات فينصرف إلى النوم جلوساً على مقاعد الشرفة.

توقف عن القراءة في إحدى الليالي أبكر من المعتاد، وكان يتجه ساهياً إلى دورات المياه حين فُتح بابٌ لدى مروره في صالة الطعام المقفرة، وأمسكت يد صقر بكم قميصه وأدخلته بقوة إلى القمرة. أحس بجسد غير محدّد السن لامرأة عارية في الظلام، كانت مغطاة بعرق ساخن وتنفسها غير منتظم. دفعته على ظهره فوق السرير، وفكت ابزيم حزامه، وحلت الأزرار وامتطته كفارس، وجرّدته من عذريته بلا أمجاد. سقطا كلاهما منهكين في فراغ هوّة بلا قرار لها رائحة مستنقع قريدس. وبقيت جاثمة فوقه لهنيهة بعد ذلك وهي تلهث بلا هواء، ثم لم يعد لها وجود في الظلام.

قالت له:

- انصرف الآن وانسَ كل شيء. فهذا لم يحدث أبداً.

كان الهجوم مباغتاً وناجحاً لا يمكن تصنيفه كحماقة مفاجئة مبعثها الضجر، وإنما كثمرة خطة محكمة بكل مراحلها وبأدق تفاصيلها. وضاعف هذا اليقين الجذّاب من تلهف فلورينتينو أريثا، الذي أحسّ وهو في ذروة اللذة باكتشافٍ لا يمكن تصديقه، بل إنه رفض قبوله، وهو أن حب فيرمينا داثا الخادع يمكن استبداله بعاطفة دنيوية. وهكذا كان أن صمّم على كشف هوية مغتصبته الماهرة، فلربما وجد في غريزتها كفهدة علاجاً لمحنته. لكنه لم يتوصل إليها. بل على العكس، كلّما تعمّق في التحرّي كلما شعر بأنه يبتعد عن الحقيقة.

لقد حدث الهجوم في القمرة الأخيرة، لكن هذه القمرة كانت متصلة بالقمرة قبل الأخيرة بباب داخلي، بحيث تصبح القمرتان معاً جناح نوم عائلي فيه أربعة أسرّة. وهناك كانت تسافر امرأتان شابتان، وأخرى

متقدمة في السن إلا أنها ذات مظهر حسن، ومعهم طفل عمره بضعة شهور. كنّ قد التحقن بالرحلة من برانكو دي لوبا، وهو الميناء الذي يحمّلون فيه بضائع وركاب مدينة مامبوكس منذ أصبحت هذه المدينة على هامش طريق السفن البخارية بسبب أهواء النهر، وكان فلورينتينو أريثا قد دقق بهن لكونهن يحملن الطفل في قفص عصافير ضخم.

كن يسافرن بملابس حديثة كتلك التي ترتديها المسافرات في عابرات المحيط الضخمة، ببطانات تحت التنانير الحريرية، وياقات مخرمة وقبعات عريضة الحواف مزينة بزهور كرينولينا، وكانت الشابتان تستبدلان زينتهما وملابسهما كلها عدّة مرّات في اليوم، حتى بدا وكأنهما تحملان معهما جوّهن الربيعي، بينما المسافرون الآخرون يختنقون في الحر. وثلاثتهن كن يساريات في استخدام المظلات ومراوح الريش. لم يستطع فلورينتينو أريثا أن يحدّد حتى نوع العلاقة التي تربطهن، رغم كونهن، من دون شك، من أسرة واحدة. لقد فكر أوّل الأمر بأن الكبرى هي أم الأخريين، لكنه أدرك في ما بعد أنها ليست كبيرة في السن بما يكفي لتكون كذلك، ثم إنها ترتدي ملابس حداد لا تشاطرها إياه الأخريان. ولم يتصوّر أن تكون إحداهن قد تجرأت على فعل فعلتها فيما زميلتاها نائمتان في السريرين المجاورين، والافتراض الوحيد المعقول هو أنها استغلت فرصة عارضة، أو مدبَّرة، بقيت أثناءها وحيدة في القمرة. وتحقق من أن اثنتين منهن تخرجان أحياناً للاستمتاع بالبرودة حتى وقت متأخر فيما تبقى الثالثة لرعاية الطفل، لكنهن في إحدى الليالي القائظة خرجن ثلاثتهن معاً برفقة الطفل النائم في قفص الخيزران المغطى بظلة من نسيج شفاف.

وعلى الرغم من اختلاط كل هذه المؤشرات، فقد تعجل فلورينتينو أريثا إلى استبعاد أن تكون كبرى الثلاث هي منفذة الهجوم، ثم برّأ في الحال ساحة الصغرى أيضاً، التي كانت أجملهن وأجرأهن. فعل ذلك

من دون مبررات مقنعة، ولأن مجرّد رصده المتلهف للنساء الثلاث حثه على الاقتناع برغبته الداخلية في أن تكون العاشقة العابرة هي أم الطفل الحبيس في القفص. ولقد فتنه هذا الافتراض إلى الحدّ الذي جعله يفكّر بها أكثر من تفكيره بفيرمينا داثا، من دون أن يهتم بما كان يبدو واضحاً في أن تلك الأم حديثة الولادة كانت تعيش لابنها فحسب. لم يكن لها من العمر أكثر من خمس وعشرين سنة، وكانت نحيلة ومذهبة، ذات أجفان برتغالية تجعلها أكثر بعداً، وكان لأي رجل أن يكتفي بفتات من حنانها الذي تغدقه على ابنها. فمنذ تناول طعام الفطور وحتى ساعة النوم كانت تهتم بشؤونه في الصالة، بينما زميلتاها الأخريان تلعبان الدومينو الصيني، وحين توفق إلى تنويمه، تعلّق القفص من سقفه في أكثر الأماكن برودة على شرفة السفينة. لكنها لم تكن تتخلى عنه حتى بعد أن ينام، وإنما تهز القفص مترنمة بأغنيات العرائس، فيما أفكارها تطير مبتعدة عن مصاعب الرحلة. تشبث فلورينتينو أريثا بأنها ستكشف نفسها عاجلاً أم آجلاً، ولو من خلال إيماءة بسيطة. وصار يراقب حتى تبدّلات تنفسها من خلال إيقاع القلادة الدينية التي تعلقها فوق بلوزتها القطنية الرقيقة، مدققاً فيها من دون تستر من فوق الكتاب الذي يتظاهر بقراءته، وارتكب الوقاحة المدروسة باستبداله مكانه في صالة الطعام ليجلس مقابلها. لكنه لم يحصل على أدنى مؤشر يدل على أنها هي حقاً مَن تملك النصف الآخر من سرّه. والشيء الوحيد الذي بقي له منها، عندما نادتها زميلتها الصغرى، هو اسمها: روساليا.

في اليوم الثامن أبحرت السفينة بصعوبة بالغة عبر مضيق عكرٍ محصور بين جرفين من صخور رخامية، وبعد الغداء رست في بويرتو ناريه، حيث سينزل المسافرون الذين سيتابعون الرحلة نحو المناطق الداخلية من مقاطعة انتيوكيا، وهي إحدى أكثر المقاطعات تأثراً بالحرب الأهلية الجديدة. كان الميناء مؤلفاً من ستة أكواخ من السعف

وحانة خشبية سقفها من التوتياء، تحرسه عدّة دوريات من الجنود الحفاة وسيئي التسليح، إذ كانت لديهم معلومات عن خطة أعدها المتمردون للسطو على السفن. وفيما وراء البيوت، ترتفع نحو السماء قمم مجموعة وعرة من الجبال عليها طريق ضيّق له شكل حدوة الفرس منحوت على حافة الهاوية. لم ينم أحد ممّن على ظهر المركب نوماً مطمئناً، لكن الهجوم المنتظر لم يحدث أثناء الليل، واستيقظ الميناء متحولاً إلى مهرجان أحدي، حيث الهنود الذين يبيعون تمائم مصنوعة من عاج نباتي وأكاسير للحب، ووسائل للقوافل المتأهبة للانطلاق في صعود يستمر ستة أيام عبر غابات السحلبيات في سلسلة الجبال المركزية.

كان فلورينتينو أريثا قد سها وهو يتأمّل عملية تفريغ السفينة على كواهل الزنوج، رأى إنزال صناديق الخزف الصيني، وآلات البيانو التي تُباع لعازبات أفيغادو، ولم يُدرك إلا متأخراً أن جماعة روسالبا من بين المسافرين الذين سيبقون على البرّ. لقد رآهن يمتطين البهائم من جهة واحدة، منتعلات جزمات أمازونية وحاملات مظلات ذات ألوان مدارية، وعندئذ خطا الخطوة التي لم يتجرّأ عليها في الأيام الماضية: حيّا روسالبا بيده مودعاً، فردّت عليه النساء الثلاث بطريقة واحدة، وبإلفة آلمت أحشاءه لجسارته المتأخرة. رآهن يقمن بالالتفاف حول الحانة، تتبعهن البغال المحمَّلة بالصناديق، وعلب القبّعات وقفص الطفل، ثم رآهن بعد قليل يتسلقن حافة الجرف الجبلي وكأنهن صف من النمال البغلية، واختفين من حياته إلى الأبد. حينئذ أحس أنه وحيد في الدنيا، وجاءته الضربة القاضية من ذكرى فيرمينا داثا التي ظلت كامنة خلال الأيام الأخيرة.

كان يعلم أنها ستتزوج يوم السبت القادم، في حفلة زفاف صاخبة، وكونه أحبها، وسيحبها إلى الأبد أكثر من أي كان، لا يمنحه الحق حتى بالموت من أجلها. والحسد الذي كان يغرقه حتى ذلك الحين بالدموع،

أصبح سيّد روحه. فأخذ يدعو الله أن يُنزل صاعقة العدالة الإلهية لتصعق فيرمينا داثا حين تهمّ بقسم يمين الحب والولاء لرجل لا يريدها زوجة له إلّا لتكون حلية اجتماعية. وكان يستغرق في رؤيا العروس، عروسه هو أو عروسة لا أحد، ملقاة فوق بلاط الكاتدرائية بينما أزهار البرتقال تهطل كالثلج مبلَّلة بندى الموت، وتموج طرحتها الزبدي فوق المرمر الجنائزي الذي يضم أربعة عشر مطراناً مدفونين مقابل المذبح الكبير. ولكن ما إن ينتهي الانتقام، حتى يندم لأفكاره الشريرة، وعندها يرى فيرمينا داثا وهي تنهض معافاة، لسواه ولكن حيّة، لأنه غير قادر على تصوّر الدنيا من دونها. لم يعد ينام، وإذا كان يلتقط بضع لقيمات أحياناً فإنما يفعل ذلك لتوهمه بأن فيرمينا داثا قد تكون معه على المائدة، أو كي لا يمنحها شرف أن يصوم من أجلها. وكان يعزّي نفسه في بعض الأحيان بالاقتناع بأنه لا بدّ لفيرمينا داثا في نشوة حفلة الزفاف، أو في ليالي شهر العسل المحمومة، من أن تعاني ولو للحظة، لحظة واحدة على الأقل، لحظة على أي حال، حين ترفع إلى وعيها شبح الخطيب المخدوع، المُهان، المبصوق، فتنهار سعادتها.

عشية الوصول إلى ميناء كاراكولي، وهو المحطة النهائية للرحلة، أقام القبطان حفل الوداع التقليدي، بمشاركة أوركسترا آلات نفخية مؤلفة من طاقم السفينة، وبإطلاق ألعاب نارية من مقصورة القيادة. كان وزير بريطانيا العظمى قد اجتاز تلك الأوديسة بصبر نموذجي، متصيداً بآلة التصوير الحيوانات التي لم يتيحوا له قتلها ببندقية الصيد، ولم تكن تمر ليلة من دون أن يظهر في صالة الطعام بملابس الإتيكيت. لكنه خرج إلى الحفلة النهائية بزي ماك تافيتش الاسكتلندي، وعزف القرب بمرَح، وعلّم كل من رغب رقصاته الوطنية، وقبل الفجر اضطروا لنقله محمولاً إلى قمرته. أما فلورينتينو أريثا الذي أضناه الألم، فقد اتخذ ركناً منعزلاً على سطح السفينة، حيث لا تصله أخبار الحفلة، وغطى

نفسه بمعطف لوتاريو توغوت محاولاً مقاومة قشعريرة عظامه. كان قد استيقظ في الخامسة صباحاً، كما يستيقظ المحكوم بالإعدام صباح يوم تنفيذ الحكم. ولم يكن قد فعل شيئاً طوال يوم السبت سوى تخيّل كل طقس من طقوس زفاف فيرمينا داثا لحظة بلحظة. وفي ما بعد، عند عودته إلى البيت، أدرك أنه كان قد أخطأ في التوقيت وإن كل شيء حدث بطريقة مختلفة عمّا تصوره، وقد كان يتمتع بمزاج طيب جعله يضحك من أوهامه.

لكنه كان على أي حال يوم سبت عاطفي انتهى بنوبة جديدة من الحمى، عندما هُيّئ له بأنها اللحظة التي يحاول فيها العريسان الهروب خفية من حفلة الزفاف ليستسلما إلى متع الليلة الأولى. وقد رآه أحدهم وهو يرتعش من الحمّى وأنذر القبطان بذلك، فغادر هذا الحفلة مع طبيب السفينة خشية أن تكون إصابة بالكوليرا، وبعثه الطبيب احتياطاً إلى قمرة الحجر الصحي بعد إعطائه جرعة لا بأس بها من البرومور. وعندما بانت لهم أنوار كاراكولي في اليوم التالي، كانت الحمى قد تراجعت وكان يتمتع بمعنويات عالية، لأنه في خمود المسكّنات قرّر فجأة، ومن دون أية إجراءات أخرى، بأنه سيبعث بمستقبل التلغراف الباهر إلى الجحيم، وسيرجع على السفينة نفسها إلى شارعه القديم، شارع لاس فينتاناس.

ولم يجد صعوبة في حملهم على إعادته معهم مقابل القمرة التي تنازل عنها لممثل الملكة فكتوريا. رغم أن القبطان حاول ثنيه عن عزمه أيضاً بحجج مفادها أن التلغراف هو علم المستقبل. وقال له إن الأمر كذلك لدرجة أنهم يعملون على اختراع جهاز خاص لتركيبه في السفن. لكنه فنّد كل حججه، وانتهى القبطان إلى القبول بإعادته معه، ليس كردّ دَين القمرة، وإنما لأنه كان يعرف حقيقة علاقته بشركة الكاريبي للملاحة النهرية.

تمت رحلة النزول في أقل من ستة أيام، أحسّ أوريبنو بعدها بأنه في بيته ثانية منذ دخولهم فجراً في بحيرة لاس ميرثيديس، ورؤيته أضواء زوارق الصيد المتناثرة وهي تتلوى مع التموج الذي تُحدثه السفينة. كان الوقت لا يزال ليلاً عندما رسوا في خليج نينيوبرديدو، وهو آخر مرفأ للسفن البخارية النهرية، على بعد تسع فراسخ من البحر، قبل أن يجرفوا قاع النهر ويعيدوا وضع الممر الإسباني القديم موضع الاستخدام. وكان على المسافرين الانتظار حتى الساعة السادسة صباحاً ليركبوا مجموعة من زوارق الأجرة الصغيرة التي تحملهم إلى هدفهم النهائي. لكن فلورينتينو أريثا كان متشوّقاً ممّا دفعه للذهاب قبل ذلك بكثير في مركب البريد، الذي تعرّف عليه موظفوه كواحد من جماعتهم. وقبل أن يغادر السفينة سمح لنفسه بالانقياد وراء إغراء حركة رمزية: ألقى بصرّة السفر إلى الماء، ولاحقها ببصره ما بين زوارق الصيادين اللامرئية، إلى أن خرجت من البحيرة وضاعت في المحيط. كان متأكداً أنه لن يحتاج إليها أبداً خلال بقية حياته، لأنه لن يغادر إلى الأبد مدينة فيرمينا داثا.

كان الخليج حوض ماء راكد عند الفجر. وفوق الضباب الطافي رأى فلورينتينو أريثا قبّة الكاتدرائية المذهّبة بفعل الأنوار الأولى، ورأى بيوت الحمام على السطوح، ومستدِلاً بها حدّد موقع شرفة قصر المركيز دي كاسالدويرو، حيث افترض أن امرأة محنته ما زالت تنام مستندة إلى ذراع الزوج المشبع. وقد مزّق هذا الافتراض قلبه، لكنه لم يفعل شيئاً لقهره، بل على العكس تماماً: كان يستمتع بالألم. وحين راحت الشمس تبعث دفئها، كان مركب البريد يشق طريقه وسط متاهة الزوارق الشراعية الراسية، حيث روائح السوق العام التي لا حصر لها، تختلط بعفونة الأعماق لتخرج بمزيج واحد من النتانة. كانت السفينة القادمة من ريوهاتشا قد وصلت لتوها، وجماعة الحمّالين الغاطسين في الماء حتى خصورهم يلتقطون المسافرين من جنب السفينة ليحملوهم إلى

الشاطئ. وكان فلورينتينو أريثا هو أوّل من قفز من مركب البريد إلى اليابسة، ولم يعد يشعر عندئذ بنتانة الخليج وإنما برائحة فيرمينا داثا الشخصية تفوح في جو المدينة. كل شيء كان يعبق برائحتها.

لم يعد إلى مكتب التلغراف. وبدا أن همّه الوحيد هو كتيبات الحب وأجزاء المكتبة الشعبية التي ما زالت أمه تشتريها له، والتي كان يقرأها ويعيد قراءتها وهو منبطح في أرجوحة النوم إلى أن يحفظها في ذاكرته. ولم يسأل عن الكمان مجرّد سؤال. وأعاد اتصالاته مع أصدقائه المقربين، وكان يلعب معهم البليارد أحياناً ويتبادل وإياهم الحديث في مقاهي الرصيف تحت قناطر ساحة الكاتدرائية، لكنه لم يعد للذهاب إلى حفلات الرقص أيام السبت: لم يكن قادراً على تصوّر حفلات الرقص من دونها.

في صباح يوم عودته من الرحلة التي لم تكتمل، علم أن فيرمينا داثا ذهبت لقضاء شهر العسل في أوروبا، فرأى قلبه المنفطر بأنها ستبقى لتعيش هناك، إن لم يكن إلى الأبد، فلسنوات طويلة. ومنحه هذا اليقين الآمال الأولى بالنسيان. أخذ يفكّر بروسالبا التي أصبحت ذكراها تتقد أكثر فأكثر كلما خمدت الذكريات الأخرى. وفي هذه الفترة كان أن ترك شاربه ذا الطرفين المدبَّبين والمثبتين، والذي لن يحلقه في ما تبقى من حياته، وتغيّرت طريقته في الحياة، وأدخلته فكرة استبدال الحب في دروب غير متوقعة، وأخذت رائحة فيرمينا داثا تصبح أقل حضوراً وزخماً إلى أن ظلت آخر الأمر في رائحة الياسمين الأبيض فقط.

كان يمضي مذهولاً لا يعرف كيف سيتابع حياته، حين لجأت أرملة ناثاريت إلى بيتهم في إحدى ليالي الحرب، لأن قذيفة مدفع أصابت بيتها، أثناء حصار الجنرال المتمرد ريكاردو غايتان أوبيسو. وكانت ترانسيتو أريثا هي التي التقطت الفرصة بسرعة، فبعثت الأرملة لتنام في

حجرة الابن، بحجة أنه لا يوجد مجال في حجرتها، لكنها في الحقيقة كانت تأمل بأن يشفيه حب آخر من الحب الذي ما عاد يتركه يعيش. لم يعد فلورينتينو أريثا لممارسة الحب منذ اغتصبته روسالبا في قمرة السفينة، وبدا له طبيعياً في ليلة طوارئ، أن تنام أرملة ناثاريت في السرير وينام هو في أرجوحة النوم. أما هي فكانت قد حسمت الأمر بدلاً منه. وفيما هي جالسة على حافة السرير حيث كان فلورينتينو أريثا مستلقياً من دون أن يعرف ما عليه عمله، بدأت تحدثه عن حزنها الذي لا عزاء له على زوجها المتوفي منذ ثلاث سنوات، وأثناء ذلك كانت تنضو عن جسدها وترمي في الهواء ملابس الحداد، حتى لم يبق عليها ولا خاتم الزواج. خلعت بلوزة التفتا المزينة بتطريز مطعّم بالخرز، وألقت بها عبر الغرفة إلى الكرسي الذي في الركن، وألقت الصديري من فوق كتفها إلى الطرف الآخر من السرير، وخلعت بسحبة واحدة التنورة السابغة مع التنورة التحتانية ذات الكشكش، ومشد الساتان ذا الرباط، وجورب الحداد الحريري، ونثرت كل ذلك على الأرض، فأضحت الغرفة وكأنها مفروشة بآخر بقايا الحداد. فعلت ذلك بابتهاج، وبوقفات محسوبة باتقان، حتى بدت قذائف مدفعية القوّات المُحاصِرة، التي تهز ركائز المدينة، وكأنها احتفاء بكل حركة من حركاتها. حاول فلورينتينو أريثا مساعدتها على حلّ مشبك المشد، لكنها سبقته إلى ذلك بحركة بارعة، لأنها تعلمت خلال خمس سنوات من الولاء الزوجي أن تكتفي بنفسها في جميع إجراءات الحب، بما في ذلك ديباجاته، من دون مساعدة أحد. وأخيراً نزعت سروالها الداخلي المخرّم، جاعلة إياه ينزلق من ساقيها بحركة سريعة كحركات السباحة، وبقيت في عريها المتقد.

كان عمرها ثمان وعشرين سنة، وقد أنجبت ثلاث مرّات، لكن عريها ما زال يحتفظ بدوار العزباء. ولم يستطع فلورينتينو أريثا أن يتصوّر أبداً كيف أمكن لملابس التوبة أن تواري اندفاع تلك المهرة الجامحة التي

عزّته وهي مختنقة بحُمَّاها، وهو ما لم تستطع عمله مع زوجها حتى لا يُظن بها الظنون، وحاولت أن تروي ظمأ صوم حدادها الصارم دفعة واحدة، ببلاهة وبراءة خمس سنوات من الولاء الزوجي. فقبل هذه الليلة، ومنذ ساعة الرحمة التي ولدتها فيها أمها، لم تنم ولو مجرّد نوم في سرير واحد مع أي رجل سوى زوجها المتوفي.

لم تُتح لتأنيب الضمير أن ينغِّص عليها. فبينما قذائف كرات اللهب تدوي فوق سطوح البيوت، استمرت تلهج حتى الصباح بفضائل زوجها، من دون أن تلومه على أية خيانة سوى موته من دونها، وخلصت إلى اليقين بأنه لم يكن يوماً لها كما كان حينئذ، في صندوق خشبي مسمّر باثني عشر مسماراً طول كل منها ثلاث بوصات، وتحت ثلاثة أمتار من التراب. وقالت:

- إنني سعيدة. فقد علمت الآن علم اليقين أين كان يمضي عند خروجه من البيت.

لقد نزعت الحداد في تلك الليلة دفعة واحدة، من دون المرور بمرحلة الاسترخاء في البلوزات ذات الأزهار الرمادية، وامتلأت حياتها بأغنيات الحب والملابس المثيرة المزيَّنة برسوم ببغاوات وفراشات ملونة، وبدأت توزّع جسدها على كل من يشاء طلبه. وبعد هزيمة قوّات الجنرال غايتان أوبيسو، إثر حصار دام ثلاثة وسبعين يوماً، أعادت بناء البيت المثقوب بقذيفة مدفع، وجعلت له مصطبة بديعة تطل على البحر فوق كاسر للأمواج، حيث يصطدم غضب الأمواج في الأيام العاصفة. وكان هذا هو عشّ حبها، كما كانت تدعوه من دون تهكم، وحيث كانت تستقبل من يناسب مزاجها من الرجال، حين تشاء وكيفما تشاء، من دون أن تتقاضى قرشاً واحداً من أي منهم، لأنها كانت ترى أن الرجال هم الذين يُسْدون لها المعروف. وفي حالات نادرة قبلت بعض الهدايا، شريطة ألّا تكون من الذهب. وكانت تتدبر أمورها بمهارة لم يستطع أحد

معها إثبات حقيقة سلوكها الشائن بأدلة قاطعة. وفي مرّة واحدة وصلت إلى حافة الفضيحة العلنية، عندما راجت شائعة تقول إن الأسقف دانتي دي لونا لم يمت خطأ بحادثة أكل طبق الفطر السام، وإنما أكله وهو عارف، لأنها هددته بذبح نفسها إن هو أصرّ على محاصرتها بنواياه الدنِسة. لم يسألها أحد إن كان ذلك صحيحاً، ولم تتحدث هي عنه، ولم يبدل أي شيء من حياتها. وكانت تقول منفجرة بالضحك بأنها المرأة الوحيدة الحرّة في المقاطعة.

لم تتخلف أرملة ناثاريت يوماً عن مواعيد فلورينتينو أريثا العرَضية، ولا حتى في أكثر أوقاتها انشغالاً، وكانت تقابله دائماً من دون الادعاء بأنها تحبه ومن دون مطالبته بأن يحبها، ولكن على أمل العثور على شيء يشبه الحب، إنما من دون مشاكل الحب. وفي بعض الأحيان كان هو الذي يذهب إلى بيتها، وعندئذ كانا يفضلان البقاء على المصطبة المطلة على الحر للابتلال بزبد ملح البارود، وتأمل شروق الدنيا كلها في الأفق. وقد كرس كلَ جهده لتعليمها أساليب التهيّج التي كان قد رأى آخرين يمارسونها من خلال ثقوب فندق العابرين، وكذلك المعادلات النظرية التي كان يدعو لها لوتاريو توغوت في ليالي مرَحهما. حدثها للموافقة على أن يريا بعضهما أثناء ممارستهما الحب، وعلى استبدال وضعية الكاهن المعروفة بوضعية الدراجة البحرية، أو الفروج المشوي، أو الملاك المعلَّق، وكادا أن يوديا بحياتيهما عندما انقطعت بهما حبال تعليق أرجوحة النوم وهما يحاولان ابتكار وضعية جديدة في الأرجوحة. ولكنها كانت دروساً عقيمة. فالحقيقة أنها كانت طالبة جَسورة، لكنها تفتقر إلى أدنى موهبة في الزنى الموجَّه. لم تفهم أبداً مفاتن الصفاء في السرير. ولم تكن لها لحظة إلهام، بل كانت تهيجاتها الجنسية جلدية خارجية تأتي في غير أوانها: يا له من جماع كئيب. وقد عاش فلورينتينو أريثا زمناً طويلاً وهو مخدوع بأنه الوحيد، وكانت تشارك في ترسيخ هذا

الاعتقاد لديه، إلى أن جعلها سوء الطالع تتكلم وهي نائمة. وشيئاً فشيئاً، أخذ يستجمع وهو يسمعها أثناء نومها، أجزاء تصريح إبحار أحلامها، وتوغل ما بين جزر حياتها السرية المتعددة. وهكذا علم أنها لا تسعى إلى الزواج منه، ولكنها تشعر بأنها مربوطة إلى حياته برابطة العرفان بالجميل الكبير لأنه هو الذي أفسدها. وقد قالت ذلك كثيراً.

- إنني أعبدك لأنك جعلتني قحبة.

ولم تكن تنقصها المبررات لذلك. فقد جرّدها فلورينتينو أريثا من عذرية زواج عادي، هي أشد وبالاً من العذرية الخَلْقيّة ومن زُهد الترمّل. وعلمها أنه لا شيء ممّا يمارَس في السرير غير أخلاقي ما دام يساهم في استمرار الحب. وعلمها شيئاً آخر سيكون منذ ذلك الحين هو مبرّر وجودها: أقنعها أن الإنسان يأتي إلى الحياة بعدد محدّد من الضروب، وأن تلك التي لا تستنفد، لسبب ذاتي أو خارجي، إرادي أو جبري، تضيع إلى الأبد. وكانت فضيلتها هي فهم ذلك وتطبيقه بحذافيره. ومع ذلك، فان فلورينتينو أريثا، الذي يظن أنه يعرفها أكثر من أي شخص آخر، لم يستطع أن يفهم كيف تكون مرغوبة إلى هذا الحدّ، امرأة ذات أساليب شديدة الصبيانية، إضافة إلى أنها لا تتوقف عن الحديث في السرير عن كآبتها على زوجها الميّت. والتفسير الوحيد الذي خطر له، ولم يستطع أحد نقضه، هو أن أرملة ناثاريت كانت تعوّض برقّتها الفائضة ما ينقصها من الفنون الميدانية. أصبحا يلتقيان أقل فيما هي توسّع من نطاق ممتلكاتها، ويتفحّص هو ممتلكاته عساه يجد مهدئاً لآلامه القديمة في قلوب مبدّدة أخرى، إلى أن نسي كل منهما الآخر في نهاية الأمر من دون آلام.

كان ذلك هو أوّل حب سريري لفلورينتينو أريثا. ولكنه بدلاً من أن يقيم معها اتحاداً مستقراً، كما كانت تحلم أمه، استغله كلاهما للانطلاق في الحياة. فقد طوّر فلورينتينو أريثا أساليب بدت غير قابلة للتصديق

بالنسبة لرجل صموت وضامر مثله، متسربل بملابس كملابس شبح من زمن آخر. ومع ذلك، كانت هناك نقطتان لصالحه. إحداهما هي عينه الصائبة في التعرف فوراً على المرأة التي تنتظره، حتى ولو كانت وسط حشد من الناس. ولكنه، حتى في هذه الحالة، يغازلها بتحفّظ، لأنه كان يشعر بأنه لا شيء يسبب العار والذل أكثر من الصَدّ. والنقطة الثانية هي أنهن كنّ يُميّزنه فوراً كمتوحّد بحاجة إلى الحب، وكمعوز من الشارع بذلّ كلب مضروب يُقدّم خدماته من دون شروط، وبلا أية مطالب، ومن دون انتظار شيء آخر منه سوى راحة الضمير في إسداء المعروف إليه. وكان هذان هما سلاحاه الوحيدان، وبهما خاض معارك تاريخية، ولكن بسرّية مطلقة، وسجَّلها بصرامة مدوِّن عقود في دفتر مُشفّر؛ من النوع الذي يعرفه الكثيرون بعنوان ينمّ عن كل شيء: هنَّ.

وكان أوّل سجل في دفتره هو سجل الأرملة ناثاريت. وبعد خمسين سنة من ذلك، عندما تحررت فيرمينا داثا من رباطها القدسي، كان قد اجتمع لديه خمسة وعشرون دفتراً تضم ستمائة وعشرين سجلاً لغراميات مستمرة، عدا المغامرات العابرة التي لا تُحصى ولا تستحق ولو مجرّد ملاحظة إحسان صغيرة.

بعد ستة شهور من الغراميات الخارقة للمألوف مع أرملة ناثاريت، توصل فلورينتينو أريثا نفسه إلى القناعة بأنه قد تجاوز عذاب فيرمينا داثا. ولم يصدق ذلك وحسب، بل إنه تحدث فيه عدّة مرّات مع ترانسيتو أريثا خلال ما يقارب السنتين اللتين دامتهما رحلة الزفاف، وتابع الإيمان به بشعور من التحرر اللامحدود، إلى أن رآها فجأة ومن دون إيحاء سابق من قلبه، في يوم أحد من أيام نجمه المنحوس، وهي خارجة من القدّاس ممسكة بذراع زوجها ومحاطة بفضول ورياء وسطها الاجتماعي الجديد. فالسيدات النبيلات اللواتي كن يحتقرنها أوّل الأمر ويسخرن من كونها دخيلة بلا لقب، رحن يتهافتن كي يُشعِرنها بأنها واحدة منهن،

فيما كانت هي تسكرهنَّ بسحرها. لقد تسنمت وضعها كزوجة دنيوية بجدارة جعلت فلورينتينو أريثا يحتاج للحظة من التفكير للتعرّف عليها. كانت امرأة أخرى: رصانة الشخصية الكبيرة، الحذاء العالي، القبعة الرقيقة المزيَّنة بريشة طائر شرقي ملوّنة. كل ما فيها كان مختلفاً وبسيطاً، كما لو كان فيها منذ نشأتها. وجدها أكثر جمالاً وشباباً من أي وقت مضى، ولكنها أبعد من أن تكون له أكثر من أي وقت مضى، ولم يُدرك سبب ذلك إلى أن رأى انتفاخ بطنها تحت الفستان الحريري الفضفاض: لقد كانت حاملاً في شهرها السادس، لكن أكثر ما أثّر فيه هو أنها تشكّل مع زوجها ثنائياً محترَماً، وأنهما يتصرفان بالدنيا بسيولة تجعلهما يبدوان وكأنهما يطفوان فوق صخور الواقع. لم يشعر فلورينتينو أريثا بالحسد ولا بالغضب، وإنما باحتقار شديد لنفسه. أحسّ بأنه بائس، وقبيح، ووضيع، وأنه ليس غير جدير بها فقط، بل وبأية امرأة أخرى فوق وجه الأرض.

لقد عادت إذاً. عادت من دون أي سبب لتندم على الانقلاب الذي أحدثته في حياته. ولكن على العكس: كان جزعه يتناقص، خصوصاً بعدما اجتاز السنوات الأولى. أما بالنسبة لها فالأمر أكثر من ذلك، فهي التي وصلت إلى ليلة الزفاف بغشاوة براءة، كانت قد بدأت تفقدها خلال الرحلة إلى أقليم ابنة الخال هيلديبراندا. ففي فاييدوبار فهمت أخيراً لماذا يطوف الديك حول الدجاجات، وشاهدت طقوس الحمير البهيمية، ورأت ولادة العجول، وسمعت بنات الخال يتحدثن بطبيعية عن أزواج من العائلة ما زالوا يمارسون الحب، وعن سبب توقّف آخرون عن ممارسته رغم استمرارهم في العيش معاً. وكان أن بدأت حينئذ ممارسة الحب منفردة، يراودها إحساس غريب بأنها تكتشف شيئاً كانت غرائزها تعرفه منذ الأزل، فعلت ذلك في السرير أولاً، وهي تكتم أنفاسها كي لا تفضح نفسها في حجرة النوم التي تتقاسمها مع نصف دزينة من بنات

الخؤولة، ثم بعد ذلك بيديها الاثنتين وهي منبطحة على أرضية الحمّام من دون توجّس، بينما شعرها مفلت وهي تدخن سجائرها الأولى. لقد كانت تفعل ذلك دائماً مع بعض شكوك الضمير التي لم تتجاوزها إلّا بعد زواجها، وكانت تفعله بسرية مطلقة، بينما بنات خؤولتها يتفاخرن فيما بينهن ليس في عدد المرات يومياً فحسب، بل وبشكل وحجم أعضاءهن أيضاً. ومع ذلك، ورغم سحر تلك الطقوس الأولية، فقد استمرت على اعتقادها بأن فقدان العذرية هو تضحية دموية.

حتى أن حفلة زفافها، وهي واحدة من أضخم حفلات أواخر القرن الماضي، جرت بالنسبة لها على أعتاب الرعب. وقد أثّر فيها كرب شهر العسل أكثر بكثير من الفضيحة الاجتماعية لزواجها من وجيه لا ثاني له في تلك السنوات. فمنذ الإعلان عن الزفاف في القدّاس الكبير في الكاتدرائية، عادت فيرمينا داثا تتلقى رسائل مغفلة التوقيع، بعضها يتوعدها بالموت، لكنها لم تكن لتشعر بها، حيث كان كل الخوف الذي بداخلها مشغول بعملية الاغتصاب الوشيكة. لقد كانت تلك هي الطريقة الصحيحة - رغم أنها لم تفعل ذلك عن وعي - في معاملة الرسائل المغفلة من أبناء طبقة عوّدتها سخرية التاريخ على إحناء رأسها أمام الوقائع الناجزة. وهكذا بدأ تحوّل جميع من كانوا ضدها للوقوف إلى جانبها كلما أصبح الزفاف أمراً لا رجعة فيه. وقد لاحظت هي ذلك في التبدل التدريجي لمواكب النساء الزرق المتودّدات، اللاتي أنزلهنَّ التهاب المفاصل والحقد من مقامهن، واللواتي اقتنعن يوماً بعدم جدوى مكائدهن، فظهرن من دون سابق إنذار في حديقة البشارة، وكأنهن في بيتهن، محمَّلات بوصفات للمطبخ وبهدايا العرافة. كانت ترانسيتو أريثا تعرف ذلك العالم، رغم أنها عانت منه بنفسها هذه المرّة فقط، وكانت تعلم أن زبوناتها سيأتينها في الأيام السابقة للاحتفالات الكبرى ليطلبن منها إخراج جرارها المدفونة، وإعارتهن مجوهراتهن المرهونة، لمدة

أربع وعشرين ساعة فقط مقابل دفع فائدة إضافية. ولم يحدث منذ زمن بعيد كما حدث هذه المرّة، إذ فرغت الجرار كيما تخرج السيدات ذوات الألقاب الطويلة من هياكلهن المظلمة ويظهرن متألقات، بمجوهراتهن الخاصة المستعارة، في حفلة زفاف لن يتاح لهن رؤية حفلة بعظمتها في ما تبقى من القرن، والتي كان مجدها الأخير في كون عرّابها هو الدكتور رافائيل نونيث، رئيس الجمهورية لثلاث مرّات، والفيلسوف والشاعر وواضع كلمات النشيد الوطني، كما جاء في بعض المعاجم الحديثة حينئذ. وصلت فيرمينا دازا إلى المذبح الكبير في الكاتدرائية ممسكة بذراع أبيها، الذي منحته بدلة الإتيكيت مظهراً خاطئاً من الوقار لمدة يوم واحد. وتزوجت إلى الأبد مقابل مذبح الكاتدرائية الكبير في قداس تكليل شارك فيه ثلاثة أساقفة في الساعة الحادية عشرة من صباح يوم جمعة ترنيداد المقدّسة المجيد، ومن دون أي خاطر شفقة نحو فلورينتينو أريثا الذي كان يُعاني حينها الحمّى، ويميت نفسه من أجلها، في مركب لن يحمله إلى النسيان. وقد احتفظت أثناء المراسم الدينية، ثم أثناء الحفلة في ما بعد، بابتسامة بدت كأنها مثبتة بالأسبيداج، لمحة بلا روح فسّرها بعضهم بأنها ابتسامة الفوز الساخرة، ولكنها لم تكن في الحقيقة سوى وسيلة بائسة لمداراة خوفها كعذراء تزوجت لتوّها.

ولحسن الحظ أن بعض المصادفات، إضافة إلى تفهّم الزوج، حلت مسألة لياليها الثلاث الأولى من دون ألم. لقد كان أمراً صادراً عن العناية الإلهية، أن سفينة شركة جنرال ترانساتلانتيك، ببرنامج رحلاتها المتقلب رضوخاً لطقس الكاريبي السيئ، أعلنت قبل ثلاثة أيام من الرحلة عن تقديم موعد الانطلاق أربعاً وعشرين ساعة، أي أنها لن تبحر إلى روشيل في اليوم التالي للزفاف، وإنما في ليلة الزفاف نفسها. لم يصدق أحد أن ذلك التغيير ليس مفاجأة أخرى من مفاجآت هذا العرس السارة، وقد انتهت الحفلة بعد منتصف تلك الليلة على سطح عابرة المحيطات

المضاءة، بمرافقة فرقة أوركسترا من فيينا كانت تدشّن في تلك الرحلة أحدث فالسات يوهان شتراوس. وهكذا جرى حمل العرّابين المبتلين بالشمبانيا قسراً إلى اليابسة بمساعدة زوجاتهم المكدرات، حين بدأوا يسألون النذُل إن كانت هناك قمرات غير محجوزة لمواصلة الحفلة حتى باريس. وقد رأى آخر الذين نزلوا لورينثو داثا يجلس على الأرض في عرض الطريق مقابل الخمارات ببدلة الإتيكيت المتسخة، وهو ينتحب بصرخات مولولة، مثلما يبكي العرب موتاهم، مستريحاً فوق بركة ماء آسن، ربّما هي بركة دموع.

لا في الليلة الأولى ذات البحر الهائج، ولا في الليلة التالية ذات الإبحار الهادئ، ولا في أية ليلة أخرى من ليالي حياتها الزوجية الطويلة جداً جرت أعمال بربرية من تلك التي كانت فيرمينا داثا تخشاها. فالليلة الأولى، ورغم ضخامة السفينة وفخامة القمرات، كانت إعادة رهيبة للرحلة في سفينة ريوهاتشا، وكان زوجها طبيباً خدوماً لم ينم لحظة واحدة، وأمضى الليل في مواساتها، وهو الشيء الوحيد الذي يستطيع عمله طبيب بارز لعلاج دوار البحر. ولكن العاصفة هدأت في اليوم الثالث، بعد الخروج من ميناء غوايرا، وحتى ذلك الحين كانا قد أمضيا معاً وقتاً طويلاً وتحدّثا كثيراً حتى أصبحا يشعران بأنهما صديقان قديمان. وفي الليلة الرابعة، عندما استعاد كل منهما عاداته المألوفة، فوجئ الدكتور أوربينو بأن زوجته الشابة لا تصلّي قبل النوم. وكانت صريحة معه: إن نفاق راهبات المدرسة قد أثار فيها عداء للصلوات، لكن إيمانها كان راسخاً، وقد تعلمت الحفاظ عليه بصمت. قالت: «أفضّل التفاهم مع الربّ مباشرة». وتفهم هو مبرراتها، ومنذ ذلك الحين مارس كل منهما الدين نفسه على طريقته. لقد كانت فترة خطوبتهما قصيرة، لكنها خارجة عن مألوف تلك الحقبة كثيراً؛ فالدكتور أوربينو كان يزورها في بيتها، من دون رقابة، مساء كل يوم. وما كانت لتسمح له بأن يمسّ طرفاً

من أطراف أصابعها قبل المباركة الأسقفية، لكنه لم يحاول ذلك أيضاً. وفي الليلة الأولى من هدوء البحر، وبينما هما بملابسهما في السرير، بدأ أولى مداعباته، وقد فعل ذلك بحذر شديد، بحيث بدا لها أنه من الطبيعي أن ترتدي قميص نومها. مضت لاستبدال ملابسها في الحمّام، ولكنها أطفأت أنوار القمرة قبل ذلك، وعندما خرجت بقميص نومها، دسّت خرقاً في شقوق الباب، لتعود إلى السرير في ظلام دامس. وبينما هي تفعل ذلك، قالت بمزاج رائق:

- ماذا تريد يا دكتور. أنها المرّة الأولى التي أنام فيها مع رجل غريب.

أحسّ بها الدكتور أوربينو وهي تنزلق إلى جانبه مثل حيوان صغير مضطرب، محاولة البقاء بعيداً عنه قدر المستطاع في سرير بحري، حيث من الصعب وجود اثنين معاً من دون أن يمس أحدهما الآخر. أمسك يدها، الباردة والمتشنجة من الرعب، وشبك الأصابع، وبدأ يروي لها بصوت هامس ذكرياته عن رحلات أخرى في البحر. كانت متوترة من جديد، لأنها عندما رجعت إلى السرير انتبهت إلى أنه قد تعرّى تماماً أثناء وجودها في الحمّام، وهذا أحيا خوفها من الخطوة التالية. لكن الخطوة التالية تأخرت عدّة ساعات، فقد تابع الدكتور أوربينو الحديث بتمهل شديد، فيما هو آخذ بنيل ثقة جسدها ميليمتراً بعد ميليمتر. حدّثها عن باريس، عن الحب في باريس، عن عشّاق باريس الذين يتبادلون القبلات في الشارع، وفي الأمنيبوس، وعلى مقاهي الأرصفة البديعة المفتوحة على لفحات النار وعلى أوكورديونات الصيف الخافتة، ويمارسون الحب وقوفاً على ضفاف السين من دون أن يزعجهم أحد. وبينما هو يتحدّث في العتمة، داعب انحناءة عنقها برؤوس أصابعه، وداعب زغب ذراعيها الحريري، وبطنها المراوغ، وعندما أحس أن التوتر قد تراجع، قام بمحاولته الأولى لرفع قميص نومها، لكنها أوقفته بحركة تقليدية من حركاتها. وقالت: «أستطيع عمل ذلك بنفسي». نزعته عنها فعلاً، ثم

بقيت ساكنة، بحيث كان بإمكان الدكتور أوربينو أن يعتقد بأنها ليست هناك، لولا بريق جسدها في الظلام.

عاد بعد هنيهة للإمساك بيدها، فأحس بها حينئذ دافئة ومتحررة، لكنها لا تزال رطبة بندى طازج. بقيا لحظة أخرى صامتين وساكتين، هو يتحين الفرصة للخطوة التالية، وهي تنتظر تلك الخطوة من دون أن تدري من أين ستأتيها، بينما كان الظلام يتّسع مع ازدياد حدّة تنفسها. أفلتها فجأة وقام بالقفزة في الفراغ: بلل طرف أصبعه الوسطى بلسانه ولمس لمساً خفيفاً حلمة نهدها الغافل، فأحست بشحنة موت، كما لو أنه مسّ فيها عصباً حياً. وفرحت لكونها في الظلام، كيلا يرى تورّد وجنتيها الحارق الذي هزها حتى أعماق جمجمتها. قال لها بهدوء: «اهدئي. ولا تنسي أنني أعرفهما». أحس بها تبتسم، وكان صوتها عذباً وجديداً حين قالت في العتمة:

- أذكر ذلك جيداً، وحتى الآن لم يبارحني الغيظ.

عرف حينئذ بأنهما قد تجاوزا رأس الرجاء الصالح، فعاد يمسك بيدها الكبيرة اللدنة، وغمرها بقبلات يتيمة، بدأ بمشط اليد الغليظ، فالأصابع الطويلة المتبصّرة، والأظافر الشفافة، ثم خطوط حظها المتشابكة في الكف المتعرق. ولم تعرف كيف وصلت يدها إلى صدره، واصطدمت بشيء لم تستطع تحديده. فقال لها: «إنها تعويذة». داعبت شعر صدره، ثم أمسكت أجمة الشعر كلها بأصابعها الخمس لتنتزعها من جذورها. «بقوة أكبر»، قال لها. حاولت، إلى الحدّ الذي عرفت أنها لا تؤذيه، ثم كانت يدها هي التي بحثت عن يده التائهة في الظلام. لكنه لم يمكّنها من شبك أصابعها بأصابعه، وإنما أمسكها من معصمها وقاد يدها على جسده بقوة لا مرئية ولكنها متقنة التوجيه، إلى أن أحسّت بلفحة متقدة من حيوان متقد، بلا شكل مادّي محدّد، لكنه متلهف ومنتصب، وعلى العكس ممّا تصوره، بل وعلى العكس ممّا كانت هي نفسها ستتصوره،

لم تسحب يدها، ولم تتركها ساكنة حيث وضعها، وإنما سلمت نفسها جسداً وروحاً للعذراء المقدسة، وضغطت أسنانها خشية أن تضحك من جنونها، وبدأت تتعرف باللمس على عدوّها المشبوب، متعرفة على حجمه، وقوة رأسه، وامتداد أجنحته، مرتعبة من تصميمه لكنها مشفقة على عزلته، وممسكة به بفضول متقصٍّ، بطريقة لو أن أحداً أقل خبرة من زوجها لظن أنها مداعبات. استعان بآخر قوه لمقاومة دوار هذه المبارزة القاتلة، إلى أن أفلتته بطرافة طفولية، وكأنها تلقي به إلى الزبالة، وقالت:

– لم افهم أبداً كيف هو هذا الجهاز.

عندئذ شرح لها كل شيء بجدية وبأسلوبه كأستاذ، بينما هو يقود يدها إلى المواضع التي يذكرها، وهي تنقاد له بطاعة تلميذة مثالية. ولمَّح في لحظة مواتية إلى أن كل ذلك سيكون أسهل لو أن النور مضاء، ولكنها أوقفت ذراعه قائلة: «بيدي أرى أفضل». الحقيقة أنها كانت تريد إشعال النور، لكنها تريد عمل ذلك بنفسها من دون أن يأمرها أحد، وهذا ما فعلته. عندئذ رآها في وضع جنيني، مغطاة بالشرشف، تحت الضوء المفاجئ. لكنه رآها وهي تعود لتمسك بحيوان الفضول من دون تكلّف، وتقلبه ظهراً وباطناً، وتتفحصه باهتمام أخذ يبدو اهتماماً غير علمي، وقالت مستنتجة: «يا لقباحته، أنه أقبح منظراً ممّا للنساء». كان متفقاً معها في الرأي، وأشار إلى نقائص أخرى أكثر أهمية من القبح. قال: «إنه مثل الابن الأكبر، يقضي المرء حياته وهو يعمل من أجله، مضحياً بكل شيء في سبيله، وعندما تحين ساعة الجد يتصرف كما يحلو له». تابعت تفحّصه، والسؤال عمّا يفيد هذا، وما فائدة ذاك، وعندما رأت أنها حصلت على المعلومات الكافية رازته بيديها الاثنتين، لتتأكد من أن وزنه كذلك لا يستحق الذكر، ثم أفلتته باعوجاجة ازدراء، وقالت:

– وأرى كذلك أن فيه أشياء كثيرة لا حاجة لها.

توقف حائراً. فالفكرة الأساسية في موضوع تخرجه هي هذه: استحسان تبسيط الجهاز البشري. إذ كان جسم الإنسان يبدو له طرازاً قديماً، ذا وظائف كثيرة مكرورة أو لا فائدة منها، كانت لازمة في عصور أخرى للجنس البشري، ولكن ليس لعصرنا. أجل: يمكن أن يكون أبسط وأقل تعرضاً للعطب أيضاً.

وختم قائلاً: «هذا شيء لا يستطيعه إلا الله بالطبع، ولكن لا بأس من إقراره بصورة نظرية». ضحكت سعيدة، بطريقة طبيعية جداً، فانتهز الفرصة لاحتضانها، وقبلها القبلة الأولى من فمها. فردت عليه بقبلة مماثلة، وتابع قبلاته الخفيفة على الوجنتين، والأنف، والجفون، فيما يده تنزلق تحت الشرشف، وداعب عانتها المستديرة والسبطة: كعانة يابانية. لم تُبعد يده، لكنها احتفظت بيدها في حالة تأهب خوفاً من تقدمه خطوة أخرى.

وقالت: - لن نستمر في درس الطب.

فقال: - لا. الدرس الآن سيكون في الحب.

عندئذ نزع الملاءة من فوقها، فلم تكتف هي بعدم الاعتراض، بل قذفت الملاءة بعيداً عن السرير بضربة من قدميها، لأنها لم تعد تحتمل الحر. كان جسدها ملتوياً ومرناً، وأكثر جدّية ممّا يبدو عليه وهي بملابسها، تنبعث منه رائحة حيوان بري يمكن تمييزها بين جميع نساء الدنيا. وفيما هي عزلاء تحت الضوء، صعدت دفقة دم يغلي إلى وجهها، ولم يخطر لها إخفاء ذلك سوى التعلق بعنق زوجها، وتقبيله بعمق وقوة إلى أن استنفدا في القبلة كل الهواء الذي تنفساه.

كان واعياً أنه لا يحبها. لقد تزوّج منها لاعجابه بشموخها وجديّتها وقوّتها، وكذلك لشيء من كبريائه، لكنه وفيما هي تقبله للمرة الأولى

تأكد من أنه لن يجد أي عائق لاختراع حب جيد. لم يتحدثا بذلك في هذه الليلة الأولى التي تحدثا فيها بكل شيء حتى الفجر، ولن يتحدثا في ذلك أبداً. ولكن أياً منهما لم يخطئ على المدى البعيد.

عند الفجر، حين ناما، كانت لا تزال عذراء، لكنها لن تبقى كذلك طويلاً. وفعلاً، فبعد أن علمها، في الليلة التالية، رقص فالسات فيينا تحت سماء الكاريبي النجمية، كان عليه أن يذهب إلى الحمّام بعدها، وعندما رجع إلى القمرة وجدها تنتظره عارية في السرير. وكانت هي حينئذ من اتخذ المبادرة، فاستسلمت له من دون خوف، ومن دون ألم، وبسعادة الإقدام على مغامرة في عرض البحر، من دون أن يخلف الطقس الدامي أثراً سوى وردة الشرف على ملاءة السرير. كلاهما فعل ذلك جيداً، بطريقة أشبه بمعجزة، وتابعا عمله جيداً ليلاً ونهاراً، وفي كل مرّة بصورة أفضل من سابقتها خلال بقية الرحلة، وعندما وصلا إلى لا روشيل كانا متفاهمَين كعاشقين قديمين.

بقيا ستة عشر شهراً في أوروبا، متخذين من باريس قاعدة لهما، ومنطلقين منها في رحلات قصيرة إلى البلدان المجاورة. وقد مارسا الحب يومياً أثناء تلك الفترة، ومارساه أكثر من مرّة خلال أيام الآحاد الشتوية، حيث كانا يتبادلان المداعبة في الفراش حتى ساعة الغداء. كان رجلاً مندفعاً إضافة إلى أنه حسن التدريب، ولم تكن هي مخلوقة لتسمح لأحد بالتفوق عليها، وهكذا كان عليهما أن يقبلا باقتسام السلطة في السرير. وبعد ثلاثة شهور من الحب المحموم، أدرك أن أحدهما مصاب بالعقم، فخضعا لفحوص طبية صارمة في مستشفى سالبيتريه، حيث كان قد أمضى فترة تدريبه العملي كطالب مقيم. كانت فحوصات مضنية ولكن من دون جدوى. ومع ذلك، عندما تخليا عن التفكير بالأمر، حدثت المعجزة بلا أية وسيلة علمية. وحين رجعا إلى الوطن

في نهاية السنة التالية، كانت فيرمينا حبلى في الشهر السادس، وترى أنها أسعد امرأة على وجه الأرض. الابن الذي رغبا فيه كلاهما، والذي ولد تحت برج الدلو، عُمّد على شرف جده الميّت بالكوليرا.

كان من المحال معرفة إن كانت أوروبا أم الحب هو ما غيّرهما. ذلك أن الأمرين حدثا في آن واحد. كلاهما كان قد تغيّر، وبعمق، ليس في علاقة كل منهما بالآخر وحسب، وإنما كذلك في علاقتهما مع الجميع، وهذا ما أدركه فلورينتينو أريثا حين رآهما خارجَيْن من القدّاس بعد أسبوعين من عودتهما، في يوم أحد نكبته ذاك. لقد عادا بمفهوم جديد للحياة، محمَّلَيْن بمستجدات الدنيا: هو بمستجدات الأدب والموسيقى، ومستجدات علمه قبل أي شيء آخر، كما عاد باشتراك في جريدة لوفيغارو، كي لا يفقد خيط الواقع، واشتراك آخر في مجلّة ريفيو دي دو موندس كي لا يفقد خيط الشِّعر. كما اتفق مع عميله المكتبي في باريس لتزويده بجديد الكتّاب الأوسع انتشاراً، كأناتول فرانس وبيير لوتي، ومؤلفات مفضَّليه، كريمي دي غورمونت وبول بروجيه، أما أميل زولا فلا، لأنه يرى أنه لا يطاق، رغم اقتحامه الجريء لمحاكمة دريفوس. وقد وعد المكتبي نفسه بأن يرسل إليه بالبريد كل جديد ومغرٍ في كاتالوج ريكورد، وبصورة خاصة الجديد من موسيقى الحجرة، ليحتفظ باللقب الذي اكتسبه أبوه عن جدارة كأول داعية لموسيقى الكونشيرتو في المدينة.

أما فيرمينا داثا، المعارضة دائماً لمجازفات الموضة، فقد أحضرت معها ستة صناديق ملابس لمختلف الفصول، إذ إن الماركات الشهيرة لم تقنعها. كانت قد ذهبت إلى تويرياس، في عز الشتاء، لحضور إطلاق مجموعة أزياء وورث، طاغية الأزياء الراقية الذي يفرض ما يشاء، والشيء الوحيد الذي حصلت عليه كان التهاب قصبات طرحها في الفراش خمسة أيام. وبدا لها لافيريه أقل غطرسة وجشَعاً، لكنها اتخذت

قرارها الحكيم بالحصول على ما يعجبها من محلات التصفيات، رغم أن زوجها كان يُقسم لها أغلظ الأيمان بأنها ملابس موتى. وهكذا أحضرت كميات من الأحذية الإيطالية التي بلا ماركة، فضّلتها على موديلات فيري الذائعة الصيت والشاذّة، وجلبت مظلة من ديبوي، حمراء كنيران جهنم، كانت موضوعاً كتب فيه كثيراً صحفيو مجتمعنا المرتعدون. واشترت قبعة واحدة من تصميم مدام ريبو، لكنها ملأت صندوقاً كاملاً بعناقيد الكرز الاصطناعي، وفروع مختلف أنواع الزهور التي وجدتها، وكميات من ريش النعام، وريش الطواويس، وذيول ديكة آسيوية، وطيور تَدْرُج، وأفاع وتشكيلة متنوعة من الطيور الغريبة المحنَّطة ذات الأجنحة المفتوحة، أو الأفواه الصارخة، أو العيون المحتضرة: كل هذه الأشياء جعلت القبعات نفسها تبدو كأنها قبعات أخرى طوال السنوات العشرين الأخيرة. أحضرت مجموعة مراوح يدوية من بلاد العالم المختلفة، كل واحدة منها مخصصة لمناسبة. وأحضرت عطراً جذاباً انتقته من بين أصناف كثيرة في محل عطورات بازار ديلا شاريته، قبل أن تخربه رياح الربيع برمادها، لكنها لم تستخدمه سوى مرّة واحدة، لأنها لم تعد تتعرّف على نفسها بهذا العطر المختلف. وأحضرت كذلك علبة مكياج كانت آخر صرعة في سوق الإغراء، وكانت أوّل امرأة خرجت بالمكياج إلى الحفلات، حين كان مجرّد التجمّل في مكان عام يعتبر عملاً منافياً للحشمة.

وأحضرت معها كذلك ثلاث ذكريات لا تُمحى: الافتتاح الذي لم يسبق له مثيل لمسرحية حكايات هوفمان، في باريس، والحريق الرهيب الذي أتى على جميع جندولات البندقية تقريباً قبالة ساحة سان ماركوس، والذي شاهداه بقلب يعتصره الألم من نافذة فندقهما، ورؤية خاطفة لأوسكار وايلد أثناء هطول أوّل الثلوج في كانون الثاني. ولكن بين هذه الذكريات وغيرها الكثير، احتفظ الدكتور خوفينال أوربينو بذكرى رغبة

كان يأسف دوماً لأنه لم يستطع تقاسمها مع زوجته، وتعود إلى الوقت الذي كان لا يزال فيه طالباً عازباً في باريس. إنها ذكرى فيكتور هوغو، الذي كان ينعم عندنا بشهرة مثيرة ليست مرتبطة بشهرة مؤلفاته. ذلك أن أحدهم قال عنه إنه قد قال، من دون أن يكون هناك من سمعه في الواقع، بأن دستورنا ليس لموطن بشر وإنما هو لموطن ملائكة. فأصبحت له منذ ذلك الحين منزلة خاصة، وصار معظم مواطنينا الكثيرين الذين يسافرون إلى فرنسا يتهالكون لرؤيته. وقد قام ستة طلاب، بينهم الدكتور خوفينال أوربينو، بتنظيم حراسة مقابل بيته في شارع إيليا، وفي المقاهي التي يُقال إنه سيأتي إليها بالتأكيد، من دون أن يأتي أبداً، ثم تقدموا آخر الأمر بطلب خطيّ للقاء خاص معه، باسم ملائكة دستور ريونغرو. ولم يتلقوا أي ردّ. وفي أحد الأيام، بينما خوفينال أوربينو يمرّ مصادفة مقابل حديقة اللوكسمبورغ، رآه وهو يخرج من مجلس الشيوخ برفقة امرأة شابة تقوده من ذراعه. كان هرماً جداً، يتحرّك بمشقة، لحيته وشعره أقل إشعاعاً ممّا هما عليه في صوره، ويرتدي معطفاً يبدو كأنه لشخص أضخم منه جسداً. ولم يشأ إفساد الذكرى بتحية وقحة: كانت تكفيه هذه الرؤية شبه اللاواقعية كزاد للحياة كلها. وعندما عاد إلى باريس متزوجاً، في ظروف تمكنه من رؤيته بطريقة شبه رسمية، كان فيكتور هوغو قد مات.

وكعزاء على ذلك، حمل خوفينال وفيرمينا الذكرى المشتركة لمساء يوم ثلجي، اختلطا فيه بجماعة كانت تتحدّى العاصفة مقابل مكتبة صغيرة في بولفار لوس كابوتشينوس، وتبين أن أوسكار وايلد كان في الداخل. وعندما خرج أخيراً، أنيقاً حقاً، وربّما واعياً جيداً أنه كذلك، أحاط به الحشد طالبين منه التوقيع على كتبه. لقد توقف الدكتور أوربينو لرؤيته فقط، لكنّ زوجته المندفعة أرادت اجتياز البوليفار ليوقّع لها على الشيء الوحيد الذي رأته مناسباً في غياب الكتاب: قفازها البديع الطويل الأملس، المصنوع من جلد الغزال، بلونه الذي يشبه لون بشرتها الحديثة

الزواج، كانت متأكدة أن رجلاً بهذه الرقة سيقدّر عالياً لفتة كهذه. لكن الزوج عارض بصرامة، وحين حاولت التقدّم رغم حججه، شعر بأنه لن يكون قادراً على البقاء حياً وتجاوز ذلك العار. فقال لها:

- إذا ما اجتزتِ الشارع، فستجدينني ميتاً حين ترجعين.

كان سلوكاً طبيعياً فيها. فقبل سنة واحدة من زواجها كانت تتحرّك في الدنيا بالطلاقة نفسها التي كانت عليها وهي طفلة في بلدة سان خوان دي لاثيناغا المميتة، وكأنها ولدت وهي تعرف الدنيا، وكانت تتمتع بسهولة في التعامل مع الغرباء، تاركة زوجها في حيرة من أمره، وبموهبة سحرية في التفاهم بالقشتالية مع أي كان وفي أي مكان. وكانت تقول وهي تضحك ساخرة: «المرء يتعلم اللغات حين يريد أن يبيع، أما عندما يريد الشراء فالجميع يفهمونه كيفما تكلم». من الصعب تصوّر أحد قادر على تمثيل حياة باريس اليومية بهذه السرعة وهذه الغبطة، وعلى تعلم حبها في الذكرى رغم أمطارها الدائمة. ومع ذلك، فعندما رجعت إلى الوطن مثقلة بهذه التجارب المجتمعة، منهَكة من السفر وناعسة من الحبَل، كان أوّل ما سألوها عنه في الميناء هو كيف بدت لها عجائب أوروبا، فلخّصت ستة عشر شهراً من السعادة في أربع كلمات من فظاظتها الكاريبية:

- إنها الصخب قبل أي شيء.

يوم رأى فلورينتينو أريثا، عند مدخل الكاتدرائية، فيرمينا داثا وهي حُبلى في الشهر السادس، ومتمكنة تماماً من مكانتها الجديدة كامرأة حياة، اتخذ قراره الصارم بالحصول على لقب وثروة ليصبح جديراً بها. لم يتروَ ليفكر حتى بالعائق الماثل في كونها متزوجة، لأنه قرّر في الوقت ذاته، كما لو أن الأمر بيده، أن الدكتور خوفينال أوربينو سيموت. لم يكن يعرف متى ولا كيف سيموت، لكنه طرح الأمر على أنه حدث محتّم، لا يحتاج إلا إلى الانتظار بلا تسرّع وبلا نوبات غضب، وحتى لو بقي إلى نهاية العصور.

بدأ من البداية. مَثُلَ، من دون سابق إعلان، في مكتب العم ليون الثاني عشر، رئيس مجلس الإدارة والمدير العام لشركة الكاريبي للملاحة النهرية، وأبدى له استعداده لوضع نفسه تحت تصرّفه. كان العم مستاء منه للطريقة التي تخلى بها عن وظيفة التلغراف المحترمة في لافيا دي ليفا، لكنه انساق مع قناعته بأن البشر لا يولدون دوماً يوم تلدهم أمهاتهم، وإنما تجبرهم الحياة على ولادة أنفسهم بأنفسهم مرة أخرى، ولمرّات عديدة. ثم إن أرملة الأخ كانت قد توفيت في السنة السابقة، مع أحقادها المتأجّجة ولكن من دون أن تُنجب ورثة. وهكذا منح ابن أخيه التائه عملاً.

كان ذاك قراراً تقليدياً من قرارات العم ليون الثاني عشر لوائيا. فَتحتَ قشرة التاجر القاسي، كان يُخبئ مهووساً عبقرياً، سيّان لديه أن يفجّر ينبوع ليمونادة في صحراء غواخيرا، أو يُغرق بالدموع جنازة ترفع الصليب بأغنيته المؤثرة «في هذا القبر المُظلم»، ولم يكن ينقصه برأسه المجعد وشفته السفلى الشهوانية الممتلئة سوى القيثارة وإكليل الغار ليصبح نسخة مطابقة لنيرون الحارق في الميثولوجيا المسيحية. أما ساعات فراغه المتبقية ما بين إدارته لسفنه الهرمة التي ما زالت تطفو بمحض غفلة من القدر، ومشاكل الملاحة النهرية المتزايدة الخطورة يوماً بعد يوم، فكان يكرّسها لإغناء قائمته الغنائية. ولم يكن يحب الغناء إلا في الجنازات. بصوته الذي يشبه صوت مجدّف في سفينة، والخالي من أي نظام أكاديمي، إنما القادر على أداء نغمات شجية. وقد روى له أحدهم أن أنريكي كاروسو يستطيع تهشيم مزهرية وتفتيتها إلى شظايا بقوة صوته فقط، فحاول خلال سنوات عديدة أن يقلده باستخدام زجاج النوافذ. وكان أصدقاؤه يأتونه بأرق أنواع المزهريات التي يجدونها في رحلاتهم عبر العالم، وينظّمون له احتفالات خاصة ليتمكن أخيراً من تحقيق حلمه. لكنه لم يتوصل إلى ذلك أبداً. ومع ذلك، فقد كان في أعماق صوته الراعد بصيصاً من الرقة التي تفتت قلب سامعيه كما تفتت مزهريات كاروسو العظيم الزجاجية، وكان هذا هو سبب مكانته المحترمة في الجنازات. باستثناء جنازة واحدة، خطرت له فيها فكرة غناء When wake up in Glory، وهي أغنية جنائزية من لويزيانا، جميلة ومؤثرة، فأسكته الكاهن الذي لم يفهم ذلك التدخل اللوثري في كنيسته.

وهكذا استطاع، وسط الأوبريهات والسيرنادات النابولية، أن يتبوّأ بعبقريته الخلاّقة وروحه العملية التي لا تلين، إمارة الملاحة النهرية في عصره الزاهر. لقد بدأ من لا شيء، مثل شقيقيه المتوفيين، ووصلوا جميعهم إلى حيث يشاؤون رغم وصمة كونهم أبناء طبيعيين، لم يعترف

بهم آباؤهم أبداً. لقد كانوا زهرة ما كان يدعى حينئذ أرستقراطية منضدة الكونتوار التي كان النادي التجاري هو هيكلها المقدس. ومع ذلك، وعندما امتلك الموارد التي تؤهله للعيش كالإمبراطور الروماني الذي يشبهه، بقي العم ليون الثاني عشر يعيش في المدينة القديمة، لسهولة ممارسة أعماله ومع زوجته وأبنائه الثلاثة، حياة تقشف في بيت صغير، ممّا ألصق به سمعة البخل ظلماً. وكانت رفاهيته الوحيدة أكثر بساطة: بيت على البحر، يبعد مسافة فرسخين عن مكاتب الشركة، لا أثاث فيه سوى ستة كراسي بلا مساند، وخابية ماء، وأرجوحة نوم على الشرفة يستلقي عليها أيام الآحاد للتفكير. ولم يصفه أحد خيراً ممّا وصف هو نفسه حين اتهمه أحدهم بأنه ثري، إذ قال:

- لست ثرياً.. أنا فقير يملك مالاً، وهو شيء مختلف.

هذه الطريقة الغريبة في الحياة التي امتدحها أحدهم يوماً في خطبة صحو جنوني، أتاحت له أن يرى، على الفور، ما لم يره أحد من قبل ولا من بعد في فلورينتينو أريثا. فمنذ اليوم الذي جاءه فيه طالباً منحه وظيفة في مكاتب الشركة، بمظهره الكئيب وسنوات عمره السبع والعشرين المبددة، أخضعه لاختبار صارم صرامة نظام عسكري قادر على قهر أشجع الشجعان. لكنه لم يتوصل إلى إخافته. وما لم يشك فيه العم ليون الثاني عشر أبداً هو أن شجاعة ابن أخيه هذه ليست وليدة الحاجة لكسب لقمة العيش، ولا وليدة صبر بهيمي ورثه عن أبيه، وإنما هي وليدة طموح غرامي لا يمكن لأية قوّة في هذا العالم أو العالم الآخر أن تحطمه.

أسوأ سنوات العمل كانت هي الأولى، حين عيّنوه كاتباً في الإدارة العامة، والتي كانت تبدو مكتباً مُفصّلاً على مقاسه. كان لوتاريو توغوت، أستاذ العم ليون الثاني عشر القديم في الموسيقى، هو الذي نصح هذا الأخير بتعيين ابن أخيه في وظيفة كتابية، لأنه مستهلك للأدب لا يكِلّ، رغم أن ما يقرأه من الأدب الرديء هو أضعاف ما يقرأه من الأدب الجيد.

لم يولِ العم ليون الثاني عشر اهتماماً لهذا التحديد بشأن نوعية الأدب الرديئة التي يقرأها ابن أخيه، لأن لوتاريو توغوت نفسه يقول عنه دوماً إنه أسوأ تلاميذه في الغناء، ومع ذلك فهو يُبكي حتى صفائح أحجار القبور. لكن الألماني كان محقاً على أية حال في أقل أمر فكّر فيه. ففلورينتينو أريثا يكتب أي شيء بعاطفة جياشة، ممّا جعل الوثائق الرسمية تبدو أشبه بوثائق حب، وكانت أذونات الإبحار تخرج معه مقفاة رغم جهده لتفادي ذلك، وكان يسكب في الرسائل التجارية نفساً غنائياً يقلل من هيبتها. وهكذا جاءه العم بنفسه في أحد الأيام برزمة من المراسلات التي لم تكن جديرة بأن يضع توقيعه عليها، ومنحه الفرصة الأخيرة لإنقاذ روحه. بالقول له:

- إذا كنت غير قادر على كتابة رسالة تجارية فسوف تتحول إلى جمع القمامة عن رصيف الميناء.

قبل فلورينتينو أريثا التحدّي، وقام بجهود جبارة ليتعلم بساطة النثر التجاري الدنيوية، مقلداً نماذج من الأرشيف الموثق، ومرصّعاً رسائلة بمقاطع منها، كما كان يفعل بأشعار الشعراء الرائجين من قبل. حدث هذا في الفترة التي أخذ يقضي فيها ساعات فراغه في زقاق الكتبة العموميين، مقدماً العون للعشاق الذين لا يحسنون الكتابة، بكتابة رسائلهم الغرامية المعطّرة، ليفضفض عن قلبه كلمات الحب الكثيرة التي لم يعد يستطيع استخدامها في التقارير الجمركية. لكنه بعد ستة شهور، ورغم جميع محاولاته، لم ينجح في ليّ عنق أوزانه الشعرية المتمادية.

- الشيء الوحيد الذي يهمني هو الحب.

فقال له العم:

- من المؤسف أنه لا وجود للحب من دون الملاحة النهرية.

نفّذ تهديده بنقله لجمع القمامة عن رصيف الميناء، لكنه وعد بترقيته

خطوة خطوة على سلم الخدمة إلى أن يجد مكانه المناسب. وهكذا كان. لم يستطع أي عمل، مهما كان قاسياً أو مذلاً، هزيمته؛ ولم يثبط بؤس الأجر من عزيمته، كما أنه لم يفقد أعصابه لحظة واحدة أمام عجرفة مسؤوليه. ولكنه لم يكن ساذجاً أيضاً. فكل من اعترض سبيله قاسى من نتائج تصميم كاسح، قادر على أي شيء، وراء مظهر البؤس الذي كان عليه؛ وكما رغب العم ليون الثاني عشر وخطط لجعله يتعرّف على كل سر من أسرار المؤسسة، فقد مرّ على جميع المناصب خلال ثلاثين عاماً من المثابرة والعناد في مواجهة كل الاختبارات. وقد أدارها جميعها بكفاءة تستحق التقدير، دارساً كل خيط في تلك التيلة السحرية التي لها علاقة ما بصنعة الشعر، إنما من دون التوصل إلى إحراز الميدالية الحربية التي طالما تاق إليها، ألا وهي كتابة رسالة تجارية مقبولة.. رسالة واحدة فقط. ومن دون أن يخطط لذلك، بل ومن دون أن يدري، راح يثبت بحياته سداد رأي أبيه الذي ردّد حتى النفس الأخير أنه لا أحد أكثر عملية، ولا حجّارين أكثر إصراراً، ولا مدراء أكثر نباهة وخطراً من الشعراء. هذا على الأقل ما أخبره به العم ليون الثاني عشر، الذي اعتاد أن يحدثه عن أبيه في أوقات الفراغ، وأعطاه عنه فكرة تصوّره كحالم أكثر منه رجل أعمال.

روى له أن بيو الخامس لوائيا كان يستخدم المكاتب لأمور أكثر لطفاً من شؤون العمل، وأنه رتّب أموره ليخرج من البيت في جميع أيام الآحاد، متذرّعاً بأنه سيستقبل أو يودّع سفينة ما. بل وصل به الأمر إلى وضع مرجل غير ذي نفع، مع صفّارة بخارية في فناء الحانات، حيث كان أحدهم يقوم بإطلاق الصفّارة برموز الإبحار كي تسمع الزوجة إن هي كانت مصغية. وبعد حسابات أجراها، أبدى العم ليون الثاني عشر اقتناعه بأن أم فلورينتينو أريثا قد حبلت به فوق منضدة مكتب غير مغلق، في مساء يوم أحد لاهب، بينما كانت زوجة أبيه تسمع من بيتها صفير

وداع يطلقه مركب لم يسافر أبداً. وعندما اكتُشفت أمره كان الوقت قد فات لجعله يدفع ثمن سلوكه المشين، لأنه كان قد مات. لقد عاشت سنوات طويلة بعده محطَّمةً بمرارة عقمها، وطالبة من الله في صلواتها أن ينزل لعنته الأبدية على ابن الزنا.

لقد شوّشت صورة الأب أفكار فلورينتينو أريثا. كانت أمه تحدثه عنه كرجل بلا ميول تجارية، وأنه انتهى إلى العمل التجاري في الملاحة النهرية لأن شقيقه الأكبر كان معاوناً للربان الألماني جان ب. ايلبرس، أحد أوائل العاملين في الملاحة النهرية. وأنه وأخواه كانوا أبناء طبيعيين لأم واحدة، تعمل طاهية، وجميعهم يحملون لقبها بعد اسم واحد من الباباوات كانت تختاره لا على التعيين من سجلّ القديسين، باستثناء العم ليون الثاني عشر، فهو يحمل اسم الملك الذي كان يحكم عند مولده. ومن يُدعى فلورينتينو هو جدّهم لأمهم، وبهذا وصل الاسم إلى ابن ترانسيتو أريثا، قافزاً فوق جيل كامل من الأحبار العظام.

لقد احتفظ فلورينتينو بدفتر كان أبوه يدوّن فيه أشعار الحب، وكانت ترانسيتو أريثا هي ملهمة بعض تلك القصائد، وكانت أوراق الدفتر مزيّنة برسوم قلوب جريحة. وقد فوجئ بأمرين: أحدهما هو خط أبيه المطابق تماماً لخطه، رغم أنه اختار هذا الأسلوب في الكتابة، من أحد مناهج تعليم الخط، لأنه أعجبه أكثر من سواه. والأمر الثاني هو عثوره على عبارة كان يعتقد أنها من بنات أفكاره، ووجد أن أباه قد دوّنها في فترة سابقة بوقت طويل لولادته: ما يؤلمني في الموت هو ألّا أموت حباً.

كان قد رأى كذلك صورتَي أبيه الوحيدتين. إحداهما ملتقطة في سانتافي، وهو صغير، مثلما كان عمره هو نفسه حين رآه أوّل مرّة يرتدي معطفاً سميكاً، يبدو فيه كأنه محشوّ في جوف دب، ويستند إلى قاعدة تمثال لا تظهر منه سوى ساق جزمته الطويلة المبتورة. والطفل الذي

يقف إلى جانبه هو العم ليون الثاني عشر، معتمراً قبعة ربّان سفينة. وفي الصورة الثانية كان أبوه مع مجموعة من المحاربين، مَن يدري في أي من الحروب الكثيرة، وكان يحمل أطول بندقية بين أفراد المجموعة، وتفوح من شاربَيْه في الصورة رائحة البارود. كان ليبرالياً وماسونياً، كما هما شقيقاه، ورغم ذلك كان يريد لابنه أن يدخل مدرسة الإكليروس، لم يشعر فلورينتينو أريثا بالشبه بينه وبين أبيه كما كانوا يدّعون، ولكن استناداً إلى أقوال العم ليون الثاني عشر، فإنهم كانوا يؤنّبون بيو الخامس أيضاً لأسلوبه الغنائي في ما يكتبه من وثائق. لم يكن يشبهه على أي حال كما هو في صورتَيْه، وهو لا يشبهه في ما يحفظه عنه في ذكرياته، ولا في الصورة التي كانت ترسمها له أمه، وقد حسّن الحب منها، ولا في الصورة التي يشوّهها العم ليون الثاني عشر بقسوته الظريفة. ومع ذلك، اكتشف فلورينتينو أريثا هذا الشبه بعد سنوات طويلة، بينما هو يسرّح شعره أمام المرآة، وقد أدرك يومذاك فقط أن المرء يعرف أنه قد بدأ بشيخ حين يبدأ بالتشابه مع أبيه.

لا يتذكر أنه رآه في شارع لاس بنتاناس. ويظن أنه كان يأتي للنوم هناك في مرحلة ما، في بداية حبه لترانسيتو أريثا، لكنه لم يعد إلى زيارتها بعد ولادته. لقد كانت وثيقة العماد لسنوات طويلة خلت هي وسيلتنا الوحيدة لتحديد الهوية، ووثيقة تعميد فلورينتينو أريثا، المثبتة في أبرشية سانتو توريبو، كانت تقول فقط إنه ابن طبيعي لابنة طبيعية عازبة أخرى تدعى ترانسيتو أريثا. ولم يكن يظهر في الوثيقة اسم الأب، الذي واظب رغم ذلك على تأمين حاجات ابنه الضرورية سراً حتى اليوم الأخير من حياته. وقد أقفل هذا الوضع الاجتماعي أبواب مدرسة الإكليروس في وجه فلورينتينو أريثا، ولكنه نجا في الوقت نفسه من الخدمة العسكرية في الحقبة الأكثر دموية من حروبنا الأهلية، لكونه ابناً وحيداً لعزباء.

كان يجلس كل يوم جمعة، بعد العودة من المدرسة، أمام مكاتب

شركة الكاريبي للملاحة النهرية، متصفحاً كتاباً يضم صور حيوانات يكاد يتفتت نتفاً لكثرة ما تصفّحه. كان الأب يدخل، من دون أن ينظر إليه، مرتدياً السترة الكتّانية التي كان على ترانسيتو أريثا أن تقيفها في ما بعد على مقاسه، وبوجه يشبه وجه سان خوان الإنجليكي الذي يوضع فوق المذابح. وعند خروجه، بعد عدّة ساعات، كان يعطيه نقوداً تغطي حاجاته لأسبوع، محاذراً ألا يراه أحد، حتى ولا حوذي عربته. ما كان يكلمه، ليس لأن الأب لم يحاول ذلك فقط، بل لأنه كان يرهبه أيضاً. وفي أحد الأيام، بعد أن انتظر وقتاً أطول ممّا اعتاد عليه، أعطاه الأب النقود قائلاً له:

- خذ ولا تعد هنا بعد اليوم.

كانت تلك هي آخر مرّة يراه فيها. لكنه سيعلم بعد حين أن العم ليون الثاني عشر، وكان أصغر من أبيه بعشر سنوات، سيواصل حمل النقود إلى ترانسيتو أريثا، كما سيتولى شؤونها بعد موت بيو الخامس إثر مغص لم يُعالَج جيداً، من دون أن يترك أثراً مدوّناً، ومن دون أن يُتاح له الوقت لاتخاذ أية تدابير لصالح ابنه الوحيد: ابن شارع.

كانت مأساة فلورينتينو أريثا أثناء عمله كاتباً لشركة الكاريبي للملاحة النهرية، تكمن في أنه لم يستطع تفادي غنائيته لأنه غير قادر على عدم التفكير بفيرمينا داثا، ولم يتعلم أن يكتب أبداً من دون التفكير بها. وفي ما بعد، حين نقلوه لأداء أعمال أخرى، كانت دواخله تفيض حباً لا يدري ما يفعل به، فراح يهديه إلى العاشقين الذين لا يتقنون الكتابة، بكتابة رسائل حب مجّانية لهم في زقاق الكتبة العموميين، حيث كان يذهب بعد انتهائه من العمل. كان ينزع سترته بحركاته الوقورة ويعلّقها على مسند الكرسي، ثم يضع الأكمام المستعارة كي لا يلوث قميصه، ويحل أزرار الصديري ليفكر بشكل أفضل، ويبقى أحياناً حتى ساعة متأخرة من الليل، باعثاً الأمل في البائسين برسائل حب تبعث على الجنون. وبين

حين وآخر كان يجد امرأة فقيرة تعاني مشكلة مع ابنها، أو محارباً قديماً يلح في طلب دفع تعويضاته، أو أحداً سُرق منه شيء ويريد الشكوى أمام الحكومة، ولكنه كان عاجزاً عن تلبية رغباتهم مهما بذل من جهد، لأنه لم يكن قادراً على إقناع أحد إلّا في رسائل الحب. لم يكن يسأل زبائنه الجدد أي سؤال، إذ كان يكتفي برؤية بياض عيونهم ليعرف حالتهم، فيملأ ورقة بعد ورقة بكلمات حب خارقة، وذلك بمعادلة مضمونة النتائج هي الكتابة مفكراً بفيرمينا داثا، ولا شيء سواها. ومع انتهاء الشهر الأول صار عليه أن يضع نظام حجز مسبق، حتى لا تجعله أشواق العاشقين يفيض متجاوزاً الحدود.

إن أجمل ذكرياته عن تلك الحقبة هي ذكرى صبية خجول، تكاد تكون طفلة، طلبت منه وهي ترتعش أن يكتب لها رداً على رسالة ملحّة تلقتها لتوّها، وعرف فلورينتينو أريثا أنه كان قد كتبها في مساء اليوم السابق. ردّ عليها بأسلوب مختلف، بما يتناسب مع انفعالات الصبية وسنها، وبخط يبدو كذلك وكأنه خطها، إذ كان يحسن اصطناع خطوط لكل مناسبة، حسب طبيعة كل شخص. كتبها متصوراً ما كانت سترد به عليه فلورينتينو أريثا لو أنها كانت تحبه كثيراً، مثلما تحب تلك المخلوقة المرتعدة عاشقها. وبعد يومين، طبعاً، كان عليه أن يكتب كذلك ردّ الحبيب بالخط والأسلوب ونوع الحب الذي خصه به في الرسالة الأولى، وهكذا وجد نفسه متورطاً في مراسلة محمومة مع نفسه. وقبل انقضاء شهر، جاءاه كل منهما على انفراد ليشكراه لما كان قد اقترحه في رسالة الشاب ووافق عليه بإخلاص في ردّ الفتاة: إنهما سيتزوجان.

وحين أنجبا ولدهما الأول فقط، وأثناء حديث عرضي، انتبها إلى أن رسائلهما قد كتبها الكاتب العمومي نفسه، فذهبا معاً لأوّل مرّة إلى الزقاق لتسميته عرّاباً لابنهما، وقد تحمس فلورينتينو أريثا لتجلي أحلامه العملي، فأفرغ وقتاً حين لم يكن لديه متسع من الوقت، ليؤلف كتاب

«سكرتير العاشقين» وهو أشمل وأكثر شاعرية من الكتب المماثلة التي كانت تُباع بعشرين سنتافو حتى ذلك الحين في الأزقة، والتي كان نصف أهل المدينة يحفظونها عن ظهر قلب. لقد تخيّل ورتّب الحالات التي قد يجد نفسه فيها، هو وفيرمينا داثا، وكتب لكل حالة عدّة نماذج تغطي جميع الاحتمالات التي بدت له ممكنة. وقد اجتمع لديه في نهاية المطاف حوالي ألف رسالة في ثلاثة أجزاء مجلّدة كتجليد معجم كوفاروبياس، إنما لم يغامر أي ناشر في المدينة بطباعتها، فانتهت إلى أحد أماكن المهملات في البيت، مع أوراق أخرى من الماضي، لأن ترانسيتو أريثا رفضت بإصرار استخراج خوابيها المطمورة وتبديد مدّخرات حياتها في حماقة نشر. وبعد عدّة سنوات، حين أصبح لدى فلورينتينو أريثا موارده الخاصة اللازمة لنشر الكتاب، تكلف مشقة لتقبل الحقيقة بأن رسائل الحب أصبحت موضة قديمة.

وبينما هو يخطو خطواته الأولى في شركة الكاريبي للملاحة النهرية، ويكتب رسائل حب مجانية في زقاق الكتبة العموميين، كان أصدقاء صبا فلورينتينو أريثا يوقنون بأنهم يخسرونه شيئاً فشيئاً وبلا عودة. وهذا ما حدث. فبعد عودته من الرحلة النهرية كان لا يزال يلتقي ببعضهم على أمل التخفيف من ذكرى فيرمينا داثا، فيلعب معهم البلياردو، ويذهب إلى حفلات رقصه الأخيرة، ويهتم بأن يكون محطّ إعجاب الفتيات، ويبادر إلى عمل كل ما يبدو له مناسباً ليعود كما كان. وفيما بعد، عندما اعتمده العم ليون الثاني عشر موظفاً، صار يلعب الدومينو في النادي التجاري مع زملائه في العمل، وبدأ هؤلاء يعترفون به كواحد منهم عندما لم يعد يحدّثهم إلا عن شركة الملاحة التي ما عاد يذكر اسمها كاملاً، بل يكتفي للإشارة إليها بالحروف الأولى: ش.ك.م. وغيّر حتى طريقته في الأكل. فبعدما كان لا مبالياً ومضطرباً على المائدة، أصبح منتظماً ومتقشفاً حتى آخر أيامه: فنجان قهوة كبير كفطور، وقطعة سمك

مسلوق مع الأرز الأبيض للغداء، وفنجان قهوة بالحليب مع قطعة جبن قبل النوم. وصار يشرب قهوة مرّة في كل وقت، وفي أي مكان وتحت أية ظروف، بكميات تصل إلى ثلاثين فنجاناً في اليوم: كانت قهوة أشبه بالبترول الخام يفضّل تحضيرها بنفسه، ويضعها دائماً في ترمس بمتناول يده. لقد أصبح شخصاً آخر، رغم قراره الثابت وجهده المضني لمتابعة حياته كما كان قبل عثرة الحب القاتلة.

الحقيقة أنه لن يعود أبداً كما كان. فاستعادة فيرمينا داثا كان هدف حياته الوحيد، وكان متأكداً من أنه سيصل إليه عاجلاً أم آجلاً، حتى أنه أقنع ترانسيتو أريثا بمتابعة إعداد البيت ليكون مناسباً لاستقبالها في أية لحظة تحدث فيها المعجزة. وعلى العكس من ردّة فعلها حيال نشر سكرتير العاشقين، مضت ترانسيتو أريثا بعيداً جداً في هذا الأمر: اشترت البيت نقداً، وبدأت عملية ترميم شاملة. أقاما صالة استقبال حيث كانت حجرة النوم، وأقاما في الطابق العلوي مخدعاً للزوجين، وحجرة أخرى للأبناء الذين سينجبونهما، كلاهما فسيح وحسَن الإضاءة. ومكان مشغل السيجار القديم، أقاما حديقة فسيحة فيها جميع أنواع الزهور، كرّس لها فلورينتينو أريثا شخصياً فترة بطالته الصباحية. والشيء الوحيد الذي بقي على حاله كامتنان للماضي، هو دكان أدوات الخياطة. أما القسم الخلفي من الدكان، حيث كان ينام فلورينتينو أريثا، فتركاه كما كان دوماً، بأرجوحة النوم المعلقة ومنضدة الكتابة الصغيرة المغطاة بكتب متراكمة بفوضى، بينما انتقل هو إلى الحجرة المقررة كمخدع زوجي في الطابق العلوي. وكانت هذه الغرفة هي أوسع حجرات البيت وأكثرها برودة، لها شرفة داخلية من الممتع البقاء فيها ليلاً لاستنشاق نسيم البحر ورائحة الورود، لكنها كانت كذلك الحجرة التي تستجيب أكثر من سواها لرهبنة فلورينتينو أريثا الصارمة. كانت جدرانها ملساء وخاوية، مطلية بالكلس، وليس فيها من الأثاث سوى سرير سجن ضيّق، وكومودينو عليه شمعة

مثبتة فوق فتحة قنينة، وخزانة ملابس قديمة، وإبريق لغسل الأيدي مع صحنه، وطشت لسكب ماء الغسل.

استمر العمل في البيت حوالي ثلاث سنوات، وقد توافق مع مرحلة استقرار مؤقت مرت بها المدينة، نتيجة ازدهار الملاحة النهرية والتجارة العابرة، وهي العوامل نفسها التي كانت سبب عظمتها خلال الحكم الاستعماري وحوّلتها طوال أكثر من قرنين إلى بوابة أميركا. ولكن هذه المرحلة كانت كذلك في الفترة التي بدا فيها على ترانسيتو أريثا أوّل أعراض مرضها الذي لا شفاء منه. أصبحت زبوناتها الدائمات يأتينها إلى دكان أدوات الخياطة وهن أكثر هرماً في كل مرّة، وأكثر شحوباً وأكثر انحداراً، ولم تكن تتعرّف عليهن بعد معاملة معهن استمرت نصف حياة، أو أنها كانت تخلط شؤون بعضهن بشؤون أخريات. وكان هذا شيئاً خطيراً في تجارة كتجارتها، لا مكان فيها لأوراق موقعة ووثائق كاحتياط لحماية الشرف، شرفها وشرف الآخرين، وكانت كلمة الشرف تُعطى وتُقبل كضمانة كافية. بدت أوّل الأمر كما لو أنها آخذة بالصمم، ولكن سرعان ما تبين أن ذاكرتها هي التي تتسرب من الثقوب، وهكذا صفّت تجارة الرهونات، وأصلحت البيت بكنز الخوابي المخبأة وأثّثته، وبقي لديها بعد ذلك كثير من المجوهرات القديمة المشهورة في المدينة، والتي لم تتوفر لأصحابها الموارد اللازمة لاستردادها.

عندئذ أصبح على فلورينتينو أريثا أن يتحمل في الوقت ذاته مسؤولية التزامات عديدة، لكن حماسه لم يضعف لزيادة أعماله كصياد خفي. فبعد تجربته غير المنتظمة مع أرملة ناثاريت التي شقت له طريق غراميات الأزقة، تابع اصطياد عصفورات الليل اليتيمات لعدة سنوات، بحثاً عن مهدئ من آلام فيرمينا داثا. لكنه لم يعد قادراً، في ما بعد، على معرفة إن كانت عادته في الزنى من دون آمال هي ضرورة للضمير أم مجرّد إدمان للجسد. صار تردده على فندق العابرين أقل، ليس لأن اهتماماته كانت

في جهة أخرى وحسب، بل لأنه لم يكن يرغب في أن يروه في مسيرة مختلفة جداً عن الصورة المألوفة التي عرفوه بها. ومع ذلك، فقد لجأ في ثلاث مناسبات مستعجلة إلى الوسيلة السهلة لفترة لم يعِشها: كان يجعل صديقاته المتخوفات من انكشاف أمرهن يتنكّرن بزي الرجال، ويدخل معهن إلى الفندق بخيلاء سكارى متأخّرين في السهر. لكنه لم يعدم من يلاحظ أنه في مناسبتين على الأقل لم يكن يذهب مع صديقه المزيّف إلى الحانة وإنما إلى الحجرة، فتعرّضت بذلك سمعته، وكانت قد تهشّمت، إلى الضربة القاضية. فتوقف أخيراً عن الذهاب إلى هناك. وفي المرّات القليلة التي ذهب فيها، لم يفعل ذلك للّحاق بما فاته، وإنما على العكس تماماً: كان يبحث عن ملجأ ليستعيد فيه أنفاسه بعد الإفراط.

وكان ذلك ضرورياً فهو يغادر المكتب في الخامسة مساء، ويمضي عندئذ متنقلاً كباشق جوّال. كان يكتفي في البدء بما يمدّه به الليل. فيصطاد خادمات في الحدائق، وزنجيات في السوق، ومتأنقات على الشواطئ، وأميركيات شماليات في سفن نيوأورليانز. فيأخذهنّ إلى ملطم الأمواج حيث نصف أهل المدينة يفعلون الشيء نفسه منذ غروب الشمس، يأخذهن حيث يستطيع، وأحياناً إلى حيث لا يستطيع، إذ لم تكن قليلة المرّات التي اضطر فيها إلى حشر نفسه بسرعة في مدخل مظلم لأحد البيوت وعمل ما يستطيعه كيفما اتفق وراء البوابة.

كان برج الفنار ملجأ محظوظاً، يذكّره بحنين بعدما حُلت جميع أموره وهو على أعتاب الشيخوخة، لأنه كان مكاناً جيداً للسعادة، وبصورة خصاصة في الليل، حيث كان يرى أن شيئاً من غرامياته يصل إلى المبحرين في السفن مع كل دورة من وميض الفنار. وقد تابع الذهاب إلى هناك، أكثر من ذهابه إلى أي مكان آخر، بينما صديقه عامل الفنار يستقبله سعيداً، بوجه أبله يشكل أفضل دليل على الكتمان بالنسبة للعصفورات المرتعدات. كان هناك بيت في أسفل الفنار، حيث تزمجر

الأمواج وهي تتحطم على الصخور، وحيث البحر أكثر زخماً لأن فيه شيئاً من الإخفاق. لكن فلورينتينو أريثا كان يفضل برج النور بعد ساعات الليل الأولى، لأنه يرى من هناك المدينة كلها وأضواء زوارق الصيادين في البحر، وكذلك في المستنقعات النائية.

وإلى هذه الحقبة تعود نظرياته الأقرب إلى التبسيط حول العلاقة بين التكوين الجسدي للنساء وكفاءتهن للحب. لم يكن يثق بالصنف الحسّي من النساء. أولئك اللواتي يبدَون قادرات على التهام تمساح نيء. ويكن عادة الأكثر سلبية في الفراش، نموذجه المفضَّل كان النقيض: تلك الضفادع الضامرة التي لا يتكلف أحد عناء توجيه نظرة ثانية إليهن في الشارع، ممن يبدون كأنهن لا شيء بعد نزع ملابسهنّ، ويثرن الشفقة بطقطقة عظامهنّ عند الصدمة الأولى، ولكنهن رغم ذلك قادرات على جعل أعتى المتغنين بفحولتهم لقمة سائغة لصندوق القمامة. وكان قد سجّل رؤوس أقلام عن ملاحظاته المبكرة هذه بنيّة تأليف ملحق عملي لكتاب سكرتير العاشقين، لكن المشروع لقي مصير سابقه بعدما قلبته أوسينثا سانتاندير ظهراً وباطناً بحنكتها التي كحنكة كلب عجوز... أوقفته على رأسه، ورفعته وأنزلته، وأعادت ولادته كمخلوق جديد، وجعلته يمزق مهارته النظرية إرباً إرباً، وعلمته الشيء الوحيد الذي عليه أن يتعلمه عن الحب، ألا وهو أن أحداً لا يستطيع تعليم الآخرين الحياة.

كانت أوسيثيا سانتاندير قد تزوجت زواجاً عادياً دام عشرين سنة، وبقي لها من ذلك الزواج ثلاثة أبناء تزوّجوا بدورهم وأنجبوا أبناء، بحيث إنها كانت تفاخر بأنها الجدة صاحبة أفضل فراش في المدينة. ولم يتضح أبداً إن كانت هي التي هجرت زوجها، أم أنه هو الذي هجرها، أم أن كلاً منهما قد هجر الآخر في الوقت نفسه، حين ذهب هو ليعيش مع عشيقته الدائمة، وشعرت هي بأنها تحررت لتستقبل في وضح النهار، ومن الباب الرئيسي، روسيندو دي لا روسا، ربان السفينة النهرية الذي

كانت قد استقبلته ليلاً مرّات كثيرة من الباب الخلفي، وكان هو نفسه، ومن دون أن يفكّر مرتين، من أخذ فلورينتينو أريثا إليها.

دعاه للغداء عندها، وحمل معه دمجانة خمر بيتي قوي، وأفخر نوعية من المواد الأولية لإعداد وجبة سانكوتشو ملحمية، لا يمكن تحضيرها إلا بدجاج بيتي، ولحم طري العظام، وخنزير معلوف على المزبلة، وبقول وخضروات قرى النهر. ومع ذلك، لم يُبدِ فلورينتينو أريثا منذ البدء اهتماماً بلذائذ المطبخ، ولا بكرم سيدة البيت، كاهتمامه بجمال البيت. فقد أعجبه البيت بحد ذاته، بإنارته وبرودته، بنوافذه الأربع المطلة على البحر، وإطلالته من الخلف على مشهد كامل للمدينة القديمة. أعجبته كمية ورونق الأشياء التي كانت تمنح الصالة مظهراً غريباً وصارماً في الوقت نفسه، والتي كانت تضم جميع أنواع المهارات الحرفية التي يجلبها القبطان روسيندو دي لا روسا في كل رحلة من رحلاته، حتى لم يبق مكان لمزيد. وعلى الشرفة المطلة على البحر، فوق منصّة خاصة، كانت تقف ببغاء مالاسية يغطيها ريش ناصع، بياضه لا يُصدّق، وتُطرق بسَكينة تأمّلية تبعث كثيراً على التأمل: إنها أجمل حيوان رآه فلورينتينو أريثا على الإطلاق.

تحمّس القبطان روسيندو دي لا روسا لحماسة الضيف، فروى له بالتفصيل قصة كل شيء من الأشياء. وبينما هو يفعل، كان يشرب الخمر بجرعات قصيرة، إنما من دون فاصل بين جرعة وأخرى. كان يبدو وكأنه مبني من الأسمِنت المسلح: ضخم، كثيف الشعر في كل أنحاء جسده باستثناء رأسه، له شارب كفرشاة نقّاش، وصوت رحوي لا يمكن إلا أن يكون كذلك، وصاحب نخوة ممتعة، ولكن ليس هناك من جسد قادر على احتمال طريقته في الشرب. فقبل الجلوس إلى المائدة، كان قد أنهى نصف الدمجانة، وهوى على وجهه فوق الكؤوس والزجاجات بجلبة انهدام بطيئة. فكان على أوسينثيا سانتانديري أن تطلب مساعدة

فلورينتينو أريثا لسحب الجسد الخامد كجسد حوت مرتطم بالبر ونقله إلى السرير، ونزع ملابسه عنه وهو نائم. بعد ذلك، وفي ومضة إلهام شكره كلاهما لتوافق برجَيْهما، تعريا معاً في الحجرة المجاورة من دون اتفاق في ما بينهما، بل ومن دون إيحاء بذلك، ومن دون إعداد له. وتابعا التعرّي بعدئذ كلما سنحت لهما الفرصة خلال أكثر من سبع سنوات، أثناء غياب القبطان في رحلاته. لم تكن ثمة مخاطرة بأن يفاجئهما، إذ كان يتمتع بعادة بحّار طيب، فهو يطلق صافرة سفينته مخبراً بقدومه، حتى ولو وصل فجراً، كان يطلق ثلاث صافرات حادّة وطويلة لزوجته وأبنائه التسعة، ثم صافرتين متقطعتين وكئيبتين لعشيقته.

كانت أوسينثيا سانتاندير في حوالي خمسين من العمر، وكان ذلك بادياً عليها، لكنها تتمتع بغريزة خاصة جداً في الحب، ليس بوسع النظريات العملية أو العلمية أن تشوّشها. وكان فلورينتينو أريثا يعرف من دليل رحلات السفن متى يستطيع زيارتها، فكان يذهب إليها دوماً من دون إعلان مسبق ساعة يشاء، سواء في النهار أو الليل، ولم يحدث مرّة واحدة أن لم تكن في انتظاره. كانت تفتح له الباب كما ربّتها أمها حتى السابعة من عمرها: عارية تماماً، لكنها تضع على رأسها عصابة نايلون. لم تكن تسمح له بالتقدم خطوة واحدة قبل أن تنزع عنه ملابسه، لأنها تعتقد أن وجود رجل بملابسه في البيت هو نذير شؤم. وكان هذا سبباً لنزاع دائم مع القبطان روسيندو دي لا روسا، لأنه يؤمن بخرافة أن التدخين عارياً هو أمر وخيم العواقب، كما أنه يفضل أحياناً تأجيل الحب على أن يطفئ سيجاره الكوبي الأصيل. أما فلورينتينو أريثا، فكان محبّاً جداً لمفاتن التعري، فكانت تخلع عنه ملابسه بلذة فورة إغلاقها الباب، من دون أن تتيح له الفرصة لتحيتها، ولا لنزع قبعته ونظارته، مقبّلة إياه ومتلقية القبل المبعثرة، وحالّة أزرار الصديري والقميص، إلى أن تتركه كسمكة حيّة مشقوقة البطن. ثم تُجلسه في الصالة وتنزع حذائه، وتشد

بنطاله من عند الفخذ لتنزعه دفعة واحدة مع السروال الداخلي الطويل وتنزله إلى الكاحلين، وأخيراً تفك أربطة واقية الساق المطاطية وتنزع جورَبَيه، عندئذ يتوقف فلورينتينو أريثا عن تقبيلها وعن السماح لها بتقبيله، ليفعل الشيء الوحيد الذي يقوم به في تلك الطقوس الدقيقة: فك الساعة ذات السلسلة من عروة الصديري ونزع النظارة، ووضعهما معاً في حذائه ليتأكد من أنه لن ينساهما. لقد ثابر دوماً على اتخاذ هذا الاحتياط، ودائماً من دون نسيان، كلما تعرّى في بيت غريب.

ما إن ينتهي من عمل ذلك حتى تهاجمه من دون أن تتيح له الوقت لأي شيء، وتلقي به ولو على الكنبة التي انتهت من تعريته عليها. وفي أحيان قليلة على السرير. كانت تحشره تحتها، وتسيطر عليه كله لها كلها، محبوسة في ذاتها، مقدّرة الأبعاد بعينيها المغمضتين في ظلمتها الداخلية المطبقة، متقدمة من هنا، متراجعة، ضابطة اتجاهها اللامرئي، محاولة عبر سبيل آخر أكثر زخماً، طريقة أخرى للمشي من دون غرق في مستنقع اللزوجة الذي يطفو من بطنها، سائلة ومجيبة نفسها بطنين ذبابة في رطانتها الخلقية: أين هو في الظلام هذا الشيء الذي تعرفه هي وحدها وتريده لها وحدها فقط، إلى أن تخرّ من دون انتظار أحد، وتهوي وحدها في هوّتها بانفجار نصر شامل يجعل العالم كله يرتعش. ويبقى فلورينتينو أريثا منهكاً، ناقصاً، طافياً في بركة عرقهما، يسيطر عليه انطباع بأنه ليس سوى أداة للّذة. كان يقول لها «إنك تعاملينني كما لو كنت واحداً زائداً». فتطلق ضحكة أنثى حرة وتقول: «بل كأنك واحد أقل». ويبقى على قناعة بأنها تستولي على كل شيء بشراهة وبخل، فتقلب الكبرياء مزاجه ويخرج من البيت مقرراً عدم الرجوع. لكنه ما يلبث أن يستيقظ ناسياً، مع صحوة، الوحدة الرهيبة وسط الليل، وتتكشف له ذكرى حب أوسينثيا سانتاندير الشارد على حقيقته: مصيدة سعادة يملّها ويحنّ إليها في الوقت ذاته، إنما من المستحيل عليه الفرار منها.

وذات يوم أحد، بعد سنتين من تعارفهما، كان أوّل ما فعلته عند وصوله، بدلاً من تعريته، أن نزعت نظارتَيْه لتقبّله بصورة أفضل، وبهذه الطريقة علم فلورينتينو أريثا أنها قد بدأت تحبه. ورغم شعوره بأنه بحالٍ أفضل منذ دخل أول مرة ذلك البيت الذي صار يحبه كبيته، فإنه لم يبق فيه من قبل أكثر من ساعتين متواصلتين، ولم يبق للنوم فيه أبداً، بينما بقي مرّة واحدة لتناول الطعام، لأنها كانت قد وجهت إليه دعوة رسمية. والواقع أنه لم يكن يذهب هناك إلا لِما كان يذهب من أجله، حاملاً معه دوماً هديته الوحيدة التي هي وردة منفردة، ثم يختفي إلى أن تحين الفرصة التالية المعلومة لديه. أما في يوم الأحد الذي نزعت فيه نظارتيه، وبسبب هذه الحركة من جهة، ولأنهما استسلما للنوم بعد حب مريح من جهة أخرى، أمضيا المساء كله عاريين في سرير القبطان الفسيح. وبعد الاستيقاظ من القيلولة، كان فلورينتينو أريثا لا يزال يحتفظ بذكرى صرخات الببغاء التي كان صراخها النحاسي يتناقض مع جمال الحيوان. لكن الصمت كان صافياً في قيظ الساعة الرابعة، ومن خلال نافذة غرفة النوم كان يظهر مشهد المدينة القديمة مع شمس الأصيل خلفها، وقبابها المذهّبة، وبحرها المتقد حتى جامايكا. مدّت أوسينثيا سانتانذير يدها المغامرة باحثة باللمس عن الحيوان الراقد، لكن فلورينتينو أريثا أزاحها قائلاً: «الآن لا؛ أحسّ شيئاً غريباً، وكأن هناك مَن يرانا». أعادت تهييج الببغاء بضحكتها اللعوب. وقالت: «هذه حجة لا تنطلي حتى على امرأة يونس». ولم تكن لتنطلي عليها كذلك، لكنها قبلت بها كحجة جيّدة، وأحبا بعضهما بصمت لوقت طويل من دون أن يعيدا ممارسة الحب. وفي الساعة الخامسة، حين كانت الشمس لا تزال مرتفعة، قفزت هي من السرير، عارية تماماً وبعصابة النايلون على رأسها، ومضت تبحث عن شيء يشربانه في المطبخ. لكنها لم تكن قد خطت خطوة واحدة خارج حجرة النوم عندما أطلقت صرخة مرعبة.

ما كانت قادرة على التصديق. كانت المصابيح المعلقة هي الشيء الوحيد المتبقي في البيت. أما ما عداها، الأثاث المحفور، والسجاد الهندي، والتماثيل والتحف وترهات الزجاج والمعادن الثمينة التي لا حصر لها، وكل ما كان يجعل من بيتها أحد ألطف البيوت وأكثرها زينة في المدينة، كل شيء، حتى البيغاء المقدسة، كله قد تبخر. لقد حملوه من الشرفة المطلة على البحر من دون أن يزعجوا الحب. لم يبق سوى الصالون المقفر بنوافذه الأربع المفتوحة، وكتابة بفرشاة نقاش على الجدار المقابل تقول: هذا ما يحدث لمن ينشغلون بالشدّ. ولم يستطع القبطان روسيندو دي لا روسا أن يفهم أبداً سبب امتناع أوسينثيا سانتاندير التبليغ عن السرقة، أو عدم محاولتها الاتصال بتجّار المسروقات، وعدم سماحها بالعودة للحديث عن نكبتها.

تابع فلورينتينو أريثا زيارتها في البيت المنهوب، الذي اقتصر أثاثه على ثلاث كراسٍ جلدية بلا مسند نسيها اللصوص في المطبخ، وحجرة النوم حيث كانا. لكن زياراته أصبحت أقل من السابق، ليس بسبب كآبة البيت، كما ظنت هي وقالت له ذلك، وإنما بسبب حافلة البغال الجديدة التي أُنشئت في مطلع القرن الجديد، وكانت بالنسبة له عشاً مفعَماً وأصيلاً للعصفورات الطليقات. كان يركب الحافلة أربع مرّات في اليوم، مرتين للذهاب إلى المكتب ومرتين للعودة إلى البيت. وفيما هو يقرأ حقاً في بعض الأحيان، أو يتظاهر بالقراءة في معظم الأحيان، يتمكن من إقامة أوّل الاتصالات من أجل موعد لاحق. وعندما وضع العم ليون الثاني عشر تحت تصرفه، في ما بعد، عربة تجرّها بغلتان بنيتان، ذهبيتا السروج، كبغلتي الرئيس رافائيل نونيث، أصبح يحنّ إلى أيام الحافلة، كأكثر الأيام ازدهاراً في سيرته كصقر متصيّد. ولقد كان محقاً: فما من عدو للغراميات السرية أسوأ من عربة خاصة تنتظر أمام الباب. لدرجة أنه كان يترك العربة مخبأة في بيته، ويمضي مشياً على الأقدام في جولاته

المتغطرسة، حتى لا يترك ولو مجرّد آثار العجلات على التراب. ولهذا، كثيراً ما كان يذكر بحنين الحافلة القديمة ذات البغال الضامرة، المتوفة الوبر، حيث كان يكفيه إلقاء نظرة سريعة بداخلها ليعرف أين هو الحب. ومع ذلك، فإنه لم يستطع، وسط كل هذه الذكريات المثيرة، أن ينسى ذكرى عصفورة مهجورة لم يعرف اسمها، ولم يكد يمضي معها سوى نصف ليلة مجنونة، كانت كافية لتملأ فوضى الكرنفال البريئة بالمرارة فيما تبقى من حياته.

كانت قد لفتت انتباهه في الحافلة لأنها كانت تمضي بلا مبالاة وسط صخب الاحتفال العام. لا بدّ أنها دون العشرين من العمر، ولم يكن يبدو عليها الحماسة للكرنفال، اللهم إلا إذا كانت متنكرة بهيئة اللامبالاة: كان شعرها الأشقر طويلاً وناعماً، مفلتاً على سجيته فوق كتفيها، وكانت تلبس عباءة من قماش عادي بلا أية زينة. ولم تكن تعبأ أبداً بصخب الموسيقى في الشوارع، ولا بحفنات الرز التي تُنثر، ولا بوابل عطر أنيلين الذي يرشّونه على الركاب لدى مرور الحافلة التي كانت بغالها بيضاء، مطلية بالنشاء، وعلى رؤوسها قبعات من الزهور هي زينتها خلال أيام الجنون الثلاثة تلك. انتهز فلورينتينو أريثا حالة الفوضى السائدة ودعاها لتناول المثلجات، لأنه لم يكن يظن أنه يمكن الوصول معها إلى ما هو أبعد من ذلك. فنظرت إليه من دون أن تُباغَت وقالت: «أوافق بكل سرور، لكنني أحذرك من أنني مجنونة». ضحك لهذا الخاطر، ورافقها لمشاهدة استعراض العربات المزينة من شرفة محل المثلجات. بعد ذلك وضع طرطوراً مستأجَراً، واندسّا معاً وسط حلقة الرقص في ساحة الجمارك، واستمتعا معاً وكأنهما عروسين ولدا لتوّهما، ذلك أن لامبالاتها وصلت إلى أقصاها النقيض مع صخب الليل. كانت ترقص كمحترفة، وكانت واسعة المخيلة وجريئة في الاحتفال، وذات سحر ماحق. وكانت تصيح وهي تكاد تموت من الضحك في حمّى الكرنفال وتقول له:

- أنت لا تعرف الورطة التي أوقعت فيها نفسك معي. أنا مجنونة من مشفى المجانين.

لقد كانت تلك الليلة بالنسبة لفلورينتينو أريثا بمثابة عودة إلى مبالغات المراهقة الساذجة، حين لم يكن قد ابتُلي بنكبة الحب بعد. لكنه كان يُدرك بحسّه المعذَّب، أكثر من إدراكه بفعل التجربة، أن سعادة بهذه السهولة لا يمكن لها أن تدوم طويلاً. وهكذا قبل أن يبدأ الليل بالانقضاء سريعاً، مثلما يحدث عادة بعد توزيع الجوائز على أفضل المتنكرين، اقترح على الصبيَّة أن يذهبا لمشاهدة الفجر من الفنار. وافقت شاكرة، على أن يكون ذلك بعد الانتهاء من توزيع الجوائز.

لقد بقي لفلورينتينو أريثا يقين مؤكد بأن ذلك التأخير قد أنقذ حياته. وبالفعل، كانت الفتاة قد أومأت له كي يتوجّها إلى الفنار، حين هجم حارسان وممرضة من مشفى الراعية الإلهية للأمراض العقلية، وألقوا بأنفسهم عليها. كانوا يبحثون عنها منذ هروبها، في الساعة الثالثة بعد الظهر، ليس هم وحدهم، وإنما القوة العامة بأسرها. وكانت قد قطعت رأس أحد الحراس، وجرحت اثنين آخرين بجراح بليغة بمنجل انتزعته من الجنائني، لأنها أرادت الخروج للرقص في الكرنفال. ولكن لم يخطر ببال أحد أنها ترقص في الشارع، وإنما ظنوا أنها مختبئة في أحد البيوت الكثيرة التي فتشوا كل شيء فيها بما في ذلك الصهاريج.

لم يكن من السهل حملها. فقد دافعت عن نفسها بمقص كانت تخبئه في صدريتها، وقد احتاجوا لستة رجال لإلباسها قميص التثبيت، فيما الحشد المجتمع في ساحة الجمارك يصفق ويصفر بمرح، معتقداً أن عملية الاعتقال الدامية هي واحدة من مشاهد الكرنفال التهريجية الكثيرة. تأثر فلورينتينو أريثا جداً، وأخذ يتردّد منذ أربعاء الرماد على شارع الراعية الإلهية حاملاً إليها علبة شوكولاته إنكليزية. وكان يراقب

السجينات اللواتي يوجهن إليه كافة أنواع الشتائم والمغازلات من خلال النوافذ، فيثيرهن بعلبة الشوكولاته، علّ الحظ يحالفه وتطل هي أيضاً من بين القضبان المعدنية. لكنه لم يرها أبداً. وبعد عدّة شهور، بينما هو ينزل من حافلة البغال، طلبت طفلة كانت تسير مع أبيها قطعة شوكولاته من العلبة التي يحملها في يده. أنّبها أبوها وطلب منها أن تعتذر لفلورينتينو أريثا. لكن هذا أهدى العلبة كلها للطفلة مفكراً بأن تلك اللفتة قد تنجيه من المرارة، وهدّأ من روع الأب بأن ربّت على كتفه قائلاً:

- لقد كانت لحبٍ ذهبت به اللعنة.

وكتعويض من القدر، تعرّف فلورينتينو أريثا في حافلة البغال أيضاً على ليونا كاسياني التي كانت امرأة حياته الحقيقية، رغم أنهما، هو وهي، لم يعلما ذلك أبداً، ولم يمارسا الحب مطلقاً. كان قد أحسّ بها قبل أن يراها، أثناء عودته إلى البيت في حافلة الساعة الخامسة: لقد لمسته نظرة مادية كأنها لمسة أصبع. رفع بصره ورآها في الطرف المقابل، محددة تماماً بين الركاب الآخرين. ولم تُزح نظرها عنه، بل على العكس: بقيت تنظر إليه بوقاحة لم تمكنه من الظن بشيء آخر سوى ما ظنه: زنجية، شابة وجميلة، لكنها عاهرة من دون شك. أزاحها من حياته، لأنه ما كان يتصوّر شيئاً أشد مهانة من الدفع مقابل الحب: وهذا ما لم يفعله قطّ.

نزل فلورينتينو أريثا في ساحة العربات، وهي المحطة الأخيرة للحافلة، وانسلّ بأقصى سرعة عبر متاهة المتاجر لأن أمه تنتظره في الساعة السادسة، وعندما خرج من الجانب الآخر للحشد سمع وقع كعب نسائي مرح على بلاط الرصيف، فعاد ينظر ليتأكد ممّا كان يعرفه: إنها هي. كانت ترتدي ملابس كملابس العبيد التي في الصور، مع تنورة ذات كشاكش واسعة ترفعها بحركة راقصة لتمر فوق برك الماء المتجمعة في الشوارع، وفتحة عنق تكشف عن كتفيها، وعقد ملوّن يلتف حول

عنقها عدّة لفّات، وعمامة بيضاء. إنه يعرف هذا النوع من النساء في فندق العابرين. وكثيراً ما يحدث لإحداهن أن تبقى بلا فطور حتى السادسة مساء، ولا يجدن حينئذ وسيلة للحصول على الطعام إلا باستخدام الجنس كخنجر قاطع الطريق، فيضعنه على عنق أوّل من يلتقينه في الشارع: عضوك أو حياتك. وبحثاً عن دليل نهائي، بدّل فلورينتينو أريثا اتجاهه، ودخل في زقاق الكانديلييخو المقفر، فلحقت به مقتربة منه أكثر فأكثر. عندئذ توقف، والتفت إليها، وسدّ عليها الطريق فوق الرصيف مستنداً إلى المظلة بيديه الاثنتين. ووقفت هي مقابله. قال لها:

– إنك مخطئة يا جميلتي. فأنا لست كذلك.

– بل أنت كذلك بالطبع. وهذا بادٍ في وجهك.

وتذكر فلورينتينو أريثا عبارة كان قد سمعها وهو طفل صغير من طبيب العائلة، عرّابه، معلقاً على إمساكه المزمن: «العالم مقسوم إلى من يتغوّطون جيداً ومَن يتغوّطون بصورة سيئة». وعلى هذا المبدأ أقام الطبيب نظرية متكاملة حول الخصائص الإنسانية التي يعتبرها أكثر دقة من التنجيم. ومع تجارب السنين، طرح فلورينتينو أريثا النظرية بطريقة أخرى: «العالم مقسوم بين الذين يضاجعون والذين لا يضاجعون». وكان يرتاب بهؤلاء الأخيرين، لأنهم يعتبرون خروجهم عن السكة أمراً فريداً جداً، ويتبجّحون بالحب وكأنهم هم من اخترعوه لتوهم. أما الذين يمارسونه بكثرة، فانهم يعيشون له فقط. ويشعرون بأنهم على أحسن حال، حتى أنهم يبدون كأجداث مغلقة، فهم يعلمون أن حياتهم تعتمد على التكتم. لا يتكلمون أبداً عن مآثرهم ولا يثقون بأحد، ويتظاهرون بالسهو حتى يوصمون بالعجز والضعف الجنسي، وبأنهم مخنّثون رعاديد، كما هو حال فلورينتينو أريثا. لكنهم يساهمون في تعميم هذا الخطأ، لأنه يؤمّن لهم الحماية. إنهم مَحْفَل مغلق، يتعارف أعضاؤه على

بعضهم في العالم بأسره، من دون الحاجة إلى لغة مشتركة. ومن هنا لم يفاجئ ردّ الفتاة فلورينتينو أريثا: إنها واحدة من جماعته، وبالتالي فهي تعرف أنه يعرف أنها تعرف.

كان هذا هو خطأ حياته الذي سيتذكره بوعيه في كل ساعة من كل يوم، وحتى آخر يوم. ما كانت تريد طلبه منه ليس الحب، وليس الحب المدفوع الأجر كذلك بالطبع، وإنما كانت تريد عملاً، أي عمل كان، وكيفما كان وبأي أجر كان، في شركة الكاريبي للملاحة النهرية. أحسّ فلورينتينو أريثا بخجل عارم لتصرفه معها، دفعه لمرافقتها إلى مدير التوظيف الذي منحها عملاً من الدرجة الدنيا في القسم العام، تولته بكل جدّية وتواضع وانكباب خلال ثلاث سنوات.

كانت مكاتب ش.ك.م.ن. تقوم منذ تأسيسها مقابل الميناء النهري الذي لا يشبه في شيء ميناء عابرات المحيطات في الجانب الآخر من الخليج، ولا مرسى السوق عند شاطئ لاس اينماس. وكانت تلك المكاتب عبارة عن مبنى، خشبي سقفه من التوتيات المضلع، وله شرفة طويلة متصلة تستند إلى دعائم خشبية من الجهة الأمامية، وعدّة نوافذ ذات شِباك معدنية من الجهات الأربع، تبدو منها السفن في الميناء وكأنها لوحات معلقة على الجدار. عندما بناه الألمان الأوائل، طلوا توتياء السقف باللون الأحمر والجدران الخشبية باللون الأبيض البرّاق، بحيث كان في المبنى ذاته شيء من السفن النهرية. ثم دهنوه بكامله فيما بعد باللون الأزرق، وفي الزمن الذي دخل فيه فلورينتينو أريثا للعمل في الشركة كان المبنى قرميدياً معفّراً بلا لون محدّد، وكانت توجد على السقف الصدئ رقعٌ من صفائح توتياء جديدة فوق الصفائح الأصلية. ووراء المبنى، في فناء مرصوف ببلاط متآكل، ومسيّج بشبكة أسلاك كشِباك أقنان الدجاج، كانت توجد حانتان كبيرتان حديثتا البناء.

وفي نهاية الفناء هنالك أنبوب تصريف مغلق، قذر ومنتن، حيث تتعفن فضلات نصف قرن من الملاحة النهرية: حطام سفن تاريخية، بدءاً من السفن البدائية ذات المدخنة الوحيدة، التي دشنها سيمون بوليفار، وحتى بعض السفن الحديثة المزودة بمراوح كهربائية في القمرات. وكان معظم تلك السفن مفككاً، لاستخدام أجزاء منها في سفن أخرى. ولكن عدداً لا بأس به منها كان في حالة تبدو معها أنها لا تحتاج إلا لطلائها بوجه من الدهان وإطلاقها للإبحار، من دون إخافة العظائيات أو تقطيع الأيائك ذات الأزهار الكبيرة الصفراء التي تجعلها أكثر تشويقاً.

في الطابق الأعلى من البناء كان يقوم القسم الإداري، وذلك في مكاتب صغيرة لكنها مريحة وحسنة التجهيز، كقمرات السفن، ذلك أنها لم تُصَمَّم على يد مهندسين مدنيين وإنما مهندسين بحريين. وفي نهاية الممر، كان العم ليون الثاني عشر، كأي موظف آخر، يُصرّف الأعمال في مكتب كالمكاتب الأخرى كلها، مع فارق وحيد هو أنه كان يجد فوق منضدته صباح كل يوم مزهرية زجاجية فيها نوع من الزهور ذات الرائحة الزكية. وفي الطابق السفلي كانت شعبة المسافرين، مع صالة انتظار ذات مقاعد خشنة ومنضدة لإصدار بطاقات السفر وتسيير الأمتعة. وأخيراً كان هناك القسم العام، ومجرّد تسميته توحي بغموض اختصاصه، حيث تنتهي المشاكل التي تبقى من دون حلّ في بقية أقسام الشركة، لتموت فيه أسوأ ميتة. هناك كانت ليونا كاسياني، منسية وراء منضدة مدرسية صغيرة، بين رزم من الأوراق التي لا حلّ لها، يوم ذهب العم ليون الثاني عشر بنفسه ليرى أية شياطين ستخطر له ليجعل القسم العام نافعاً في شيء. وبعد ثلاث ساعات من الأسئلة، والاقتراحات النظرية والاستقصاءات المدققة مع جميع الموظفين في اجتماع موسّع، رجع إلى مكتبه معذباً، ليس بيقين أنه لم يجد أي حلّ لكل هذه المشاكل، بل على العكس تماماً: وجد أن ثمة مشاكل جديدة ومتنوعة لا حلّ لها.

وفي اليوم التالي، حين دخل فلورينتينو أريثا إلى مكتبه، وجد مذكرة من ليونا كاسياني، مع رجاء بأن يدرس المذكرة وأن يعرضها على عمّه في ما بعد، إن بدت له مناسبة. كانت الوحيدة التي لم تنطق كلمة واحدة خلال جلسة التفتيش في مساء اليوم السابق. فقد حافظت بوعي على مكانتها كموظفة بالشفقة، ونوهت في المذكرة بأنها لم تفعل ذلك تهاوناً وإهمالاً وإنما احتراماً لمسؤولي القسم. وقد بدا حلّها على جانب مثير من البساطة. كان العم ليون الثاني عشر قد اقترح إعادة تنظيم جذرية، لكن ليونا كاسياني كانت تفكر في اتجاه معاكس، انطلاقاً من البديهة البسيطة بأن القسم العام لا وجود له عملياً: إنه مزبلة المشاكل المعلقة وعديمة الجدوى التي ترفعها الأقسام الأخرى عن كواهلها. وبالتالي فإن الحل في إلغاء القسم العام، وإعادة المشاكل ليتم حلها في أقسامها الأصلية.

لم تكن لدى العم ليون الثاني عشر أدنى فكرة عمن هي ليونا كاسياني، ولم يذكر أنه رأى أحداً يمكن أن يكونها في اجتماع مساء اليوم السابق، لكنه عندما قرأ المذكرة استدعاها إلى مكتبه، وتحدث معها على انفراد لمدة ساعتين. تحدثا قليلاً في كل موضوع، انسجاماً مع منهجه في التعرّف على الناس. كانت المذكرة بسيطة وعادية، وقد أعطى الحل النتائج المرجوّة فعلاً. لكن العم ليون الثاني عشر لم يهتم بهذا: كان مهتماً بها. وكان أكثر ما لفت انتباهه أن دراستها الوحيدة بعد المدرسة الابتدائية كانت في مدرسة صناعة القبعات. كما أنها كانت تتعلم الإنكليزية في بيتها مستخدمة لذلك منهجاً سريعاً من دون معلم، وأنها تتلقى، منذ حوالي ثلاثة شهور، دروساً ليلية لتعلم الضرب على الآلة الكاتبة، وهي مهنة مستجدة ذات مستقبل باهر، كما كان يُقال في ما مضى عن التلغراف، وكما قيل من قبل عن الآلات البخارية.

ما إن خرجت من المقابلة حتى كان العم ليون الثاني عشر قد بدأ

بمناداتها كما سيناديها دائماً: سميتي ليونا. كان قد قرّر إلغاء القسم موضع الخلاف بجرّة قلم، وتوزيع المشاكل ليجري حلها من قبل مسببيها أنفسهم، مثلما اقترحت ليونا كاسياني، كما ابتدع لها منصباً بلا اسم وبلا مهمات محددة، وهو عملياً منصب معاونته الخاصة. وفي مساء ذلك اليوم، بعد دفن القسم العام من دون تكريم، سأل العم ليون الثاني عشر فلورينتينو أريثا من أين أتى بليونا كاسياني، فأخبره الحقيقة.

فقال له العم ليون:

– عد إذاً إلى الحافلة وآتني بمن هنّ مثلها. فباثنتين أو ثلاث من هذا النوع سنعوم مركبك.

فهم فلورينتينو أريثا الأمر كمزحة تقليدية من مُزَح العم ليون الثاني عشر، ولكنه وجد نفسه في اليوم التالي بدون العربة التي أعطيت له قبل ستة شهور، والتي انتزعوها منه الآن كي يتابع البحث عن المواهب المخبّأة في الحافلات العامة. أما ليونا كسياني فإن ترددها الأوّلي ما لبث أن اختفى، وأخرجت من أعماقها كل ما كانت تخفيه بدهاء شديد في السنوات الأولى الثلاث. وبعد ثلاث سنوات أخرى كانت قد أحاطت بكل شؤون المؤسسة، وفي السنوات الأربع التالية وصلت إلى أبواب الأمانة العامة، لكنها رفضت الدخول لأن درجة واحدة كانت تفصلها عن فلورينتينو أريثا. لقد كانت حتى ذلك الحين تحت إمرته، وكانت تريد البقاء كذلك، رغم أن الحقيقة لم تكن كذلك: ففلورينتينو أريثا نفسه لم يكن واعياً إلى أنه هو مَن كان تحت إمرتها. فهو لم يفعل شيئاً سوى تنفيذ اقتراحاتها في الإدارة العامة لمساعدته في الصعود أمام مكائد أعدائه الخفيين.

كانت ليونا كاسياني تتمتع بمواهب شيطانية في الوصول إلى الأسرار، فهي تعرف دوماً كيف تكون حيث يجب عليها أن تكون وفي

الوقت المناسب. كانت ديناميكية، صامتة، وذات عذوبة حكيمة، ولكنها عند الضرورة، وبكل آلام روحها، تفلت الأعنة لطبعها الفولاذي، رغم أنها لم تكن تستخدم هذا الطبع لصالحها. إذ كان هدفها الوحيد هو كنس سلم الترقيات بأي ثمن، وبالدم إن لم تكن ثمة وسيلة أخرى، ليصعد عليه فلورينتينو أريثا ويصل إلى حيث أراد الصعود من دون أن يحسب مسبقاً قواه الذاتية. كانت قادرة بكل تأكيد على عمل ذلك تلبية لمَيْلها الجامح إلى السلطة، لكنها فعلت ذلك في الحقيقة وهي واعية أن ما تفعله ليس إلا مجرّد امتنان. لقد كان قرارها حاسماً، حتى أن فلورينتينو أريثا اختلطت عليه تكتيكاتها، وحاول في لحظة شؤم أن يغلق الطريق أمامها معتقداً أنها تحاول سدّ السبيل في وجهه. فوضعته ليونا كاسياني في موضعه الصحيح قائلة له:

– لا تخطئ. أنا مستعدة للتخلّي عن كل هذا عندما تشاء، ولكن فكر بالأمر جيداً.

وفلورينتينو أريثا، الذي كان قد فكّر فعلاً، أعاد التفكير حينئذ على أحسن وجه استطاعه، وسلمها أسلحته. الحقيقة أنه وسط تلك الحرب القذرة في مؤسسة تعاني أزمة دائمة، ووسط كوارثه كصقر صيد لا يهدأ، وحلم فيرمينا داثا الذي أصبح أكثر بعداً عن التحقّق، لم يتوصل فلورينتينو أريثا العَصيّ على التأثر إلى لحظة سلام داخلي أمام مرأى تلك الزنجية الباسلة، الملوَّثة بالبراز والحب في حمى الصراع. حتى أنه كان يتألم سراً في أحيان كثيرة لأنها لم تكن في الواقع كما ظنها مساء اليوم الذي تعرّف فيه عليها، لأنه كان سيمسح مؤخرته بمبادئه حينئذ ويمارس الحب معها حتى ولو دفع في سبيل ذلك تبر الذهب اللماع. لكن ليونا كاسياني بقيت كما كانت مساء ذلك اليوم في الحافلة، بملابسها التي كملابس عبدة مشعثة هاربة، وعمائمها المجنونة، وأقراطها وأساورها الضخمة، ومجموعة عقودها وخواتمها ذات الفصوص المزيفة في كل إصبع من

أصابعها: لبوة شارع. والتبدل الوحيد الذي أضفته عليها السنون كان لصالحها: لقد كانت تبحر في نضوج رائع، وجسدها الأفريقي المتقد يصبح أشدّ زخماً مع نضجها. لكن فلورينتينو أريثا لم يعد ينتبه إليها مدّة عشر سنوات، دافعاً بذلك كفّارة خطأه الأول، ولقد ساعدته هي في كل شيء، سوى هذا.

في إحدى الليالي التي بقي يعمل فيها حتى ساعة متأخرة، كما كان يفعل بكثرة بعد وفاة أمه، رأى فلورينتينو أريثا وهو يخرج أن هناك نوراً مضاء في مكتب ليونا كاسياني. فتح الباب من دون أن يقرعه، ووجدها أمامه: وحيدة وراء المنضدة، غارقة في التفكير وجدّية، بنظارة جديدة تمنحها مظهراً أكاديمياً. وانتبه فلورينتينو أريثا بلفحة سعادة إلى أنهما وحيدان في المبنى، كانت أرصفة الميناء مقفرة، والمدينة هاجعة، والليل السرمدي فوق البحر المُظلم، والجؤار الكئيب لسفينة يحتاج وصولها لأكثر من ساعة. استند فلورينتينو أريثا على مظلته بكلتا يديه، تماماً كما فعل في زقاق الكانديليخو ليسد عليها الطريق، إلا أنه اليوم فعل ذلك كي لا تلحظ ارتعاش ركبتيه، وقال لها:

- أخبريني يا لبوة روحي: متى سنخرج من هذا؟

رفعت نظارتها عن عينيها من دون أن تُفاجأ، بسيطرة مطلقة، وأبهرته بابتسامتها الشمسية. ولم تكن قد خاطبته برفع الكلفة أبداً من قبل، وقالت:

- آه يلا فلورينتينو أريثا، عشر سنوات وأنا جالسة هنا أنتظر أن تسألني هذا السؤال.

لقد جاء متأخراً: كانت الفرصة معها وهي في حافلة البغال، وكانت تجلس معها دوماً على الكرسي نفسه الذي تجلس عليه، أما الآن فقد مضت إلى الأبد. والحقيقة أنها بعد كل المكائد الخفية التي قامت بها

من أجله، وبعد كل البذاءات التي تحملتها من أجله، كانت قد سبقته في الحياة، فصارت تبدو أكبر بكثير من السنوات العشرين التي تكبره بها. كانت تحبه كثيراً، لذلك فضلت الاستمرار بحبه بدلاً من أن تخدعه، حتى ولو جعلته يُدرك ذلك بأسلوب قاس. وأضافت:

- لا، سأشعر بأنني أنام مع الابن الذي لم أنجبه.

بقي فلورينتينو أريثا وفي حلقه شوكة لأنه لم يكن صاحب الكلمة الأخيرة. فكّر بأن المرأة حين تقول لا، فإنها تنتظر الإلحاح قبل اتخاذ قرارها النهائي، لكن الأمر معها كان مختلفاً: لا يستطيع أن يغامر بالخطأ ثانية. انسحب بطيب خاطر، بل وببعض الرشاقة التي لم تكن سهلة عليه. ومنذ تلك الليلة تبددت بلا مرارة أية ظلال قد تكون بينهما، وفهم فلورينتينو أريثا أخيراً أنه يستطيع أن يكون صديقاً لامرأة من دون أن يضاجعها.

كانت ليونا كاسياني هي الكائن البشري الوحيد الذي حاول فلورينتينو أريثا أن يكشف له عن سر فيرمينا داثا. لأن الأشخاص القلائل الذين يعرفون السرّ بدأوا بنسيانه لأسباب قاهرة. فثلاثة منهم حملوه معهم إلى القبر بلا شك: أمه، وكانت قد محته من ذاكرتها قبل موتها بكثير. وغالا بلاثيديا، التي ماتت بشيخوخة متقدمة وهي في خدمة من كانت بمثابة ابنة لها. وطيّبة الذكر اسكولاستيكا داثا، التي حملت له في كتاب الصلوات أوّل رسالة حب تلقاها في حياته، والتي لا يمكن لها أن تكون على قيد الحياة بعد كل هذه السنين. ولورينثو داثا، الذي لم يكن يعرف حينئذ إن كان ميتاً أم حياً، ويمكن أن يكون قد كشف السرّ للأخت فرانكا ديلا لوث محاولاً الحيلولة دون طرد ابنته من المدرسة، ولكن احتمال إشاعته الأمر ضئيل جداً. يبقى هناك أحد عشر عامل تلغراف من مقاطعة هيلبيراندا سانتشيث النائية، ممن تداولوا في ما بينهم برقيات تحمل اسميهما الكاملين وعناوينهما الدقيقة، وأخيراً هيلديبراندا سانتشيث وبطانتها من بنات الخؤولة الجامحات.

ما كان يجهله فلورينتينو أريثا هو وجوب ضم الدكتور خوفينال أوربينو إلى القائمة. فهيلديبراندا سانتشيث كانت قد كشفت له السرّ أثناء إحدى زياراتها الكثيرة في السنوات الأولى. لكنها فعلت ذلك بشكل عَرَضي جداً وفي لحظة غير مناسبة، بحيث أن الخبر لم يدخل من إحدى أذني الدكتور أوربينو ليخرج من الأذن الأخرى كما ظنت هي، وإنما لم يدخل إلى أي من الأذنين أبداً. الواقعة هي أن هيلديبراندا ذكرت اسم فلورينتينو أريثا كواحد من الشعراء المغمورين المؤهَّلين حسب رأيها للفوز بجائزة مهرجان الزهور. وقد تذكره الدكتور أوربينو بصعوبة بالغة، وقالت له من دون حاجة للقول، ولكن من دون أدنى نيّة للإساءة بأنه الشاب الوحيد الذي ارتبطت به فيرمينا داثا بعلاقة قبل زواجها. قالت ذلك وهي مقتنعة تماماً بأنه قول بريء وعابر، أكثر ممّا هو مثير. ورد عليها الدكتور أوربينو من دون أن ينظر إليها: «لم أكن أعلم أن هذا الشخص شاعر». ومحاه من ذاكرته في الحال، مثلما يمحو أموراً أخرى، لأن مهنته قد عوّدته استخداماً أخلاقياً للنسيان.

ولاحظ فلورينتينو أريثا أن جميع المطلعين على السرّ، باستثناء أمه، كانوا ينتمون إلى عالم فيرمينا داثا. أما من جهته فلم يكن أحد سواه، وحيداً تحت وطأة حمل كثيراً ما احتاج إلى من يقاسمه إياه، لكنه لم يجد من هو جدير بكل هذه الثقة. وبدا له أن ليونا كاسياني هي الاحتمال الوحيد، وكان يحتاج إلى الأسلوب والمناسبة فقط. كان يفكّر بالأمر في ذلك المساء الصيفي القائظ، حين صعد الدكتور خوفينال أوربينو درج ش.ك.م.ن. المائل، باستراحة على كل درجة لتجاوز قيظ الساعة الثالثة، وظهر لاهثاً في مكتب فلورينتينو أريثا ومبللاً بالعرق حتى بنطاله، وقال بالنفس الأخير: «أرى أن إعصاراً سيدهمنا». كان فلورينتينو أريثا قد رآه هناك عدّة مرّات، يأتي بحثاً عن العم ليون الثاني عشر، لكنه لم يشعر

أبداً، بالوضوح الذي شعر به في ذلك اليوم، بأن لتلك الزيارة وذلك المظهر الغريب علاقة ما بحياته.

كان ذلك في الحقبة التي تجاوز فيها الدكتور خوفينال أوربينو كذلك عثرات المهنة، وأخذ يمضي متنقلاً من باب لباب كمتسوّل، حاملاً قبعته بيده، لجمع التبرعات لدعم مشاريعه في تشجيع الفنون. وقد كان العم ليون الثاني عشر دوماً هو أحد متبرعيه المواظبين والأسخياء، والذي كان قد بدأ في تلك اللحظة بالذات قيلولته اليومية التي تستغرق عشر دقائق، يغفوها وهو جالس على كرسي المكتب ذي النوابض. طلب فلورينتينو أريثا من الدكتور خوفينال أوربينو التفضل بالانتظار في مكتبه، المجاور لمكتب العم ليون الثاني عشر، والذي كان يُستخدم إلى حدّ ما كصالة انتظار.

كانا قد التقيا في مناسبات عديدة، لكنهما لم يتقابلا وجهاً لوجه كما هما اليوم، وعانى فلورينتينو أريثا مرّة أخرى من إحساسه بالوضاعة. لقد كانت عشر دقائق أبدية، نهض خلالها ثلاث مرّات آملاً أن يكون العم قد استيقظ قبل موعده. وتناول ترمساً كاملاً من القهوة المرّة، لم يقبل الدكتور أوربينو فنجاناً واحداً منه. إذ قال: «القهوة سم». وتابع وصل موضوع بآخر من دون أن يهتم إن كان يستمع إليه. لم يكن فلورينتينو أريثا قادراً على احتمال وجاهته الطبيعية، وانسياب كلماته ودقتها، ورائحة نَفَسه العميق المشبع بالكافور، وسحره الشخصي، وأسلوبه البسيط والمرتّب الذي يجعل أتفه العبارات تبدو جوهرية لمجرّد أنه هو من ينطق بها، وفجأة، غيّر الطبيب موضوع الحديث على نحو مباغت.

- أتحب الموسيقى؟

أخذه على حين غرة. فالحقيقة أن فلورينتينو أريثا يذهب لحضور كل كونشيرتو أو عرض أوبرا يُقام في المدينة، لكنه لم يكن يشعر بأنه

قادر على إدارة حوار نقدي ومطلع. كان ميالاً إلى الموسيقى الدارجة، وخصوصاً الفالسات العاطفية، إذ لا يمكن تجاهل شبهها بالموسيقى التي كان يعزفها في مراهقته، أو بأشعاره السرية. وكان يكفيه سماعها مرة واحدة بصورة عابرة، حتى يعجز الرب نفسه عن انتزاع خيط اللحن من رأسه لعدة ليال. ولكن هذا كله لا يشكل رداً جدياً على سؤال بتلك الجدية يطرحه متخصص.

قال: يعجبني غارديل.

تفهّم الدكتور أوربينو الأمر بقوله: «أرى ذلك. أنه منتشر كموضة». وانطلق يُعدّد مشروعاته الجديدة والمتنوعة، والتي عليه تحقيقها، كالعادة، بلا إعانة رسمية. ولفت نظره إلى المستوى الهابط والمثبط للعزيمة في الاستعراضات التي يجيئون بها الآن، وروعة استعراضات القرن الماضي. وهكذا كان: فمنذ سنة وهو يبيع سندات من أجل دعوة ثلاثي كورتوت - كاسالس - ثيباور إلى مسرح الكوميدي، وليس هناك في الحكومة مَن يعرف مَن هم هؤلاء، بينما نفدت في ذلك الشهر بالذات بطاقات فرقة المآسي البوليسية رامون كارلت، وفرقة دون مانوللو دي لا بريسا للأوبريت الشعبي، وفرقة لوس سانتانيلاس الإيمائية - الخيالية التي تحوّر النصوص بشكل غريب، ويبدّل أعضاؤها ملابسهم على المنصة في لحظة خاطفة، وفرقة دانس دي التاين التي يُعلن عنها بأنها جماعة الرقص السابقة في فرقة فوليس بيرغر، بل وتنفد كذلك بطاقات استعراضات أورسوس الفظيعة، هذا الباسكي المعتوه الذي يصارع الثيران بجسده. ومع ذلك، فلا مجال للشكوى، لأن الأوروبيين أنفسهم يقدمون من جديد أسوأ مثلٍ بإشعالهم نار حرب همجية، بينما بدأنا نحن نعيش بسلام بعد تسعة حروب أهلية خلال نصف قرن، بالإمكان، بعد حسابات جيّدة، اعتبارها حرباً واحدة: الحرب ذاتها دائماً. وأكثر ما لفت انتباه فلورينتينو أريثا في تلك الخطبة الساحرة، هو إمكانية بعث

مهرجان الزهور من جديد، والذي كان أكثر مبادرات الدكتور خوفينال أوربينو شهرة وديمومة. وكان عليه أن يعض لسانه كي لا يقول له إنه كان مشاركاً مثابراً في تلك المسابقة السنوية التي أصبحت تثير اهتمام شعراء بارزين، ليس في بقية أنحاء البلاد وحسب، وإنما كذلك في بلدان الكاريبي الأخرى.

ما كادت المحادثة تبدأ، حتى برد بخار الهواء الساخن فجأة، وصفقت عاصفة رياح متقاطعة الأبواب والنوافذ، بقوة، واهتزّ المبنى وأنّت ركائزه وكأنه زورق في مهبّ الريح. لم يبد على الدكتور خوفينال أوربينو أنه أحسّ بما يجري. إذ أشار بشكل عرَضي إلى أعاصير حزيران المجنونة، ثم انتقل فجأة، وبلا مناسبة، للحديث عن زوجته. لم يكن يعتبرها مساعِدة نشيطة في مبادراته فقط، بل هي روح تلك المبادرات ذاتها. قال: «لستُ شيئاً يذكر من دونها». استمع إليه فلورينتينو أريثا بلا تأثر، موافقاً على كل ما يقوله بحركة خفيفة من رأسه، ومن دون أن يتجرّأ على قول أي شيء خوفاً من أن يخونه الصوت. ومع ذلك، فإن عبارتين أو ثلاث عبارات أخرى كانت كافية لجعله يُدرك أن الدكتور خوفينال أوربينو، وسط كل هذه الالتزامات المرهقة، كان يجد فائضاً من الوقت لعبادة زوجته كما يعبدها هو، وقد أذهلته هذه الحقيقة. لكنه لم يستطع الإتيان بردّ الفعل الذي شاءه، لأن قلبه عاجله حينئذ بخاطر عاهر من تلك الخواطر التي تراود القلوب فقط: كشف له أنه وذلك الرجل الذي اعتبره دوماً عدوه الشخصي، ضحيتا المصير نفسه، وأنهما يتقاسمان محنة عاطفة مشتركة. بهيمتان مربوطتان معاً إلى النير نفسه. وللمرة الأولى خلال السنوات السبع والعشرين الانهائية التي أمضاها منتظراً، لم يستطع فلورينتينو أريثا مقاومة وخزة الألم لإحساسه بأنه لا بدّ من موت ذلك الرجل الموقّر لينعم هو بالسعادة.

مر الإعصار سريعاً، لكن عواصفه خرّبت خلال خمس عشرة دقيقة

أحياء المستنقعات، وسببت دماراً في نصف أحياء المدينة. ولم ينتظر الدكتور خوفينال أوربينو، السعيد ثانية بكرم العم ليون الثاني عشر، إلى أن يتوقف المطر نهائياً، فحمل معه ساهياً مظلة فلورينتينو أريثا الخاصة التي أعارها له للوصول إلى العربة. لكن هذا الأخير لم يهتم. بل على العكس: أحس بالسعادة وهو يفكّر بما ستفكر فيه فيرمينا داثا عندما تعرف مَن هو صاحب المظلة. كان لا يزال مضطرباً بانفعالات المقابلة حين مرّت ليونا كاسياني من مكتبه، فرأى أنها الفرصة الوحيدة المناسبة لكشف السرّ لها من دون مزيد من المواربة، والافضاء به كمن يشق دملاً ينغّص عليه حياته: الآن أو أبداً. بدأ بسؤالها عن رأيها بالدكتور خوفينال أوربينو. فأجابته من دون أن تفكر بالأمر تقريباً: «إنه رجل يساهم بأعمال كثيرة، وربّما هي كثيرة جداً، لكنني أظن أن أحداً لا يعرف ما الذي يفكّر به». ثم تروّت قليلاً، وهي تقضم ممحاة قلم الرصاص بأسنانها الحادة والكبيرة، أسنان زنجية كبيرة، ثم هزت كتفيها لتصفّي مسألة لا تهمها بشيء، وقالت:

– ربّما هذا هو سبب قيامه بكل تلك الأعمال: حتى لا يضطر للتفكير.

فقال لها: – ما يؤلمني هو أنه يجب أن يموت.

قالت: – جميع الناس سيموتون.

– أجل، ولكن هذا أكثر من جميع الناس.

لم تفهم شيئاً. وعادت تهز كتفيها من دون أن تتكلم، وانصرفت. عندئذ عرف فلورينتينو أريثا أنه في ليلة مستقبلية غير محددة، وفي سرير سعيد مع فيرمينا داثا، سيروي لها أنه لم يكشف سر حبها حتى للإنسانة التي اكتسبت حق الإطلاع عليه، لا.. لن يكشفه أبداً، حتى ولا لليونا كاسياني. ليس لأنه لا يريد فتح الصندوق الذي خبّأ فيه سره بحرص خلال نصف حياة، وإنما لأنه أدرك حينئذ فقط أنه قد أضاع المفتاح.

لم يكن هذا، مع ذلك، هو أكثر ما أثر فيه يومذاك. لقد أعاد له اللقاء حنين أيام شبابه، وذكرى حيّة من مهرجان الزهور الذي كانت أصداؤه تدوي في كل خامس عشر من نيسان مالئة أجواء الأنتيل. ولقد كان على الدوام واحداً من أبطال المهرجان، ولكنه كان بطلاً سرياً، كعادته دوماً في كل شيء. شارك مرّات عديدة منذ مسابقة الافتتاح الأولى، قبل أربع وعشرين سنة، ولم ينل أبداً أية جائزة، بل ولا التنويه الأخير. لكنه لم يكن يبالي، لأنه لا يشارك طمعاً بالجائزة، وإنما لأنه يجد في المسابقة جاذبية خاصة: ففيرمينا داثا تولت مسؤولية فتح المغلفات المختومة بالشمع وإعلان النتائج في الدورة الأولى، وأُقرّ منذ ذلك الحين أن تتولى القيام بهذا الدور في السنوات التالية.

وبينما هو مختبئ في عتمة المقاعد في الصالة، وفي عروة سترته زهرة كاميليا ندية تنبض بقوة الشوق، رأى فلورينتينو أريثا فيرمينا داثا وهي تفتح المغلّفات الثلاثة المختومة بالشمع الأحمر، فوق منصة المسرح الوطني القديم، ليلة المسابقة الأولى. تساءل ما الذي سيُصيب قلبها حين تكتشف أنه هو الفائز بالسحلبة[1] الذهبية. كان متأكداً أنها ستتعرف على خطّه، وستتداعي إلى مخيلتها في تلك اللحظة أمسيات التطريز تحت أشجار اللوز في الحديقة الصغيرة. ورائحة الياسمين الذابل في الرسائل، وفالس الربّة المتوَّجة الذي يعرفه كلاهما، في الصباحات ذات الرياح. لكن ذلك لم يحدث. بل إن ما حدث كان أسوأ من أي تصوّر: فالسحلبة الذهبية، جائزة الشعر الوطنية المنشودة، خُصصت لمهاجر صيني. والفضيحة العامة التي أثارها ذلك القرار العجيب وضع جدّية المسابقة موضع الشك. لكن الخطيئة كانت عادلة، وكان لإجماع لجنة التحكيم ما يبرره في جودة القصيدة وتفوّقها.

---

(1) السحلبة: زهر نبتة السلحية. وهي نبتة برية أزهارها ذات لون أرجواني.

لم يصدق أحد أن يكون ناظمها هو الصيني الفائز. كان قد وصل إلى المدينة في أواخر القرن الماضي هرباً من آفة الحمى الصفراء التي عاثت خراباً بينما أثناء مدّ السكة الحديد ما بين المحيطين، إلى جانب صينيين آخرين استقروا هنا حتى موتهم، وكانوا يعيشون بالصينية، ويتناسلون بالصينية، ويشبهون بعضهم بعضاً حتى لم يكن هناك من هو قادر على تمييزهم. لم يتجاوزوا أوّل الأمر العشرة أشخاص، وكان برفقة بعضهم زوجاتهم وأولادهم وكلابهم التي يأكلونها، ولكن ما إن انقضت عدّة سنوات حتى فاضت أربعة أزقة في أحياء الميناء بصينيين جدد كانوا يدخلون البلاد من دون أن يتركوا أثراً في سجلات الجمارك. وقد تحوّل بعض الشباب منهم إلى شيوخ موقّرين بسرعة كبيرة جداً لم يُدرك أحد معها كيف أتيح لهم الوقت ليشيخوا. وقد قسمتهم البديهة الشعبية إلى صنفين: الصينيون الأشرار والصينيون الأخيار. الأشرار هم أصحاب حانات الميناء الصغيرة الكئيبة. حيث يمكن للمرء أن يأكل كملك أو أن يموت فجأة على الطاولة أمام طبق فئران محضَّر مع عَبّاد الشمس، وكانت الشكوك تحوم حول تلك الحانات بأنها ليست سوى ستار يخفي وراءه تجارة رقيق أبيض وغيرها. أما الصينيون الأخيار فهم صينيو محلات كيّ الملابس، ورثة هذا العلم المقدس، الذين يعيدون القمصان أنصع ممّا كانت عليه وهي جديدة، جاعلين ياقاتها ومعاصمها تبدو وكأنها خبز قربان طازج. وكان أحد هؤلاء الصينيين الطيبين هو الذي هزم في مهرجان الزهور اثنين وسبعين منافساً معروفاً.

لم يفهم أحد من الحضور الاسم حين قرأته فيرمينا داثا مبهورة، لا لأنه كان اسماً غريباً وحسب، بل لأن أحداً ما كان يعلم علم اليقين كيف هي أسماء الصينيين أيضاً. لكنهم لم يفكروا بالأمر طويلاً، إذ برز الصيني الفائز من آخر الصالة بتلك الابتسامة السماوية التي يبتسمها الصينيون حين يصلون إلى بيوتهم في وقت مبكر. لا بدّ أنه جاء وهو متأكد من

الفوز، فارتدى لاستلام الجائزة قميص الحرير الأصفر الذي يلبسونه في طقوس الربيع. تلقى السحلبة الذهبية من عيار أربعة وعشرين قيراطاً، وقبلها بسعادة وسط استهزاء المستنكرين الصاخب. لم يتأثر، وانتظر في منتصف المنصة. ثابت الجنان كرسول عناية إلهية أقل دراماتيكية من التي نؤمن بها، وانتهز أوّل لحظة صمت ليقرأ القصيدة. فلم يفهمها أحد. ولكن حين توقف تيّار السخرية الجديد، أعادت فيرمينا داثا قراءتها من دون تأثر، بصوتها الأبح اللماح، فسيطر الذهول على الجميع منذ السطر الأول. لقد كانت سوناتة من أنقى سلالات السوناتات البرناسية، متقنة، ومخترقة بنفحة إلهام تشي بمشاركة يد بارعة في نظمها. التفسير الوحيد المقبول هو أن أحد الشعراء الكبار قد خطط لتلك المزحة ليسخر من مهرجان الزهور، وأن الصيني قد شارك فيها مقرّراً كتمان السرّ حتى الموت. صحيفة دياريو ديل كوميرثيو، جريدتنا العريقة، حاولت ترقيع شرفنا الحضاري بمقال ضليع وأقرب إلى عسر الهضم، حول عراقة تأثير الصينيين بمنطقة الكاريبي، وحقهم بالاشتراك عن جدارة في مهرجان الزهور. ولم يشك كاتب المقال في أن واضع السوناتة هو من يدّعي ذلك فعلاً، وبرر الأمر من دون لف ولا دوران بدءاً من العنوان: الصينيون كلهم شعراء. مدبرو المؤامرة، إن كان لها من مدبرين، تعفّنوا في قبورهم مع السرّ. وكذلك مات الصيني الفائز بعد عمر شرقي من دون أن يعترف، وقد دُفن مع السحلبة الذهبية في التابوت، وكذلك مع غصة أنه لم يستطع أن يحقق في حياته الشيء الوحيد الذي كان يتوق إليه، ألا وهو اعتماده كشاعر. وبمناسبة موته ذكرت الصحافة حادث مهرجان الربيع المنسي، وأعيد توزيع السوناتة على ألحان كمان محدثة، وبغناء فتيات متفخات بنبات قرن الرخاء الذهبي، وانتهز الأرباب القيّمون على الشعر المناسبة ليضعوا الأمور في نصابها: كانت السوناتة تبدو للجيل الجديد على درجة من السوء بحيث لم يعد أحد يشك في أن كاتبها هو الصيني الميّت فعلاً.

لقد ارتبطت تلك الفضيحة في ذاكرة فلورينتينو أريثا بذكرى متأنقة مجهولة كانت تجلس إلى جانبه: كان قد تأملها عند بدء الاحتفال. لكنه ما لبث أن نسيها في رعب الانتظار. لقد لفتت انتباهه لبياضها اللؤلؤي، وشذى البدينة السعيدة الذي يفوح منها، ولصدرها الضخم النديّ المتوَّج بزهرة مانوليا اصطناعية. كانت ترتدي فستاناً مكسراً من المخمل الأسود، شديد السواد كعينيها الدسمتين، وكان شعرها أشد اسوداداً، تثبته على العنق بمشط زينة كالذي تستخدمه الغجريات. كانت تضع أقراطاً متدلية، وعقداً من النوع ذاته وخواتم مشابهة في عدّة أصابع، جميعها ذات طبعة برّاقة، وخالاً مرسوماً بالقلم على وجنتها اليمنى. وفي ضجة التصفيق النهائي، نظرت إلى فلورينتينو أريثا بكآبة صريحة وقالت له:

– صدّقني، إنني آسفة من أعماق روحي.

ذهل فلورينتينو أريثا، ليس للتعزية التي كان يستحقها فعلاً، وإنما لاندهاشه بأن هناك من يعرف سرّه. وأوضحت له:

– أدركت ذلك للطريقة التي كانت تنبض بها الزهرة فوق صدرك أثناء فتح المغلفات.

أرته زهرة المانوليا الاصطناعية التي كانت تحملها بيدها، وفتحت له قلبها قائلة:

– لهذا السبب نزعت زهرتي.

كانت على وشك البكاء للهزيمة، لكن فلورينتينو أريثا أبدل مزاجها بغريزته كصياد ليلي حين قال لها:

– هلمي بنا إلى مكان نبكي فيه معاً.

اصطحبها إلى بيتها. وبينما هما أمام الباب، ونظراً إلى أن الوقت كان منتصف الليل تقريباً ولا وجود لأحد في الشارع، فقد أقنعها بأن تدعوه لتناول كأس من البراندي، ورؤية ألبومات قصاصات وصور أحداث

أكثر من عشرة أعوام من الحياة العامة، أخبرته أنها تملكها. إنها خدعة قديمة جداً، ولكنها كانت لا إرادية هذه المرّة لأنها هي التي تحدثت عن ألبوماتها وهما قادمان من المسرح الوطني. دخلا. وأول ما لاحظه فلورينتينو أريثا هو أن باب غرفة النوم الوحيدة كان مفتوحاً، وأن سريرها كان فسيحاً وفخماً، عليه غطاء من البروكار، وله مسند علوي من البرونز المزخرف. لقد بلبله هذا المشهد. ولا بدّ أنها انتبهت لذلك، إذ تقدمت عبر الصالة وأغلقت باب حجرة النوم. ثم دعته للجلوس على متكأ من أكريتون مزين برسوم أزهار حيث كان ينام هرّ، ووضعت على منضدة صغيرة أمامه مجموعة ألبوماتها. بدأ فلورينتينو أريثا بتصفحها من دون إسراع، مفكراً بخطواته التالية أكثر من تفكيره بما يراه، وفجأة رفع بصره فرأى عينيها ممتلئتين بالدموع. فنصحها بأن تبكي متى شاءت، من دون خجل، فلا شيء يخفف الآلام كالبكاء، لكنه أشار عليها بأن تحل حمالة الصدر لتبكي براحة. وسارع لمساعدتها، لأن حمالة الصدر كانت مثبتة بمتانة على الظهر بواسطة رباط متقاطع. ولكنه قبل أن ينتهي من حلّ الرباط، إذا بحمالة الصديري تفلت تلقائياً بفعل الضغط الداخلي، وتنفس الثديان الفلكيان براحتهما.

فلورينتينو أريثا الذي لم يفقد أبداً رهبة المرّة الأولى، حتى في المناسبات الأكثر سهولة، غامر بمداعبة سطحية على العنق برؤوس أصابعه، فتلوّت بآهة طفلة مدللة من دون أن تتوقف عن البكاء. عندئذ قبّلها في الموقع ذاته، بنعومة، وكأنه يقبّلها بأصابعه، ولم يستطع عمل ذلك ثانية لأنها التفتت إليه بكامل جسدها العظيم، الشره والدافئ، وتدحرجا معاً على الأرض. استيقظ القط النائم على المتكأ مطلقاً مواءً حاداً، وقفز فوقهما. بحثا أحدهما عن الآخر باللمس كمبتدئين متهوّرَين ووجدا نفسيهما كيفما اتفق، منقلبين فوق الألبومات المنتزعة أغلفتها، بملابسهما، غارقين في العَرَق، وأكثر انشغالاً بتفادي خرمشات القط

الغاضبة من اهتمامهما بكارثة الحب التي يقترفانها. ولكنهما منذ تلك الليلة، بجراحهما التي ما زالت تنزف، تابعا ممارسة الحب لعدة سنوات.

عندما انتبه إلى أنه بدأ يحبها، كانت قد أصبحت في أوج الأربعينات، وكان يكاد أن يكمل الثلاثين. اسمها سارا نوريغا، وقد نعمت بربع ساعة من الشهرة في شبابها، حين فازت في مسابقة بديوان شعر عن حب الفقراء، لم يجد طريقه إلى النشر أبداً. كانت معلمة لمادة التمدن والتربية المدنية في المدارس الرسمية، وتعيش على راتبها في بيت مستأجَر في زقاق لوس نوفيوس المضطرب، في حيّ خيثيماني القديم. لقد عرفت عدداً من العشاق الطارئين، من دون أن تراود أياً منهم آمال الزواج منها، لأنه كان يصعب على رجل من وسطها وفي زمنها الاقتران بامرأة ضاجعها. كما أنها لم تعد تغذّي هذا الأمل في نفسها بعدما هجرها خطيبها الرسمي الأول، وكانت قد أحبته بالعاطفة شبه المجنونة التي كانت قادرة عليها وهي في الثامنة عشرة من عمرها، وقد هرب من التزامه قبل أسبوع من الموعد المحدد للزفاف، وتركها ضائعة كعروس مخدوعة، أو كعزباء مستعمَلة، كما كان يُقال في ذلك الحين. ومع ذلك، فإن تلك التجربة الأولى، على الرغم من قسوتها وسرعة انتهائها، لم تسبب لها أية مرارة، بل رسخت لديها قناعة طاغية بأن الحياة بالزواج أو من دونه، بلا رب أو بلا قانون، لا تستحق أن تُعاش إن لم تكن بوجود رجل في الفراش. وأكثر ما كان يعجب فلورينتينو أريثا فيها هو أنها كانت تمص مصاصة طفل رضيع وهي تمارس الحب، كي تصل إلى ذروة المجد. وقد اقتنيا مجموعة من مختلف الأحجام والأشكال والألوان التي وجداها في السوق، وكانت سارا نوريغا تعلقها على مسند السرير لتجدها وهي مغمضة العينين في لحظات الحاجة الماسة لها.

ورغم أنها كانت حرة مثله، وربّما أنها ما كانت لتعارض كشف علاقتهما للملأ، إلا أن فلورينتينو أريثا طرح العلاقة كمغامرة سرية. كان

ينسلّ داخلاً من باب الخدمة، في وقت متأخر من الليل دوماً، ويهرب على رؤوس أصابعه قبيل الفجر بقليل. وكان يعرف مثلما تعرف هي أنه في بيت مشترك، يعيش فيه عدد كبير من السكان كذاك البيت، لا بدّ للجيران في النهاية من أن يكونوا أكثر اطلاعاً ممّا يتظاهرون. ولكن فلورينتينو أريثا كان هكذا، حتى ولو كان الأمر مجرّد معادلة نظرية، وسيبقى كذلك خلال بقية حياته. لم يقترف أي خطأ أبداً، سواء معها أو مع أي واحدة أخرى، ولم يرتكب أبداً أي خروج على هذا المبدأ. لم يكن يبالغ. وفي مناسبة واحدة فقط ترك أثراً مشبوهاً أو دليلاً مكتوباً، كاد يكلفه حياته. والحقيقة أنه تصرف دائماً كما لو كان الزوج الأبدي لفيرمينا داثا، زوج غير مخلص ولكنه متمسّك بزوجته، يناضل من دون هوادة ليتحرّر من عبوديتها، ولكن من دون أن يسبب لها غمّ الخيانة الزوجية.

لم يكن ممكناً لهذه السرية المحكمة أن توفق دونما خطأ. فحتى ترانسيتو أريثا توفيت وهي مقتنعة بأن ابنها الذي حبلت به بالحب، وترعرع للحب، كان محصّناً ضد أي شكل من أشكال الحب بسبب محنته الأولى في شبابه؛ ومع ذلك، فان أناساً كثيرين أقل أريحية ممّن هم قريبون منه، ويعرفون طبيعته السرية وميله إلى الملابس الزاهدة والمستحضرات الغريبة، كانوا يشاركون في الشكوك بأنه ليس محصّناً ضد الحب وإنما ضد المرأة فقط. وكان فلورينتينو أريثا يعرف ذلك ولكنه لم يفعل شيئاً لتكذيبه. كما أن الأمر لم يكن يقلق سارا نوريغا، ولا غيرها من النساء الكثيرات اللواتي أحبهن، بل وأولئك اللواتي كن يمتعنه ويستمتعن معه من دون أن يحببنه، ويقبلن به كما هو في الواقع: مجرد رجل عابر.

صار يذهب إلى بيتها في أي وقت، وبصورة خاصة في صباحات أيام الآحاد التي كانت أهدأ الأوقات. فكانت تترك ما تقوم به، مهما كان، وتكرّس نفسها بكامل جسدها في محاولة إسعاده في السرير التاريخي

الفسيح الذي كانت متأهّبة له دوماً، والذي لم تكن تسمح بممارسة الحب عليه بطقوس شكلية. ولم يكن فلورينتينو أريثا ليفهم كيف يمكن لعزباء بلا ماض استخدام جسدها الدلفيني العذب بكل تلك الخفة وذلك الحنان كما لو أنها تتحرّك تحت الماء. فكانت تدافع عن نفسها بالقول إن الحب، قبل كل شيء، هو موهبة طبيعية. وتقول: «إما أن يولد الإنسان وهو يعرفه أو أنه لن يعرفه أبداً». كان فلورينتينو أريثا يتلوى بغيرة تفكيره بأنها ربّما تكون أكثر استعمالاً ممّا تتظاهر به، وكان عليه أن يبتلع غيرته كلها، لأنه كان يقول لها ما قاله للأخريات جميعهن، بأنها عشيقته الوحيدة. ومن الأشياء الكثيرة التي لم يكن يحبها، كان صبره على وجود القط الهائج في السرير، والذي كانت سارا نوريغا تقلم مخالبه حتى لا يمزقهما بخرمشته أثناء ممارستهما الحب.

ومع ذلك، وكفرحها في السرير حدّ الإنهاك، كانت تحب تكريس تعب الحب لعبادة الشِّعر. ولم تكن تتمتع بذاكرة مذهلة في حفظ أشعار عصرها العاطفية وحسب، تلك الأشعار التي يباع جديدها في كتيبات بسنتافين اثنين في الأزقة، بل إنها كانت تعلق بمسامير على الجدران، قصائدها المفضَّلة، لتقرأها بأعلى صوت في أي وقت. وكانت قد نظمت في مقاطع أحد عشرية مزدوجة نصوص دروس التمدن والتربية المدنية، على طريقة المنظومات المستخدمة في تعليم الإملاء حينذاك، ولكنها لم تحصل على الموافقة الرسمية بإقرارها. لقد كان اندفاعها الخطابي يحملها أحياناً إلى مواصلة إلقاء الشعر بأعلى صوتها أثناء ممارستها الحب، ممّا يضطر فلورينتينو أريثا لدسّ مصاصة في فمها، مثلما يفعلون بالأطفال لوقفهم عن البكاء.

كان فلورينتينو أريثا يتساءل وهما في أوج علاقتهما، أي الحالتين اللتين يتخذان هي الحب. هل هي في ما يفعلانه في السرير المضطرب أم تأملهما في أمسيات الآحاد الهادئة. فتطمئنه سارا نوريغا بحجة بسيطة

هي أن كل ما يفعلانه عاريين هو الحب. وكانت تقول: «حب الروح من الخصر فما فوق وحب الجسد من الخصر فما تحت». وقد بدا لها هذا التصنيف مناسباً لقصيدة حول الحب المقسوم، كتباها معاً، وتقدمت بها إلى مهرجان الزهور الخامس، موقنة بأن أحداً لم يشارك حتى ذلك الحين بقصيدة على هذا النحو من الأصالة. لكنها خسرت من جديد.

كانت ثائرة عندما اصطحبها فلورينتينو أريثا إلى بيتها. ولم تستطع تفسير سبب ثورتها. فقد كانت مقتنعة بأن ثمة مؤامرة تدبّرها فيرمينا داثا ضدها، لتحول دون فوز قصيدتها بالجائزة، لم يولها فلورينتينو أريثا أذناً صاغية. لقد كان مكتئب المزاج منذ تسليم الجوائز، فهو لم ير فيرمينا داثا منذ زمن بعيد، وقد أحسّ تلك الليلة بأنها قد تغيّرت تغيراً عميقاً: فللمرة الأولى تظهر جلية لأوّل وهلة حالتها كأم. لم يكن هذا بالأمر الجديد عليه، فقد كان يعلم أن ابنها بدأ الذهاب إلى المدرسة. ولكن عمرها الأمومي لم يكن قد بدا له رغم ذلك بمثل هذا الوضوح الذي رآه في تلك الليلة، سواء في محيط خصرها أو في مشيتها اللاهثة إلى حدّ ما، أو في عثرات صوتها حين قرأت قائمة الجوائز.

وفي محاولة لتثبيت ذكرياته عاد يتصفح ألبومات مهرجانات الزهور فيما سارا نوريغا تعد شيئاً للأكل. رأى صوراً مأخوذة من مجلات، وبطاقات مُصْفَرّة من تلك التي تُباع كتذكارات في الأزقة، وبدا له ذلك كمراجعة وهمية لخداع حياته بالذات. فقد كان يرتكز حتى ذلك الحين على وهم أن الدنيا هي التي تتغيّر، فالعادات تتغيّر وكذلك الموضة: كل شيء يتغيّر إلا هي. لكنه رأى في تلك الليلة، للمرة الأولى، وبشكل جليّ، كيف كانت حياة فيرمينا داثا تمضي، وكيف كانت حياته هو تمضي، بينما لا يفعل شيئاً سوى الانتظار. لم يكن قد تحدث عنها لأحد أبداً، لأنه يعرف أنه عاجز عن نطق اسمها من دون أن يظهر الشحوب على شفتيه. أما في هذه الليلة، وبينما هو يتصفح الألبومات، مثلما يفعل في معظم

سهرات الأحد المملة، حققت سارا نوريغا، صدفة، إصابةً من تلك التي تجمّد الدم حين قالت:

- إنها لعاهرة.

قالت ذلك لدى مرورها، ناظرة إلى صورة تظهر فيها فيرمينا داثا متنكرة كفهدة سوداء في حفلة رقص تنكرية، ولم يكن عليها أن تذكر اسماً ليعرف فلورينتينو أريثا عمن تتحدث. سارع إلى الدفاع بحذر، خائفاً من الانزلاق إلى كشف يزعزع حياته. نبّه إلى أنه لم يعرف فيرمينا داثا إلا عن بعد، وأن معرفته بها لم تتجاوز التحيات الرسمية، وأنه لا يملك أية أخبار عن حياتها الخاصة، لكنه أبدى قناعته بأنها امرأة محترمة، خرجت من لا شيء. وارتفعت بمواهبها الذاتية.

- بفضل زواج مصلحة من رجل لا تحبه. أنها أحط وسيلة للدعارة - قاطعته سارا نوريغا.

كانت أم فلورينتينو أريثا قد قالت له ذلك يوماً بفظاظة أقل، إنما بالصراحة نفسها لتواسيه في محنته. ولم يجد وهو مضطرب حتى النخاع رداً مناسباً على قسوة سارا نوريغا، فحاول الهرب من الموضوع. لكن سارا نوريغا لم تسمح بذلك قبل أن تفرّج عن نفسها ضد فيرمينا داثا. وبضربة حدس لم تكن قادرة على تفسيرها، أبدت قناعتها بأنها هي من دبّر المؤامرة لحجب الجائزة عنها. لم يكن هنالك سبب لتصديق ذلك: فهما لا تعرفان إحداهما الأخرى، ولم تلتقيا أبداً، وليس لفيرمينا داثا أية علاقة بقرارات المسابقة، هذا إذا كان لها أي اطلاع على أسرارها. وقالت سارا نوريغا بنبرة جازمة: «إننا نحن، معشر النساء، عرافات». ووضعت حداً للنقاش.

منذ تلك اللحظة، رآها فلورينتينو أريثا بعينين مغايرتين. فالسنوات كانت تمضي بالنسبة لها أيضاً. وكانت طبيعتها الخصبة تذوي من دون

أمجاد، وصار حبها يتماطل في النحيب، وبدأت المرارات القديمة تظهر على أجفانها. إنها زهرة الأمس. ثم إنها، في فورة غضب الهزيمة، أهملت حساب كؤوس البراندي التي تجرعها. لم تكن في ليلها. وفيما هما يأكلان أرز جوز الهند الذي أعادت تسخينه، حاولت أن تحدّد مدى مساهمة كل منهما في كتابة القصيدة الخاسرة، لتعرف كم وريقة من بتلات السحلبة الذهبية سيكون نصيب كل واحد منهما لو أنهما فازا. ولم تكن المرّة الأولى التي ينشغلان فيها بمناقشات بيزنطية، لكنه انتهز الفرصة ليتنفس من الجرح الذي انفتح لتوّه، واشتبكا في نزاع بائس أحيا أحقادهما المتراكمة خلال خمس سنوات من الحب المنقسم.

وقبل عشر دقائق من الساعة الثانية عشرة، صعدت سارا نوريغا على كرسي لتملأ ساعة البندول المعلقة، وضبطتها على الثانية عشرة تماماً من دون أن تنظر إليه، ربّما كانت راغبة في أن تقول بذلك من دون أن تقوله، أن وقت انصرافه قد حان. أحس فلورينتينو أريثا حينئذ بضرورة بتر تلك العلاقة الخالية من الحب من جذورها، وبحث عن الفرصة ليكون هو صاحب المبادرة، كما اعتاد أن يفعل يوماً. كان يدعو الله بأن تسمح له سارا نوريغا بالبقاء للنوم في سريرها ليقول لها أن لا، وأن كل شيء قد انتهى بينهما، وطلب منها أن تجلس إلى جانبه حين انتهت من ضبط الساعة. لكنها فضلت البقاء بعيدة عنه، على كرسي من كراسي الزيارات. عندئذ مدّ لها فلورينتينو أريثا إصبعه السبابة مبللة بالبراندي لتمصّها، كما كانت تحب أن تفعل قبل الحب في أزمان أخرى. فتجنبتها قائلة:

– ليس الآن. إنني أنتظر شخصاً.

منذ صدّته فيرمينا داثا، تعلّم فلورينتينو أريثا كيف يحتفظ لنفسه دوماً بالقرار الأخير. كان بإمكانه الاستمرار بمحاصرة سارا نوريغا لو أن الظروف كانت أقل مرارة، متأكداً من أنه سينتهي إلى قضاء الليل متقلباً

معها على السرير، لأنه يعرف أن امرأة ضاجعت رجلاً لمرة واحدة، ستتابع مضاجعته كلما شاء، طالما عرف كيف يليّنها في كل مرّة. لقد احتمل كل شيء بفضل هذه القناعة، ومرّ على كل شيء من دون مبالاة، بما في ذلك أقذر أنواع الحب، حتى لا يتيح الفرصة لأي امرأة ولدتها امرأة اتخاذ قرار القطيعة النهائي. لكنه أحس في تلك الليلة بأنه ذليل جداً، فجرع البراندي دفعة واحدة، فاعلاً كل ما يجعل الغضب يبدو عليه، ومضى من دون أن يودّعها. ولم يرَ أي منهما الآخر بعدها.

كانت العلاقة بسارا نوريغا إحدى أطول علاقات فلورينتينو أريثا وأكثرها استقراراً، رغم أنها لم تكن العلاقة الوحيدة التي نسجها خلال تلك السنوات الخمس. وعندما أحس بأنه يشعر بالراحة معها، ولا سيما في الفراش، ومن دون أن يتوصل إلى إحلالها محل فيرمينا داثا، استفحلت لياليه كصيّاد متوحّد، وكان يتدبر أمره لتوزيع وقته وقواه إلى حيث يمكنه الوصول. ومع ذلك، استطاعت سارا نوريغا تحقيق معجزة تهدئته مع مرور الوقت. واستطاع العيش على الأقل من دون رؤية فيرمينا داثا، على العكس ممّا كان عليه من قبل، حين كان يتوقف عن عمله الذي يؤديه في أي وقت كان ليخرج بحثاً عنها في اتجاهات غير صحيحة تمليها عليه أفكاره، وفي شوارع لا تخطر على بال، وأماكن وهمية يستحيل وجودها فيها، هائماً على وجهه على غير هدى وفي صدره شوق لن يهدأ ما لم يرها ولو للحظة واحدة. لقد أثار قطع علاقته بسارا نوريغا أشواقه الكامنة، وأحسّ مجدداً بالأحاسيس التي كانت تنتابه في أمسيات الحديقة الصغيرة، أثناء قراءته اللانهائية، ولكنه كان إحساساً مثقلاً بالرغبة في استعجال موت الدكتور خوفينال أوربينو.

كان يعرف منذ زمن أنه مرصود لإسعاد أرملة، وأنها مرصودة لإسعاده، ولم يكن هذا ليقلقه. بل على العكس: كان مستعداً للأمر. ولكثرة ما عرف منهن في غزواته كصياد متوحد، أصبح فلورينتينو أريثا

يعرف أن الدنيا مليئة بأرامل سعيدات. لقد رآهن يفقدن صوابهن أسى أمام جثة الزوج، ويتوسلن دفنهن أحياء في التابوت ذاته كي لا يواجهن نائبات المستقبل من دونه، ولكنهن كلما أخذن بالانسجام مع واقعهن الجديد كن ينبعثن من الرماد بحيوية مخضوضرة. يبدأن الحياة كأشباح طفيليات في البيوت الكبيرة المقفرة ويصبحن نجيّات خادماتهن، عاشقات وسائدهن، ليس لديهن ما يفعلنه بعد سنوات طويلة من الأسر المجدب. يضيعن فائض الوقت في تثبيت الأزرار التي لم يكن لديهن متسع من الوقت لتثبيتها على ثياب المتوفى، ويكوين ثم يعدن كيّ قمصانه ذات المعاصم والياقات البارافينية لتكون جاهزة دوماً. ويتابعن وضع الصابون له في الحمّام، ووضع وجوه الوسائد التي تحمل الحرف الأول من اسمه على السرير، وطبقه وأدوات طعامه في مكانه على المائدة، فلربما عاد من الموت من دون إشعار مسبق، كما كانت عادته في الحياة. ولكنهن في طقوس العزلة تلك، يعين شيئاً فشيئاً بأنهن أصبحن سيّدات مصيرهن، بعد تخليهن ليس عن لقب أسرتهن فقط، بل وعن هويتهن ذاتها، كل ذلك مقابل أمان لم يكن أكثر من حلم آخر من أحلامهن وهنّ عرائس. هن وحدهن كن يعرفن كم كان ثقل الرجل الذي أحببن بجنون، والذي ربّما أحبهن، إذ كان عليهن أن يتابعن تربيته حتى النفس الأخير. كان عليهن إرضاعه، وتبديل حفاضاته الملوّثة، وتسليته بخدع الأمهات لتهدئة مخاوفه عند خروجه صباحاً لمواجهة وجه الواقع. ولكنهن ما أن يرينه يخرج من البيت لابتلاع العالم بإغواء منهن، حتى يداخلهن الخوف من ألّا يعود الرجل أبداً. هكذا كانت حياتهن. أما الحب، إن كان له من وجود فهو شيء آخر... حياة أخرى.

في بطالة الوحدة الشافية، تكتشف الأرامل أيضاً أن الطريقة الشريفة في الحياة هي المرتبطة بالجسد، بالأكل حين يجعن فقط، والحب من دون نفاق، والنوم من دون حاجة إلى تصنّع النوم للافلات من الحب

الرسمي، وسيادتهن أخيراً على سرير كامل لهن وحدهن لا يشاركهن فيه أحد، نصف الدثار ولا نصف الهواء الذي يتنفسن، ولا نصف ليلهن، وقدرتهن على النوم إلى أن يرتوي الجسد من الحلم بأحلامهن وحدهن واستيقاظه حين يحلو له. لقد كان فلورينتينو أريثا يلتقي بهن في صباحاته كصيّاد متخف وهن خارجات من قدّاس الخامسة صباحاً، مكفّنات بالأسود ويوم القدر على أكتافهن. وما أن يرينه في ضوء الفجر حتى يجتزن الشارع وينتقلن إلى الرصيف الآخر بخطوات ضيقة ومتقطعة، كخطوات عصفور، لأن مجرّد مرورهن قريباً من رجل قد يلوّث شرفهن. ولكنه كان موقناً على الرغم من ذلك أن أي أرملة حزينة تحمل في داخلها، أكثر من أي امرأة أخرى، بذرة السعادة.

أرامل كثيرات في حياته، ابتداءً من أرملة ناثاريت، أتحنَ له أن يرى كيف يمكن للمتزوجات أن يكن سعيدات بعد وفاة أزواجهن. وما كان بالنسبة له مجرّد حلم، تحول بفضلهن إلى احتمال يمكن لمسه باليد. ولم يجد أسباباً تحول دون أن تكون فيرمينا داثا أرملة مماثلة لهن، درّبتها الحياة على القبول به كما هو، من دون أوهام الشعور بالذنب نحو الزوج الميت، حاسمة أمرها على اكتشاف السعادة الأخرى معه لتنعم بالسعادة مرتين، بحب جسدي يومي يتحوّل في كل لحظة إلى معجزة حياة، وحب آخر لها وحدها، محصّن ضد أية عدوى بمناعة الموت.

ربّما أنه ما كان ليتحمس لو ارتاب مجرّد ارتياب بأن فيرمينا داثا بعيدة عن تلك الحسابات الحالمة، حين كان يلمح بالكاد أفق عالم كل شيء فيه مهيأ مسبقاً باستثناء الخذلان. وقد كان لثراء المرء في ذلك الزمن منافع كثيرة، وكذلك مضارّ كثيرة بالطبع، ولكن نصف الناس كانوا يتلهّفون للثراء باعتباره الوسيلة الأكثر احتمالاً للخلود. وكانت فيرمينا داثا قد صدّت فلورينتينو أريثا في ومضة نضوج دفعت ثمنها فوراً في نوبة حسرة، لكنها لم تشك لحظة واحدة في صواب قرارها. لم تستطع للوهلة الأولى

تفسير الأسباب العقلانية الخفية التي منحتها تلك البصيرة، ولكنها بعد سنوات طويلة جداً، حين صارت على أعتاب الشيخوخة، اكتشفت تلك الأسباب فجأة، من دون أن تدري كيف، وذلك أثناء حديث عرَضي عن فلورينتينو أريثا. جميع المشتركين في الحديث كانوا يعرفون أنه ولي العهد في شركة الكاريبي للملاحة النهرية في حقبة ازدهارها، وجميعهم كانوا متأكدين من أنهم قد رأوه مرّات عديدة، بل ودخلوا معه في صفقة ما، لكن أياً منهم لم يستطع تحديد ملامحه في ذاكرته. عندئذ انكشفت لفيرمينا داثا الأسباب الكامنة في اللاوعي والتي منعتها من حبه؛ وقالت: «يبدو كما لو أنه ليس شخصاً وإنما شبحاً». وهكذا كان: شبح شخص لم يعرفه أحد من قبل. ولكن بينما هي تصدّ حصار الدكتور خوفينال أوربينو، وهو الرجل النقيض، كانت تشعر بأنها تتعذب بشبح الإحساس بالذنب؛ وهو الإحساس الوحيد الذي كانت غير قادرة على احتماله. فحين تشعر بمجيئه، يسيطر عليها نوع من الهلع لا تستطيع التحكم به إلّا عندما تجد من يخفف عن ضميرها. فمنذ طفولتها المبكرة، عندما كان ينكسر صحن في المطبخ، أو عندما يقع أحدهم، أو حين تتسبب هي نفسها بعصر أحد أصابعها بباب، كانت تلتفت مذعورة نحو أقرب شخص بالغ، وتسارع إلى اتهامه: «أنت السبب». مع أنها ما كانت تهتم في الحقيقة بمن هو المذنب ولا بالاقتناع ببراءتها، كان يكفيها إقرار الأمر هكذا.

كان شبح عقدة الذنب واضحاً. وقد أدرك الدكتور أوربينو، في الوقت المناسب، مدى تهديده لجو الانسجام في بيته، فكان كلما لمحه يسارع إلى القول لزوجته: «لا تقلقي يا حبي، أنا السبب». إذ لم يكن يخيفه شيء كخوفه من قرارات زوجته المفاجئة والحاسمة، وكان مقتنعاً أن منشأ كل ذلك هو إحساسها بالذنب. ومع ذلك، فإن قلقها لصدّها فلورينتينو أريثا لم يُحَلّ بعبارة مواساة. واصلت فيرمينا داثا فتح الشرفة في الصباح لعدة

شهور، وكانت تحنّ دوماً للشبح المتوحد الذي يترصدها في الحديقة الصغيرة المقفرة، وتراقب الشجرة التي كان يجلس تحتها، والمقعد المختفي حيث كان يجلس ليقرأ مفكراً بها، ومتألماً من أجلها، ثم تغلق النافذة من جديد، وتتنهد: «يا للرجل البائس». وقد قاست من خيبة الأمل لأنه لم يكن عنيداً ومثابراً مثلما ظنّت، حين كان الوقت قد فات لترقيع الماضي، ولم تتوانَ عن الشعور بالجزع المتأخر يوماً لرسالة لم تصلها أبداً. ولأنها حين اضطرت لمواجهة قرار الزواج من خوفينال أوربينو وقعت في أزمة رهيبة، إذ أدركت أنها لا تملك مبررات ملائمة لقبوله بعدما رفضت فلورينتينو أريثا من دون مبررات ملائمة. والواقع أنها ما كانت تحبّه أكثر ممّا أحبّت الآخر، إضافة إلى أن معرفتها به كانت أقل بكثير، ولم تكن تجد في رسائله تلك الحمّى التي وجدتها في رسائل الآخر، كما أنه لم يقدّم لها ما يكفي من الأدلة على قراره. فالحقيقة أن خوفينال أوربينو لم يطرح مطالبه يوماً بتعابير الحب، ومن المثير للفضول أن مؤمناً كاثوليكياً مثله لم يكن يعرض عليها سوى مكاسب دنيوية: الأمن، النظام، السعادة، وهي أرقام ما إن تُجمع إلى بعضها حتى تتحوّل مباشرة إلى شيء كالحب: الحب تقريباً. ولكنها ليست الحب، وقد كانت هذه الشكوك تضاعف من قلقها، لأنها لم تكن مقتنعة كذلك بأن الحب هو ما تحتاج إليه كي تعيش.

وعلى كل حال، فإن العامل الأساسي ضد الدكتور خوفينال أوربينو هو شبهه الأكثر من مريب مع الرجل المثالي الذي كان يأمل فيه لورينثو داثا كزوج لابنته. كان من المحال عليها ألا تراه كشخصية خارجة من أسطورة أبوية، مع أنه لم يكن كذلك في الواقع. لكن فيرمينا داثا كانت مقتنعة بأنه كذلك مذ رأته يدخل بيتها للمرة الثانية في زيارة طبية لم يُدعَ إليها. ثم جاءت أحاديثها مع ابنة خالها هيلديبراندا لتزيد من بلبلتها. فبسبب إحساس هذه الأخيرة بأنها ضحية، كانت تجد نفسها في

فلورينتينو أريثا، متناسية أن لوريثو داثا إنما بعث بطلبها لتمارس تأثيرها لصالح الدكتور أوربينو. والله وحده يعلم الجهد الذي بذلته فيرمينا داثا لتمنع نفسها من مرافقة ابنة خالها حين ذهبت لتتعرف على فلورينتينو أريثا في مكتب التلغراف. فقد كانت ترغب أيضاً برؤيته ثانية لمواجهته بشكوكها، التحدث إليه على انفراد، ومعرفته بعمق للتأكد من أن قرارها المتهوّر لن يورّطها في اتخاذ قرار آخر أشدّ خطورة، يكون استسلاماً في حربها الشخصية ضد أبيها. ولكنها فعلت ذلك في اللحظة الحرجة من حياتها، من دون أن تأخذ بعين الاعتبار جمال المتقدم إليها الذكوري، ولا ثروته الخرافية، ولا مجده المبكر، ولا أية ميزة أخرى من ميزاته الواقعية، وإنما فعلت ذلك وهي ذاهلة. يساورها الخوف من أن تفلت الفرصة من يدها، ومن اقترابها من إكمال إحدى وعشرين سنة، وهو السن المتعارف عليه الذي عليها بعده الاستسلام للقدر. كانت لحظة كافية لإقدامها على اتخاذ القرار المبيّن في قوانين الرب والبشر: حتى الموت. عندئذ زالت جميع الشكوك، وفعلت من دون ندم ما أملاه عليها العقل ورأته لائقاً: مرّت باسفنجة من دون دموع فوق ذكرى فلورينتينو أريثا ومسحته تماماً، مفسحة المجال ليتفتح في المكان الذي كان يحتله من ذاكرتها مرجاً من شقائق النعمان. والشيء الوحيد الذي سمحت لنفسها به كان إطلاق تنهيدة أعمق من المعتاد، التنهيدة الأخيرة: «يا للرجل البائس!».

لكن أكثر شكوكها إخافة بدأت فور عودتها من رحلة الزفاف، فما إن فتحت الصناديق، وحلت الحزم والطرود وأفرغت محتويات الأحد عشر صندوقا التي أحضرتها معها لتتسنم موقعها كربة بيت وسيدة قصر المركيز دي كالسالدويرو القديم، حتى تنبهت بانبهار قاتل إلى أنها سجينة في بيت خاطئ، والأسوأ من ذلك أنها كانت تعيش مع الرجل الذي لم يكن رجلاً. لقد احتاجت ست سنوات للخروج، كانت أسوأ سنيّ حياتها، قضتها في يأس من مرارة دونيا بلانكا، حماتها، وتخلّف

أختَيّ زوجها العقلي، اللتين إن لم تذهبا للتعفن وهما في الحياة بزنزانة في دير فلأنهما كانتا تحملان تلك الزنزانة بداخلهما.

الدكتور أوربينو المستسلم لدفع ضريبة أصله النبيل، صمّ أذنيه عن رجائها، موقناً أن حكمة الله وقُدرة الزوجة اللامتناهية على التأقلم كفيلان بوضع الأمور في نصابها. كان حزيناً لانهيار أمه، بعدما كان حبها للحياة في زمن آخر يبث الرغبة بالحياة حتى في أعتى الكفرة. هذا صحيح: فتلك المرأة الجميلة، الذكية، ذات الحساسية الإنسانية التي لا مثيل لها في وسطها، كانت خلال ما يقرب من أربعين سنة روح وجسد فردوسها الاجتماعي، إلى أن أذاقها الترمّل المرارة حتى صار من غير الممكن التعرّف عليها، وحوّلها إلى مترهلة وساخطة ومعادية للدنيا. والتفسير الوحيد لتخليها عن مكانتها الاجتماعية كان في غضبها على زوجها الذي ضحّى بحياته وهو واع في سبيل كومة من الزنوج، كما كانت تقول، في حين أن التضحية الوحيدة العادلة هي نجاته من الموت في سبيلها. ولقد استمر زواج فيرمينا داثا السعيد على أية حال ما دامته رحلة الزفاف، والشخص الوحيد القادر على مساعدتها في منع الانهيار النهائي يشله الخوف أمام تسلط الأم. وعليه، وليس على شقيقتَي زوجها المعتوهتين وحماتها نصف المخبولة، كانت فيرمينا داثا تلقي مسؤولية وقوعها في مصيدة الموت تلك. وبدأت ترتاب، بعد فوات الأوان، بأن الرجل الذي تزوجت منه يخفي وراء جبروته المهني وسحره الدنيوي شخصاً ضعيفاً بلا خلاص؛ شيطاناً يائساً يتغطرس بوزن ألقابه الاجتماعية.

لجأت حينئذ إلى الابن حديث الولادة. كانت قد أحسّت عند خروجه من جسدها براحة التحرّر من شيء ليس منها، وعانت الهول من نفسها حين رأت أنها لا تشعر بأدنى عاطفة تجاه عجل البطن ذاك الذي عرضته عليها القابلة وهو عار تماماً، وملوّث بالدهون والدم، وحبل الخلاص

ملتف حول عنقه. لكنها تعلمت في عزلة القصر التعرّف عليه، فتعارفا، واكتشفت بفرح شديد أن حب الأولاد ليس نابعاً من كونهم أبناء، وإنما ينشأ من صداقة التربية. وأصبحت لا تطيق شيئاً ولا أحداً سواه في بيت محنتها. كانت الكآبة تُثقل عليها، وكذلك الحديقة المأتمية، وترَهّل الزمن في الحجرات الفسيحة التي لا نوافذ لها. أحسّت بالجنون في الليالي المتطاولة بصراخ مجنونات مشفى الأمراض العقلية المجاور. وكانت تُشعرها بالخجل عادة إعداد مائدة الولائم كل يوم، بشراشف مطرزة، وأدوات طعام فضية وشمعدانات مأتمية، لخمسة أشباح يتعشون فنجان قهوة بالحليب وشطائر الدقيق بالجبن. مقتت صلوات الظهيرة، والتكلف على المائدة، والانتقادات المتوالية لطريقتها بإمساك أدوات الطعام، ومشيتها بتلك الخطوات المستخفة كخطوات امرأة من الشارع، ولارتدائها ملابس كملابس السيرك، بل ولأسلوبها القروي في معاملة زوجها وإرضاع طفلها من دون تغطية ثديها بدثار الرضاعة. وعندما وجهت الدعوات الأولى لتناول الشاي في الساعة الخامسة مساء، مع بسكويت إمبراطوري وحلوى زهور، تماشياً مع عادة محدثة في إنكلترا، عارضت دونيا بلانكا ذلك، لأنه لا يمكن في بيتها تناول المشروبات الطبية المستخدمة للتعرّق عند الحمى بدلاً من الشوكولاته مع الجبن وأقراص خبز اليُكّة. ولم تفلت منها حتى الأحلام. ففي صباح أحد الأيام روت فيرمينا داثا أنها رأت في الحلم رجلاً مجهولاً يمضي عارياً ويرش حفنات من الرماد في صالات القصر، فقاطعتها دونيا بلانكا بجفاء:

- لا يمكن لامرأة محتشمة أن تحلم هذا النوع من الأحلام.

وإلى إحساسها بأنها تعيش في بيت غريب، أضيفت نكبتان كبريان. إحدهما تمثلت في طبق الباذنجان اليومي بجميع أصنافه، والذي كانت دونيا بلانكا ترفض استبداله احتراماً للزوج الميت، بينما ترفض فيرمينا داثا أكله بأي حال. كانت تمقت الباذنجان منذ طفولتها، وقبل أن تتذوقه،

لأنه بدا لها دوماً بلون السمّ. ولكن لا بدّ لها من القبول على كل حال بأن شيئاً من اعتقادها قد تبدّل، وكان في صالح حياتها. فقد قالت وهي في الخامسة من عمرها ما كانت تقوله دوماً على المائدة، فأجبرها أبوها على أكل طنجرة كاملة كانت معدّة لستة أشخاص. ظنت أنها ستموت، بسبب قيء الباذنجان المهروس أولاً، ثم بسبب فنجان زيت الخروع الذي أجبروها على تناوله لمعالجتها من العقاب. وقد بقي الباذنجان وزيت الخروع مختلطان في ذاكرتها على أنهما مُسهّل، سواء بطعمهما أو برعب السم، وأثناء وجبات الغذاء الفظيعة في قصر المركيز دي كاسالدويرو كانت تضطر لصرف نظرها حتى لا تستعيد ذكرى الغثيان الجليدي لزيت الخروع.

وكانت النكبة الثانية هي القيثارة. ففي أحد الأيام قالت دونيا بلانكا وهي تعني تماماً ما تقوله: «لا أؤمن بوجود نساء محترمات لا يتقنّ العزف على البيانو». كانت تصدر بذلك أمراً، ما دفع ابنها لمجادلتها. فأفضل سنوات حياته أمضاها سجيناً في دروس البيانو، رغم أنه حمد ذلك في رشده. لكنه لم يكن قادراً على تصوّر زوجته ذات الخمسة والعشرين عاماً والطبع الحاد، خاضعة إلى العقوبة ذاتها. فكان ما ناله من الألم هو موافقتها على استبدال البيانو بالقيثارة، بذريعة صبيانية تقول إنها الأداة الموسيقية التي تستخدمها الملائكة. وهكذا جلبوا من فيينا قيثارة رائعة بدت كأنها من الذهب، وكانت أنغامها تصدح كما لو أنها كذلك فعلاً، وقد صارت في ما بعد أحد أبرز مقتنيات متحف المدينة، إلى أن التهمتها النيران مع كل ما كان فيه. خضعت فيرمينا داثا إلى عقوبة تلك الرفاهية في محاولة منها لوقف الانهيار بتضحية أخيرة. بدأت الدروس مع معلم أحضروه خصيصاً من مدينة مومبوكس، فمات فجأة بعد خمسة عشر يوماً من مجيئه، وتابعت الدروس لعدة سنوات مع موسيقي الدير الذي كانت روحه الجنائزية تشوّه موسيقاه القيثارية.

لقد فوجئت هي نفسها لانصياعها. فمع أنها ما كانت تقبل ذلك في قرارة نفسها، ولا في مجادلاتها الصمّاء مع زوجها خلال الساعات التي كانا يكرسانها للحب من قبل، إلا أنها تورطت بأسرع ممّا كانت تظن في شبكة تقاليد عالمها الجديد ومكائده. كانت تردد أوّل الأمر عبارة طقسية لتؤكد حرية رأيها: «إلى الجحيم أيتها المروحة فهذا وقت النسيم». ولكنها ما لبثت أن تحمّست لامتيازاتها التي أحسنت كسبها، وخافت من الخزي والسخرية، فأبدت استعدادها لاحتمال كل شيء، حتى المذلة، على أمل أن يعطف الله أخيراً على دونيا بلانكا، التي لم تمل دعوته في صلواتها بأن يبعث إليها الموت.

كان الدكتور أوربينو يبرر ضعفه بذرائع واهية، حتى من دون أن يتساءل إن لم يكن يعارض بذلك تعاليم كنيسته. فهو لا يُوافق على أن منشأ الخلافات مع زوجته هو جو البيت المفكك، وإنما طبيعة الزواج بحد ذاته. إنه ادّعاء سخيف لا وجود له إلا في بركات الله اللانهائية، يتناقض مع أي سبب علمي في أن شخصين لا يكاد أحدهما يعرف الآخر، ولا تربط بينهما أية صلة قربى، مختلفَي الطبائع والثقافة، بل ومختلفَي الجنس أيضاً وجدا نفسيهما ملزمين فجأة بالعيش معاً، والنوم في السرير نفسه والمشاركة في مصيرين ربّما كانا مقررين في اتجاهين مختلفين. كان يقول: «مشكلة الزواج هي أنه ينتهي كل ليلة بعد ممارسة الحب، ولا بدّ من العودة إلى بنائه كل صباح قبل تناول الفطور». أما زواجهما، كما يقول، القائم بين طبقتين متناحرتين، في مدينة ما زالت تحلم بعودة الحكام الاستعماريين، فالملاط الوحيد القادر على حفظ تماسكه هو شيء صعب ومتقلب كالحب، إن كان له من وجود، وفي حالتهما لم يكن له وجود عند زواجهما، ولم يفعل القدر شيئاً سوى جعلهما يواجهان الواقع حين كانا على وشك اختراع الحب.

هكذا كانت حياتها في مرحلة القيثارة. لقد تراجعت المصادفات

السعيدة حين كانت تدخل عليه وهو يستحم، ورغم المجادلات، والباذنجان السام، ورغم الشقيقتين المعتوهتين والأم التي أنجبتهما، كان لديه ما يكفي من الحب ليطلب منها أن تليّفه. فتبدأ عمل ذلك مستعينة بفتات الحب الذي بقي لديها من أوروبا، ثم يتيح كلاهما للذكريات أن تخدعهما، متحدثين من دون أن يشاءا، وراغبين من دون أن يقولا، وينتهيان إلى الموت حباً على الأرض، ملوثين بالرغوة المعطرة، فيما هما يسمعان الخادمات تتحدثن عنهما في حجرة الغسيل: «إذا كانا لا ينجبان أولاداً فلأنهما لا يشدّان». وبين الفينة والأخرى. ولدى عودتهما من إحدى الحفلات المحلية، كان الشوق الكامن وراء الباب يطرحهما بضربة من مخلبه، فيحدث حينئذ انفجار رائع. يعود كل شيء أثناءه إلى ما كان عليه من قبل، ويعودان خلال خمس دقائق ليكونا العاشقين المتيَّمين كما كانا في شهر العسل.

وباستثناء هذه الفرص النادرة، فإن أحدهما كان يشعر بالإرهاق أكثر من الآخر عند موعد النوم. وكانت هي تتأخر في الحمّام لتلف سجائرها بأوراق معطَّرة، وتدخن وحدها، ممارسة من جديد غرامياتها المواسية مثلما كانت تفعل وهي فتية وحرة في بيتها، حين كانت السيدة الوحيدة على جسدها. ثم إنها صارت تعاني من آلام رأس دائمة، أو تشعر بالحر الخانق دوماً، أو تتصنع النوم، أو تدّعي أنها في العادة الشهرية ثانية، العادة الشهرية، ودائماً العادة الشهرية. حتى أن الدكتور أوربينو تجرّأ على القول في أحد دروسه، لمجرد التفريج عن نفسه من اختناق لا يعترف به، إن العادة الشهرية بعد عشر سنوات من الزواج، تأتي النساء حتى ثلاث مرّات في الأسبوع.

نكبات تضاف إلى نكبات، وعلى فيرمينا داثا أن تواجه في أسوأ سنوات حياتها ما كان سيحدث عاجلاً أم آجلاً بلا مفر: حقيقة تجارة أبيها السحرية التي لم تعرفها أبداً. لقد حدّد حاكم الولاية موعداً في

مكتبه للدكتور خوفينال أوربينو ليطلعه على سوء سلوك حماه، وقد اختصر تلك المساوئ في جملة واحدة: «لا وجود لقانون إلهي أو بشري يوضح كيف أمكن لهذا الرجل أن يتقدّم». لقد قام ببعض أخطر عملياته مستظلاً بسلطة صهره. وكان يصعب التفكير بأن هذا الأخير وزوجته ليسا مطّلعَيْن على نشاطاته. ولمعرفة الدكتور أوربينو بأن السمعة الوحيدة القادرة على حماية حماه هي سمعته بالذات، لأنها الوحيدة التي ما زالت واقفة على قدمين، فقد وضع كل ثقل سلطته، وتمكّن من لفلفة الفضيحة بكلمة شرف منه. وهكذا كان على لوريثو داثا أن يغادر البلاد على أوّل سفينة وألّا يعود أبداً. عاد إلى موطنه الأصلي كما لو كان في رحلة من تلك الرحلات التي يقوم بها المرء بين الحين والآخر لخداع حنينه، وفي أعماق هذا الظاهر كان يوجد شيء من الحقيقة: فمنذ زمن وهو يصعد إلى السفن القادمة من وطنه ليتناول كأس ماء من خزانات التموين المملوءة من ينابيع مسقط رأسه. لقد مضى من دون حاجة لليّ ذراعه، مصرحاً ببراءته، ومحاولاً إقناع صهره بأنه وقع ضحية مؤامرة سياسية. مضى وهو يبكي على الطفلة، كما كان يسمي فيرمينا داثا مذ تزوجت، ويبكي فراق حفيده والأرض التي عرف فوقها الثراء والحرية، والتي استطاع أن يحقق فوقها مأثرة تحويل ابنته إلى سيدة مجتمع راقية معتمداً على صفقات غامضة. مضى هرماً ومريضاً، لكنه عاش بعد ذلك زمناً أطول ممّا تمناه أي من ضحاياه. ولم تستطع فيرمينا داثا قهر تنهيدة الراحة حين وصلها خبر موته، ولم تحدّ عليه منعاً لإثارة التساؤلات، لكنها بكت طوال شهور عديدة بغضب أصم من دون أن تدري السبب حين كانت تحبس نفسها للتدخين في الحمّام، وكان أنها تبكيه.

أسخف ما في وضعهما أن السعادة لم تبدُ عليهما يوماً في الأماكن العامة كما كانت تبدو في سنوات المحنة تلك. لقد كانت في الواقع سنوات انتصاراتهما الكبرى على عداوات وسطهما الخفية، الوسط

الذي ما كان ليتنازل بقبولهما كما هما: مختلفَين ومجددَيْن، ومخالفَين بالتالي للتقاليد القائمة. ومع ذلك. فقد كان هذا هو الجزء السهل بالنسبة لفيرمينا داثا. فحياة المجتمع، التي كانت تخيفها كثيراً قبل أن تعرفها، لم تكن أكثر من مجموعة من التحالفات المتوارثة، والطقوس التافهة المبتذلة، والكلمات الجاهزة التي يسلي بها بعض أهل المجتمع بعضهم الآخر كي لا يغتال بعضهم بعضاً. إن السمة السائدة في فردوس التفاهة هذا هي الخوف من المجهول. وقد حددت فيرمينا داثا ذلك بطريقة أكثر بساطة: «مشكلة الحياة العامة هي في تعلم السيطرة على الرعب، ومشكلة الحياة الزوجية هي في تعلم السيطرة على الضجر». اكتشفت ذلك فجأة بوضوح مذ دخلت، وهي تجر أذيال فستان الرفاف اللانهائية، إلى النادي الاجتماعي العابق بروائح كل تلك الزهور المتنوعة، وببريق الفالسات، وصخب الرجال المتعرّقين والنساء المرتعشات اللواتي رمقنها من دون أن يدرين حتى تلك اللحظة كيف سيواجهن ذلك التهديد المبهر الذي قذفهم به العالم الخارجي. كانت قد أتمت إحدى وعشرين سنة من عمرها من دون أن تخرج من بيتها إلا إلى المدرسة، لكن جولة واحدة من نظرها كانت كافية لتدرك أن خصومها ليسوا منكمشين حقداً وإنما هم مشلولون خوفاً. وبدلاً من أن تبعث فيهم مزيداً من الرعب، مثلما تعاني، أحسنت إليهم بمساعدتهم على التعرّف إليها. ولم يختلف أحد من الحضور عمّا أرادت له أن يكون، تماماً كما يحدث لها مع المدن التي لا تبدو لها أفضل أو أسوأ من سواها، وإنما كما رسمتها هي في قلبها. فباريس، ورغم مطرها الأزلي، وباعيها البخلاء، ورغم هذر حوذييها الهوميريّ، ستتذكرها دوماً كأجمل مدينة في العالم، لا لأنها كذلك أو ليست كذلك في الواقع، وإنما لأنها ارتبطت بحنينها إلى أسعد سنوات حياتها. أما الدكتور أوربينو، فقد واجه المجتمع بأسلحة كتلك التي شهدت ضده، والفارق الوحيد أنه استخدمها بذكاء أشد، وبوقار

محسوب. لم يكن يحدث شيء من دون وجودهما: النزهات التمدنية، مهرجانات الزهور، الأحداث الفنية، اليانصيبات الخيرية، الاحتفالات الوطنية، الرحلة الأولى بالمنطاد. لقد كان لهما دور في كل شيء، وغالباً ما كان دورهما هو الأساس والمقدمة. ما كان لأحد أن يتصوّر في سنوات محنتهما، أنه يمكن أن يكون هناك من هو أشد سعادة منهما أو من ينعم بزواج أكثر انسجاماً من زواجهما.

البيت الذي هجره الأب، منح فيرمينا دائا ملجأ خاصاً بديلاً للاختناق في القصر العائلي. فكانت ما إن تفلت من الانظار العامة حتى تمضي خفية إلى حديقة البشارة، لتستقبل هناك صديقاتها الجديدات وبعض صديقاتها القديمات من أيام المدرسة أو من دروس الرسم: بديل بريء للخيانة. كانت تعيش هناك ساعات هادئة كأم عزباء، مستحضرة ذكريات الطفولة الكثيرة التي ما زالت في ذاكرتها. أعادت شراء الغربان العطرة، والتقطت قططاً من الشارع ووضعتها تحت عناية غالا بلاثيديا، التي صارت عجوزاً وأصابها الروماتيزم بما يشبه الكساح، لكنها بقيت تحتفظ بالحماسة لبعث الحياة في البيت من جديد. أعادت فتح حجرة الخياطة حيث رآها فلورينتينو أريثا أوّل مرّة، وحيث طلب منها الدكتور خوفينال أوربينو أن تُخرج لسانها محاولاً بذلك التعرّف على قلبها، وحوّلتها إلى هيكل مقدس لذكريات الماضي. وحين مضت لتغلق نافذة الشرفة في مساء يوم شتوي، قبل أن تحطم العاصفة الزجاج، رأت فلورينتينو أريثا على مقعده تحت أشجار لوز الحديقة، ببدلة أبيه المقيفة على مقاسه والكتاب المفتوح في حضنه، لكنها لم تره كما كانت تراه كثيراً في تلك الأيام، وإنما رأته بسنّه التي تحفظها في ذاكرتها. وخشيت أن تكون تلك الرؤيا نذيراً بموته، فتألمت لذلك. وتجرأت على القول لنفسها بأنها ربّما كانت أسعد حالاً لو أنها تزوجته. لو كانت وحيدة معه في ذلك البيت الذي رممته من أجله بكثير من الحب كما رمّم بيته من

أجلها. لكن مجرّد الافتراض أرعبها، لأنه أتاح لها أن ترى درك التعاسة الذي وصلت إليه. فاستجمعت عندئذ آخر قواها وأجبرت زوجها على مناقشتها من دون مراوغة، أجبرته على مواجهتها، وعلى مشاجرتها، وعلى البكاء معها قهراً لفقدانهما الفردوس، إلى أن سمعا صياح آخر الديكة، ونفذ الضوء من بين تخاريم القصر، واشتعلت الشمس، ووقف الزوج المتورم لكثرة ما تكلم، والمنهك من النعاس، بقلبه المتصلب لكثرة ما بكى، شدّ رباط حذائه، وشدّ حزامه، وشدّ كل ما تبقى له من الرجولة، وقال لها نعم يا حبي، وقال إنهما سيمضيان للبحث عن الحب الذي فقداه في أوروبا: غداً بالذات وإلى الأبد. كان قراراً حاسماً لدرجة أنه اتفق مع بنك دي تيسورو، وكيل أعماله العالمي، على التصفية الفورية للإرث العائلي الواسع، المبعثر منذ تكوينه في جميع أنواع الأعمال التجارية، والاستثمارات والأوراق المقدسة والبطيئة، والذي لم يكن يعلم عنه علم اليقين إلا أنه لا يصل إلى المقادير المبالَغ فيها التي تدّعيها الأساطير: ما يكفي لتصفيته وعدم التفكير فيه. وطلب من البنك تحويل المبلغ، مهما كان، إلى ذهب مختوم وإيداعه في البنوك التي يتعامل معها في الخارج، حتى لا يبقى له ولزوجته في هذا الوطن القاسي شبر من الأرض يموتان فيه.

كان فلورينتينو أريثا لا يزال حياً، على عكس ما ظنّتْ. وكان يقف على رصيف الميناء حيث ترسو عابرة المحيطات الذاهبة إلى فرنسا حين وصلت مع زوجها وابنها في عربة الجوادين الذهبيين، ورآهما ينزلان مثلما رآهما يفعلان ذلك مرّات ومرّات في الاحتفالات العامة: كانا على أحسن حال، وكان معهما ابنهما، الذي رُبّي بطريقة تشي بما سيصيره في المستقبل؛ مثلما صار تماماً. حيا خوفينال أوربينو فلورينتينو أريثا تحية مرحة بقبعته: «إننا ماضون لغزو بلاد الفلاند». حيّته فيرمينا داثا بانحناءة من رأسها، فرفع فلورينتينو أريثا قبعته وحيّاها بحني رأسه انحناءة خفيفة،

ودققت فيه من دون أن تظهر عليها إمارات الشفقة لصلعه المبكر. أنه هو، تماماً كما تراه: طيف شخص لم تعرفه أبداً.

لم يكن فلورينتينو أريثا على أحسن حال كذلك. فالعمل المتزايد يوماً بعد يوم، وتخمته كصياد متوحّد، وخمود همته بفعل السنين، كانت تثقل عليه. ثم أضيفت إلى ذلك كله أزمة ترانسيتو أريثا الأخيرة، التي صارت ذاكرتها بلا ذكريات: صفحة بيضاء تقريباً. حتى أنها كانت تلتفت إليه أحياناً، فتراه يقرأ على الكرسي الذي اعتاد الجلوس عليه، فتسأله متفاجئة: «ابن مَن أنت؟». وكان يجيبها دائماً بقول الحقيقة، لكنها كانت تقاطعه في الحال متسائلة:

- وقل لي يا بني: وأنا من أكون؟

كانت قد وصلت إلى حدّ من السمنة جعلها عاجزة عن الحركة، فصارت تُمضي النهار في دكان أدوات الخياطة الذي لم يعد فيه شيء للبيع، وهي تتزين منذ استيقاظها مع أوّل الديكة حتى فجر اليوم التالي، لأن ساعات نومها أصبحت قليلة جداً. كانت تضع على رأسها أكاليل زهور، وتصبغ شفتيها، وترش البودرة على وجهها وذراعيها، ثم تسأل من يكون معها كيف يراها. وكان جميع الجيران يعرفون أنها تنتظر الإجابة نفسها يوماً: «إنك الصرصارة مارتينث». هذه الهوية المنتحلة من شخصية قصة للأطفال، هي الوحيدة التي كانت تريحها. فتتابع الهز على الكرسي الهزاز، والتهوية بباقة من الريش الوردي الطويل، إلى أن تعود لتبدأ من جديد: إكليل الزهور الورقية، المسك على الجفون، الأحمر القاني على الشفاه، وطبقة البياض على الوجه. والسؤال ثانية لمن هو قريب منها: «كيف تراني؟». وعندما تحوّلت إلى ملكة السخرية بين الجوار، عمد فلورينتينو أريثا في إحدى الليالي إلى تفكيك منضدة دكان أدوات الخياطة القديمة وخزائنها، وأغلق الباب المطل علي الشارع،

وأعد المكان على الشكل الذي سمعها تصف فيه مخدع الصرصارة مارتينث، ومنذ ذلك الحين لم تعد تسأل من هي.

وبناء على نصيحة من العم ليون الثاني عشر، بحث لها عن امرأة مسنة تتولى شؤونها، لكن المرأة المسكينة كانت تسير وهي شبه نائمة، حتى أن المرء يشعر أحياناً بأنها نسيت كذلك من تكون. وهكذا كان فلورينتينو أريثا يبقى في البيت منذ خروجه من المكتب إلى أن يتمكن من تنويم أمه. لم يعد يلعب الدومينو في النادي التجاري، وتوقف لوقت طويل عن لقاء القلة من صديقاته القديمات اللاتي كان يتردّد عليهن، ذلك أن تبدّلاً عميقاً طرأ على قلبه بعد لقائه المرعب مع أوليمبيا زوليتا.

كان لقاء صاعقاً. فبعد أن أوصل فلورينتينو أريثا العم ليون الثاني عشر إلى بيته، أثناء عاصفة من عواصف تشرين الأول التي لا تترك للمرء لحظة راحة، رأى وهو في العربة فتاة ضئيلة ورشيقة، ترتدي فستاناً مزيناً بالكشاكش يبدو أشبه بفستان زفاف. رآها تركض مرتبكة من جانب إلى آخر، لأن الريح انتزعت منها مظلتها وطارت بها إلى البحر. فحملها في عربته وانحرف عن طريقه ليوصلها إلى بيتها الذي كان أشبه بصومعة قبالة البحر الفسيح، وكان فناء البيت مليئاً بأعشاش حمام تظهر من الشارع. روت له في الطريق أنها تزوجت، منذ أقل من سنة، من تاجر خزفيات كان فلورينتينو أريثا قد رآه كثيراً في سفن شركته، حين كان يُفرغ من السفن صناديق تحتوي جميع أنواع الخزفيات لبيعها في السوق، وبرفقته عالم من الحمائم في قفص خيزراني، من تلك الأقفاص التي تستخدمها الأمهات لحمل أطفالهن حديثي الولادة في السفن النهرية. كان يبدو على أوليمبيا زوليتا أنها تنتمي إلى فصيلة الزنابير، ليس بسبب وركيها المرتفعين وصدرها الضامر وحسب، وإنما لكل ما فيها: شعرها الذي كأسلاك النحاس، وكلف الشمس في وجهها، وعيناها المستديرتان

والمتقدتان والبعيدتان إحداهما عن الأخرى أكثر ممّا يجب. ثم إنها لا تتكلم حين تشعر بالإلفة إلا لتقول أموراً ذكية وممتعة. لقد بدت لفلورينتينو أريثا ظريفة أكثر من كونها جذابة، ونسيها حالما أوصلها إلى بيتها، حيث كانت تعيش مع زوجها، ووالد هذا الزوج وأعضاء آخرين من العائلة.

وبعد مرور عدّة أيام، رأى الزوج في الميناء وهو يشحن سفينة بالبضائع بدلاً من إنزالها منها كعادته، وعندما أبحر المركب، سمع فلورينتينو أريثا صوت الشيطان واضحاً في أذنيه. وفي مساء ذلك اليوم، بعد أن أوصل العم ليون الثاني عشر، مرّ كما لو كان مروره مصادفة، مقابل بيت أوليمبيا زوليتا، ورآها فوق السياج تقدم الطعام للحمائم الهائجة. فصاح بها من العربة قائلاً: «ما سعر الحمامة؟». تعرفت عليه وأجابته بصوت مرح: «ليست الحمائم للبيع». فسألها: «وماذا عليّ أن أفعل لأحصل على واحدة؟» ومن دون أن تتوقف عن نثر الطعام للحمام، ردت عليه: «عليك أن توصل صاحبة الحمام بالعربة حين تجدها تائهة تحت المطر». وهكذا عاد فلورينتينو أريثا إلى بيته تلك الليلة حاملاً هدية شكر من أوليمبيا زوليتا: حمامة زاجلة في قائمتها خاتم معدني.

في مساء اليوم التالي، وفي ساعة تقديم الطعام للحمام تماماً، رأت راعية الحمام الجميلة الحمامة المهداة عائدة إلى عشّها، فظنت أنها قد هربت منه. ولكنها حين أمسكتها لتتفحصها رأت أنها تحمل قصاصة ورق مطوية في الخاتم: تصريح حب. كانت تلك هي المرّة الأولى التي يترك فيها فلورينتينو أريثا أثراً مكتوباً، لكنها لن تكون الأخيرة، رغم أنه كان من الفطنة في هذه المناسبة بحيث لم يضع توقيعه على الورقة. وأثناء عودته إلى منزله في مساء اليوم التالي، يوم الأربعاء، سلّمه طفل من الشارع الحمامة نفسها في قفص، مع رسالة شفوية بأن سيدة الحمائم تبعث لك هذا وتقول لك رجاءً أن تحافظ عليها جيداً في القفص المقفل،

لأنها ستفلت منك ثانية إن لم تفعل، ولن نعيدها إليك بعد هذه المرّة. لم يعرف كيف عليه أن يفسر ذلك: فإما أن الحمامة قد أضاعت رسالته في الطريق، وإما أن راعية الحمام قررت التظاهر بالبلاهة، أو أنها أرسلت الحمامة ليعيدها إليها ثانية. ولكن الطبيعي في هذه الحالة الأخيرة أن تعيد إليه الحمامة مع ردّ منها.

وفي صباح يوم السبت، وبعد تفكير مطوّل، بعث فلورينتينو أريثا الحمامة من جديد مع رسالة أخرى من دون توقيع. ولم يكن عليه أن ينتظر هذه المرّة حتى اليوم التالي. ففي المساء، أتاه الصبي نفسه حاملاً الحمامة في قفص آخر، ورسالة شفوية بأنها تعيد إليه ثانية الحمامة التي عادت لتفلت منه، وأنها قد أعادتها أمس الأول بدافع حسن التربية وتعيدها هذه المرّة إشفاقاً، ولكنها تقول الحقيقة الآن بأنها لن تعيدها إذا ما أفلتت منه. لهت ترانسيتو أريثا بالحمامة حتى وقت متأخر، فأخرجتها من القفص، وهدلت لها وهي تحملها بين ذراعيها، محاولة تنويمها بأغنيات أطفال، وفجأة لاحظت أن في خاتمها وُريقة كتب عليها سطر واحد: لا أقبل رسائل مغفلة. قرأه فلورينتينو أريثا بقلب فاقد للوعي، وكأنه في ذروة مغامرته الأولى، ولم يكد يغفو في تلك الليلة، إلا ليعاني فقدان الصبر في أحلامه. وفي صباح اليوم التالي، قبل ذهابه إلى المكتب، أطلق الحمامة ثانية بعدما حمّلها رسالة حب وقع عليها اسمه بحروف واضحة تماماً، ووضع لها في الخاتم أيضاً أحدث وردة متفتحة في حديقته، وأكثرها حيوية وشذى.

لم يكن الأمر سهلاً معها. فبعد ثلاثة شهور من الحصار، واصلت راعية الحمام الردّ بالإجابة ذاتها «لست من هؤلاء». ولكنها لم ترفض أبداً تلقي الرسائل أو المجيء إلى المواعيد التي كان يرتبها فلورينتينو أريثا بحيث تبدو لقاءات مصادفة. لقد كان معتاداً على التخفّي: إنه العاشق الذي لا يظهر وجهه أبداً، وهو أكبر طمّاع في الحب، والأشدّ

بخلاً فيه في الوقت ذاته؛ من لا يمنح شيئاً ويريد كل شيء، من لا يتيح لأحد ترك أدنى أثر في قلبه. هذا الصياد المنزوي خرج من مخبئه وألقى بنفسه إلى عرض الطريق في نوبة احتدام رسائل موقّعة، وهدايا غزل، وطواف مستهتر حول بيت راعية الحمام، بل إنه جال حول البيت في مناسبتين لم يكن الزوج فيهما مسافراً كما لم يكن في السوق. إنها المرّة الأولى، منذ زمن حبه الأول، التي أحسّ فيها بأن نصلاً يخترقه.

بعد ستة شهور على لقائهما الأول، التقيا أخيراً في قمرة سفينة كان يجري إصلاحها وطلاؤها في الميناء النهري. كان مساء رائعاً. وكانت أوليمبيا زوليتا صاحبة حب مرح، حب راعية حمام طائشة، وتهوى البقاء عارية لعدة ساعات، في راحة مسترخية هي بالنسبة لها حب كالحب. كانت القمرة منزوعة الطلاء، وقد أعيد طلاء نصفها تقريباً، وكانت رائحة التربنتين ملائمة للاحتفاظ بها كذكرى من مساء لطيف. وفجأة، وبإلحاح وحي فريد، نزع فلورينتينو أريثا غطاء علبة دهان أحمر كانت قريبة من السرير، وغمس إصبعه السبابة فيها، ورسم على عانة راعية الحمام الجميلة سهماً دامياً مصوباً نحو الجنوب، ثم كتب على بطنها عبارة: هذه اليمامة لي. وفي تلك الليلة بالذات، تعرّت أوليمبيا زوليتا أمام زوجها من دون أن تتذكر الإعلان المكتوب على بطنها، ولم ينطق الزوج بأية كلمة، بل إن إيقاع أنفاسه لم يتبدل. لا شيء، لكنه مضى إلى الحمّام وتناول موس الحلاقة فيما كانت ترتدي قميص نومها، وذبحها بضربة واحدة.

لم يعلم فلورينتينو أريثا بالحدث إلّا بعد عدّة أيام، حين أُلقي القبض على الزوج الهارب وروى للصحف أسباب الجريمة وكيفية تنفيذها. وقد انشغل خلال سنوات بالتفكير برسائله الموقّعة بخوف، وراح يحسب سنوات سجن القاتل الذي كان يعرفه جيداً من خلال تجارته التي ينقلها في السفن، لكنه لم يكن يخشى ضربة موس حلاقة في العنق،

ولا الفضيحة العامة، بقدر ما كان يخشى حظه العاثر إذا ما علمت فيرمينا داثا بخيانته. وفي أحد أيام سنوات الانتظار، تأخرت المرأة القائمة على رعاية ترانسيتو أريثا في السوق بسبب مطر غزير في غير أوانه، وحين رجعت إلى البيت وجدتها ميتة. كانت تجلس على الكرسي الهزاز، مزينة ومزهرة كعادتها، وكانت عيناها متقدتين حيوية، وعلى شفتيها ابتسامة شديدة الخبث بحيث لم تنتبه حارستها إلى أنها ميتة إلا بعد ساعتين. وكانت قبل موتها بقليل قد وزعت على أطفال الحيّ ثروتها من الذهب والمجوهرات المدفونة تحت السرير، قائلة لهم أنهم يستطيعون أكلها كقطع الحلوى، ولم يكن ممكناً استعادة بعض القطع الثمينة. دفنها فلورينتينو أريثا في مزرعة لامانو دي ديوس القديمة، التي ما زالت تُعرف باسم مقبرة الكوليرا، وزرع على قبرها شجيرة ورد.

ومنذ زيارته الأولى للمقبرة. اكتشف فلورينتينو أريثا أن أوليمبيا زوليتا كانت مدفونة على مقربة من أمه، في قبر بلا لوحة حجرية، لكن اسمها وتاريخ موتها كانا مكتوبين بالإصبع على اسمنت القبر الطري، وفكر مذعوراً بأن تلك الكتابة هي سخرية دموية من الزوج. وعندما أزهرت شجيرة الورد، كان يضع وردة على قبرها، إن لم يكن هناك من يراه، ثم إنه زرع لها فيما بعد جفنة قطعها من شجيرة أمه. كانت شجيرتا الورد تنموان بسرعة هائلة، ممّا جعل فلورينتينو أريثا يضطر إلى حمل مقص التشذيب وغيره من أدوات الحديقة للحفاظ على الشجرتين ضمن حدود معقولة. لكن نموهما كان أكبر من قواه. وبعد عدّة سنوات كانت الشجيرتان قد امتدتا كحرج ما بين القبور، فصارت مقبرة الوباء الطيبة تعرف منذ ذلك الحين باسم مقبرة الورود، إلى أن جاء عمدة أقل واقعية من الحكمة الشعبية، فانتزع شجيرات الورد في إحدى الليالي، وعلّق لوحه جمهورية فوق قنطرة المدخل: المقبرة الكونية.

لقد حكم موت الأم على فلورينتينو أريثا بالعودة إلى ديدنه السابق:

المكتب، واللقاءات المتناوبة مع عشيقاته المزمنات، ولعب الدومينو في النادي التجاري، وقراءة كتب الحب نفسها، وزيارة المقبرة في أيام الآحاد. إنه صدأ الروتين الذي كثيراً ما كان محطّ قذف ومبعث خوف، لكنه حماه من الإحساس بتقدمه في السن. ومع ذلك، في يوم أحد من أيام كانون الثاني، حين كانت شجيرات الورد قد انتصرت على مقص التشذيب، رأى سنونوة على أسلاك النور التي نصبت حديثاً، فأدرك فجأة كم من الوقت مضى على موت أمه، وكم مضى على مقتل أوليمبيا زوليتا، وكم مضى أيضاً على ذلك المساء الآخر من شهر كانون الأول البعيد حين بعثت فيرمينا داثا رسالة تقول فيها أجل، إنها ستحبه إلى الأبد. كان يتصرّف حتى ذلك الحين وكأن الزمن لا يتقدّم بالنسبة له وإنما بالنسبة للآخرين فقط. ففي الأسبوع الماضي تقريباً التقى في الشارع بزوجين من أولئك الكثيرين الذين تزوجوا بفضل رسائله السرية، ولم يستطع أن يتعرّف إلى الابن الأكبر الذي كان هو نفسه عرّابه. وقد تخلص من الحرج بالعبارة التقليدية: «يا الله! ها قد أصبح رجلاً!». وحتى حين أصبح جسده يبعث إليه بأول إشارات الإنذار، استمر على هذا الحال، لأنه احتفظ دوماً بعافية كالصخر في مواجهة الأمراض. وقد اعتادت ترانسيتو أريثا القول: «المرض الوحيد الذي أصاب ابني هو الكوليرا». خالطة الكوليرا بالحب طبعاً، وذلك قبل أن تختلط ذاكرتها بزمن طويل. ولكنها كانت مخطئة على أي حال، لأن ابنها أصيب سراً بست حالات من السيلان الأبيض، رغم أن الطبيب كان يقول إنها ليست ست حالات، وإنما حالة واحدة وحيدة تعود للظهور بعد كل معركة خاسرة. كما أُصيب بخراج، وبأربع حالات من عرف الديك، وست إصابات بالبثور، ولكن لم يكن ليخطر بباله أو ببال أي رجل آخر اعتبار تلك الإصابات أمراضاً، وإنما مجرّد تذكارات حرب.

ما كاد يتم الأربعين من العمر حتى اضطر للهرع إلى الطبيب شاكياً

من آلام غير محددة في عدّة مواضع من جسده. وبعد عدّة فحوص، قال له الطبيب: «إنها السّنّ». لقد كان يعود إلى البيت دوماً من دون أن يتساءل إن كان لكل هذه الأمور علاقة به. فنقطة الارتكاز الوحيدة في ماضيه هي غرامياته البائدة مع فيرمينا داثا، ولم يكن يدخل في حسابات حياته إلّا ما له علاقة بها. وهكذا وجد نفسه، يوم رؤيته طيور السنونو على أسلاك النور، يسترجع ماضيه منذ أقدم ذكرياته. استرجع ذكرى غرامياته العارضة، والعثرات الكثيرة التي كان عليه اجتيازها للوصول إلى موقع قيادي، وكذلك الحوادث الكثيرة التي أثارها قراره الملحمي بأن تكون فيرمينا داثا له، وهو لها رغم كل شيء وفوق كل شيء، وعندها فقط اكتشف أن الحياة تفلت منه. فهزت أحشاءه قشعريرة أفقدته صوابه، واضطر لإفلات أدوات الحديقة والاستناد إلى جدار المقبرة كي لا تطرحه أرضاً أوّل ضربة من مخلب الشيخوخة، وقال مرتعداً:

- رباه! كل هذا حدث منذ ثلاثين سنة!

أجل. ثلاثون سنة مرّت كذلك على فيرمينا داثا بلا شك، لكنها كانت بالنسبة لها أسعد سنوات حياتها وأكثرها حيوية. كانت أيام الرعب في قصر كاسالدويرو قد أهملت في مزبلة الذاكرة. وأصبحت تعيش في بيتها الجديد في حيّ لامانغا، سيدة كاملة السيادة على مصيرها، مع زوج عادت تفضله على جميع رجال العالم لو أتيح لها الاختيار من جديد، ومع ابن سيتابع إرث العائلة في مدرسة الطب، وابنة تشبهها تماماً عندما كانت هي في مثل سنها، حتى أن إحساسها بأنها تتكرر من خلالها كان يسبب لها الاضطراب. لقد عادت ثلاث مرّات إلى أوروبا بعد الرحلة التعيسة، حين قررت ألا تعود أبداً كي تتخلص من العيش في رعب دائم.

لا بدّ أن الله قد استجاب أخيراً لصلوات أحد ما: فبعد سنتين من الإقامة في باريس، وحين بدأت فيرمينا داثا بالبحث مع خوفينال أوربينو عمّا تبقى لهما من الحب بين الأنقاض، وصلتهما برقية من برقيات

متنصف الليل، أيقظتهما بخبر أن دونيا بلانكا دي أوربينو تعاني مرضاً خطيراً، ثم تلتها برقية ثانية تحمل خبر موتها. رجعا في الحال. ونزلت فيرمينا داثا من السفينة بثوب حداد فضفاض لم يخف اتساعه حالتها: كانت حُبلى ثانية بالفعل، وقد كان هذا الخبر منطلقاً لأغنية شعبية تحمل من الخبث أكثر ممّا تحمله من السوء، وقد شاع منها طوال تلك السنة مقطع يقول: ما الذي تفعله الجميلة في باريس، ما تكاد تذهب حتى تعود للولادة. ورغم ابتذال الكلمات، واصل الدكتور خوفينال أوربينو ترديدها لسنوات طويلة في حفلات النادي الاجتماعي كدليل على طيب سريرته.

قصر المركيز دي كاسالدويرو الفخم، الذي لم يُعثر قطّ على خبر مؤكد حول وجوده ومآثره، بيع أولاً لدار الخزينة البلدية بسعر مناسب، ثم أعيد بيعه بثروة باهظة في ما بعد للحكومة المركزية، عندما جاء باحث هولندي لإجراء تنقيبات هناك، ليثبت وجود الضريح الحقيقي لكريستوف كولومبس: الضريح الرابع. وقد ذهبت شقيقتا الدكتور أوربينو للعيش في دير لاس ساليسياناس، في عزلة بلا نذور، وأقامت فيرمينا داثا في بيت أبيها القديم ريثما ينتهي العمل ببناء البيت في لامانغا. وقد دخلت إليه بخطى واثقة، دخلت لتأمر وتنهي، ومعها دخل الأثاث الإنكليزي الذي أحضرته منذ رحلة الزفاف، والمكملات التي بعثت بطلبها بعد رحلة المصالحة، وبدأت تملأ البيت منذ يومها الأول فيه بكل أنواع الحيوانات الغريبة التي كانت تمضي بنفسها لتشتريها من سفن الأنتيل. دخلت إلى البيت الجديد مع زوجها المستعاد، ومع ابنها اليافع، وابنتها التي وُلدت بعد أربعة شهور من عودتها، وعمّداها باسم أوفيليا. وأدرك الدكتور أوربينو من جهته، أنه يستحيل عليه استعادة زوجته تماماً كما كانت له أثناء رحلة الزفاف، لأن الحب الذي أراده منها منحته للطفلين، ولكنه تعلّم العيش سعيداً ببقايا الحب. ثم وصلهما الانسجام

المرغوب من حيث لم ينتظراه أثناء مأدبة عشاء قُدم فيها صنف لذيذ لم تتمكن فيرمينا داثا من تحديد كنهه. فتناولت طبقاً لا بأس به، لكن الطعام أعجبها، فعادت تسكب طبقاً آخر، وتحسرت لأن التكلّف الاجتماعي لا يسمح لها بسكب طبق ثالث. وعندما علمت بأنها إنما تناولت، بشهية لا شك فيها، طبقين من بوريه الباذنجان المطحون، أصبح الباذنجان يقدّم في بيت لامانغا بكل أشكاله، وبكميات كتلك التي كان يقدم بها في قصر كاسالدويرو، وكان الجميع يأكلونه بشهية، حتى أن الدكتور خوفينال أوربينو صار يمزح في لحظات فراغ الشيخوخة بالقول إنه يرغب بإنجاب ابنة ليطلق عليها الاسم المحبوب في البيت: باذنجانة أوربينو.

كانت فيرمينا داثا تعرف حينئذ أن الحياة الخاصة متقلبة ومليئة بالمفاجآت، على عكس الحياة العامة. ولم يكن من السهل عليها وضع فوارق حقيقية ما بين الأطفال والبالغين، ولكنها كانت تفضل الأطفال في نهاية المطاف، لأن معاييرهم أكثر صواباً. وما كادت تجتاز منعطف النضوج، متخلصة أخيراً من أنواع السراب، حتى بدأت ترى خيبة الأمل في أنها لم تكن أبداً كما حلمت أن تكون وهي شابة، في حديقة البشارة، وإنما أصبحت شيئاً آخر لم تجرؤ على الاعتراف به حتى لنفسها: خادمة مرفّهة. لقد توصلت لتصبح سيدة الحياة الاجتماعية المحبوبة، ومحطّ الإعجاب فيها، لتكون في الوقت ذاته السيّدة مرهوبة الجانب. ولكن شيئاً لم يكن يلح عليها بقسوة ولم يكن أقل تهادناً من إدارة شؤون المنزل. لقد أحسّت دوماً بأنها تعيش حياة مكرّسة لزوجها: سيدة مطلقة في مملكة السعادة الفسيحة المشادة من أجله، ومن أجله فقط. كانت تعلم أنه يحبها فوق كل شيء، يحبها أكثر ممّا يحب أياً كان في الدنيا، إنما يحبها من أجل نفسه فقط: في خدمته المقدّسة.

وإذا كان هناك ما يعذّبها فهو الحكم المؤبّد المفروض عليها بتحضير الطعام اليومي. إذ لم يكن الأمر يتوقف عند إعداد الطعام في الموعد

المحدّد، بل لا بدّ أن يكون كذلك متقَناً، وأن يحتوي على ما يريد الزوج أكله من دون أن تسأله عمّا يريد. وإذا ما سألته يوماً، فإن سؤالها سيكون طقساً آخر يضاف إلى طقوس الروتين البيتية التي لا طائل منها، لأنه سيردّ عليها من دون أن يرفع نظره عن الجريدة: «أي شيء». والحقيقة أنه كان يقول ذلك، بطريقته اللطيفة، لأنه ما كان يستطيع أن يتصوّر نفسه كزوج أقل استبدادية. لكنه حين يجلس إلى المائدة لا يقبل أي شيء، بل ما يريده بالضبط، وبلا أدنى نقصان: فاللحم ليس له مذاق اللحم، والسمك ليس له مذاق السمك، وليس للخنزير طعم الجرب، ولا للفروج مذاق الريش. ثم إنه لا بدّ من وجود الهليون في أي موسم كان، حتى يُتاح له الابتهاج لرائحة بوله الشذيّة. ما كانت تلومه، بل تلقي باللوم على الحياة. لكنه كان صانعاً لا يرحم من صنّاع الحياة. كانت تكفيه عثرة شك ليزيح الطبق عن المائدة قائلاً: «هذا طعام صُنع بلا حب». وكان يصل في هذا المنحى إلى حالات خيالية من الإلهام، ففي أحد الأيام، تذوّق قليلاً من شراب البابونج، ثم أعاد ما شربه بعبارة واحدة: «هذا الشيء له طعم نافذة». وقد فوجئت هي كما فوجئت الخادمات، لأنهن لم يتعرّفن يوماً على أحد شرب نافذة مغلية. ولكنهن حين تذوقن الشراب ليفهمن... فهمن: كان له مذاق نافذة.

لقد كان زوجاً دقيقاً: فهو لم يلتقط أي شيء عن الأرض يوماً، كما لم يكن يطفئ النور أو يغلق الباب أبداً. وحين يجد أحد الأزرار ناقصاً، في عتمة الفجر، كانت تسمعه يقول: «لا بدّ للمرء من زوجتين، واحدة ليحبها، وواحدة لتخيط له الأزرار». وفي كل يوم، عند تناوله أوّل رشفة من القهوة وأوّل ملعقة من الحساء الساخن، كان يطلق عواء مؤثراً ما عاد يفزع أحداً، ثم ينطلق بالقول فوراً: «إذا ما هجرت هذا البيت يوماً فاعلموا انني فعلت ذلك لأني مللت البقاء فيه بفم محروق دوماً». وكان يقول إنهم لا يطبخون غذاء شهياً ومتنوعاً إلا عندما يتناول مليّناً لتنظيف

معدته ويكون عاجزاً عن أكل الطعام، وكان موقناً أن هذا التدبير هو مؤامرة غادرة من زوجته، حتى أنه لم يعد ينظف معدته بدواء مُسهّل إلا إذا تناولت مُسهّلاً معه.

ولضجرها من سوء تقديره، طلبت منه هدية فريدة في عيد ميلادها: أن يقوم بأداء الأعمال البيتية ليوم واحد. فوافق فرحاً، وتولى إدارة البيت فعلاً منذ الفجر. قدّم فطوراً رائعاً، لكنه نسي أنها لا تحب البيض المقلي ولا تتناول القهوة بالحليب. ثم أعطى التعليمات لإعداد غذاء عيد ميلاد لثمانية مدعوّين وأوعز بترتيب البيت، ورغم اجتهاده لتسيير الشؤون المنزلية خيراً منها، فقد اضطر للاستسلام من دون خجل قبل منتصف النهار. إذ أدرك منذ اللحظة الأولى أنه لا يملك أدنى فكرة عن مكان وجود أي شيء وخصوصاً في المطبخ، وقد تركته الخادمات يقلب كل شيء ليبحث عما يريده، إذ شاركن كذلك في اللعب. وحتى الساعة العاشرة لم يتلقين الأوامر لإعداد الغذاء، لأن تنظيف البيت لم يكن قد انتهى، كما لم يكن قد تمّ ترتيب غرف النوم بعد، وبقي الحمّام من دون تنظيف، ونسي وضع الورق الصحي في مكانه، وكذلك استبدال ملاءات الأسرّة، كما نسي أن يبعث الحوذي لإحضار الأولاد، وخلط بين مهمات الخادمات، فأمر الطاهية بترتيب الأسرّة، وبعث عاملات خدمة المائدة لطهي الطعام. وفي الساعة الحادية عشرة، حين كان المدعوون على وشك الوصول، كان البيت لا يزال غارقاً في الفوضى، ما دفع فيرمينا داثا إلى تولي القيادة وهي منفجرة بالضحك، ولكنها لم تفعل ذلك بزهو الانتصار الذي رغبته، بل بشفقة تهز أعماقها لعدم جدوى زوجها في الشؤون البيتية. وتنفس هو من الحرج بحجته الدائمة: «لم يكن الأمر سيئاً على الأقل إلى الدرجة التي ستصلين إليها لو أنك حاولت معالجة المرضى». لكن الدرس مضى بلا فائدة لكليهما. فمع تقدّم السنين وصلا، عبر سبيلين مختلفين، إلى النتيجة الحكيمة بأنه ليس ممكناً لهما

العيش معاً بطريقة أخرى، وليس ممكناً لهما أن يحبا بعضهما بأسلوب آخر: إذ ليس في هذه الدنيا ما هو أصعب من الحب.

في خضم حياتها الجديدة، رأت فيرمينا داثا فلورينتينو أريثا في مناسبات عامة عديدة، وكانت تراه أكثر كلما ترقّى في عمله؛ لكنها تعلمت أن تراه بصورة طبيعية جداً، حتى أنها نسيت مصافحته أكثر من مرّة نتيجة سهوها عنه. وكثيراً ما كانت تسمع أحاديث عنه لأن موضوع صعوده الحذر والواثق في مناصب ش.ك.م.ن. كان موضوعاً شائعاً في عالم الأعمال. وكانت تنظر إلى تحسّن مكانته، وإلى الثناء على خجله كأحجية نائية. كان مظهره يتحسّن مع زيادة طفيفة في وزنه، كما أن بطء السن كان يناسبه، ثم إنه عرف كيف يحل بوقار مشكلة الصلع المدمرة. والأشياء الوحيدة التي بقيت فيه متحدية الزمان والمكان هي ملابسه القاتمة، والسترات التي كانت موضة زمن مضى، والقبعة الوحيدة، وربطة عنق الشاعر المصنوعة من شرائط كان يأخذها من دكان أمه، والمظلة المشؤومة. وقد اعتادت فيرمينا داثا على رؤيته بطريقة مختلفة، إلى أن لم تعد تربط بينه وبين المراهق الهزيل الذي كان يجلس متنهّداً من أجلها تحت الأوراق الصفراء المتطايرة في حديقة البشارة. ولكنها لم تره أبداً بلامبالاة، وكانت تفرح دوماً للأخبار الطيبة التي تسمعها عنه، لأنها كانت تهدئ شيئاً فشيئاً من شعورها بالذنب.

ومع ذلك، وحين ظنت أنها قد محته تماماً من ذاكرتها، عاد للظهور من حيث لم تكن تنتظره متحولاً إلى شبح لأشواقها. كانت قد هبّت عليها أولى نسائم الشيخوخة حين بدأت تشعر أن شيئاً لا سبيل إلى إصلاحه قد حدث في حياتها كلما سمعت قصف الرعد قبل المطر. أنه الجرح الذي لا يندمل لذلك الرعد المتوحد والصخري الدقيق في موعده، الذي كان ينفجر كل يوم من أيام تشرين الأول في الساعة الثالثة مساء في جبال فييانويفا، والذي كانت ذكراه تتجدد مع مرور السنين. فبينما

كانت الذكريات الجديدة تختلط في ذاكرتها بعد أيام من حدوثها، كانت ذكريات الرحلة القديمة إلى مقاطعة ابنة الخال هيلديبراندا تصبح معاصرة حتى لتبدو كأنها حدثت بالأمس، وذلك بقدرة الحنين المضللة. صارت تتذكر ماناوري، البلدة الجبلية، بشارعها الوحيد المستقيم والأخضر، وعصافيرها بشير الفأل الطيب، وبيت المخاوف حيث كانت تستيقظ وقميصها مضمخ بدموع بيترا موراليس الغزيرة، التي ماتت حباً قبل ذلك بسنوات طويلة على السرير نفسه حيث تنام. صارت تتذكر طعم جوافة ذلك الزمن التي تبدّل مذاقها منذ ذلك الحين، والتي كان حفيف نذيرها الزخم يختلط بحفيف المطر، كما أخذت تتذكر أمسيات سان خوان دي تِيسير الزبرجدية، حين كانت تخرج لتتمشى مع كوكبة بنات خؤولتها الصاخبات وهي تضغط أسنانها حتى لا يقفز قلبها من فمها كلما اقتربت من مركز التلغراف. باعت بيت أبيها بأي ثمن لأنها ما عادت تحتمل آلام المراهقة ولا مرأى الحديقة المقفرة من الشرفة، ولا أريج الياسمين في الليالي الحارة، ولا هول صورتها بزي سيدة قديمة في مساء ذلك اليوم من شهر شباط، وهو اليوم نفسه الذي حسمت فيه مصيرها. وأينما قلبت ذاكرتها في ذلك الزمن كان تصطدم بذكرى فلورينتينو أريثا. ولكنها كانت تمتلك على الدوام، مع ذلك، ما يجعلها تُدرك أنها ليست ذكريات حب أو ندم، وإنما إحساس مكدّر يترك لها بقايا دموع. ومن دون أن تدري، كانت مهددة بالوقوع في مصيدة الشفقة التي ضيَّعت عدداً كبيراً من ضحايا فلورينتينو أريثا الغافلات.

تشبثت بزوجها. وجاء ذلك في الفترة التي بدأ يحتاج إليها أكثر من أي وقت آخر، إذ كان يكبرها بعشر سنوات، وينطلق وحده متعثراً في ضباب الشيخوخة، إضافة لكونه رجلاً وأشد ضعفا. وانتهيا إلى معرفة كل منهما الآخر حتى أصبحا، قبل مرور ثلاثين سنة على زواجهما، وكأنهما كائن واحد مشطور إلى نصفين، وصار القلق يساورها لكثرة ما

أصبح كل منهما يعرف ما يدور في خلد الآخر، وللحدث المضحك بأن يسبق أحدهما إلى النطق بما كان سيقوله الآخر. لقد صرّفا معاً خلافات سوء التفاهم اليومية، والأحقاد الآنية، والقذارات المتبادلة، وبروق مجد السعادة الزوجية الخرافي. كان ذلك هو الزمن الذي تحابًا فيه على أحسن وجه، من دون تسرّع ولا مبالغة، وقد وعيا انتصاراتهما الباهرة على الخصوم وباركاها. وكان على الحياة أن تمدّهما بمزيد من البراهين الفانية، ولكنها لم تعد ذات نفع لهما: فقد كانا على الضفة الأخرى.

أُعد برنامج حافل بالنشاطات العامة بمناسبة الاحتفال بمطلع القرن الجديد، وأجدر هذه النشاطات بالذكر هي الرحلة الأولى بالمنطاد، ثمرة مبادرة من مبادرات الدكتور خوفينال أوربينو التي لا تنضب. اجتمع معظم أهل المدينة عند شاطئ الأرسينال لإبداء دهشتهم من ارتفاع بالون الحرير الهائل، الملوّن بألوان العلم الوطني في الجو، ليحمل أوّل بريد جوي إلى سان خوان دي لاثيناغا، على بعد حوالي ثلاثين فرسخاً بخط مستقيم إلى الشمال الشرقي. كان الدكتور خوفينال أوربينو وزوجته، اللذان عرفا متعة الطيران من قبل في معرض باريس الكوني، هما أوّل من صعد إلى حجيرة المنطاد المصنوعة من الخيزران، ثم صعد معهما مهندس الرحلة الطائرة وستة مدعوين آخرين كانوا يحملون رسالة من الحكومة المحلية إلى السلطات البلدية في سان خوان دي لاثيناغا، يسجلون فيها للتاريخ أن تلك الرسالة هي أوّل بريد ينتقل عبر الأجواء. أحد صحفيي جريدة الدياريو دي كوميرثيو سأل الدكتور خوفينال أوربينو ما هي آخر كلماته إذا ما قضى نحبه في المغامرة، فلم يتروَ هذا للتفكير بالجواب الذي سبّب له شتائم كثيرة، إذ قال:

– أظن بأن القرن التاسع عشر سيتغير بالنسبة للعالم بأسره، باستثنائنا نحن.

وبينما المنطاد يرتفع، أحس فلورينتينو أريثا الضائع بين الحشود الساذجة التي تنشد النشيد الوطني، بأنه يشترك بالرأي مع تعليق سمعه من أحدهم وسط الضجة، بأن تلك المغامرة ليست مناسبة لامرأة وخصوصاً امرأة في سن فيرمينا داثا. ولكنها لم تكن بالمغامرة الخطيرة على أي حال. أو أنها لم تكن على الأقل خطرة بقدر ما هي مؤثرة. لقد وصل المنطاد من دون تيارات هوائية معاكسة إلى وجهته، بعد رحلة هادئة في سماء زرقاء إلى حدّ غير معقول. طاروا طيراناً طيباً على ارتفاع قليل، تدفعهم ريح هادئة ومواتية، فوق ذرى الجبال المكللة بالثلج أولاً، ثم فوق مستنقع ثيناغاغراندي الفسيح.

ومن السماء رأوا أطلال مدينة كارتاخينا دي أندياس القديمة والملحمية مثلما يراها الله، مهجورة من ساكنيها الذين هربوا خوفاً من الكوليرا، بعد أن قاوموا جميع صنوف الحصار من جانب الإنكليز، وكل عسف القراصنة خلال ثلاثة قرون. رأوا الأسوار الكاملة، وأشجار الشوارع الملتفة، والتحصينات التي قوّضتها رهبانيات الثالوث، وقصور المرمر والمذابح الذهبية مع حكامها الاستعماريين المتعفنين بالوباء في دروعهم السابغة.

طاروا فوق بيوت تروخاس دي كاتاكا الأثرية القائمة وسط الماء، والمطلية بألوان مجنونة، والمرفقة بحظائر لتربية عظائيات الأكل، حيث تتدلى نباتات بالسامينا واستروميليا في الجنائن المائية. كان مئات الأطفال يلقون بأنفسهم من النوافذ، ومن سطوح البيوت ومن الزوارق التي يقودونها بمهارة مذهلة ويغوصون كاسماك الشابل لاستخراج حزم الملابس وقناني دواء السعال وطعام الصدقات الذي تلقي به المرأة الجميلة ذات قبعة الريش من سلّة المنطاد.

طاروا فوق أوقيانوس ظلال مزارع الموز التي كان صمتها يصعد

إليهم كبخار مميت، فتذكرت فيرمينا داثا نفسها وهي في الثالثة من العمر، أو ربّما في الرابعة، تتمشى في الأجمة الكثيبة ممسكة بيد أمها، وكانت لا تزال حينئذ مجرّد طفلة أيضاً، وسط نساء أخريات يرتدين الموسلين، مثلها، ويحملن مظلات بيضاء ويضعن قبعات شفافة. قال مهندس المنطاد الذي كان يراقب العالم بمنظار مكبر: «يبدو أنهم موتى». وأعطى المنظار للدكتور أوربينو، فرأى هذا الأخير العربات التي تجرّها الجواميس بين الشجيرات، وخطوط السكة الحديد، وأقنية الري المتجمدة، وحيثما توجّه بنظره كان يرى أجساداً بشرية مبعثرة، وقال أحدهم أنه علم أن الكوليرا كانت تفتك بقرى منطقة ثيناغا غراندي. فقال الدكتور أوربينو الذي لم يتوقف عن النظر بالمنظار أثناء كلامه:

- لا بدّ أنه صنف خاص جداً من الكوليرا إذاً. لأن هناك رصاصة رحمة في عنق كل واحد من الموتى.

ثم طاروا بعد ذلك بقليل فوق بحر من الزبد وحطوا من دون أي حادث يذكر على شاطئ متقد، كانت أرضه المتشققة والمغطاة بملح البارود محرقة كأنها نار متأججة. وكانت السلطات تقف هناك من دون أية حماية من الشمس سوى المظلات العادية، وكان تلامذة المدارس الابتدائية يلوحون بأعلام صغيرة على إيقاع النشيد الوطني، وملكات الجمال يحملن زهوراً أحرقها القيظ ويضعن تيجاناً من الورق المذهب، وسُذّج بلدة غايرا المزدهرة، التي كانت في ذلك الحين أحسن قرى الشاطئ الكاريبي حالاً. الشيء الوحيد الذي كانت تريده فيرمينا داثا هو رؤية مسقط رأسها ثانية، لتقارن ما تراه مع أقدم ذكرياتها، لكنهم لم يسمحوا لأحد بالتجوّل خوفاً من فتك الوباء. سلم الدكتور خوفينال أوربينو الرسالة التاريخية، التي فُقدت فيما بعد ولم يعد يُعرف شيء عنها، وقد شارف جميع أعضاء البعثة على الاختناق في قيظ الخطابات الحماسية. إلى أن حملوهم أخيراً على صهوات البغال حتى مرسى

بويلوبيخو، حيث تلتقي المستنقعات بالبحر، لأن المهندس لم يتمكن من جعل المنطاد يطير ثانية. كانت فيرميا داثا متأكدة من أنها قد مرّت من هناك مع أمها، وهي طفلة صغيرة، في عربة يجرها زوج من الجواميس. وقد روت ذلك عدّة مرّات لأبيها عندما كبرت، لكنه مات وهو يصرّ على أنه المستحيل عليها أن تتذكر ذلك، وكان يقول لها:

- إنني أذكر هذه الرحلة جيداً، وقد كانت هكذا فعلاً، لكنها حدثت قبل مولدك بخمس سنوات على الأقل.

عاد أعضاء بعثة المنطاد بعد ثلاثة أيام إلى ميناء المنشأ، وقد أنهكتهم ليلة عاصفة، واستقبلوا استقبال الأبطال. وتعرف فلورينتينو أريثا، الضائع بين الحشود طبعاً، على آثار البخار فوق محيا فيرمينا داثا. ومع ذلك، عاد لرؤيتها مساء ذلك اليوم في استعراض دراجات أُقيم تحت رعاية زوجها أيضاً، ولم يكن يبدو عليها أي أثر للتعب. كانت تقود دراجة فريدة تبدو أشبه بجهاز من أجهزة السيرك بعجلتها الأمامية العالية، والتي جلست فوقها، بينما كانت العجلة الخلفية صغير جداً ولا تكاد تكفي لإسنادها. وكانت ترتدي سروالاً فضفاضاً ذا حواش ملونة أثار استنكار السيدات المسنات، وأفقد الرجال الوقورين صوابهم، لكن أحداً لم يستطع إبداء لامبالاته بمهارتها.

هذه الصور، وغيرها كثير، كانت صوراً عابرة لسنوات طويلة، تظهر بغتة لفلوريتينو أريثا حين يحلو ذلك للمصادفة، ثم ما تلبث أن تختفي بالطريقة نفسها، تاركة في قلبه نورج لوعة. لكنها كانت تخلف أثراً في حياته، إذ إنه لم يتعرّف على قسوة الزمن من خلال مظهره هو بالذات بقدر ما تعرّف عليه من التبدّلات التي يلاحظها على فيرمينا داثا كلما رآها.

دخل في أحد الأيام إلى مطعم دون سانتشو، وهو مطعم فاخر من

العهد الاستعماري، واحتل ركناً منزوياً، كما هي عادته كلما مضى لتناول وجبة عصر خفيفة كوجبة عصفور. وفجأة رأى فيرمينا داثا في المرآة الضخمة، جالسة إلى منضدة مع زوجها ورجلين آخرين مع زوجتَيهما، بزاوية تتيح له رؤية صورتها المعكوسة في المرآة بكل رونقها. كانت عزلاء، تقود الحديث بظرافة وضحكة تنفجران كانفجار الألعاب النارية، وكان جمالها أشدّ ألقاً تحت الثريا الضخمة ذات القطع الكريستالية: لقد عادت «أليس» لاختراق المرآة.

تأملها فلورينتينو أريثا ما شاء له التأمل بأنفاس مبهورة. رآها تأكل، ورآها تتذوق قليلاً من النبيذ، ورآها تمازح دون سانتشو، الرابع في سلالته، وعاش معها لحظة من حياتها وهو على طاولته المنعزلة، وتمشّى لأكثر من ساعة في أرضها الحرام من دون أن يكون مرئياً. ثم تناول أربعة فناجين أخرى من القهوة ليبقى وقتاً أطول، إلى أن رآها تخرج مختلطة بالمجموعة التي معها. لقد مروا قريباً جداً منه، لدرجة أنه تمكّن من تمييز رائحتها وسط وابل العطور الأخرى المنبعثة ممّن هم معها.

ومنذ تلك الليلة، وعلى امتداد سنة تقريباً، قام بمحاصرة صاحب المحل حصاراً عنيداً، عارضاً عليه كل ما يشاء، من مال أو خدمات، أو تلبية أكثر ما اشتهاه في حياته، مقابل أن يبيعه المرآة. ولم يكن الأمر سهلاً؛ فالشيخ دون سانتشو كان يؤمن بالخرافة القائلة إن ذلك الإطار الثمين الذي صنعه نجار أبنوس من فينا هو توأم إطار آخر كانت تملكه ماري أنطوانيت، وقد اختفى من دون أن يبقى له أثر: تحفتان فريدتان. وحين وافق أخيراً، علّق فلورينتينو أريثا المرآة في صالة بيته، ليس لجمال الإطار ودقة صنعته، وإنما لأجل القسم الداخلي الذي احتلته الصورة المحبوبة لساعتين.

وكثيراً ما كان يرى فيرمينا داثا، ممسكة بذراع زوجها، في انسجام

تام، متحرّكين كليهما في جو خاص بهما، بانسياب مذهل لا يتشوّش إلا حين يصافحاه. وفعلاً كان الدكتور خوفينال أوربينو يشدّ على يده بحرارة، بل وكان يسمح لنفسه بأن يُربّت على كتفه في بعض المناسبات. أما هي، فكانت تعامله بمقتضى نظام الشكليات الغامض. ولم تُبدِ يوماً أدنى حركة تتيح له أن يشك بأنها تتذكره منذ كانت عازبة. كانا يعيشان في عالمَيْن متباعدَيْن، وفيما كان يقوم بكل جهد متاح لتقريب المسافة، فإنها لم تكن تقوم بأية خطوة إلّا في الاتجاه المعاكس. لقد مضى زمن طويل قبل أن يجرؤ على التفكير بأن تلك اللامبالاة ليست سوى درع لإخفاء الخوف. خطر له ذلك فجأة، عند تعميد السفينة النهرية الأولى التي جرى بناؤها في أحواض بناء السفن المحلية، وكانت تلك أيضاً هي المناسبة الأولى التي مثل فيها فلورينتينو أريثا العم ليون الثاني عشر باعتباره نائباً أوّل لرئيس ش.ك.م.ن. وقد أضفت هذه المصادفة على الحفل مهابة خاصة، فلم يتخلف عن الحضور أحد ممّن لهم أية قيمة في حياة المدينة.

كان فلورينتينو أريثا مشغولاً بمدعوّيه في الصالون الرئيسي بالسفينة التي ما زالت تنبعث منها روائح الطلاء الحديث والقار المذاب، عندما انفجرت موجة من التصفيق على الرصيف وعزفت الفرقة الموسيقية لحناً حماسياً. وكان عليه أن يقهر الارتعاشة القديمة كقِدَمه تقريباً حين رأى امرأة أحلامه الفاتنة ممسكة بذراع زوجها، بنضوجها الرائع، وهي تمر كملكة من عصر آخر وسط عناصر حرس الشرف المتزينين بزي المراسم، تحت وابل من الشرائط الورقية الملوّنة وأوراق الأزهار الطبيعية التي تقذف من النوافذ. وكانا يردّان على التصيف بتحية من يديهما، لكنها كانت فاتنة حتى لتبدو كأنها وحيدة وسط الحشد. كان كل ما ترتديه له لون ذهبي ملكي، ابتداء من الحذاء ذي الكعب العالي وأذيال الثعالب على عنقها، وحتى القبعة التي لها شكل الجرس.

انتظرهما فلورينتينو أريثا على جسر السفينة، إلى جانب السلطات الإقليمية. وسط قصف الموسيقى والألعاب النارية وجؤرات السفينة القوية الثلاثة التي بللت رصيف الميناء بالبخار. صافح خوفينال أوربينو صف المستقبلين بتلك الابتسامة الطبيعية التي هي من خصائصه والتي تجعل كل واحد يظن أنه يصافحه بحرارة خاصة. صافح أولاً قبطان السفينة، وكان ببدلة المراسم، ثم الأسقف. وبعده الحاكم وزوجته والعمدة وزوجته، ثم قائد المنطقة العسكري، وهو أنديزي حديث القدوم إلى المدينة. وبعد السلطات كان يقف فلورينتينو أريثا، مرتدياً بدلة قاتمة، ولا يكاد يظهر بين كل هؤلاء الأعيان. وبعدما صافحت فيرمينا داثا قائد المنطقة العسكري، بدا أنها ترددت أمام يد فلورينتينو أريثا الممدودة، فسألها العسكري المتأهب لتقديمه لها إن كانت لا تعرفه، فلم تقل لا ولم تقل نعم، بل مدّت يدها إلى فلورينتينو أريثا بابتسامة صالون. كان ذلك قد حدث في مناسبتين سابقتين، وسيحدث في مناسبات أخرى، وقد تمثله فلورينتينو أريثا دوماً كتصرف نابع من طبيعة فيرمينا داثا. ولكنه تساءل في مساء ذلك اليوم، بقدرته غير المحدودة على الحلم، إن لم تكن تلك اللامبالاة القاسية ليست إلا حيلة لإخفاء عذاب الحب.

وقد اضطرمت أشواقه لمجرّد ورود هذه الفكرة بباله. فعاد للطواف حول بيت فلورينتينو أريثا بالقلق نفسه الذي كان يشعر به قبل سنوات طويلة أثناء طوافه في حديقة البشارة، لكنه لم يكن ينوى أن يجعلها تراه، وإنما كانت نيته الوحيدة أن يراها ليعلم أنها ما زالت حيّة في الدنيا. ولم يعد ممكناً للزمن أن يمضي حينئذ دون اكتراث. كان حيّ لامانغا يقوم في جزيرة شبه مقفرة، تفصلها عن المدينة التاريخية قناة ماء خضراء، مغطاة بأحراج من أشجار الأكاكو التي كانت ملاذاً للعشاق في أيام الآحاد إبان العهد الاستعماري. ومنذ سنوات قليلة هدموا الجسر الحجري القديم الذي بناه الإسبان، وأقاموا جسراً جديداً مع مصابيح إنارة، لتتمكن

الحافلات التي تجرّها البغال من المرور. لقد كان على ساكني لامانغا أوّل الأمر احتمال عذاب ما كان في الحسبان، ألا وهو النوم قريباً من أوّل محطة لتوليد الكهرباء في المدينة، والتي كان هديرها أشبه بهزة أرضية متواصلة. ولم يستطع حتى الدكتور خوفينال أوربينو بكل نفوذه جعلهم ينقلون المحطة إلى حيث لا تزعج أحداً، إلى أن توسطت لصالحه العناية الإلهية التي تحالفه دوماً. ففي إحدى الليالي انفجر مرجل محطة التوليد في دويّ بخاري هائل، وطار فوق البيوت الجديدة، مجتازاً جزءاً كبيراً من المدينة في الجو وهوى ليحطم الرواق الرئيسي في دير سان خوليان الهوسبيتالاريو القديم. كان المبنى القديم قد هُجر في أوائل ذلك العام، لكن المرجل تسبب في مقتل أربعة سجناء كانوا قد فرّوا، في أوّل الليل، من السجن المحلي واختبأوا في الدير المهجور.

تلك الضاحية الهادئة، ذات التقاليد الغرامية الجميلة، لم تعد مع ذلك المكان المناسب للغراميات غير المواتية مذ صارت حياً راقياً. كانت مُترِبة في الصيف، ومُوحلة في الشتاء، ومُقفرة طوال العام، بينما البيوت القليلة المختفية وسط حدائق وارفة، ذات مصاطب الموازييك بدلاً من الشرفات القديمة، تبدو كأنها قد شُيّدت لإخماد حماسة العشاق المتخفين. وكان أن شاعت في ذلك الحين، لحسن الحظ، عادة التنزه مساء بالعربات القديمة المستأجَرة التي تمّ تعديلها ليجرها حصان واحد فقط، وكانت الجولة بالعربة تنتهي عادة في ربوة مشرفة يظهر منها شفق تشرين المفتت أفضل ممّا يظهر عليه من برج الفنار، وتظهر للعين كذلك أسماك القرش الرشيقة وهي تترصد شاطئ المجمع الإكليريكي، وعابرة المحيطات التي تمر كل خميس، ضخمة وبيضاء، يكاد المرء يلمسها بيده وهي تجتاز قنال الميناء. وقد اعتاد فلورينتينو أريثا استئجار عربة للنزهة بعد يوم العمل الشاق في المكتب، لكنه لم يكن يطوي غطاء العربة كما هي العادة في شهور الحر، وإنما كان يبقى مختبئاً في الصمت، غير مرئي

في الظل، ووحيداً دائماً، وكان يوجّه الحوذي في اتجاهات غير متوقعة حتى لا يثير أفكاره السيئة. الحقيقة أن الشيء الوحيد الذي كان يهمه من النزهة هو البيت ذو المرمر الوردي شبه المختفي بين شجيرات الموز وأشجار المانغا الملتفة، والذي كان تقليداً تعيساً لبيوت مزارعي القطن الحالمة في لويزيانا. كان ابنا فيرمينا داثا يرجعان إلى البيت قبل الساعة الخامسة بقليل، وكان فلورينتينو أريثا يراهما عائدَيْن في عربة العائلة، ثم يرى خروج الدكتور خوفينال أوربينو بعد ذلك لزياراته الطبية المعتادة، ولكنه لم يَحظ خلال ما يقارب السنة من الطواف، برؤية أي علامة تدل على وجود من كان يتشوّق لرؤيتها.

وفي مساء يوم أصر فيه على النزهة المتوحدة رغم هطول أمطار حزيران المدمّرة انزلق الحصان في الوحل وسقط على وجهه. وانتبه فلورينتينو أريثا مرتعباً إلى أنه كان مقابل بيت فيرمينا داثا تماماً، فتوسل إلى الحوذي صائحاً، من دون أن يفكّر بأن تفجّعه قد يشي به:

– ليس هنا، أرجوك. في أي مكان إلا هنا.

حاول الحوذي الذي أعماه التسرّع، أن يجبر الجواد على النهوض من دون أن يفكه، فانكسر محور العربة. خرج فلورينتينو أريثا كيفما استطاع، واحتمل مشاعر الخجل تحت وابل المطر إلى أن عرض عليه متنزهون آخرون حمله معهم إلى بيته. وأثناء انتظاره، رأته خادمة من خدم آل أوربينو بملابسه المبللة والمغطاة بالوحل حتى الركبتين، فحملت إليه مظلة ليأتي ويحتمي على مصطبة البيت. لم يكن فلورينتينو أريثا قد حلم بمصادفة كهذه في أقصى هذياناته شططاً، ولكنه كان يفضل الموت في ذلك المساء على السماح لفيرمينا داثا برؤيته وهو على تلك الحالة.

أثناء سكناه في المدينة القديمة، كان الدكتور خوفينال أوربينو يذهب مع أفراد عائلته مشياً على الأقدام من بيته إلى الكاتدرائية، لحضور

قدّاس الساعة الثامنة، وكان ذلك عملاً دنيوياً أكثر منه دينياً. وفيما بعد، حين انتقلوا إلى البيت الجديد، تابعوا الذهاب إلى الكاتدرائية في العربة عدّة سنوات، وكانوا يتأخرون أحياناً لتبادل الحديث مع بعض الأصدقاء، تحت أشجار النخيل في الحديقة. أما حين شُيّد معبد المجمع الإكليريكي في لامانغا، مع شاطئ خصوصي ومقبرة خاصة، ما عادوا يذهبون إلى الكاتدرائية إلا في بعض المناسبات الجليلة. وانتظر فلورينتينو أريثا، وكان يجهل أمر هذه التبدلات، عدة آحاد على رصيف مقهى الأبرشية، مراقباً خروج الناس من القدّاسات الثلاثة. ثم إنه أدرك خطأه وذهب إلى الكنيسة الجديدة، التي كان الذهاب إليها شائعاً حتى سنوات قليلة، وهناك وجد الدكتور خوفينال أوربينو مع ابنيّه، في الساعة الثامنة بالضبط، خلال أيام الآحاد الأربعة من شهر آب، لكن فيرمينا داثا لم تكن معهم. وفي أحد أيام الآحاد تلك زار المقبرة المجاورة، حيث كان ساكنو حيّ لامانغا يبنون أضرحتهم الفخمة، وقفز قلبه حين رأى في ظل أشجار الثيبا الضخمة أفخم ضريح بين كل تلك الأضرحة. كان ناجزاً ومزيناً بزخارف زجاجية قوطية، وملائكة من المرمر، وله شواهد مذهبة تحمل أسماء جميع أفراد العائلة مكتوبة بحروف مذهبة، وبينهم بالطبع اسم دونيا فيرمينا داثا دي أوربينو دي لاكابي، ويليها ضريح الزوج، وعلى كلا القبرين كتابة مشتركة: معاً كذلك في سلام الرب.

لم تحضر فيرمينا داثا خلال بقية ذلك العام أياً من النشاطات التمدنية أو الاجتماعية، حتى ولا احتفالات عيد الميلاد، حيث كانت وزوجها عادة من ضيوف الشرف. لكن الإحساس بغيابها بلغ ذروته في حفل افتتاح موسم الأوبرا. وفي الاستراحة بين الفصلين، فاجأ فلورينتينو أريثا جماعة لا بدّ أنها كانت تتحدث عنها من دون ذكر اسمها. كانوا يقولون أن هناك من رآها تصعد عند منتصف إحدى ليالي حزيران الفائت إلى عابرة المحيط كونارد، المتجهة إلى بنما، وأنها كانت تغطي وجهها

بخمار أسود كي لا تظهر آثار المرض المخجل الذي كان يستنفدها. وسأل أحدهم أي مرض رهيب هذا الذي يجرؤ على امرأة متجبّرة مثلها، والإجابة التي تلقاها كانت مشبعة بمرارة سوداء:

- إن امرأة بارزة كهذه لا يمكن لها أن تصاب إلا بالتدرّن.

كان فلورينتينو أريثا يعلم أن أثرياء موطنه لا يُصابون بأمراض قصيرة. فإما أنهم يموتون فجأة، ويكون ذلك في الغالب عشية حفلة كبرى يُفسِدها الحداد، وإما أنهم يأخذون بالانطفاء في أمراض بطيئة وفظيعة، تشيع أثناءها أسرار مرضهم بين الجميع. ويكاد الاعتكاف في بنما يكون تكفيراً إجبارياً في حياة جميع الأثرياء، حيث كانوا يخضعون هناك لمشيئة الله في مشفى المؤمنين بانبعاث المسيح، والذي كان عبارة عن بناء فسيح أبيض ضائع تحت أمطار «دارين» الخرافية، يفقد فيه المرضى حساب القليل المتبقي لهم في الحياة. ولم يكن أي منهم ليعرف حق المعرفة في الحجرات المتوحدة ذات النوافذ المغطاة بستائر سميكة، إذا ما كان مبعث رائحة الفينيك هو الصحة أم الموت. وكان الذين يشفون منهم يعودون محمَّلين بهدايا رائعة يوزعونها بسخاء وهم يبدون الكآبة ليسامحهم المجتمع على طيشهم في البقاء أحياء. وكان بعضهم يعودون وفي بطونهم آثار خياطة بربرية تبدو كأنها أجريت بخيوط قنب كالتي يستخدمها الإسكافيون، فيرفعون قمصانهم ليعرضوها على زائريهم، ويقارنوها بآثار جراح آخرين ممّن ماتوا مختنقين لفرط السعادة، ويعيشون بقية حياتهم وهم يروون ويعيدون رواية الرؤى الملائكية التي رأوها وهم تحت تأثير الكلوروفورم. ولم يكن هناك بالمقابل مَن يعرف كيف كانت رؤى الذين لم يرجعوا، وخصوصاً أشدهم حزناً: أولئك الذين ماتوا منفيين في جناح المسلولين، بتأثير كآبة المرض أكثر ممّا هو بتأثير فتك الداء.

وحين فكر بالاختيار، لم يعرف فلورينتينو أريثا ما الذي كان يفضله

لفيرمينا داثا. لكنه كان يفضل الوصول إلى الحقيقة قبل أي شيء، حتى ولو كانت لا تطاق، ورغم بحثه الدؤوب عنها لم يتوصل إليها. وبدا له غير معقول ألّا يجد أحداً قادراً على إعطائه دليلاً يثبت صحة رواية المرض. ففي عالم السفن النهرية، الذي هو عالمه، لم يكن هنالك من سرّ يمكن إخفاؤه ولا ائتمان يمكن صونه. ومع ذلك، فإن أحداً لم يسمع بأمر المرأة ذات الخمار الأسود. ولم يكن هناك مَن يعرف شيئاً عنها، في مدينة كل ما فيها معروف للجميع، حيث تشيع الأخبار عن أشياء كثيرة قبل حدوثها، وخصوصاً إذا كانت من شؤون الأغنياء. كما لم يكن لدى أحد تفسير معين لاختفاء فيرمينا داثا. تابع فلورينتينو أريثا الطواف في لامانغا، مستمعاً من دون تقوى إلى المواعظ في كنيسة المدرسة الإكليريكية، ومشاركاً في احتفالات تمدّنية ما كانت لتهمّه وهو في حالة معنوية أخرى، لكن مرور الوقت لم يكن إلّا ليزيد من صحة رواية المرض. كل شيء كان يبدو طبيعياً في بيت آل أوربينو، باستثناء غياب الأم.

وفي خضم استقصاءاته الكثيرة، وجد أخباراً أخرى لم يكن يعرفها، أو لم يكن يبحث عنها، منها موت لورينثو داثا في القرية الكانتبرية التي وُلد فيها. تذكر أنه كان يراه لسنوات طويلة في حروب الشطرنج الصاخبة في مقهى الأبرشية، بصوته الأبح لكثرة ما يتكلم، وكان يصبح أكثر بدانة وفظاظة كلما هوى في الرمال المتحركة لشيخوخة مقيتة. لكنه ما عاد يبادله الحديث منذ فطور خمر اليانسون المشؤوم في القرن الماضي، مع أن فلورينتينو أريثا كان متأكداً من أن لورينثو داثا ما زال يذكره بحقد شديد كحقده هو عليه، حتى بعدما حقق لابنته الزواج المحظوظ الذي كان مبرّر حياته الوحيد. لكنه كان مصمماً على الوصول إلى معلومات صحيحة عن صحة فيرمينا داثا، فعاد إلى مقهى الأبرشية ليحصل عليها من أبيها، في الفترة التي جرت فيها هناك المباراة التاريخية، حين واجه

جيرميا دي سانت - آمور وحده اثنين وأربعين خصماً. وكان أن علم هناك بنبأ موت لورينثو داثا، وقد ابتهج لذلك من كل قلبه، رغم معرفته أن ثمن تلك البهجة قد يكون استمراره في الحياة من دون معرفة الحقيقة. وأخيراً اعتبر رواية مستشفى اليائسين من الشفاء صحيحة، من دون عزاء آخر سوى مثل شعبي سائر: «امرأة مريضة.. امرأة خالدة». وفي أيام يأسه، كان يقنع بفكرة أن خبر موت فيرمينا داثا، في حال وقوعه، سيصله على أي حال من دون أن يبحث عنه.

لكن الخبر لن يصله أبداً. ففيرمينا داثا كانت حيّة ومعافاة، في المزرعة التي تعيش فيها منسية ابنة خالها هيلديبراندا سانتشيث، على بعد نصف فرسخ من قرية فلوريس دي ماريا. لقد ذهبت بلا فضيحة، وباتفاق مع زوجها، بعدما تورطا كلاهما كمراهقين في الأزمة الجدّية الوحيدة التي عرفاها خلال خمس وعشرين سنة من زواجهما المستقر. لقد فاجأتهما الأزمة وهما في راحة النضوج، حين بدأا يشعران أنهما بمنأى عن أية مكيدة يحيكها الخصوم، مع ابنيهما الكبيرين وحسنَيّ التربية، والمستقبل المفتوح أمامهما ليتعلما كيف يشيخان من دون مرارات. لقد كانت أزمة غير منتظرة لكليهما، ولم يشاءا فضّها بالصراخ والدموع والوسطاء. كما هي العادة الطبيعية في الكاريبي. وإنما بحكمة الأمم الأوروبية، وبما أنهما لم يتمكنا من عمل هذا ولا ذاك، فقد انتهيا إلى التخبّط في حالة صبيانية لا تنتمي إلى أي مكان. وأخيراً، قررت الذهاب، حتى من دون أن تعرف لماذا هي ذاهبة، يقودها إلى ذلك الغضب وحده، ولم يكن هو بقادر على إقناعها بالعدول عن رأيها، يمنعه من ذلك شعوره بالذنب.

لقد صعدت فيرمينا داثا فعلاً إلى سفينة عند منتصف الليل وسط تكتّم شديد، وبوجه مغطى بطرحة الحداد، لكنها لم تصعد إلى عابرة المحيطات كونارد الذاهبة إلى بنما، وإنما في سفينة عادية متوجهة إلى سان خوان دي لاثيناغا، المدينة التي وُلدت وعاشت فيها إلى أن بلغت

سن الرشد، وكان حنينها إليها يصبح أشد وطأة مع تقدم السنين. ورغم مشيئة الزوج وعادات العصر، فإنها لم تأخذ معها مَن يرافقها سوى ابنة في العماد عمرها خمس عشرة سنة كانت تعيش بين خدم البيت، لكنهم أعلموا بسفرها قباطن السفن وسلطات الموانئ التي ستمر فيها. وحين اتخذت قرارها الذي لا عودة فيه، أخبرت ابنيها بأنها ذاهبة حيث تعيش الخالة هيلديبراندا، لتخفف عن نفسها لمدة ثلاثة شهور، لكنها كانت قد قررت البقاء هناك. كان الدكتور خوفينال أوربينو يعرف جيداً صلابة طبعها، وكان مغموماً إلى حدّ أنه تقبل سفرها بذل، وكأنه عقاب من الرب لخطورة آثامه. لكنه لم يبعد نظره عن أنوار السفينة حين كان كلاهما نادماً لضعفه.

ورغم احتفاظهما بمراسلة رسمية حول وضع الابنَين وبعض شؤون البيت الأخرى، فقد انقضت سنتان تقريباً من دون أن يجد أي منهما طريقاً للعودة ليست ملغومة بالكبرياء. ذهب الابنان إلى فلوريس دي ماريا لقضاء عطلتهما المدرسية في السنة الثانية، وفعلت فيرمينا داثا المستحيل لتبدو راضية عن حياتها الجديدة. وكان هذا على الأقل هو ما استنتجه خوفينال أوربينو من رسائل ابنه. ثم إن أسقف ريوهاتشا الذي كان يقوم حينئذ بجولة رعوية في تلك الأنحاء، ممتطياً تحت مظلة تقيه الشمس متن بغلته الشهيرة البيضاء ذات السرج الموشّى بالذهب. وجاء في أثره حجاج من أقاليم نائية، وعازفو أكورديون، وبائعو أطعمة وتمائم متجولون، وامتلأت المزرعة لثلاثة أيام بمشلولين ومرضى يائسين من الشفاء، لم يأتوا في الحقيقة من أجل مواعظ الأسقف المتضلعة ولا مغفرته الكلية، وإنما سعياً وراء منة البغلة، التي كان يشاع أنها تحقق معجزات من دون علم سيدها. كان الأسقف على علاقة وطيدة بآل أوربينو دي لاكايي منذ كان كاهناً، وفي ظهيرة أحد الأيام هرب من مهرجانه ليتناول الغداء في عزبة هيلديبراندا. وبعد الغداء، الذي

لم يتكلم خلاله إلا بأمور دنيوية، قاد فيرمينا داثا جانباً وأراد أن يسمع اعترافها. ولكنها رفضت بلطف، إنما بحسم، متذرعة بأنه ليس لديها ما تندم عليه. ومع أن غرضها لم يكن كذلك، في وعيها على الأقل، إلا أنها فكرت بأن ردّها سيصل إلى حيث يجب وصوله.

لقد اعتاد الدكتور خوفينال أوربينو القول، ليس بلا شيء من المباهاة، بأن تينك السنتين المريرتين من حياته لم تكونا نتيجة ذنبه وإنما بسبب عادة زوجته المرذولة بشم الملابس التي يخلعها أفراد العائلة، والتي تخلعها هي نفسها، لتعرف من الرائحة ما إذا كان يجب إرسالها للغسيل، حتى وإن بدت نظيفة للوهلة الأولى. كانت تفعل ذلك منذ طفولتها، ولم تكن ترى فيه ما يلفت الانتباه، إلى أن انتبه زوجها للأمر في ليلة الزفاف بالذات. كما انتبه إلى أنها تدخن ثلاث مرّات على الأقل يومياً وهي حابسة نفسها في الحمّام، لكن هذا لم يقلقه، لأن نساء طبقته اعتدن حبس أنفسهن في مجموعات للتدخين والحديث عن الرجال، بل ولشرب الخمر القوية الرخيصة أيضاً إلى أن ينطرحن أرضاً في سكرة كسكرات البنّائين. لكن عادتها في شمّ كل ما تجده أمامها من ملابس، لم تكن تبدو له غير لائقة فحسب، وإنما ذات خطر على الصحة أيضاً. فكانت تأخذ الأمر بالمزاح، كما تتناول كل ما لا تريد مناقشته، وتقول إن الله لم يضع لها في وجهها ذلك الأنف المدقّق لمجرّد الزينة. وفي صباح أحد الأيام، أثناء خروجها إلى السوق، قلبت الخادمات الحيّ بحثاً عن الابن ذي السنوات الثلاث الذي لم يجدن له أثراً في أي مكان في البيت. وجاءت هي وسط الذعر، فقامت بجولتين أو ثلاث جولات كتلك التي تقوم بها كلاب الأثر البوليسية، ووجدت الابن نائماً في إحدى خزائن الملابس، حيث لم يخطر ببال أحد أن يكون قد اختبأ. وعندما سألها زوجها المندهش كيف وجدته رددت قائلة:

– من رائحة برازه.

والحقيقة أن حاسم الشم لم تكن تفيدها في غسل الملابس أو في العثور على أطفال ضائعين فقط: لقد كانت حاسة التوجه لديها في جميع مستويات الحياة، وخصوصاً في الحياة الاجتماعية. وقد لاحظ الدكتور خوفينال أوربينو ذلك خلال حياته الزوجية كلها، وخصوصاً في بدايتها، حين كانت دائمة العبوس في جو مهيّأ ضدها منذ ثلاثمئة سنة، ومع ذلك فإنها كانت تسبح بين شعاب مرجانية حادّة من دون أن تصطدم بأحد، وبسيطرة على العالم لا يمكن لها إلا أن تكون غزيرة خارقة للطبيعة. هذه القدرة الرهيبة التي قد يكون منشأها حكمة ترجع لملايين السنين أو قلب صوّاني، جاءتها بساعة محنتها في يوم أحد مشؤوم قبل الذهاب للقداس، حين كانت فيرمينا داثا تشم الملابس التي استخدمها زوجها مساء اليوم السابق بشكل روتيني محض فأحست بقلق أن رجلاً آخر هو الذي أمضى الليل في فراشها.

شمّت السترة أولاً ثم الصدرية فيما هي تنزع الساعة ذات السلسلة الذهبية من العروة وتخرج قلم الرصاص ومحفظة الأوراق النقدية وقطع النقود المعدنية القليلة من الجيوب، وكانت تضع كل ذلك على خوان الزينة، ثم شمّت القميص المجعّد وهي تحل باقة ربطة العنق وزرَّي المعصم الياقوتيين وزر الياقة الذهبي، ثم شمّت البنطال وهي تخرج من جيوبه حمالة المفاتيح ذات الأحد عشر مفتاحاً، وقلامة وريشة الكتابة ذات المقبض الصدفي، وشمّت أخيراً السروال الداخلي والجوربين والمنديل المطرزة عليه الحروف الأولى من اسمه. ولم يكن هناك من ظل لأدنى شك: ففي كل قطعة من ثيابه كانت تجد رائحة لم تكن فيها خلال سنوات حياتهما المشتركة الطويلة، رائحة من المُحال عليها تحديدها، لأنها ليست رائحة زهور ولا رائحة مستحضرات اصطناعية، وإنما رائحة خاصة بالطبيعة البشرية. لم تقل شيئاً، كما لم تعد تجد تلك

الرائحة كل يوم، لكنها ما عادت تشم ملابس زوجها بفضول لتعرف ما إذا كانت بحاجة للغسيل، وإنما بجزع لا يطاق كان يكوي أحشاءها.

لم تعرف فيرمينا داثا أين تحدّد موقع رائحة الملابس في روتين زوجها. لا يمكن أن يكون ذلك ما بين الدرس الصباحي والغداء، لأنها افترضت أنه لا يمكن لامرأة سليمة العقل ممارسة حب متعجّل في مثل تلك الساعة، حين يكون على المرأة كنس البيت، وترتيب الأسرّة، والتسوّق، وإعداد الغذاء، وربّما تكون قلقة من أن يأتيها أحد الأطفال وقد أعادوه من المدرسه قبل الموعد لإصابته بضربة حجر، فيجدها عارية في الساعة الحادية عشرة صباحاً وفي حجرة غير مرتبة، كما يجد، وتلك قاصمة الظهر، أن طبيباً فوقها. وكانت تعلم، من تجربتها، أن الدكتور خوفينال أوربينو لا يمارس الحب إلا ليلاً، بل إنه يفضل أن يكون الظلام دامساً، وربّما قبيل الفطور أحياناً، على زقزقة أوّل العصافير. أما بعد هذه الساعة، فإن نزع الملابس كما كان يقول، ولبسها من جديد أشق على النفس من متعة حُب كحُب الديك. أي أنّ تلوّث الثياب لا يمكن له أن يحدث إلا في إحدى زياراته الطبية، أو في وقت مختلَس من لياليه في لعب الشطرنج أو في السينما. وقد كان التحقق من هذا الاحتمال الأخير صعباً لأن فيرمينا داثا، على العكس من معظم صديقاتها، كانت تعتز بكبريائها بحيث لا تسمح لنفسها بالتجسس على زوجها، أو أن تطلب إلى أحد عمل ذلك بدلاً منها. إن توقيت زيارة المرضى الذي يبدو الأكثر ملائمة لاقتراف الخيانة، هو في الوقت ذاته أسهل فترة يمكن رصدها، لأن الدكتور خوفينال أوربينو يسجل بالتفصيل وضع كل مريض من زبائنه، بما في ذلك حالة حسابات الأتعاب، منذ منذ أن يزوره أوّل مرّة وإلى أن يودعه من هذا العالم بصليب أخير وعبارة من أجل راحة روحه.

بعد ثلاثة أسابيع، لم تجد فيرمينا داثا للرائحة أثراً في الملابس لعدة

أيام، ثم عادت تجدها فجأة ومن دون سابق إنذار، ثم وجدتها في ما بعد أوضح ممّا كانت عليه سابقاً، ولأيام متتالية، رغم أن أحد تلك الأيام كان يوم أحد احتفالي لم تفارقه خلاله لحظة واحدة. وفي إحدى الأمسيات، وجدت نفسها في مكتب زوجها، على خلاف عادتها، بل وعلى خلاف رغبتها، وكأنها ليست هي التي تقوم بشيء لم تقدِم عليه أبداً، وإنما امرأة أخرى سواها، محللة بعدسة مكبرة ملاحظات زوجها المتشابكة عن زياراته لمرضاه خلال الشهور الأخيرة. كانت المرّة الأولى التي تدخل فيها هذا المكتب المشبع برطوبة الكريوزوت، والمفعم بالكتب المجلدة بجلود حيوانات مجهولة، وصور مدرسية مضطربة، وشهادات شرف، وأسطرلابات وخناجر زائفة جمعها طوال سنوات. إنه الهيكل السري الذي كان دوماً جزءاً من حياة زوجها الخاصة، وهي لا تدخله لأنه لا علاقة له بالحب، أما المرّات القليلة التي دخلت هناك فكانت وهي معه، ومن أجل قضايا مستعجلة دوماً. لم تكن تشعر بأن لها الحق في الدخول وحدها، وخصوصاً إذا كانت تريد إجراء تحريات لا تبدو لها محترمة. إنما ها هي هناك. إنها تريد العثور على الحقيقة، وتبحث عنها بقلق لا يمكن مقارنته بخوفها الرهيب من العثور عليها، مدفوعة بعاصفة متسلطة أكثر عتوّاً من كبريائها الخلقي، وأكثر عتواً من كرامتها: إنه تعذيب ساحر للنفس.

لم تستطع الوصول إلى شيء واضح، لأن مرضى زوجها، باستثناء الأصدقاء المشتركين بينهما، كانوا كذلك جزءاً من احتكارات زوجها الخاصة. إنهم أناس بلا هوية، لا يُعرَفون بوجوههم وإنما بآلامهم، لا يُعرَفون بلون أعينهم أو مراوغة قلوبهم وإنما بحجم كبدهم، وقلح لسانهم، وكثافة بولهم، وهذيانهم في ليالي الحمّى. أناس يؤمنون بزوجها، يؤمنون بأنهم يعيشون به بينما هم في الحقيقة يعيشون له، وينتهون إلى اختزالهم في عبارة يكتبها بخطه ويده على طرف التقرير

الطبي: اهدأ، فالرب ينتظرك عند الباب. غادرت فيرمينا داثا المكتب بعد ساعتين لم تصل خلالهما إلى شيء. شاعرة بأنها قد خضعت لغواية فاحشة.

وبدأت تكتشف، مدفوعة بأوهامها، التبدّلات التي طرأت على زوجها. أصبحت تراه مراوغاً قليل الشهية على المائدة وفي الفراش، ميالاً إلى السخط والردود المتهكمة، ولم يعد الرجل الهادئ الذي كانه من قبل أثناء وجوده في البيت، وإنما صار أشبه بأسد محبوس. ولأوّل مرّة منذ زواجهما، أخذت تراقب تأخره، وترصد أوقاته بالدقيقة، وتكذب عليه لتحصل منه على الحقائق، لكنها كانت تشعر بعد ذلك بجرح قاتل لتناقضها. وفي إحدى الليالي استيقظت مذعورة لإحساسها بأن زوجها يتأملها في العتمة بعينين مشحونتين بالحقد. لقد عانت قشعريرة مماثلة وهي في زهرة شبابها، حين كانت ترى فلورينتينو أريثا يتأملها عند طرف السرير، والفارق الوحيد هو أن مظهره لم يكن حينئذ مظهر حقد وإنما حب. ثم إنها لم تكن واهمة هذه المرّة: كان زوجها مستيقظاً في الثانية بعد منتصف الليل، وقد اعتدل في السرير ليتأملها وهي نائمة، ولكنها حين سألته لماذا يفعل ذلك، أنكر الأمر. وأعاد وضع رأسه على الوسادة قائلاً:

- لا بدّ أنك كنت تحلمين.

بعد هذه الليلة، وبفعل أحداث مشابهة وقعت في تلك الفترة التي لم تعد فيرمينا داثا تعلم فيها علم اليقين أين ينتهي الواقع وأين تبدأ الأحلام، توصلت إلى اكتشاف باهر بأنها آخذة بالجنون. ثم انتبهت أخيراً إلى أن زوجها لم يتناول القربان الربّاني يوم خميس التجسيد، ولا في أي أحد من آحاد الأسابيع الأخيرة، كما أنه لم يجد وقتاً للخلوة الروحية في ذلك العام. وعندما سألته عن سبب هذه التبدلات الغريبة في صحته الروحية، تلقت رداً مبهماً. وكان هذا هو المفتاح الحاسم للحل، لأنه لم

يكن يتخلف عن تناول القربان المقدّس في يوم بهذه الأهمية منذ مناولته الأولى وهو في الثامنة من العمر. وهكذا أدركت أن زوجها لم يسقط في الخطيئة وحسب، وإنما هو مصرّ على الولوغ فيها، لأنه يرفض اللجوء إلى مساعدة كاهن الاعتراف. لم تتصور يوماً أنها قد تعاني إلى هذا الحدّ من شيء يبدو مناقضاً للحب تماماً، ولكنها كانت في خضم هذه المعاناة، ورأت أن الوسيلة الوحيدة لتخليص نفسها هي في دسّ النار إلى جحر الحيّات التي سممت دخيلتها. وهكذا فعلت. فقد جلست في مساء أحد الأيام لترفو أعقاب الجوارب على الشرفة، فيما كان زوجها ينهي قراءته اليومية بعد القيلولة. وفجأة، قطعت عملها، ورفعت نظارتها إلى جبهتها، واستجوبته من دون أية قسوة:

- دكتور.

كان غارقاً في قراءة Ole des pingouíns، الرواية التي قرأها الجميع في تلك الأيام، وأجابها من دون أن يخرج من جو الرواية: Oui.

فألحّت: - انظر إلى وجهي.

فعل ذلك، ناظراً إليها من دون أن يراها من خلال غلالة نظارة القراءة، لكنه لم ينزع النظارة كي لا يحترق بجمرة نظرتها. وسألها:

- ما الأمر؟

- أنت تعرفه خيراً مني - قالت.

ولم تقل شيئاً آخر. بل أنزلت نظارتها من جديد وتابعت رفو الجوارب. حينئذ علم الدكتور خوفينال أوربينو أن ساعات الجزع الطويلة قد انتهت. وعلى العكس من تصوّره لتلك اللحظة، فإنها لم تكن هزة تزلزل القلب، وإنما مجرّد ضربة سلام. إنها الطمأنينة العاجلة لما كان سيحدث آجلاً أم عاجلاً: لقد دخل شبح الآنسة باربرا لينتش إلى البيت أخيراً.

كان الدكتور خوفينال أوربينو قد تعرّف عليها قبل أربعة أشهر، بينما كانت تنتظر دورها في العيادات الخارجية بمشفى الرحمة، وانتبه على الفور إلى أن شيئاً لا سبيل لإصلاحه قد حاق بقدَره. كانت خلاسية طويلة القامة، أنيقة، ذات عظام طويلة، لبشرتها لون العسل الأسود وقوامه اللدن ذاته، وكانت ترتدي في ذلك الصباح فستاناً أحمر مزيناً بدوائر بيضاء وتضع قبعة من النوع نفسه، له حافة عريضة تفرش ظلها حتى رموش عينيها. وكانت تبدو كأنها من جنس أكثر تحديداً من سائر أبناء البشر. لم يكن الدكتور خوفينال أوربينو يعالج المرضى في العيادات الخارجية، ولكنه اعتاد، كلما مرّ من هناك وكان لديه متسع من الوقت، الدخول ليذكّر تلاميذه الكبار بأنه لا دواء أفضل من التشخيص الجيّد. وهكذا تدبر أمره ليكون حاضراً عند فحص الخلاسية العابرة. محاذراً ألّا يلحظ تلامذته أية حركة لا تبدو عَرَضية، ومن دون أن ينظر إليها تقريباً، ولكنه دوّن في ذاكرته جيداً المعلومات التي قدمتها عن نفسها. وفي هذا المساء بالذات، بعد زيارة آخر مرضاه، جعل العربة تمر من العنوان الذي أفضت به في العيادة، وكانت هناك فعلاً، تستمتع على الشرفة برطوبة آذار.

كان البيت واحداً من بيوت الأنتيل التقليدية، مطلياً كله باللون الأصفر بما في ذلك سقف التوتياء، وله نوافذ مخرمة، وفيه أصص قرنفل وسرخس معلقة على البوابة الخارجية، وكان البيت يقوم فوق ركائز خشبية في مستنقع لا مالا كريانثا. وفي قفص معلق بإفريز السطح، كان يُغرّد طائر توربيال. وعلى الرصيف المقابل للبيت كانت توجد مدرسة ابتدائية، وكان الأطفال يخرجون منها بفوضى أجبرت الحوذي على شدّ الأعِنّة بقوة ليحول دون إجفالهم للحصان. لقد كانت تلك ضربة حظ، إذ تمكنت الآنسة باربرا لينتش من التعرّف على الدكتور. فحيّته بحركة معارف قدماء، ودعته ليتناول فنجان قهوة ريثما تنتهي الفوضى، فتناوله

بكل سرور، على خلاف عادته، مستمعاً إليها تتحدث عن نفسها، وهو الشيء الوحيد الذي أصبح يهمه منذ ذلك الصباح، والشيء الوحيد الذي سيستحوذ على اهتمامه، من دون لحظة سلام، خلال الأشهر التالية. لقد قال له أحد أصدقائه بحضور زوجته في إحدى المناسبات، وهو حديث العهد بالزواج، بأنه سيواجه عاجلاً أو آجلاً عاطفة تبعث على الجنون، يمكنها أن تعرّض استقرار حياته الزوجية للخطر، لكنه، هو الذي كان يظن أنه يعرف نفسه جيداً، ويعرف متانة جذوره الأخلاقية، ضحك من هذه النبوءة. حسناً إذاً: ها هي الآن.

الآنسة باربرا لينتش، دكتوراه في علم اللاهوت، هي الابنة الوحيدة للقس جوناثان ب. لينتش، الراعي البروتستانتي، الزنجي النحيف، الذي ينطلق على بغلته إلى قرى المستنقع الهندية، مبشراً بتعاليم أحد الآلهة الكثيرين الذين يكتبهم الدكتور خوفينال أوربينو بادئاً اسمهم بحرف صغير ليميّزهم عن إلهه. كانت تتحدث بقشتالية جيّدة، مع عثرة ضئيلة في النحو يضاعف تكرارها من ظرافتها. وسوف تتم الثامنة والعشرين من العمر في شهر كانون الثاني، وقد طُلّقت قبل ذلك بقليل من راعٍ آخر هو أحد أتباع أبيها، وكانت قد تزوجت منه زواجاً سيئاً دام سنتين، ولم تعد لديها رغبة في الزواج مجدداً. قالت: «لا أحب أحداً سوى عصفوري التوربيال». لكن الدكتور خوفينال أوربينو كان جدياً بما يكفي ليفكر بأنها إنما تقول ذلك متعمّدة. بل إنه سأل نفسه وهو مضطرب الأفكار ما إذا كانت كل هذه التسهيلات مجتمعة ليست سوى فخ من الرب لجعله يدفع الثمن باهظاً في ما بعد، ولكنه أبعد هذا السؤال في الحال من ذهنه على أنه حالة لاهوتية سببها وضعه المضطرب.

وعندما ودّعها، تطرق بشكل عرضي إلى استشارتها الطبية صباحاً، مدركاً أنه ليس أحب للمريض من الحديث عن آلامه، وقد كانت هي في منتهى الروعة بحديثها عن آلامها، حتى أنه وعدها بالعودة في اليوم

التالي، الساعة الرابعة تماماً، لفحصها فحصاً دقيقاً. أحسّت بالفزع: كانت تعلم أن طبيباً من هذا النوع بعيد جداً عن إمكانياتها، لكنه طمأنها:
– إننا نحاول في هذه المهنة جعل الأغنياء يدفعون عن الفقراء.

ثم سجل الملاحظة في دفتر جيبه: الآنسة باربرا لينتش، مستنقع لامالا كريانثا، السبت، 4 مساء. بعد ذلك بشهور، قرأت فيرمينا داثا تلك الملاحظة التي أضيفت إليها تفاصيل التشخيص والعلاج وتطوّر المرض. وقد لفت الاسم اهتمامها، وخطر لها فجأة أنها واحدة من أولئك الفنانات المضللات في سفن نيو أورليانز للفواكه، لكن العنوان جعلها تفكر بأن الاحتمال الأقرب إلى الصواب هو أنها جامايكية، وزنجية بالطبع، فصرفت النظر عنها من دون معاناة لعدم انسجامها مع ذوق زوجها.

ذهب الدكتور خوفينال أوربينو إلى موعده يوم السبت متقدماً عشر دقائق، حين لم تكن الآنسة لينتش قد انتهت من ارتداء ملابسها لاستقباله. لم يشعر بتوتر كالذي شعر به أمامها منذ أيام باريس، حين كان عليه التقدّم لامتحان شفوي. لقد كانت الآنسة لينتش جمالاً غير محدود وهي مستلقية على السرير، بقميص نوم حريري رقيق. كل ما فيها كان عظيماً وزخماً: فخذاها اللذان كفخذَي عروس البحر، وبشرتها المحروقة على نار خفيفة، ونهداها الذاهلان، ولثتها الشفافة ذات الأسنان الدقيقة، وجسدها كله الذي ينضح ببخار العافية، وهي الرائحة البشرية التي وجدتها فيرمينا داثا في ملابس زوجها. كانت قد ذهبت إلى العيادة الخارجية لمعاناتها من شيء تدعوه بظرافة شديدة مغصاً ملتوياً، وظن الدكتور أوربينو أنها أعراض قلة شرب السوائل، وقد لامس على أي حال أعضاءها بغرض أبعد ما يكون عن الاهتمام الطبي، وراح ينسى أثناء ذلك معارفه العلمية ويكتشف مذهولاً أن تلك المخلوقة العجيبة كانت جميلة من الداخل كجمالها من الخارج، وعندئذ ترك متعة اللمس

تقوده، ليس على أنه الطبيب الأكثر شهرة في ساحل الكاريبي، وإنما كرجل بائس على باب الله يعذبه هيجان الغرائز. كان قد حدث له شيء مشابه لهذا مرّة واحدة في حياته المهنية الطويلة، وقد كان ذلك هو يوم عاره الكبير، لأن المريضة الحانقة أزاحت يده، واعتدلت على السرير قائلة له: «إن ما تريده يمكن أن يحدث، ولكن ليس هكذا». أما الآنسة لينتش، فقد سلمت نفسها ليديه، وحين لم يعد لديها أدنى شك في أن الطبيب ما عاد يفكّر بعلمه، قالت:

- كنت أظن أن هذا غير مسموح في الأخلاق الطبية.

كان مبللاً بالعرق وكأنه خارج بملابسه من بركة ماء، فمسح يديه ووجهه بمنشفة، وقال:

- الأخلاق الطبية تتصور أننا، معشر الأطباء، من خشب.

مدت له يداً شاكرة وقالت:

- كوني «كنت أظن» لا يعني أنه لا يمكنك فعل ذلك. تصوّر ما الذي سيحدث لزنجية مسكينة مثلي حين يهتم بي رجل بالغ الأهمية.

فقال:

- لم أتوقف عن التفكير بك لحظة واحدة.

كان اعترافاً مرتعشاً إلى حدّ جعله جديراً بالشفقة. ولكنها وضعته بمنجى من كل شرّ بقهقهة أضاءت حجرة النوم. وقالت:

- أعرف ذلك مذ رأيتك في المستشفى يا دكتور. صحيح أنني زنجية، ولكنني لست غبية.

لم يكن الأمر سهلاً. فالآنسة لينتش تريد شرفها نظيفاً، وتريد الأمان والحب، وترى أنها جديرة بذلك. لقد أتاحت للدكتور خوفينال أوربينو فرصة إغوائها، إنما من دون السماح له بالدخول إلى الحجرة أثناء وجودها وحيدة في البيت. وأبعد ما وصلت إليه هو السماح له بتكرار

طقوس اللمس والفحص بالتنصت مع كل ما يرافق ذلك من خروقات أخلاقية يشاؤها، ولكن من دون أن تنزع ثيابها. أما هو فلم يستطع إفلات الطُعم بعدما ابتلعه، وثابر على حصاره اليومي. كان استمرار علاقته بالآنسة لينتش شبه مستحيل لأسباب مرتبطة بنظامه العملي، ولكنه كان أضعف من أن يكبح نفسه في الوقت المناسب، كضعفه في المضي قدماً في ما بعد. فقد كانت له حدوده.

لم تكن حياة المحترم لينتش بالحياة المنتظمة، فهو ينطلق في أي وقت على متن بغلته المحمّلة في أحد جانبيها بكتب مقدّسة ونشرات دعائية إنجليكية، وفي الجانب بالآخر بالزاد ومواد التموين، ويرجع حين لا تخطر عودته ببال أحد. كما كان هناك عائق آخر يتمثل بالمدرسة المقابلة، فالأطفال فيها يغنون دروسهم وهم ينظرون إلى الشارع من النافذة، وأفضل ما يرونه هو البيت القائم على الرصيف المقابل، بأبوابه ونوافذه المشرعة على مصراعيها منذ الساعة السادسة صباحاً، ويرون الآنسة لينتش وهي تعلق القفص بإفريز السطح ليتعلم طائر التوربيال موسيقى الدروس المغنّاة، ويرونها بعمامتها الملوَّنة وهي تغني أيضاً بصوتها الكاريبي النقيّ أثناء قيامها بأعمال البيت، ويرونها بعد ذلك جالسة على الشرفة لتغني وحدها بالإنكليزية مزامير المساء.

كان عليه أن يختار وقتاً لا يكون الأطفال موجودين فيه، ولم يكن أمامه سوى احتمالين: إما أثناء استراحة الغداء، ما بين الثانية عشرة والثانية، وهو الوقت الذي يذهب فيه الدكتور لتناول الغداء أيضاً، وإما في المساء، حين ينصرف الأطفال إلى بيوتهم. وقد كان هذا الاحتمال الأخير هو الأفضل دائماً، ولكن الدكتور يكون حينئذ قد أنهى زياراته ولا يبقى أمامه سوى دقائق قليلة للوصول إلى البيت وتناول الطعام مع أسرته. أما المشكلة الثالثة، وهي الأخطر بالنسبة له، فكانت تتمثل في وضعه بالذات. إذ لم يكن بإمكانه الذهاب من دون العربة، وهي عربة

معروفة جيداً ويجب أن تنتظره دوماً أمام الباب. كان بإمكانه الاتفاق مع الحوذي، كما يفعل جميع أصدقائه في النادي الاجتماعي تقريباً، ولكن هذا الأمر كان غريباً عن عاداته. حتى أن حوذي العائلة نفسه، وبعدما صارت زياراته للانسة لينتش مكشوفة بما فيه الكفاية، تجرّأ على سؤاله إذا لم يكن من الأفضل أن يرجع بحثاً عنه في ما بعد، كي لا تبقى العربة متوقفة أمام الباب لوقت طويل. لكن الدكتور أوربينو قاطعه بردة فعل غريبة على طبيعته قائلاً:

- هذه هي المرّة الأولى التي أسمعك فيها تقول شيئاً يجب عليك ألّا تقوله مذ عرفتك. ولكن لا بأس، سأعتبر أنك لم تقل شيئاً.

لم يكن ثمة مفر. ففي مدينة كهذه لا يمكن إخفاء أمر مرض ما دامت عربة الطبيب عند الباب. لقد كان الطبيب يبادر أحياناً بالذهاب إلى بيت المريض مشياً على الأقدام، حين تسمح المسافة بذلك، أو الذهاب في عربة أجرة، ليحول دون تخمينات خبيثة أو مبكرة. ومع ذلك، فإن هذه الحيل لم تكن ذات نفع كبير، فالأدوية التي يصفها الطبيب لتُشترى من الصيدليات تتيح كشف الحقيقة، ممّا كان يدفع الدكتور أوربينو إلى وصف أدوية مزيّفة إلى جانب الأدوية الصحيحة، ليحفظ حقوق المرضى في الموت بسلام مع أسرار أمراضهم، ورغم قدرته كذلك على أن يُبرّر بوسائل شريفة مختلفة، وقوف عربته أمام دار الآنسة لينتش، إلّا أنه لن يتمكن من فعل ذلك لزمن طويل، بل لوقت أقصر بكثير من الزمن الذي كان يرغب فيه: مدى الحياة.

صارت دنياه جحيماً. فما إن ارتوى الجنون الأول حتى أدرك كلاهما المخاطر المحيقة بهما، ولم يكن الدكتور خوفينال أوربينو قد حسم أمره يوماً وأعدّ نفسه لمواجهة الفضيحة. لقد كان يعِدها بكل شيء أثناء هذيانه المحموم، ولكنه بعد الانتهاء، يؤجّل كل شيء إلى ما بعد. وكان بالمقابل، كلما ازداد شوقه للقائها يزداد كذلك خوفه من فقدانها، وهكذا

أصبحت لقاءاتهما سريعة وصعبة. لم يكن يفكّر بشيء آخر. كان ينتظر المساء بجزع لا يُطاق، وينسى مواعيده الأخرى، ينسى كل شيء سواها، ولكن ما إن تبدأ العربة بالاقتراب من مستنقع لامالا كريانثا حتى يأخذ بالابتهال إلى الله ليبعث له عائقاً في اللحظة الأخيرة يجعله يواصل طريقه من دون الدخول إليها. كان يُعاني حالة من الكآبة تجعله يبتهج حين يرى أحياناً، وهو على الناصية، رأس المحترم لينتش الملفوف بالقطن جالساً يقرأ على الشرفة، والابنة في الصالة تلقّن أصول الدين لأطفال الحيّ من خلال الأناجيل المغنّاة. فيمضي حينئذ إلى بيته كي لا يستمر في تحدّي القدر. ولكنه لا يلبث أن يشعر بقلق مجنون يتمنى خلاله أن يتحوّل اليوم كله وجميع الأيام لتصبح كلها الخامسة مساء فقط.

أصبحت تلك الغراميات مستحيلة حين صار ظهور العربة يكثر أمام الباب، ولم يعد ذلك الحب بعد مرور ثلاثة شهور سوى عمل مضحك. فقد كانت الآنسة لينتش تدخل حجرة النوم من دون أن يُتاح لها الوقت لقول أي شيء، بمجرد رؤيتها العاشق الولهان يدخل. وكانت تتخذ الاحتياطات المسبقة في الأيام التي تنتظر قدومه فيها بارتدائها فستاناً جامايكياً بديعاً مزيناً بزهور ملونة، ولكن من دون أية ملابس داخلية، ومن دون أي شيء، معتقدة أن السهولة ستساعده في التغلب على الخوف. لكنه كان يهدر كل ما تفعله لإسعاده. فيلحقها إلى حجرة النوم لاهثاً ومبللاً بالعرق، ثم يبدأ بالتخلص ممّا يحمله ملقياً بكل شيء على الأرض: العكاز، وحقيبة الطبيب، والقبعة البنمية، ليمارس حباً مرتبكاً، بسروال مجعد عند كاحليه، وسترة مزررة ليكون إزعاجها أقل، وسلسلة ذهبية مثبتة في صدريته، وهو منتعل حذاءه، وكل شيء، مهتماً بالذهاب بأسرع ما يمكن أكثر من اهتمامه باستكمال المتعة. وتبقى هي صائمة، ما إن تهم بدخول نفق عزلته، حتى يبدأ بإحكام أزرار سرواله من جديد وهو منهك، كما لو أنه مارس الحب المطلق على الخط الفاصل بين الحياة

والموت، بينما هو لم يفعل في الحقيقة أكثر ممّا يتطلبه فعل الحب من جهد جسدي. ولكنه يبقى ضمن حدود قانونه: إنه الوقت اللازم بالضبط لإعطاء حقنة في العضل لحالة علاج روتينية. ويعود بعدئذ إلى البيت خجلاً من ضعفه، راغباً في الموت، ولاعناً فقدانه الشجاعة اللازمة للطلب من فيرمينا دائا أن تنزع له سرواله وتجلسه على الجمر لتحرق قفاه.

لم يكن يتعشى، وكان يصلي من دون إيمان، ويتصنّع مواصلة قراءة ما بعد القيلولة وهو في الفراش، بينما زوجته تلف في البيت وتدور مرتّبة الدنيا قبل أن تنام. وما إن يداعبه النعاس فوق الكتاب حتى يأخذ بالغرق شيئاً فشيئاً في غابة الآنسة ليتش التي لا مفر منها، يغرق في رائحتها التي كرائحة غابة راقدة فوق فراشها الذي كفراش الموت، ولا يستطيع التفكير عندئذ بشيء سوى الساعة الخامسة إلا خمس دقائق من مساء اليوم التالي، وبها تنتظره في السرير من دون أي شيء سوى جبلها اللدن القائم تحت الفستان الجامايكي المجنون: إنها الدائرة الجهنمية.

كان قد بدأ يعي ثقل جسده منذ بضع سنوات. وكان يعرف الأعراض. لقد قرأها في كتب الطب، ولمسها في الحياة الواقعية بمعاينتها في مرضى هرمين بلا سوابق مرَضية خطيرة، يبدأون فجأة بوصف أعراض دقيقة يبدو وكأنهم يستخرجونها من كتب الطب، رغم أنها لا تعدو كونها أوهاماً. لقد نصحه أستاذ طب الأطفال في مستشفى ساليتريير يوماً بدراسة طب الأطفال لأنه أنبل اختصاص، فالأطفال لا يمرضون إلا حين يكونون مرضى حقاً، ولا يستطيعون التواصل مع الطبيب بالكلمات الاصطلاحية وإنما بالأعراض المحددة للأمراض الحقيقية. أما البالغين، اعتباراً من سن معين، فإما أن لديهم أعراضاً بلا أمراض، وإما أن لديهم ما هو أسوأ من ذلك: أمراضاً خطيرة وأعراض أمراض أخرى ليست ذات شأن. وكان هو يشغلهم بالمسكنات، متيحاً الوقت للزمن، كي يتعلموا

عدم الشعور بتوعكات الكبر بعد معايشتهم لها في مزبلة الشيخوخة. وما لم يفكّر به الدكتور خوفينال أوربينو أبداً هو أن طبيباً في مثل سنة، يظن أنه رأى كل شيء وخَبِره، لن يستطيع تجاوز قلق شعوره بأنه مريض حين لا يكون كذلك. أو يقع له ما هو أسوأ بأن يظن أنه ليس مريضاً، متعللاً بأوهام طبية محضة، في حين ربّما يكون مريضاً فعلاً. لقد قال في أحد دروسه يوماً، وهو في الأربعين، نصف مازح ونصف جاد: «الشيء الوحيد الذي أحتاجه في الحياة هو أحد يفهمني». ولكنه حين وجد نفسه ضائعاً في متاهة الآنسة لينتش لم يفكّر بالأمر مازحاً.

جميع الأعراض الحقيقية والوهمية لمرضاه المسنّين اجتمعت في جسده. فكان يحسّ شكل كبده بوضوح، ويستطيع تحديد حجمه من دون أن يلمسه. كان يشعر بزمجرة القط النائم في كليتيه، يشعر ببريق مرارته الساطع، ويحسّ خرير الدم في شرايينه. وكان يستيقظ صباحاً في بعض الأحيان كسمكة لا تجد الهواء للتنفس. ويشعر بوجود ماء في قلبه، ويحسّ به يفقد إيقاعه للحظة، أو يشعر به، بين حين وآخر يتأخر في نبضة من نبضاته، كما في المشية العسكرية أيام المدرسة، ثم يشعر بأنه يستعيد قواه لأن الله كبير. ولكنه بدلاً من أن يلجأ إلى علاج السلوى الذي كان يطبّقه على المرضى، فإنه سمح للخوف أن يعميه. حقاً إن الشيء الوحيد الذي يحتاجه في الحياة، وهو في الثامنة والخمسين من العمر أيضاً، هو أحد يفهمه. وهكذا لجأ إلى فيرمينا داثا، أكثر مَنْ تحبه ويحبها في هذا العالم، ومَن سيُريح ضميره أمامها.

حدث هذا بعد أن قاطعته في قراءته المسائية لتطلب منه أن ينظر إلى وجهها، فجاءته الإشارة الأولى بأن حلقته الجهنمية قد كُشفت. لم يفهم كيف حدث ذلك، إذ كان مستحيلاً عليه أن يتصوّر أن فيرمينا داثا قد اكتشفت الحقيقة بمجرد الشَمّ. لكن هذه المدينة لم تكن على أي حال، ومنذ زمن بعيد، بالمدينة المناسبة لكتمان الأسرار. فبعد وقت قصير من

وصول أجهزة الهاتف الأولى، انهارت عدّة زيجات كانت تبدو راسخة، تحت نمائم الاتصالات الهاتفية المجهولة، ودفع الرعب عائلات كثيرة إلى إلغاء اشتراكها أو رفض الاشتراك بالهاتف لسنوات طويلة. كان الدكتور خوفينال أوربينو يعرف أن زوجته تعتز بنفسها كثيراً بحيث لا تسمح حتى بمحاولة وشاية مجهولة بالهاتف، ولم يكن قادراً على تصوّر أن أحداً يتجرّأ على إخبارها ملعناً عن اسمه. لكنه بالمقابل كان يخشى الوسيلة القديمة: ورقة تدسّها يد مجهولة من تحت الباب يمكن لها أن تكون فعّالة، ليس لأنها تضمن ازدواجية المجهولية للمُرسِل والمُرسَل إليه، وإنما لأن أصلها العريق يتيح ربطها بعلاقة ميتافيزيقية ما مع تدابير العناية الإلهية.

لم تكن الغيرة تعرف إلى البيت سبيلاً: فخلال أكثر من ثلاثين سنة من السلام الزوجي، كان الدكتور أوربينو يفاخر في الأماكن العامة، وكان صادقاً حتى ذلك الحين، بأنه مثل الثقاب السويدي، لا يشتعل إلا بواسطة علبته. لكنه كان يجهل كيف يمكن أن يكون ردّ فعل زوجته بكبريائها واعتزازها الشديد بنفسها وبطبعها الحاد، أمام خيانة ثابتة. وهكذا، حين تطلّع في وجهها كما طلبت منه، لم يخطر له شيء سوى أن يخفض بصره من جديد ليغرق في القلق، وظل يتظاهر بالانغماس في تعرّجات نهر جزيرة ألكا العذب، ريثما يخطر له ما يفعله. ولم تقل فيرمينا داثا من جهتها شيئاً آخر. وعندما انتهت من رفو الجوارب، ألقت بالأدوات من دون انتظام في علبة الخياطة، وأعطت التعليمات في المطبخ لإعداد العشاء، ومضت إلى حجرة النوم.

حينئذ اتخذ قراره الحاسم ولم يذهب في الساعة الخامسة إلى منزل الآنسة ليتش. أما وعود الحب الأبدي، والحلم ببيت سرّي لها وحدها حيث يستطيع زيارتها من دون مفاجآت، والسعادة على مهل حتى الموت، وكل ما وعدها به أثناء ومضات الحب، ألغيَ إلى الأبد. وآخر

ما تلقته منه الآنسة لينتش كان إكليلاً من الزمرد سلمها إياه الحوذي من دون أي تعليق، من دون أي رسالة، من دون أية ملاحظة مكتوبة، في علبة ملفوفة بورق صيدلية، حتى يظنه الحوذي نفسه دواء مستعجلاً. ولم يعد لرؤيتها ولو مصادفة خلال ما تبقى من حياته، والله وحده يعلم كم من الآلام كلفه هذا القرار البطولي، وكم من الدموع المريرة سكب وهو محبوس في المرحاض ليتجاوز كارثته الحميمة. فبدلاً من أن يذهب إليها في الساعة الخامسة، قام بتقديم توبته النصوح أمام كاهن الاعتراف، وشارك يوم الأحد التالي في تناول القربان الربّاني بقلب مفتت، إنما روح مطمئنة.

يوم قطع علاقته بها، وفيما هو ينزع ملابسه لينام، كرر على مسامع فيرمينا داثا تراتيل أرقه الصباحي المريرة، والوخزات المباغتة، والرغبة بالبكاء عند الظهيرة، والأعراض المقتضبة للحب الخفي التي كان يرويها لها حينئذ كما لو كانت أعراض الشيخوخة البائسة. كان عليه أن يحكي ذلك لأحد كي لا يموت.. كي لا يروي الحقيقة، ثم إن تلك المفاتحات بمكنون قلبه كانت أولاً وأخيراً أحد طقوس الحب البيتي. استمعت إليه باهتمام، إنما من دون النظر إليه، ومن دون أن تقول شيئاً، بينما هي تتناول منه الملابس التي يخلعها. كانت تشم كل قطعة منها من دون أية إيماءة تشي بغضبها، ثم تطويها كيفما اتفق، وتلقي بها إلى سلة الثياب المتسخة الخيزرانية. لم تجد الرائحة، ولكن الأمر سيّان: غداً سيكون يوم آخر. وقبل أن تجثو للصلاة أمام المذبح الصغير في حجرة النوم، اختتم هو روايته المكرورة عن بؤسه بتنهيدة حزينة وصريحة أيضاً: «أظن أنني سأموت». ولم ترمش رمشة واحدة حين ردّت عليه قائلة:

– سيكون هذا أفضل. لأننا سنستريح كلانا.

قبل سنوات، وخلال أزمة مرض خطير، كان قد تحدث عن احتمال موته، وكانت هي قد ردت بالجواب القاسي نفسه. وقد عزا الدكتور

أوربينو ذلك يومها إلى قسوة النساء، هذه التي تتابع الأرض بفضلها الدوران حول الشمس، لأنه كان يجهل حينئذ أنها تقيم دوماً حاجزاً من الغضب لتخفي خوفها، ولتخفي يومئذ أكثر مخاوفها رهبة، ألا وهو الخوف من البقاء بدونه.

لكنها تمنت له الموت في تلك الليلة بكل حدّة قلبها، وقد أفزعه هذا اليقين. بعد ذلك سمعها تبكي في الظلام، بوهن شديد، عاضة الوسادة كي لا يسمعها. فبهَره ذلك، لأنه كان يعلم أنها لا تبكي بسهولة من أي ألم جسدي أو روحي. وأنها تبكي بتأثير حنق عظيم فقط، ويكون بكاؤها أشدّ إذا ما كان هذا الحنق ناشئاً، بطريقة ما، عن خوفها من الشعور بالذنب. لم يتجرّأ على مواساتها، مدركاً أن ذلك سيكون أشبه بمواساة نمرة مطعونة بحربة. ولم يمتلك الجرأة ليقول أن أسباب بكائها قد زالت هذا المساء، وأنها انتزعت من جذورها إلى الأبد، حتى من ذاكرته.

هزمه الإرهاق لدقائق. وعندما استيقظ وجد أنها قد أضاءت النور الخفيف الذي إلى جانبها، وأنها ما زالت مفتوحة العينين، إنما من دون بكاء. لقد حدث لها شيء حاسم فيما هو نائم: فالرواسب التي تراكمت في قاع عمرها خلال سنوات طويلة قد هاجت بعذاب الغيرة، وخرجت طافية إلى السطح، وأهرمتها في لحظة واحدة. فتجرّأ على القول لها أن تحاول النوم، وهو مذهول لتجاعيدها الفجائية، ولشفتيها الذاويتين، ولرماد شعرها. كانت الساعة قد تجاوزت الثانية. فكلمته من دون أن تنظر إليه، ولكن من دون أي أثر للسخط في صوتها، بل بصوت أقرب إلى الوداعة، قائلة له:

– لي الحق بأن أعرف مَن هي.

عندئذ روى لها كل شيء، شاعراً بأنه يرفع عن كاهله ثقل العالم، لأنه كان مقتنعاً بأنها تعرف كل شيء ولا ينقصها سوى التأكد من التفاصيل.

لكن الأمر لم يكن كذلك طبعاً، وفيما هو يتكلم عادت هي تبكي، ليس بإجهاشات خجولة كما في البدء، وإنما بدموع منطلقة ومالحة تجري على وجهها، وتلتهب على قميص نومها وتحرق حياتها، لأنه لم يفعل ما كانت تنتظر منه وروحها معلقة بخيط، إذ كانت تنتظر منه أن ينكر كل شيء حتى الموت، وأن يغضب من الافتراء، وأن يلعن ناس هذا المجتمع ابن العاهرة الذين لا يتورعون عن دوس شرف الآخرين، وأن يقف ثابت الجأش حتى أمام الأدلة الدامغة على خيانته: كرجل. بعد ذلك، وحين روى لها أنه كان عند كاهن الاعتراف هذا المساء، خشي أن يعميها الغضب. فمنذ أيام المدرسة وهي مقتنعة بأن أهل الكنيسة لا يتمتعون بأية فضيلة ملهَمة من الرب. وكان هذا خلافاً جوهرياً في الانسجام البيتي، تمكنا من حله من دون صدامات. إنما كون زوجها قد سمح لكاهن الاعتراف بالتدخل إلى هذا الحدّ في شأن خاص ليس ملكاً له وحده فقط، بل هو ملكها أيضاً، كان شيئاً يتجاوز كل الحدود.

قالت: - إن هذا كاستشارة حاوي ثعابين من حواة الأزقّة.

كان ذلك هو النهاية بالنسبة لها. كانت متأكدة من أن شرفها أصبح على كل لسان قبل أن ينتهي زوجها من الاعتراف، وشعور المهانة الذي أثاره ذلك كان أثقل وطأة من عار وغضب وظلم الخيانة. والأسوأ من كل ذلك، يا للعنة... مع زنجية. فصحح قائلاً: «بل خلاسية». ولكن أي تحديد كان فائضاً عن اللزوم حينئذ: لقد انتهى الأمر.

- إنها اللعنة نفسها. والآن فقط بدأت أفهم: لقد كانت رائحة زنجية، قالت.

حدث هذا يوم الاثنين. وفي السابعة من مساء يوم الجمعة، أبحرت فيرمينا داثا في السفينة الصغيرة النظامية الذاهبة إلى سان خوان دي لا ثيناغا، من دون أن تأخذ معها سوى صندوق واحد، وبرفقة ابنة بالعماد،

وكانت تغطي وجهها بطرحة لتحول دون الأسئلة لها ولزوجها كذلك. لم يذهب الدكتور خوفينال أوربينو إلى الميناء، باتفاقهما معاً، بعد مناقشة مضنية دامت ثلاثة أيام، قررا على إثرها أن تذهب إلى مزرعة ابنة الخال هيلديبراندا سانتشيث، في بلدة فلوريس دي ماريا، لتفكر جيداً قبل إقدامها على اتخاذ قرار نهائي. وقد فهم الابنان الأمر، من دون أن يعرفا الأسباب، على أنه رحلة جرى تأجيلها مرّات ومرّات، وكانا هما نفسَيهما يرغبان فيها منذ زمن بعيد. وقد رتّب الدكتور خوفينال أوربينو الأمور بحيث لا يُتاح لأحد من أبناء عالمه الغادر الوصول إلى تخمينات خبيثة، وفعل ذلك بإتقان حتى أن إخفاق فلورينتينو أريثا بالعثور على أي أثر لاختفاء فيرمينا داثا لم يكن لضعف وسائله في التقصي وإنما لعدم وجود أية آثار فعلاً. ولم يكن يراود الزوج أي شك في أنها ستعود بعدما يفارقها الغضب. أما هي، فذهبت واثقة أن الغضب لن يفارقها أبد الدهر.

لكنها سرعان ما ستدرك أن هذا القرار الحاسم لم يكن ثمرة الحقد بقدر ما هو وليد الحنين. فبعد رحلة شهر العسل عادت عدّة مرّات إلى أوروبا، رغم قسوة الأيام العشرة التي تمضيها في البحر، وكانت رحلاتها تستغرق دوماً وقتاً كافياً للاحساس بالسعادة. كانت تعرف العالم، وتعلمت العيش والتفكير بطريقة أخرى، لكنها لم ترجع أبداً إلى سان خوان دي لاثيناغا بعد رحلة المنطاد الفاشلة. كان في العودة إلى مقاطعة ابنة الخال هيلديبراندا شيئاً من استعادة الماضي بالنسبة لها، حتى ولو حدثت هذه الاستعادة متأخرة. ولم تفكر بذلك تحت تأثير نكبتها الزوجية: بل قبل ذلك بكثير. وهكذا فان مجرّد فكرة تنقيبها عن ذكريات صباها كان يعزّيها في تعاستها.

عندما نزلت إلى البرّ مع ابنتها في العماد في سان خوان دي لاثيناغا، لجأت إلى ما في طبعها من احتياطيات هائلة، وتعرفت على المدينة رغم كل التحذيرات. وقد دعاها القائد المدني والعسكري للموقع، الذي

ذهبت إليه بتوصية للاهتمام بها، إلى جولة في العربة الرسمية ريثما يخرج القطار الذاهب إلى سان بيدرو اليخاندرينو، حيث أرادت الذهاب للتأكد ممّا قيل لها من أن السرير الذي مات عليه بطل التحرير[1] كان صغير جداً كسرير طفل. وكان أن عادت فيرمينا داثا حينئذ لرؤية قريتها الكبيرة في سكون الثانية بعد الظهر. عادت لرؤية الشوارع التي تبدو أشبه بشطآن صغيرة للبرك المغطاة بالطحاب، وعادت لرؤية بيوت البرتغاليين بشعارات النبالة المحفورة على الرواق المقنطَر وعلى مشربيات النوافذ البرونزية، حيث تتردد من دون رحمة، في صالاتها الظليلة، تمارين البيانو المكرورة الحزينة التي كانت تعلّمها أمها حديثة الزواج لبنات البيوت الثرية الصغيرات. رأت الساحة الخاوية من أية شجرة في جمر الحجارة المتقدة، وصفّ العربات ذات الأغطية الجنائزية وخيولها النائمة وقوفاً، وقطار سان بيدرو أليخاندرو الأصفر، ورأت عند زاوية الكنيسة الكبرى أكبر بيت بين جميع البيوت وأكثرها جمالاً، برواقه الحجري الذي تغطيه نباتات خضراء، وبوابته الضخمة كبوابة دير، ونافذة غرفة النوم التي ستلد فيها ألفارو بعد سنوات طويلة، حين لن تعود لها ذاكرة لتتذكر ذلك. فكرت بالعمة اسكولاستيكا، التي ما زالت تبحث عنها من دون أمل في السماء والأرض. وبينما هي تفكر بها وجدت نفسها تفكّر بفلورينتينو أريثا، بثيابه كأديب وبكتاب أشعاره تحت أشجار اللوز في الحديقة، كما يحدث لها أحياناً حين تتذكر سنوات المدرسة الكريهة. وبعد تجوال طويل لم تفلح في التعرّف على بيتها العائلي القديم، فحيث كانت تفترض وجوده لم يكن يوجد سوى حظيرة خنازير، وعند المنعطف كان يمتدّ شارع بيوت الدعارة، حيث مومسات من أرجاء الدنيا ينمن

(1) المقصود ببطل التحرير (El Libertador) هو محرّر أميركا الجنوبية سيمون بوليفار.

قيلولتهن أمام الأبواب، فلربما مرَّ البريد حاملاً لهن شيئاً.. لم تكن البلدة هي بلدتها.

منذ بداية الجولة في المدينة، غطت فيرمينا داثا نصف وجهها بالطرحة، ليس خوفاً من التعرّف إليها حيث لا أحد يستطيع التعرّف إليها، وإنما لمرأى الموتى الذين ينتفخون تحت الشمس في كل مكان، بدءاً من محطة القطار وحتى المقبرة. وقد قال لها القائد المدني والعسكري للموقع: «إنها الكوليرا». كانت تعلم ذلك، لأنها رأت الخثارات البيضاء على فم الجثث المكتوية، لكنها لاحظت أنه لا أثر لرصاصة الرحمة في عنق أي جثة من الجثث، كما كان الأمر في زمن المنطاد.

فقال الضابط: - وهو كذلك. فالرب يُحسّن من أساليبه أيضاً.

كانت المسافة التي تفصل سان خوان دي لاثيناغا عن بلدة سان بيدرو اليخاندرينو القديمة هي تسعة فراسخ فقط، لكن القطار الأصفر كان يستغرق في اجتيازها يوماً كاملاً، لأن صداقات كانت تربط سائق القطار بالمسافرين الدائمين الذين يرجونه التوقف لبعض الوقت، كي يحركوا أرجلهم بالمشي في مرابع الغولف التابعة لشركة الموز، أو ليستحم بعض الرجال منهم، وهم عراة، في الأنهار الصافية والمثلجة التي تنحدر من الجبال، أو أنهم ينزلون من القطار حين يشعرون بالجوع ليحلبوا الأبقار الطليقة في المراعي. وعندما وصلت فيرمينا داثا مروَّعة، لم يتح لها الوقت للتمعن بأشجار التمر الهندي الهوميرية، حيث كان بطل التحرير يعلق شبكة نومه التي احتضر عليها، وللتأكد من أن السرير الذي مات عليه لم يكن صغيراً بالنسبة لرجل فقط، كما قالوا لها، بل إنه صغير حتى على مولود خديج. ولكن زائراً آخر يبدو أنه يعرف كل شيء، قال إن السرير ليس إلا أثراً زائفاً، والحقيقة هي أن أبا الوطن قد تُرك يموت وهو ملقى على الأرض. كانت فيرمينا داثا مغمومة لما رأته مذ خرجت من بيتها،

لدرجة أنها لم تعد تشعر بالسعادة التي حنَّت إليها دوماً، وإنما أخذت تتجنب المرور من القرى التي كانت تحنّ إليها. وهكذا حمت تلك القرى، وحمت نفسها من خيبة الأمل. كانت تسمع العزف على الأوكورديونات من الطريق، حيث كانت تهرب من خيبة الأمل، وتسمع الصرخات المنبعثة من حلبة صراع الديكة، وطلقات الرصاص التي قد تكون رصاصات حرب أو احتفال، وحين لا تجد مفراً من المرور في إحدى القرى، كانت تغطي وجهها بالطرحة لتستمتع بتذكّرها كما كانت من قبل.

في إحدى الليالي، وبعد تجنّب طويل للماضي، وصلت إلى مزرعة ابنة الخال هيلديبراندا، وحين رأتها تنتظر أمام الباب كادت تسقط مُغمًى عليها: كانت وكأنها ترى نفسها في مرآة الحقيقة. لقد رأتها بدينة وهرمة، محاطة بأبناء غير مروَّضين لم تنجبهم من الرجل الذي ما زالت تحبه من دون أمل، وإنما من ضابط ينعم بتقاعد جيد، تزوجت منه غيظاً لفشلها وأحبها بجنون. ولكنها في أعماق جسدها المدمَّر كانت لا تزال على حالها. وقد تخلصت فيرمينا داثا من هذا الانطباع بعد أيام قليلة في الريف، وبتأثير الذكريات الطيبة. لكنها لم تغادر المزرعة إلا للذهاب إلى القدّاس في أيام الآحاد، برفقة أحفاد صديقاتها القديمات الجموحات، الحاذقات في ركوب الخيول الكريمة، وبرفقة بناتهن الجميلات الأنيقات، اللواتي يشبهن أمهاتهن حين كن في سنهن، واللواتي يمضين وقوفاً في العربات التي تجرّها الجواميس، ويغنّين معاً، حتى وصولهن إلى كنيسة البعثة التبشيرية في قاع الوادي. ولم تمرّ إلا بقرية فوريس دي ماريا التي لم تزرها في رحلتها السابقة لأنها لم تكن تظن أنها ستعجبها، ولكنها فُتنت بها حين عرفتها. وكانت مصيبتها، أو مصيبة البلدة، أنها لم تستطع أن تتذكرها فيما بعد كما رأتها في الواقع، وإنما كما كانت تتخيّلها قبل أن تعرفها.

قرّر الدكتور خوفينال أوربينو الذهاب لإحضارها بعد تلقّيه تقرير

أسقف ريوهاتشا. فالنتيجة التي استخلصها هي أن زوجته لم تتأخر لأنها لا تريد الرجوع، وإنما لأنها لا تجد وسيلة لتجاوز كبريائها. وهكذا مضى إلى هناك من دون إعلامها، بعد تبادل عدّة رسائل مع هيلديبراندا، استخلص منها بوضوح أن حنين زوجته قد انقلب: فهي لا تفكر الآن إلّا ببيتها. كانت فيرمينا داثا في المطبخ تعد باذنجاناً محشواً في الساعة الحادية عشرة صباحاً، حين سمعت صرخات عمال المزرعة، وصهيل الخيول، ولعلعة الرصاص في الهواء، ثم الخطوات الواثقة في مدخل البيت، وصوت الرجل:

– أن يصل المرء في الوقت المناسب خير من توجيه الدعوة إليه.

ظنت أنها ستموت من السعادة. ومن دون أن يُتاح لها الوقت للتفكير بالأمر، غسلت يديها كيفما اتفق وهي تهمهم: «حمداً لك يا رب، حمداً لك، لكم أنت طيّب»، مفكرة بأنها لم تستحم بعد من الباذنجان اللعين الذي طلبت منها هيلديبراندا إعداده من دون أن تخبرها مَنْ القادم للغداء، ومفكرة أنها قد صارت عجوزاً قبيحة، وأن وجهها قد سلخته الشمس، ممّا سيجعله يندم لمجيئه حين يجدها على هذا الحال، اللعنة. لكنها نشّفت يديها بالمريلة كيفما اتفق، واستعانت بكل الكبرياء الذي أخرجتها به أمها إلى الدنيا لتضبط قلبها المتراقص طرباً، ومضت للقاء الرجل بمشيتها الغزلانية العذبة، وبرأسها المرفوع، ونظرتها البراقة، وأنفها الحربي، شاكرة للقدَر الطمأنينة العظيمة بالعودة إلى البيت، رغم أن الأمر لن يكون بالسهولة التي تصورها هو حتماً، إذ عادت معه وهي سعيدة حقاً، ولكنها مصممة كذلك على جعله يدفع بصمت ثمن الآلام المريرة التي حطمت حياتها.

بعد حوالى سنتين من اختفاء فيرمينا داثا، حدثت واحدة من تلك المصادفات المستحيلة التي كانت ستعتبرها ترانسيتو أريثا سخرية من سخريات الرب. لم يكن فلورينتينو أريثا قد سمح لنفسه بالانبهار باختراع

السينما. لكن ليونا كاسياني حملته من دون مقاومة إلى حفل الافتتاح الضخم لفيلم كابيريا الذي كانت شعبيته ترتكز على الحوار الذي كتبه الشاعر غابرييل دانونزيو. فناء سينما دون غاليليو داكونتي المكشوف، حيث المتعة تتجاوز في بعض الليالي روعة النجوم إلى روعة الغراميات الصامتة على الشاشة، كان قد غص بالحضور البارزين. كانت ليونا كاسياني تتابع أحداث القصة بروح معلقة بخيط. أما فلورينتينو أريثا فكان رأسه يتمايل من النعاس بتأثير زخم الدراما. ومن خلفه، خرج صوت امرأة بدت وكأنها تحزر ما يفكّر به:

- رباه، إن هذا أطول من ألم!

كان هذا هو الشيء الوحيد الذي قالته، وكظمت نفسها ربّما بسبب رنين صوتها في الظلام، إذ لم تكن قد شاعت هنا بعد عادة مرافقة الأفلام الصامتة بموسيقى البيانو، ولم يكن يُسمع في عتمة الصالة سوى أزيز آلة العرض الذي يشبه صوت المطر. لم يكن فلورينتينو أريثا يذكر الرب إلّا في أصعب المواقف، لكنه شكره من أعماق روحه هذه المرّة. لأنه كان سيتعرّف فوراً على ذلك الصوت المعدني الرخيم. حتى ولو كان على عمق عشرين ذراعاً تحت التراب، مذ حفظه في روحه مساء سمعه يقول له وسط نثارة من الأوراق الصفراء في حديقة متوحدة: «انصرف الآن، ولا ترجع إلى أن أطلب إليك». كان يعلم أنها تجلس في المقعد الذي وراء مقعده، إلى جانب زوجها بلا ريب. وكان يحسّ بتنفسها الدسم والمحسوب جيداً، وكان يستنشق بحب الهواء المُنَقّى بعافية نَفَسِها الطيّب. لم يشعر بأنها منخورة بسوس الموت، كما كان يتصورها في ساعات يأسه خلال الشهور الأخيرة، وإنما تذكرها مجدداً بعمرها المشع والسعيد، ببطنها المكوّرة ببذرة ابنها الأول تحت عباءة مينيرفا. تصوَّرَها كما لو كان يراها من دون أن يلتفت إلى الوراء، غير عابئ بالكوارث التاريخية التي كانت تفيض بها الشاشة. كان يتلذذ بأريج عطر

اللوز الذي يصله من جسدها، ويتشوّق لمعرفة أفكارها عن كيف تحب نساء السينما لتكون آلام حبهن أقل من آلام الحب في الحياة. وقبيل نهاية الفيلم بقليل، أدرك فجأة بومضة بهجة، أنه لم يكن أبداً قريباً بهذا القدر لمثل هذا الوقت ممّن أحبها حباً جماً.

انتظر أن ينهض الآخرون عند إشعال الأنوار. ثم وقف على مهل، والتفت متشاغلاً بتثبيت أزرار الصدرية التي تفلت دائماً خلال عروض السينما، فتقابل الأربعة وجهاً لوجه، بحيث توجب عليهم تبادل التحية، رغم أن أحداً منهم ما كان يرغب بذلك. صافح الدكتور خوفينال أوربينو ليونا كاسياني أولاً، وكان يعرفها جيداً، ثم شدّ على يد أوربينو بتهذيبه المعتاد. وابتسمت لهما فيرمينا داثا ابتسامة مهذَّبة، ولا شيء سوى أنها مهذبة، ولكنها كانت على كل حال ابتسامة شخص رآهما كثيراً، ويعرف من هما، وبالتالي لا حاجة لتقديمهما. وردّت عليها ليونا كاسياني بلطفها كخلاسية. أما فلورينتينو أريثا فلم يدرِ ما يفعل، لأن رؤيتها أذهلته.

لقد كانت امرأة أخرى. لم تكن في وجهها أية علامة من علامات المرض الفظيع الشائع، ولا من أي مرض آخر، وكان جسدها لا يزال يحتفظ بوزنه ورّقته التي كان عليها في أفضل أزمنته، ولكن لا شك بأن السنتين الأخيرتين قد مرّتا عليها بثقل عشر سنوات عجاف. كان الشعر القصير مناسباً لها بتلك القصة المائلة على خديها، ولكنه فقد ذلك اللون العسلي السابق وصار بلون الألمنيوم. وفقدت العينان الرمحيتان الجميلتان نصف حياتهما من الضياء وراء نظارة الجدة. رآها فلورينتينو أريثا وهي تبتعد ممسكة بذراع زوجها وسط الحشد الذي يغادر السينما، وفوجئ بأنها آتية إلى مكان عام بطرحة بائسة وخفّ من النوع البيتي. ولكن أكثر ما هيّج مشاعره هو أن زوجها اضطر لأن يشدّها من ذراعها ليشير لها إلى طريق الخروج، وقد أخطأت رغم ذلك في تقدير الارتفاعات وكادت تسقط عند درج البوابة.

كان فلورينتينو أريثا شديد الحساسية لعثرات الشيخوخة هذه. ففي شبابه كان يقطع قراءاته للأشعار في الحدائق ليراقب أزواج المسنين الذين يساعد أحدهما الآخر على عبور الشارع، وكانت تلك دروساً في الحياة قد تضيء أمامه قوانين شيخوخته بالذات. لقد كان الرجال، وهم في مثل سن الدكتور خوفينال أوربينو في ليلة السينما تلك، يتفتحون بنوع من الشباب الخريفي، فيبدون أكثر وقاراً مع أوّل الشعرات الشائبة، ويصبحون فاتنين وجذابين، خصوصاً في عيون النساء الشابات، بينما تضطر زوجاتهم الذاويات إلى التشبث بأذرعتهم كي لا يتعثرن بظلالهن بالذات. ولكن هؤلاء الأزواج ما يلبثون أن ينزلقوا فجأة، بعد بضع سنوات إلى هوّة شيخوخة مرذولة جسداً وروحاً، وحينئذ يصبح على زوجاتهم المستقرات إسنادهم من أذرعهم كالعميان الباحثين عن صدقة، والهمس في آذانهم، كي لا يجرحن كبرياءهم، بأن ينتبهوا جيداً لأن عدد الدرجات التي سينزلون ثلاث درجات وليس اثنتين، وأن هنالك بركة ماء في وسط الشارع، وأن تلك الحزمة الملقاة على قارعة الطريق هي جثة شحّاذ ميّت، ويساعدونهم بمشقة على عبور الشارع وكأنه المخاضة الوحيدة في نهر الحياة الأخير. لقد رأى فلورينتينو أريثا نفسه مرّات ومرّات في هذه المرآة، حتى أنه لم يشعر يوماً بالخوف من الموت كخوفه من أرذل العمر، حين سيحتاج لامرأة تقوده من ذراعه. إذ كان يعلم أنه في ذلك اليوم، وفي ذلك اليوم فقط، عليه أن يتخلى عن الأمل بفرمينا داثا.

لقد أطار ذلك اللقاء النوم من عينيه. وبدلاً من أن يحمل ليونا كاسياني بالعربة، فقد رافقها مشياً على الأقدام عبر المدينة القديمة، حيث كانت خطواته تقرع بلاط الرصيف كحوافر حصان. وكانت تنطلق بين حين وآخر بقايا أصوات هاربة من الشرفات المفتوحة، أو مناجيات من مخادع النوم، أو نحيب حب تضخمه المسامع الخيالية وأريج الياسمين الدافئ في الأزقة الهاجعة. وكان على فلورينتينو أريثا أن يستجمع ثانية

كل قواه، ليمنع نفسه من أن يكشف لليونا كاسياني عن حبه المقهور لفيرمينا داثا. كانا يسيران معاً، بخطواتهما المحسوبة، غارقَيْن في الحب بلا تسرّع، كخطيبين قديمين. هي تفكر بروعة كايبريا، وهو يفكّر بمحنته الشخصية. وفي ساحة الجمارك، كان هناك رجل يغني، وصوته يتردّد في الجو بأصداء متسلسلة: **حين كنت أعبر أمواج البحر العظيمة**. وفي شارع لوس سانتوس دي بيدرا، حين كان عليه أن يودعها أمام بيتها، طلب فلورينتينو أريثا من ليونا كاسياني أن تدعوه لتناول كأس من البراندي. كانت تلك هي المرّة الثانية التي يطلب منها ذلك في ظروف مشابهة. في المرّة الأولى، قبل عشر سنوات، قالت له: «إذا ما صعدت إلى بيتي في مثل هذه الساعة فعليك البقاء فيه إلى الأبد». ولم يصعد يومها. أما الآن فكان مستعداً للصعود في جميع الأحوال، حتى لو اضطر إلى نقض عهده في ما بعد. لكن ليونا كاسياني دعته للصعود من دون أي التزام.

وهكذا وجد نفسه في محراب حب مات قبل أن يولد. كان أبواها قد توفيا، وجمع أخوها الوحيد ثروة طائلة في كوراساو، وبقيت هي وحدها لتعيش في بيت العائلة. قبل سنوات، وحين لم يكن قد فقد الأمل بجعلها عشيقة له، اعتاد فلورينتينو أريثا زيارتها أيام الآحاد برضى أبويها، وكان يزورها في الليل أحياناً ويبقى حتى ساعة متأخرة، وقد قدم مساهمات كثيرة في عمليات إصلاح البيت حتى صار يعتبره كبيته. ولكنه شعر في تلك الليلة، بعد السينما، بأن صالة الاستقبال قد طُهرت من ذكرياته. كانت أماكن الأثاث قد تبدلت، وعُلقت على الجدران صور جديدة، ففكر بأن كل هذه التغيّرات القاسية إنما أجريت عمداً لتأكيد يقينه بأنه لم يكن له من وجود أبداً. كما أن القطّ لم يتعرّف عليه. فقال وقد أفزعه نذير النسيان: «ما عاد يذكرني». ولكنها ردّت عليه وهي توليه ظهرها، بينما هي تملأ كأسي البراندي، بأنه إذا كان قلقاً لهذا فبإمكانه النوم مطمئناً، لأن القطط لا تتذكر أحداً.

وبينما هما متكئان على الأريكة، متلاصقان، تحدثا عن نفسيهما، عمّا كاناه قبل أن يتعارفا في مساء يوم مَن يذكر كم مضى عليه في حافلة تقودها البغال. وكانت حياتَيهما تمضي في مكتبين متجاورين، ولم يتحدثا أبداً من قبل في شيء خلاف العمل اليومي. وبينما هما يتحدثان، وضع فلورينتينو أريثا يده على فخذها وأخذ يداعبها برقة مجرَّبة في الغواية، وتركته يفعل ذلك، ولكن من دون أن ترد عليه ولو بمجرد ارتعاشة مجاملة. وحين حاول المضي أبعد من ذلك، أمسكت يده المستكشفة وقبّلت راحته قائلة:

- كن مهذباً. فقد أدركتُ منذ زمن بعيد أنك لست الرجل الذي أبحث عنه.

ففي صباها، بطحها على حين غرة فوق ملطم الأمواج رجل قوي وبارع، لم ترَ وجهه أبداً، وعرّاها ممزقاً ثيابها ومارس معها حباً عابراً ومجنوناً. وبينما هي ملقاة فوق الأحجار، وجسدها كله مليء بالجروح، تمنّت لو بقي ذلك الرجل فوقها إلى الأبد، ليموت حباً بين ذراعيها. لم ترَ وجهه، ولم تسمع صوته، لكنها كانت متأكدة من التعرّف عليه بين آلاف الرجال لشكله وحجمه وطريقته في ممارسة الحب. واعتادت منذ ذلك الحين القول لكل من يريد سماعها: «إذا ما عرفت شيئاً في أحد الأيام عن رجل ضخم وقوي اغتصب زنجية بائسة من الشارع فوق صخور سدّ الغرقى، في يوم كان الخامس عشر من تشرين الأول، حوالى الحادية عشرة والنصف ليلاً، فقل له أين يستطيع أن يجدني». كانت تقول ذلك بمحض العادة، وقد كررته كثيراً لدرجة أنها فقدت كل أمل. وكان فلورينتينو أريثا قد استمع منها مرّات ومرّات إلى هذه القصة كما لو أنه يسمع صفارات وداع تطلقها سفينة في الليل. وحين أعلنت الساعة الثالثة صباحاً، كان كل منهما قد شرب ثلاث كؤوس من البراندي، وكان هو

يعلم أنه ليس الرجل الذي تبحث عنه حقاً، وسرّ لمعرفته ذلك. وقال لها وهو يستعد للانصراف:

- برافو يا ليونا، لقد أجهزنا على هذا النمر.

ولم يكن هذا هو الأمر الوحيد الذي قُضي تلك الليلة. فأكذوبة سرادق المسلولين الخبيثة عكرت أحلامه، لأنها أوحت له بأن فيرمينا داثا هي من البشر، ويمكن أن تفنى، ويمكن بالتالي أن تموت قبل زوجها. ولكنه حين رآها تتعثر عند الخروج من السينما، تقدّم خطوة أخرى نحو الهاوية عندما انكشف له فجأة أنه قد يكون هو وليس هي من يموت أولاً. وكانت تلك من أكثر النبوءات هولاً، لأنها تستند إلى الواقع. لقد انقضت سنوات الانتظار الصابر، والآمال السعيدة، ولم يَلُحْ في الأفق سوى خضم الأمراض المتخيلة الذي لا يسبر له قرار، والتبوّل قطرة قطرة في صباحات الأرق، والموت اليومي في الظهيرة. وفكر بأن كل لحظة من لحظات اليوم، تلك التي كانت حليفة له في الماضي وشريكة محلفة، بدأت تتآمر ضده. لقد ذهب منذ سنوات قليلة إلى موعد غرامي جريء وقلبه مثقل بالخوف من المصادفة، فوجد الباب غير مقفل والمفصلات مزيتة لتوّها كي يستطيع الدخول من دون إثارة أية ضجة، لكنه أحجم في اللحظة الأخيرة، مخافة أن يسبب لامرأة غريبة وخدومة الضرر الذي لا سبيل لإصلاحه بموته في سريرها. وهكذا كان معقولاً التفكير بأن المرأة التي أحبها أكثر من كل ما أحبه على وجه الأرض، والتي انتظرها من دون تذمّر من قرن إلى آخر، لن يُتاح لها الوقت لإسناده من ذراعه وعبور شارع مليء بحثوات التراب القمرية وجنائن البرقوق التي بعثرتها الريح، لمساعدته في الوصول سليماً معافى إلى الرصيف الآخر للموت.

الحقيقة أن فلورينتينو أريثا، قد دخل وفق معايير عصره حدود

الشيخوخة، كان عمره ستاً وخمسين سنة، بالتمام والكمال، وكان يظن أنه قد عاش أفضل حياة، لأن سنوات حياته كانت سنوات حب. ولكن لم يواجه أي رجل من رجال عصره سخرية الظهور بمظهر الشباب وهو في سنة، بينما كان هو كذلك، أو كان يعتقد بأنه كذلك؛ كما لم يكن أي من أولئك الرجال ليتجرأ على الاعتراف من دون خجل بأنه ما زال يبكي خفية من أجل صدّ لقيه في القرن الماضي. لقد كان عصراً سيئاً للظهور بمظهر الشباب: فهناك طريقة معينة في اللباس لكل سن، لكن طريقة سن الشيخوخة في اللبس تبدأ بعد المراهقة بقليل، وتستمر حتى القبر. ولقد كانت هذه المرحلة عبارة عن مرحلة وقار اجتماعي أكثر منها مرحلة حياتية. فالشباب فيها يلبسون مثل أجدادهم، ويصبحون أكثر وقاراً بالنظارات المبكرة، كما أن حمل العكاز أمراً مقبولاً منذ سن الثلاثين. أما بالنسبة للنساء فلم تكن في حياتهن سوى مرحلتين: سن الزواج، وهو لا يتعدّى الثانية والعشرين من العمر، وسن العزوبية الأبدية.. الذي يضم الكاسدات. أما ما سوى ذلك من متزوجات وأمهات وأرامل وجدّات، فكن صنفاً مختلفاً من البشر، لا تحسب حياتهن بما يعِشنه من سنوات، وإنما بالزمن المتبقّي أمامهن للموت.

لقد واجه فلورينتينو أريثا غدر الشيخوخة بجسارة شرسة، حتى وهو يعرف قدَرَه الغريب بالظهور بمظهر الشيخوخة منذ طفولته. وقد كان ذلك المظهر وليد الحاجة في أوّل الأمر، إذ كانت ترانسيتو أرثيا تفتق له وتعيد خياطة ملابس أبيه التي يقرر التخلص منها وإلقاءها إلى القمامة. وهكذا كان يذهب إلى المدرسة الابتدائية بسترة تصل إلى الأرض عند جلوسه، وقبعة وزارية تغطس في رأسه حتى أذنيه، رغم تضييق إطارها بحشوات من القطن. وبما أنه كان يستخدم كذلك نظارات لقصر النظر منذ الخامسة من عمره، وكان له شعر هندي كشعر أمه، مزبئر وقاس كناصية جواد، فلم تكن لمظهره أية سمات واضحة. ولحسن الحظ أن المعايير

المدرسية كانت أقل انتقائية ممّا كانت عليه من قبل، وذلك بعد فوضى الحكومات الكثيرة بسبب الحروب الأهلية المفروضة والمتلاحقة. فكانت المدارس العامة تزخر بخليط من الأصول والظروف الاجتماعية المتباينة. كان يأتي إلى الدروس صبية تفوح منهم روائح بارود المتاريس، وبملابس وشارات ضباط متمردين نالوها بإطلاق الرصاص في معارك مشكوك فيها، وبأسلحتهم النظامية البادية تماماً على خصورهم. وكانوا يصطدمون في ما بينهم بالرصاص لأي خلاف في الاستراحة، ويهددون المعلمين إن هم أساؤوا تقديرهم في الامتحانات، بل إن أحدهم، وهو تلميذٌ في الصف الثالث بمدرسة لاساليه، وكولونيلُ ميليشيا متقاعد، قتل الأخ خوان أريميتا، رئيس الطائفة، بالرصاص لأنه قال في درس أصول الدين إن الربّ هو عضو عامل في الحزب المحافظ.

من جهة أخرى، كان أبناء العائلات الكبيرة المنكوبة يأتون إلى المدرسة بملابس أمراء قدماء، بينما يسير بعض الفقراء المدقعين حفاة. وبين كل هذه المفارقات الغريبة التي طالت جميع المستويات، كان فلورينتينو أريثا من أشدّ الحالات غرابة، ولكن ليس إلى الحدّ الذي يلفت إليه الانتباه كثيراً. وكان أقسى ما سمعه هو أن أحدهم صرخ به في الشارع يوماً: «الفقير القبيح تنقضي حياته في التمنيات». وعلى أي حال فان ذلك الزي الذي فرضته الحاجة، كان منذ ذلك الحين، وسيبقى طوال حياته، الأكثر ملاءمة لطبيعته الغامضة ومزاجه الكئيب. وحين وصل إلى أوّل منصب مهم في ش.ك.م.ن. بعث يطلب تفصيل ثياب جديدة على مقاسه من طراز ملابس أبيه الذي ما زال يذكره كشيخ توفّي عن عمر موقّر كعمر المسيح: ثلاث وثلاثون سنة. لقد كان فلورينتينو أريثا يبدو إذاً أكبر من سنّه الحقيقي بكثير. لدرجة أن النمّامة برجيدا زوليتا، إحدى عشيقاته العابرات والتي كانت تقدم له الحقائق من دون أن تمر بها في الماء، قالت له منذ اليوم الأول بأنه يروق لها أكثر حين يخلع ملابسه، لأنه

يصغر عشرين سنة وهو عارٍ. ولم يستطع رغم ذلك التوصل إلى التوافق أبداً، أولاً لأن ذوقه الشخصي لا يمكنه من أن يتزيا بطريقة أخرى، وثانياً لأن أحداً من أهل ذلك العصر ما كان يعرف كيف له أن يتزيا بزي شاب في العشرين من دون أن يُخرج مجدداً، من خزانته، سراويله القصيرة وقبعة الأولاد. ومن جهة أخرى، لم يكن ممكناً له هو بالذات الهروب من معرفة شيخوخة عصره. وهكذا فقد كاد أن يكون طبيعياً حين رأى فيرمينا داثا تتعثر لدى خروجها من السينما، وأمكن لبارقة الذعر أن تبعث القشعريرة فيه، لإحساسه بأن الموت العاهر سينتصر عليه بالتأكيد في حرب حبه الضروس.

كانت المعركة التي خاضها عاجزاً، حتى ذلك الحين، وخسرها من دون أمجاد، هي معركته ضد الصلع. فمنذ رأى الشعرات الأولى تعلق بالمشط، أدرك أنه محكوم بجحيم لا يمكن لمن لم يعشه تصوّر عذاباته. قاوم خلال سنوات. لم يدع وصفة أو علاجاً للصلع إلا وجرّبه، ولا خرافة إلا وآمن بها، ولا تضحية إلا واحتملها ليدافع عن كل بوصة من شعر رأسه في مواجهة الداء النهم. حفظ عن ظهر قلب تعليمات روزنامة بريستول الزراعية، لأنه سمع أحدهم يقول إن نمو الشعر مرتبط ارتباطاً مباشراً بدورات المواسم الزراعية. وهجر حلّاقه الذي كان يقص شعره عنده منذ الأزل، لأنه كان ذا صلعة مهيبة، واستبدله بحلاق غريب جاء المدينة حديثاً، وكان لا يقص الشعر إلا حين يبدأ القمر بالاكتمال. وأخذ الحلاق الجديد يثبت أن يده مخصبة حقاً حين كُشف أمره كمغتصب تلميذات غريرات تلاحقه شرطة عدّة بلدان أنتيلية، وقيّد مكبلاً بالسلاسل.

كان فلورينتينو أريثا قد قصّ حتى ذلك الحين جميع الاعلانات الموجّهة للصلعان في صحف بلدان حوض الكاريبي، حيث كانوا ينشرون في تلك الاعلانات صورتين متجاورتين للرجل نفسه، الأولى

وهو منتوف مثل شمامة، والثانية بشعر أغزر من لبدة أسد: قبل وبعد استخدام الدواء المضمون. وبعد مرور ست سنوات، كان قد جرّب مئة واثنين وسبعين دواء، إضافة إلى وسائل أخرى مكمّلة كانت ترد في الوصفة المرفقة بقناني الدواء. لكن الشيء الوحيد الذي حصل عليه هو نوع من الأكزيما في رأسه، قرحة حارقة ومنتنة، يطلق عليها أولياء المارتينيك الصالحون اسم القرع الشمالي، لأن إشعاعاً فسفورياً ينبعث منها في الظلام. وبعد ذلك لجأ إلى جميع أصناف الأعشاب التي يروّجها الهنود في السوق العام، وجميع الأدوية السحرية والأكاسير الشرقية التي تُباع في زقاق الكتبة العموميين، وحين أدرك أنه ليس سوى ضحية عمليات غش، كانت قرعة كقرعة القديسين قد غزت منتصف رأسه. وفي السنة صفر، عندما كانت حرب الألف يوم الأهلية تستنزف البلاد، مرّ في المدينة ايطالي يصنع باروكات من الشعر الطبيعي على المقاس. كانت الواحدة منها تكلف ثروة، ولا يتحمّل الصانع أية مسؤولية بعد ثلاثة شهور من الاستعمال. ولكن عدداً ضئيلاً فقط من الصلعان الموسرين لم يرضخوا للإغراء. وكان فلورينتينو أريثا أحد الأوائل. جرب باروكة مشابهة تماماً لشعره الأصلي، حتى أنه خشي من انتصاب الشعر مع تبدلات مزاجه. لم يستطع استيعاب فكرة حمل شعر إنسان ميّت على رأسه. وكان عزاؤه الوحيد أن شراهة الصلع لم تتح له التعرّف على لون شعراته الشائبات. وفي يوم من الأيام عانقه أحد سكارى الميناء النهري السعداء بعاطفة متدفقة أكثر من المعتاد وهو خارج من المكتب، فأفلتت الباروكة أمام سخرية عمال الشحن، وطَبَع السكران قبلة مدوية على رأسه وهو يصرخ: - صلعة ربانية!

في تلك الليلة بالذات، وكان قد بلغ الثامنة والأربعين من العمر، حلق الشعيرات القليلة المتبقية على الصدغين والرقبة، واستسلم تماماً لمصيره كأصلع مطلق. بل إنه لم يعد في صباح كل يوم، قبل الحمّام،

يقتصر على طلي ذقنه وحدها برغوة الصابون، وإنما كذلك أجزاء من رأسه، حيث يجد أن بعض الشعر آخذ بالظهور، فيجعلها بموسى الحلاقة مثل إلية طفل رضيع. لم يكن بنزع القبعة حينئذ حتى ولو في المكتب، إذ كانت الصلعة تثير فيه شعوراً بالعري يبدو له غير وقور. ولكنه حين اعتاد عليها تماماً، نسب إليها فضائل ذكورية كان قد سمع بها، وكان يزديها من قبل على أنها مجرّد أوهام من الصلعان. ثم انتقل في ما بعد إلى العادة الجديدة باستخدام شعر المفرق الأيمن الطويل لتغطية الصلعة، ولم يتخلَّ عنها أبداً. ولكنه استمر في استخدام القبعة وهو على هذا الحال، بالطريقة الجنائزية ذاتها، حتى بعدما شاعت قبعة تارتاريتا، وهو الاسم المحلي لقبعة كانوتيه.

أما فقدانه أسنانه فلم يكن نتيجة بلوى طبيعية، وإنما نتيجة عمل غير متقن قام به طبيب أسنان متجوّل رأى أنه لا بدّ من نزع الأسنان إثر التهاب عادي. كان الرعب من آلة ثقب الأسنان قد منع فلورينتينو أريثا من زيارة طبيب الأسنان رغم آلام أضراسه المستمرة، إلى أن فقد القدرة على الاحتمال. وقد فزعت أمه حين سمعت أنينه في الغرفة المجاورة طوال الليل، إذ بدت لها كتأوّهاته في زمن آخر شبه مطموس في ضباب ذاكرتها، ولكنها حين طلبت منه أن يفتح فمه لترى أين هو ألم الحب، اكتشفت أن ما يضنيه هي الخرّاجات والدمامل الصغيرة.

أرسله العم ليون الثاني عشر إلى الدكتور فرانسيس أدوناي، وهو مارد زنجي يلبس سروالاً خاصاً بركوب الخيل، ويتنقل في السفن النهرية حاملاً عيادته للأسنان كلها في أكياس، فيبدو أشبه بمندوب متجول للرعب في قرى النهر. وبعد نظرة واحدة إلى فم فلورينتينو أريثا، قرّر أنه لا بدّ من نزع أسنانه كلها، بما في ذلك الأسنان والأضراس السليمة، لإنقاذه إلى الأبد من محن أخرى. وعلى العكس من الصلعة، لم يسبب له هذا العلاج الحماري أي نوع من القلق، باستثناء خوفه الطبيعي من

المجزرة من دون مخدر. كما لم تزعجه فكرة الأسنان الاصطناعية، أولاً لأن إحدى ذكريات طفولته التي يحنّ إليها هي ذكرى ساحر رآه في مهرجان وكان ينزع فكيه ويضعهما على منضدة ليتكلما بمفردهما، وثانياً لأنه سيضع حداً لآلام الأضراس التي عذبته منذ طفولته، وهي آلام تكاد تشبه بقسوتها آلام الحب. لم يرَ في الأمر ضربة غادرة من ضربات الشيخوخة، كما رأى في الصلعة؛ إذ كان مقتنعاً، رغم طعم المطاط المُكَبْرَت، بأن مظهره سيكون أجمل بابتسامة قويمة. وهكذا سلم نفسه من دون مقاومة لكمّاشة الدكتور أدوناي المضمخة بالدم، واحتمل آلام العلاج بصبر كصبر حمير العتالة.

اهتم العم ليون الثاني عشر بتفاصيل العملية كما لو كانت تُجرى له بالذات. فقد كان يولي الأسنان الاصطناعية اهتماماً خاصاً إثر إحدى رحلاته الأولى في نهر مجدلينا، وبسبب هوسه بالغناء الجميل. ففي إحدى الليالي المقمرة، وقريباً من ميناء غامارا، راهن مسّاح أراض ألماني بأنه قادر على إيقاظ مخلوقات الغابة بغنائه رومنس نابولي من فوق شرفة القبطان. وكاد أن يكسب الرهان. إذ انطلقت في عتمة النهر خفقات أجنحة طيور مالك الحزين في المستنقعات، وضرب ذيول التماسيح، وأنفاس أسماك الشابل وهي تحاول القفز إلى اليابسة، ولكنه حين وصل القفلة الختامية، وحين خشي المجتمعون من تمزق شرايين المغني لقوة صوته، أفلت طقم الأسنان الاصطناعية من فمه مع النفَس الأخير، وغرق في الماء.

وقد اضطرت السفينة للانتظار ثلاثة أيام في ميناء تينيريفي، ريثما صنعوا له مجموعة أسنان طوارئ جديدة. كانت هذه الأسنان الجديدة متقنة. لكنه في رحلة العودة، وأثناء محاولته أن يشرح للقبطان كيف أضاع طقم أسنانه السابق، استنشق العم ليون الثاني عشر ملء رئتيه هواء الغابة المتقد، وصدح بأعلى لحن يستطيعه، واحتفظ به حتى النفس الأخير

محاولاً إفزاع التماسيح الجاثمة تحت الشمس متأملة مرور السفينة من دون أن يطرف لها رمش، فغرق طقم الأسنان الجديد في مجرى النهر أيضاً. ومنذ ذلك الحين وضع نسخاً من الأسنان الاصطناعية في كل مكان، وفي عدّة أمكنة بالبيت، وفي درج مكتبه، كما وضع طقماً في كل سفينة من سفن الشركة الثلاث. وإضافة إلى ذلك، صار يحمل معه كلما ذهب لتناول الطعام خارج المنزل، طقماً إضافياً يضعه في علبة لأقراص السعال في جيبه، وذلك لأن أسنانه الاصطناعية كُسرت يوماً وهو يحاول أكل قطعة من شحم الخنزير المقدَّد في غداء ريفي. وخشية أن يقع ابن أخيه ضحية مفاجآت من هذا النوع، أمر العم ليون الثاني عشر الدكتور أدوناي بأن يصنع له مجموعتين من الأسنان: إحداهما من مواد عادية، للاستخدام اليومي في المكتب، وأخرى لأيام الآحاد والأعياد، مزودة بلمعة ذهبية في ضرس الابتسامة، ممّا منحها لمسة إضافية حقاً. وأخيراً، رجع فلورينتينو أريثا، في يوم أحد يضج بنواقيس العيد، إلى شارعه بهوية جديدة، وجعلته ابتسامته الصائبة يشعر بأن شخصاً آخر قد احتل مكانه في الدنيا.

حدث هذا في الحقبة التي ماتت فيها أمه وبقي فلورينتينو أريثا وحده في البيت الذي كان ركناً مناسباً لغرامياته، إذ إن شارعه يكتم الأسرار رغم أن النوافذ الكثيرة التي تمنحه الاسم توحي بوجود عيون تتلصص من وراء الستائر. ولكن كل ما في هذا البيت إنما صنع لإسعاد فيرمينا داثا، وسيكون لها وحدها. وهكذا فضّل فلورينتينو أريثا تبديد فرص كثيرة خلال أكثر سنواته إثماراً، على أن يدنّس بيته بغراميات أخرى. ولحسن الحظ أن كل درجة كان يرتقيها في مناصب ش.ك.م.ن.، كانت تعني امتيازات جديدة، ومكاسب سرية على وجه الخصوص، وأكثر هذه الامتيازات فائدة بالنسبة إليه كانت إمكانية استخدامه المكتب خلال الليل، وفي أيام الآحاد والعطل، بالاتفاق مع البوابين. وفي

إحدى المرّات، حين كان نائباً أوّل للرئيس، فُتح باب مكتبه بغتة بينما كان يمارس حباً مستعجلاً مع إحدى الفتيات اللواتي يعملن أيام الآحاد، وكان جالساً على الكرسي فيما هي رابضة في حضنه، وبعد فتح الباب، أطل العم ليون الثاني عشر برأسه، كما لو أنه أخطأ في المكتب، ووقف يتأمّل من فوق نظارته ابن أخيه المرتبك. ثم قال العم دون أي قدر من الدهشة:

- كراخو! إنها لعنة أبيك نفسها!

وقبل أن يغلق الباب ثانية، أضاف ونظره تائه في الفراغ:

- وأنت أيتها الآنسة، تابعي بلا خوف. أقسم لك بشرفي أنني لم أرَ وجهك.

لم يعد للحديث في هذا الأمر. ولكن العمل كان مستحيلاً في مكتب فلورينتينو أريثا خلال الأسبوع التالي. فقد دخل الكهربائيون يوم الاثنين بجلبة لتركيب مروحة ذات ريَش في السقف الأملس، وأتي صانعو الأقفال من دون إنذار مسبق، وأثاروا ضجة حرب وهم يثبتون مزلاجاً في الباب لاغلاقه من الداخل. وأخذ النجارون مقاسات من دون أن يقولوا لماذا، وجاء المنجّدون بنماذج من قماش الكريتون ليروا إن كانت تتناسب مع لون الجدران، وكان عليهم في الأسبوع التالي أن يستخدموا النافذة، لأن الأبواب لم تتسع لادخال أريكة مزدوجة مزينة برسوم أزهار. اشتغلوا في ساعات لا تخطر على بال، بوقاحة لا تبدو أنها مصادفة، وكانوا يرددون على كل من يعترض بالقول:

- إنها أوامر الإدارة العامة.

لم يعلم فلورينتينو أريثا أبداً إن كان هذا التدخل لطفاً من العم، الساهر على غرامياته الضالة، أم أنه أسلوب خاص به للفت انتباهه إلى سوء سلوكه في استخدام صلاحياته. ولم يتبين حقيقة أن العم ليون

الثاني عشر كان يشجعه، فقد وصلت إلى مسامعه كذلك أنباء تقول أن لابن أخيه عادات مختلفة عن عادات معظم الرجال، وقد أقلقه ذلك لأنه رأى فيه عائقاً أمام تعيينه خليفة له.

لقد عاش ليون الثاني عشر لوايثا، على عكس أخيه، حياة زوجية مستقرة، استمرت ستين سنة، وكان يفاخر دوماً بأنه لا يشتغل أيام الآحاد. وقد أنجب أربعة أبناء وابنة واحدة، وكان يريد إعدادهم جميعاً ليرثوا عنه إمبراطوريته، ولكن الحياة أعدت له واحدة من هذه المصادفات التي كانت شائعة في روايات عصره، والتي لم يكن هناك من يؤمن بوجودها في الحياة الواقعية: لقد مات الأبناء الأربعة، واحداً بعد الآخر، وبعد وصولهم إلى مناصب المسؤولية. أما الابنة، التي لا تتمتع بأي ميول نهرية، ففضلت الموت وهي تتأمل مراكب هدسون من نافذة على ارتفاع خمسين متراً. فوُجد هناك بعد كل هذه الميتات من يؤمن بأسطورة أن فلورينتينو أريثا، بمظهره المشؤوم ومظلته التي كمظلة مصّاصي الدماء، قد فعل شيئاً لتحدث كل هذه المصادفات معاً.

وعندما تقاعد العم عن العمل مكرهاً، بأمر طبي، ضحّى فلورينتينو أريثا راضياً ببعض غرامياته في أيام الآحاد ليرافق العم إلى ملجأه الريفي في سيارة من السيارات الأولى التي شوهدت في المدينة، والتي كانت ذراع إدارة محركها قوية الارتداد لدرجة أنها انتزعت ذراع سائقها الأول. كانا يتحادثان لساعات طويلة فيما العجوز مستلقٍ في أرجوحة نومه المطرَّز عليها اسمه بخيوط حريرية، بعيداً عن كل شيء، في مزرعة عبيد قديمة كانت تظهر من فوق مصاطبها المشرفة مساء، قممَ سلسلة الجبال المكللة بالثلج. كان يصعب على فلورينتينو أريثا وعمّه الخوض في حديث آخر سوى الملاحة النهرية، وبقي هذا هو موضوع تلك المسامرات الطويلة، حيث كان الموت دوماً ضيفاً لا مرئياً. لقد كانت إحدى مشاغل العم ليون الثاني عشر هي الحيلولة دون انتقال الملاحة

إلى أيدي رجال أعمال من أقاليم الداخل الذين يرتبطون بالاحتكارات الأوروبية. وكان يقول: «لقد كان هذا العمل دوماً هو عمل الماتاكونغيين. أما إذا تولّاه الداخليون فسيهدونه ثانية إلى الألمان».

وكان قلقه ناجماً عن قناعة سياسية يحب تكرارها بمناسبة وبلا مناسبة: «أكاد أكمل مئة سنة، وقد رأيت كل شيء يتغيّر، بما في ذلك مواقع الكواكب في الكون، ولكنني لم أرَ حتى الآن شيئاً يتغيّر في هذه البلاد. فهنا توجد دساتير جديدة، وقوانين جديدة، وحروب جديدة كل ثلاثة شهور، لكننا ما زلنا نعيش في العهد الاستعماري».

وكان يرد دائماً على أخوَيْه الماسونيَّيْن اللذين يعزوان كل الشرور إلى فشل الاتحادية: «لقد كانت حرب الألف يوم خاسرة قبل اندلاعها بعشرين سنة؛ منذ حرب عام 67». وكان فلورينتينو أريثا، الذي تتجاوز لامبالاته السياسية حدود المطلق، يستمع إلى هذا الكلام الطويل المكرور كمن يستمع إلى صوت البحر. ولكنه كان بالمقابل نقيضاً صارماً في ما يتعلق بسياسة الشركة. إذ كان يرى، على العكس من عمّه، بأن تخلّف الملاحة النهرية، التي تبدو دائماً على شفير الكارثة، لا يمكن معالجته إلا بالتخلي التلقائي عن احتكار الملاحة النهرية الذي منحه الكونغرس الوطني لشركة الكاريبي لمدة تسعة وتسعين عاماً ويوم واحد. وكان العم يعترض: «هذه الأفكار تحشوها في رأسك سميّتي ليونا المولعة بالفوضوية». وكان هذا هو نصف الحقيقة فقط، إذ كانت مبررات فلورينتينو أريثا تستند إلى تجربة الربّان الألماني جون ب. ألبيرس، الذي أفسد بطموحه الشخصي المفرط نبوغه النبيل. أما العم ليون فكان يرى أن فشل ألبيرس لم يكن بسبب امتيازاته. وإنما نتيجة التعهدات اللاواقعية التي التزم بها في حينه، فكان كمن يلقي على كاهله مسؤولية الجغرافية الوطنية بأسرها: فقد تحمّل مسؤولية الحفاظ على الملاحة النهرية، وبناء المنشآت المرفئية، والطرق البريّة المؤدية إلى الموانىء، ووَسائل

النقل. أضف إلى ذلك - كان يقول - أن معارضة الرئيس سيمون بوليفار الشديدة لم تكن بالعائق الذي يبعث على الضحك.

كان معظم المساهمين في الشركة يرون في ذلك الخلاف واحداً من الخلافات الزوجية، حيث كلا الجانبين على حق. فعناد الشيخ يبدو لهم طبيعياً، ليس لأن الشيخوخة جعلته أقل وهماً ممّا كان عليه دوماً، كما اعتاد القول عن نفسه بسهولة كبيرة وإنما لأن التخلي عن الاحتكار برأيه هو إلقاء إلى القمامة بمكاسب النصر الذي تحقق في معركة تاريخية خاضها وأخواه منفردَيْن في الأزمنة البطولية، ضد خصوم جبارين من العالم بأسره. ولهذا لم يعارضه أحد حين ربط حقوقه بطريقة لا تتيح لأحد المَسّ بها قبل غيابه القانوني. ولكن حين سلم فلورينتينو أريثا أسلحته في مسامرات التأمل في المزرعة، أبدى العم ليون الثاني عشر موافقته في التخلي عن الامتياز المئوي، بشرط مشرِّف وحيد هو ألّا يتم التنازل قبل وفاته.

كان هذا هو عمله الأخير. ولم يعد بعده للحديث في شؤون العمل، بل إنه لم يعد يسمح لهم بأن يستشيروه فيه. ولم يفقد تجعيدة واحدة من تجاعيد رأسه الإمبراطوري، ولا ذرة واحدة من وضوحه، لكنه فعل كل ما بوسعه كي لا يبدو عليه شيء يثير الشفقة. كانت أيامه تمضي وهو يتأمّل الثلوج الدائمة من شرفته، محرّكاً كرسيه الفينيّ الهزّاز ببطء، إلى جانب منضدة صغيرة تحرص الخادمات على وجود إبريق قهوة مرّة ساخنة عليها دوماً، ومجموعتين من أسنانه الاصطناعية التي ما عاد يستخدمها إلا عند استقبال الزوّار. كان يلتقي عدداً محدوداً من الأصدقاء، ولا يتحدّث معهم إلا عن ماض سحيق جداً وسابق للملاحة النهرية. ولكن بقي له مع ذلك موضوع جديد للحديث: رغبته بزواج فلورينتينو أريثا. وقد عبّر عن ذلك عدّة مرّات، وبالطريقة ذاتها دوماً.

كان يقول له:

- لو أنني كنت أصغر بخمسين سنة لتزوّجت من سَميّتي ليونا. فأنا لا أستطيع تصوّر زوجة أفضل منها.

كان فلورينتينو أريثا يرتعش لخوفه من أن يضيع كل ما عمله خلال سنوات طويلة بهذا الشرط الطارئ في اللحظة الأخيرة. لكنه كان يفضل الاستقالة، والتخلي عن كل شيء، والموت، قبل أن يخلف وعده لفيرمينا داثا. ولحسن الحظ أن العم ليون الثاني عشر لم يصرّ في طلبه. وحين أتمّ الثانية والتسعين من العمر، اعترف بابن أخيه وريثاً وحيداً، وتقاعد من الشركة.

بعد ذلك بستة شهور، وبإجماع المساهمين، عُيّن فلورينتينو أريثا رئيساً لمجلس الإدارة ومديراً عاماً للشركة. ويوم تولّى مهام منصبه، بعد تناول الشمبانيا، طلب العجوز ليون المتقاعد السماح له بالحديث وهو جالس على الكرسي الهزاز، وارتجل خطبة قصيرة بدت أشبه بمرثية. قال إن حياته بدأت وانتهت بحدثَين صادرَين عن العناية الإلهية. الحدث الأول هو أن بطل التحرير حمله بين ذراعيه، في بلدة تورباكو، أثناء رحلته المشؤومة التي قادته إلى الموت. والحدث الثاني كان عثوره، رغم كل العوائق التي فرضها القدر، على خليفة جدير بالشركة. وأخيراً، في محاولة لنزع المأساوية من المأساة، اختتم حديثه قائلاً:

- المرارة الوحيدة التي أحملها من هذه الحياة هي أنني غنّيت في جنازات كثيرة، باستثناء جنازتي.

ولاختتام الاحتفال، وكيف لا، غنّى منفرداً أغنية وداعاً للحياة، من أوبريت توسكا. غناها بلحن كنائسي، كما يحب أن يُغنّيها، وبصوت لا يزال ثابتاً. لقد تأثر فلورينتينو أريثا، لكنه لم يكد يُظهر ذلك في ارتعاشة صوته حين ألقى كلمة شكر. مثلما فعل وفكّر بكل ما فعله وفكّر به في

الحياة. لقد وصل إلى القمّة من دون هدف سوى قراره الشرس بالبقاء حياً، وفي حالة صحية جيّدة، لحظة تولّيه مصيره في ظل فيرمينا داثا.

ولكن لم تكن ذكراها وحدها هي التي رافقته تلك الليلة في الحفلة التي دعت إليها ليونا كسياني. بل رافقته كذلك ذكرى جميع من عرفهن. سواء من يرقدن في المقابر، مفكرات به من خلال الزهور التي زرعها فوقهن، أو أولئك اللواتي ما زلن يسندن رؤوسهن على الوسادة ذاتها التي نام عليها أزواجهن بقرون مذهّبة تحت ضوء القمر. وباستثناء واحدة منهن، كان يرغب في أن يكون معهن جميعاً في وقت واحد، وهو ما كان يخشاه دائماً. ففي أصعب سنوات حياته، وأقسى لحظاته، احتفظ بعلاقة ما، وإن كانت واهية، مع عشيقاته اللاتي لا حصر لهن: لقد تابع دائماً خيط حياتهن.

تذكر في تلك الليلة روساليا، أقدَمهن جميعاً، التي فضّت عذريته وما زالت ذكراها تعذبه كما عذبته في اليوم الأول. كان يكتفي بإغماض عينيه ليراها بفستان الموسلين والقبعة ذات شرائط الحرير الطويلة وهي تهز قفص الطفل عند حافة السفينة. وكان قد أعد عدّة كل شيء مرّات عديدة في سنوات حياته الطويلة للانطلاق في البحث عنها، من دون أن يعرف أين، ومن دون أن يعرف ما هو لقبها، ومن دون أن يعرف إن كانت هي حقاً مَن يبحث عنها، ولكنه كان متأكداً من أنه سيجدها في أي مكان ما بين أزهار السلحبيات. وفي كل مرّة، بفعل عائق حقيقي بطرأ في اللحظة الأخيرة، أو بفعل خلل خارج عن إرادته، كانت الرحلة تتأجل وهو على وشك أن يرفع جسر السفينة: وقد كانت للأسباب دوماً علاقة ما بفيرمينا داثا.

تذكر أرملة ناثاريت، الوحيدة التي دنّس معها بيت أمه في شارع لاس فينتاناس، رغم أنه لم يكن هو، وإنما ترانسيتو أريثا، مَنْ سمح لها

بالدخول. ولقد كرّس لها تفهماً أكثر من أي واحدة سواها، لأنها الوحيدة التي كانت تشعّ حناناً يكفي لإحلالها محل فيرمينا دائا، رغم بلادتها في الفراش. لكن ميولها كقطة متشردة، وغير مروَّضة، تفوّقت على قوّة حنانها وحكمت عليهما بالخيانة. ومع ذلك، فقد أصبحا عاشقين متقطعين خلال ما يقرب من ثلاثين سنة بفضل شعاره الفروسي: **خائنان، ولكن غير مخادعَيْن**. وكانت هي الوحيدة كذلك التي كشف فلورينتينو عن وجهه الحقيقي من أجلها: فحين وصله خبر موتها، وعلم أنها ستُدفن في مدافن الإحسان، تكفّل بدفنها على نفقته، وكان الوحيد الذي حضر جنازتها.

تذكّر أرامل أخريات محبوبات. بروديثيا بيترا، أقدم اللواتي ما زلن على قيد الحياة، والمعروفة للجميع باسم أرملة الرب، لأنها ترَمّلت مرتين. وتذكّر بورديثيا الأخرى، أرملة أريبانو المتيّمة بحبه، والتي كانت تقطع أزرار ملابسه كي يضطر إلى البقاء في بيتها ريثما تُعيد إصلاحها. وخوسيفا، أرملة زونيغا، المجنونة بحبه، والتي كادت تقصّ عضوه بالمقص وهو نائم، كي لا يكون لأحد سواها.

تذكر أنخيلس الفارو، التي غابت سريعاً وكانت أحبهنّ إليه، إذ جاءت لمدة ستة أشهر لتعليم موسيقى الآلات الوترية في مدرسة الموسيقى، وكانت تقضي معه الليالي المقمرة على سطح بيتها، كما قذفت بها أمها إلى الدنيا، عازفة أجمل المقطوعات الموسيقية على البيولونتشيلو[1]، الذي يتحوّل صوته إلى صوت إنسان بين فخذيها الذهبيين. ومنذ الليلة المقمرة الأولى، تفتت قلباهما إرباً بحب مبتدئين شرسَيْن. لكن أنخيلس الفارو مضت مثلما جاءت، بعضوها الغَضّ وآلتها الموسيقية، في سفينة ترفع راية النسيان، والشيء الوحيد الذي بقي منها في ليالي السطح

(1) آلة موسيقية وترية شائعة الاستخدام في كولومبيا.

المقمرة، هو تلويحة وداعها بمنديل أبيض بدا كأنه حمامة متوحّدة وحزينة في الأفق، كما في أشعار مهرجان الزهور. لقد تعلم فلورينتينو أريثا معها ما كان قد عاناه كثيراً من دون أن يُدرك كنهه: وهو أنه بوسع المرء أن يعشق عدّة أشخاص في الوقت نفسه، ويتألم الألم ذاته لهم جميعاً، من دون خيانة أي منهم. وبينما هو يقف وحيداً وسط الجموع في الميناء، قال غاضباً: «إن في القلب حجرات أكثر ممّا في فندق للعاهرات». كان مبللاً بدموع آلام الوداع. ولكن ما إن اختفت السفينة عند خط الأفق، حتى عادت ذكرى فيرمينا داثا لتشغل الفراغ كله.

تذكر أندريه بارون، التي مرّ من أمام بيتها الأسبوع الماضي، ونبّهه الضوء البرتقالي المنبعث من نافذة الحمّام إلى أنه لا يستطيع الدخول: لقد سبقه أحدهم. أحدهم: رجل أو امرأة، لأن أندريه بارون لم تكن لتتوقف عند ترّهات من هذا النوع في فوضى الحب. وبين جميع من هنّ في قائمته، كانت هي الوحيدة التي تعيش من جسدها، ولكنها كانت تتحكم به بحسب رغبتها، من دون وكيل أعمال. في سنواتها الطيبة مارست المهنة القديمة كمومس سرية، ممّا جعلها جديرة باسم **سيدتنا قديسة الجميع**. لقد فتنت حكاماً وأمراء بحر. ورأت بعض نبلاء السلاح والأدب، ممّن لم يكونوا مشهورين كما كانوا يظنون أنفسهم، يبكون على كتفها، وكذلك بعض من كانوا مشهورين حقاً. كما كان صحيحاً أن الرئيس رافائيل ريس، وبعد نصف الساعة المستعجلة التي أمضاها في زيارته للمدينة، خصَّص لها راتباً تقاعدياً مدى الحياة لقاء خدمات قدمتها في وزارة الخزينة، حيث لم تكن يوماً موظفة. لقد كانت توزّع عطايا متعتها إلى أقصى ما أتاحه لها الجسد، ورغم أن سلوكها غير اللائق كان معروفاً للجميع، فإنه لم يكن بإمكان أحد تقديم أدلة دامغة ضدها، لأن زبائنها البارزين كانوا يحمونها كما يحمون أنفسهم، مدركين أنهم هم وليس هي مَن سيخسر أكثر بالفضيحة. وقد خرق فلورينتينو أريثا

من أجلها مبدأه المقدّس بعدم الدفع، وخرقت هي قانونها بألّا تمارس الحب مجاناً حتى ولو مع الزوج. إذ اتفقا على سعر رمزي هو بيزو واحد عن كل مرّة، لكنها لم تكن تأخذ البيزو كما لم يكن هو يعطيها إياه في يدها، وإنما كان يسقطه في الحصّالة إلى أن يصل المبلغ إلى ما يكفي لشراء أية بدعة من زقاق الكتبة العموميين. وهي التي عزت إلى الحقن الشرجية التي يستخدمها في إمساكه، حسّية مختلفة في الحب، وأقنعته بصواب فكرتها، ليستخدما الحقن الشرجية معاً في أمسياتهما المجنونة، محاولين بذلك ابتداع مزيد من الحب في الحب.

كان يرى نفسه محظوظاً، لأن الوحيدة التي أذاقته مرارة وسط كل هذه اللقاءات الخطرة، هي سارا نوريغا المتقلبة، التي أنهت حياتها في مشفى الراعية الإلهية للمجاذيب، ملقية أشعاراً شيخوخية بذاءتها تتجاوز كل الحدود، ممّا اضطرهم في المشفى إلى عزلها حتى لا تسبب الجنون للمجنونات الأخريات. وحين تسلم فلورينتينو أريثا كامل مسؤوليات ش.ك.م.ن. لم يعد لديه متسع كبير من الوقت لمحاولة إحلال أحد محل فيرمينا داثا: كان قد أيقن أنها عصيّة على الاستبدال. وراح يهوي شيئاً فشيئاً في روتين زياراته لمن يعرفهنّ، ليضاجعهن إلى المدى الذي تستطعنه، وإلى حيث يستطيع، وإلى حيث تسمح لهم الحياة، وفي يوم أحد العنصرة، حين مات خوفينال أوربينو، لم تكن قد بقيت له سوى واحدة، واحدة فقط، لها أربعة عشر عاماً من العمر أكملتها لتوّها، وتتمتع بكل ما لم تمتلكه الأخريات حتى ذلك الحين لجعله يجنّ حباً.

اسمها أميركا فيكونيا. وكانت قد جاءت قبل سنتين من بلدة بويرتوبادري البحرية، مبعوثة من أهلها إلى فلورينتينو أريثا، وليّ أمرها الذي تربطهم به صلة قربى معروفة. جاءت بمنحة حكومية لتتأهل كمعلمة، وبدت كدمية حين وصولها بصرّة سفرها وحقيبتها الصفيحية. ومنذ نزولها من السفينة بحذائها الأبيض وضفيرتها الذهبية، خطرت له

الفكرة الفظيعة بأنهما سيقضيان معاً قيلولات آحاد كثيرة. كانت لا تزال طفلة بكل ما في ذلك من معنى، القلح في أسنانها، وقروح المدرسة الابتدائية في ركبتيها، لكنه تخيّل فوراً المرأة التي ستصيرها عمّا قريب. فرعاها لنفسه خلال سنة بطيئة من سبُوت في السيرك، وآحاد في الحدائق ومحلات المثلجات، وأمسيات طفولية نال بها ثقتها، وكسب ودّها، وراح يقودها من يدها برقّة خبيثة كجد كريم إلى مسلخه السريّ. وكانت استجابتها فورية: لقد فُتحت لها أبواب السماء فانفجرت في تفتح وردي جعلها تفيض سعادة، وكان ذلك دافعاً ناجحاً لدراستها، إذ احتفظت دوماً بالموقع الأول في الفصل كي لا تخسر فرصة الخروج من المدرسة في نهاية الأسبوع. وكانت بالنسبة له الركن الأكثر خفاء في خليج شيخوخته، فبعد سنوات طويلة من الغراميات المحبوسة، أحسّ لمذاق البراءة المفسَدة فتنة ضلال مستجد.

انسجما. كانت تتصرّف على سجيتها: طفلة متأهبة لاستكشاف الحياة تحت إشراف رجل موقّر لا يفاجأ بشيء، وتصرّف وهو واع بالشكل الذي كان يخشى أن يصير إليه في الحياة: خطيب شائخ. ولم يطابق بينها وبين فيرمينا داثا أبداً، رغم التشابه الكبير بينهما، ليس في السن، والزي المدرسي، والضفيرة، والمشية البرية فقط، بل وبالطبع المتكبّر وغير المتوقَّع. ثم إن فكرة الاستبدال، التي كانت حافزاً جيداً له في استعطاء الحب من قبل، قد تلاشت نهائياً من ذهنه. إنها تعجبه كما هي، ويحبها لما هي عليه بحمّى لذة غسقية. وكانت الوحيدة التي اتخذ معها احتياطات صارمة للحيلولة دون حَبَلٍ عرَضي. وبعد بضعة لقاءات، لم يعد لكليهما من حلم سوى مساء الآحاد.

بما أنه الشخص الوحيد المخوّل بإخراجها من المدرسة الداخلية، فقد كان يذهب بحثاً عنها في سيارة الهدسون ذات الستة سلندرات التابعة

لشركة الكاريبي للملاحة النهرية، وكان ينزع غطاء السيارة القماشي في بعض الأمسيات غير المشمسة ليتنزها على الشاطئ، هو بقبعته الكثيبة، وهي منفجرة بالضحك، وممسكة بكلتا يديها قبعتها البحرية التي تشكّل جزءاً من زيها المدرسي، كي لا تطير مع الريح. لقد قال لها أحدهم يوماً ألّا ترافق وليّ أمرها أكثر من اللازم، وألّا تأكل شيئاً كان قد تذوّقه، وألّا تقترب كثيراً من أنفاسه، لأن الشيخوخة معدية. لكنها لم تولِ ذلك اهتماماً. كلاهما كان يبدي لا مبالاته لما يمكن للناس أن يظنونه بهما، لأن قرابتهما كانت معروفة جيداً، ثم إن سنَّيهما النقيضين يضعانهما بمنأى عن كل الشبهات.

كانا قد انتهيا من ممارسة الحب يوم أحد العنصرة، في الرابعة بعد الظهر، حين بدأ قرع النواقيس. وقد فوجئ فلورينتينو أريثا لفزع قلبه. فقرع النواقيس كان يدخل - في شبابه - ضمن تكاليف الجنازة، وكان يحظر على الفقراء فقط. وبعد حربنا الأخيرة، في الجسر الواصل بين القرنين، رسَّخ النظام المحافظ تقاليده الموروثة من العهد الاستعماري وأصبحت الأبهة الجنائزية مكلفة بحيث لم يعد هناك مَن هو قادر على دفعها سوى أغنى الأغنياء. وحين توفي الأسقف أركولي دي لونا، قُرعت نواقيس المقاطعة كلها لتسعة أيام بلياليها، وبلغ الضيق العام حداً دفع خليفته إلى إلغاء تقليد قرع أجراس الكنائس في المآتم، وحصره بالموتى البارزين. ولذلك حين سمع فلورينتينو أريثا قرع النواقيس في الكاتدرائية في الرابعة من مساء يوم أحد العنصرة، أحس أن شبحاً من أيام شبابه المنسية يزوره. لم يتصوّر قطّ أن قرع النواقيس هذا هو الذي تشوّق إليه لسنوات وسنوات، منذ يوم الأحد الذي رأى فيه فيرمينا داثا تخرج من القدّاس الكبير وهي حُبلى في الشهر السادس.

قال في العتمة:

- اللعنة. لا بدّ أنه حوت سمين كي تُقرَع من أجله أجراس الكاتدرائية.

أما أميركا فيكونيا، التي استيقظت لتوّها، عارية تماماً، فقالت:

- لا شك أنها من أجل العنصرة.

لم يكن فلورينتينو أريثا خبيراً أو ما شابه ذلك في شؤون الكنيسة، كما أنه لم يذهب إلى الصلاة مذ كان يعزف الكمان في الكورس مع ألماني علّمه كذلك علوم التلغراف، ولم يتوصل إلى خبر مؤكد عن مصيره أبداً. لكنه كان يعرف من دون شك أن النواقيس ما كانت من أجل العنصرة. صحيح أن في المدينة مأتماً، وهو يعرف ذلك، إذ زارت بيته لجنة من لاجئي الكاريبي لتخبره أن جيرميا دي سانت - آمور قد وُجد ميتاً في معمل تصويره. ومع أن فلورينتينو أريثا لم يكن من أصدقائه المقرَّبين، إلا أنه كان صديقاً لعدد كبير من اللاجئين الذين اعتادوا دعوته إلى مناسباتهم العامة، وخصوصاً المآتم. لكنه كان متأكداً من أن الأجراس لا تُقرع لجيرميا دي سانت - آمور، الذي كان ملحداً مصمِّماً وفوضوياً متمادياً، فضلاً عن أنه قد قتل نفسه بيده.

قال:

- لا. إن قرع أجراس كهذا لا يمكن أن يكون إلا من أجل حاكم فما فوق.

لم تكن أميركا فيكونيا، بجسدها الشاحب المرقَّط بفعل انعكاس أشعة الضوء المتسربة من أباجور النافذة المغلقة، قد بلغت سناً يمكنها من التفكير بالموت. كانا قد مارسا الحب بعد الغداء واضطجعا في سكون القيلولة، عاريَيْن تحت مروحة السقف التي لم يطغَ أزيزها على نقر طيور الرخمة التي كانت تدب كحبات البرد فوق سطح الصفيح الساخن. كان فلورينتينو أريثا يحبها كما أحب كثيرات من النساء الأخريات العابرات في حياته الطويلة، لكنه كان يحب هذه بكرب أشد، لأنه كان موقناً من

أنه سيكون قد مات من الشيخوخة عندما تنتهي هي من المدرسة العليا.

كانت الحجرة تبدو أشبه بقمرة سفينة، بجدرانها المصنوعة من ألواح خشبية طليت مرّات ومرّات فوق طلائها الأول، كما هو الحال في السفن. لكن الحر كان أشد من حر قمرات سفن النهر في الرابعة مساء، رغم المروحة المعلقة فوق السرير، وذلك بسبب الحر الذي يعكسه السقف المعدني. لم تكن حجرة نوم عادية وإنما قمرة على اليابسة، أمر فلورينتينو أريثا ببنائها خلف مكاتبه في ش.ك.م.ن.، من دون نيّة أو ذريعة أخرى سوى الحصول على ملجأ جيد لغرامياته كعجوز. كان النوم هناك مستحيلاً في الأيام العادية بسبب صراخ عمال شحن السفن، وقعقعة رافعات الميناء النهري، وجؤار السفن الضخمة في الميناء. ولكنها كانت بالنسبة للطفلة جنّة أيام الآحاد.

فكرا بالبقاء معاً في يوم العنصرة حتى موعد عودتها إلى المدرسة الداخلية، قبل خمس دقائق من صلاة التبشير لكن قرع النواقيس ذكر فلورينتينو أريثا بوعده في حضور جنازة جيرميا دي سانت - آمور، فارتدى ملابسه بأسرع ممّا يفعل في العادة، وكان قد جدل قبل ذلك، كعادته، ضفيرة الطفلة التي يحلّها قبل ممارسة الحب، ورفعها فوق المنضدة ليعقد لها شريط حذائها المدرسي، الذي لم تحسن ربطه يوماً. كان يساعدها من دون خبث، وكانت تساعده ليساعدها كما لو كان ذلك واجباً عليها. لقد فقد كلاهما الإحساس بالسن منذ لقاءاتهم الأولى، وتعاملا بثقة زوجين أخفيا عن بعضهما أموراً كثيرة في هذه الحياة حتى لم يعد لديهما ما يقولانه.

كانت مكاتب الشركة مقفلة وغارقة في الظلام لأن اليوم عطلة. لم يكن في الميناء المقفر سوى سفينة واحدة مراجلها مطفأة. وكان الحر المحتدم ينذر بهطول المطر، أوّل أمطار السنة، لكن شفافية الهواء

وصمت الميناء الأحَديّ بديا وكأنهما من شهر لطيف. وكانت الدنيا من هنا أكثر فجاجة من ظلمة القمرة، وكان قرع النواقيس أكثر إيلاماً من دون معرفة لمن تقرع. نزل فلورينتينو أريثا والطفلة إلى فناء ملح البارود الذي استخدمه الإسبان فيما مضى كميناء للنخاسة، حيث ما زالت بقايا المثقال وحدائد أخرى من تجارة الرقيق. كانت السيارة تنتظرهما في ظل الحانات، ولم يوقظا السائق النائم فوق المقود إلى أن استقرا في مقعديهما. دارت السيارة من وراء الحانات المسيَّجة بشبكة معدنية كشباك أقنان الدجاج، واجتازت الفراغ الذي كان يشغله في السابق سوق لاس إينماس، حيث كانت جماعة من اليافعين شبه العراة يلعبون بالكرة، وخرجت من الميناء النهري وسط زوبعة من الغبار المتقد. كان فلورينتينو أريثا متأكداً أن التشريف الجنائزي لا يمكن أن يكون من أجل جيرميا دي سانت - آمور، لكن إلحاح النواقيس جعله يرتاب. وضع يده على كتف السائق وسأله صارخاً لمن يقرعون الأجراس؟

فقال السائق:

- إنها من أجل ذلك الطبيب المعروف... ما اسمه؟

لم يكن على فلورينتينو أريثا أن يفكّر بالأمر ليعرف من المقصود. ولكن سرعان ما غار الوهم الفوري حين روى له السائق كيف مات، لأنه لم يجد الأمر محتملاً. فلا شيء يشبه الإنسان كطريقة موته، وليس من موت يبدو أقل شبهاً للرجل الذي تصوّره من هذه الميتة. لكنه كان هو نفسه، حتى ولو بدا الأمر غير معقول: فالطبيب الأكبر سناً والأكثر تأهيلاً في المدينة، وأحد رجالها المرموقين لمشاركته في نشاطات أخرى كثيرة، قد مات أثر تهشّم نخاعه الشوكي، عن إحدى وثمانين سنة، لدى سقوطه من شجرة مانغا وهو يحاول إمساك ببغاء.

كل ما فعله فلورينتينو أريثا منذ زواج فيرمينا داثا، كان يرتكز على أمل

هذا الخبر، ولكن حين أزفت الساعة لم يشعر برعشة الانتصار التي كثيراً ما تصورها في أوقات أرقه، وإنما أحس بضربة من مخلب الرعب: لقد رأى بوضوح عجيب أنه كان يمكن لهذه النواقيس أن تُقرع لموته هو. وفزعت أميركا فيكونيا، الجالسة الي جواره في السيارة المتقافزة على الشوارع الحجَرية، لشحوبه وسألته عمّا أصابه. فأمسك فلورينتينو أريثا يدها بيده المتجمدة، وتنهد قائلاً:

- آه يا صغيرتي. تلزمني خمسون سنة أخرى لأروي لك.

نسي جنازة جيرميا دي سانت - آمور. وترك الصغيرة أمام باب المدرسة الداخلية واعداً إياها على عجل بالمجيء إليها يوم السبت القادم، ثم أمر السائق بالتوجه إلى بيت الدكتور خوفينال أوربينو. وجد ازدحام سيارات وعربات أجرة في الشوارع المجاورة، وحشداً من الفضوليين مقابل البيت؛ فمدعوو الدكتور لاثيديس أوليفيا، الذين تلقّوا النبأ المشؤوم وهم في أوج الحفلة، جاؤوا على عجل. ولم يكن التحرك في البيت سهلاً بسبب الازدحام، لكن فلورينتينو أريثا تمكّن من شق طريقه حتى غرفة النوم الرئيسية، ورفع نفسه أعلى من المجموعة المحتشدة أمام الباب، ورأى خوفينال أوربينو على السرير الزوجي مثلما تمنى رؤيته منذ سمع باسمه لأوّل مرّة، محاطاً بوقار الموت. انتهى النجار حينئذ من أخذ المقاسات لصنع التابوت. وإلى جانبه، بفستان الجدة حديثة الزواج الذي ارتدته للحفلة، كانت تقف فيرمينا داثا منذهلة وكئيبة.

كان أوربينو قد تخيّل تفاصيل تلك اللحظة منذ أيام شبابه، حين كرّس نفسه كلياً لقضية هذا الحب المتهوّر. فمن أجلها أحرز لقباً وثروة، ومن أجلها عني بصحته وبمظهره الشخصي عناية لم تكن تبدو جديرة بالرجولة لأبناء عصره، وانتظر ذلك اليوم كما لم يستطع أحدٌ انتظار أحد أو شيء في هذا العالم: من دون لحظة واحدة من التقاعس. ويقينه بأن الموت قد تدخل أخيراً لصالحه وبث فيه الشجاعة التي كان يحتاج إليها

ليكرّر أمام فيرمينا داثا، في ليلتها الأولى كأرملة، يمين الولاء الأبدي وحبه الدائم.

لم ينفِ أمام نفسه بأن ما فعله كان عملاً طائشاً، لا معنى له في هذا الوقت وهذه الطريقة، وأنه قد تسرّع لخوفه من أن لا تسنح له الفرصة ثانية. كان قد أعدَّ ما يريده بطريقة أقل فظاظة، لكن الحظ لم يسعفه بأحسن ممّا فعل. خرج من بيت العزاء متألماً لأنه تركها تعاني حالة الاضطراب التي كان يعانيها هو نفسه، ولكنه لم يستطع عمل شيء لمنع ذلك عنها، لأنه أحسّ بأن تلك الليلة الهمجية كانت مكتوبة منذ الأزل في قَدَرِهما معاً.

لم يستطع النوم ليلة واحدة خلال الأسابيع التالية: كان يتساءل يائساً أين يمكن أن تكون فيرمينا داثا من دونه، وبماذا تفكر، وماذا ستفعل خلال السنوات المتبقية لها في الحياة بثقل الرعب الذي خلفه بين يديها. عانى من نوبة إمساك نفخت بطنه كطبل، وكان عليه أن يلجأ إلى المسكنات الأكثر لطفاً من الحقن الشرجية. كما أن آلام الشيخوخة، التي كان يحتملها خيراً من معاصريه، لأنه عرفها منذ شبابه، هاجمته كلها دفعة واحدة. وعندما حضر إلى المكتب، يوم الأربعاء، بعد أسبوع من الغياب، ارتعدت ليونا كاسياني لرؤيته على تلك الحالة من الشحوب والاسترخاء. لكنه طمأنها: إنه الأرق ثانية كالعادة، وعاد يعض لسانه كي لا تفلت الحقيقة من ثقوب قلبه الكثيرة. ولم يمنحه المطر هدنة مشمسة ليفكر، فقضى أسبوعاً لا واقعياً آخر، من دون قدرة على التركيز في شيء. وكان يأكل بشكل سيئ وينام بطريقة أسوأ، ويحاول تحسس إشارات مبهمة تهديه إلى سبيل الخلاص. لكن طمأنينة داهمته منذ يوم الجمعة بلا أية مبررات، ففسرها على أنها نذير بأن شيئاً جديداً لن يحدث، وأن كل ما فعله في الحياة كان بلا جدوى وليس لديه ما يتابع من أجله: إنها النهاية.

ومع ذلك، فلدى وصوله يوم الاثنين إلى بيته في شارع لاس فيتاناس، اصطدم برسالة مبللة بالماء المتجمّع وراء الباب، وتعرّف من المغلف في الحال على الخط المتسلط الذي لم تستطع تبديله كل تقلبات الحياة، بل إنه أحس برائحة العطر الليلي لأزهار الياسمين الذابلة، لأن قلبه حدّثه بكل شيء منذ الرهبة الأولى: إنها الرسالة التي انتظرها، من دون لحظة راحة واحدة، خلال أكثر من نصف قرن.

لم يكن بمقدور فيرمينا داثا أن تتصور أنه يمكن لفلورينتينو أريثا فهم تلك الرسالة، التي دفعها الغضب لكتابتها، على أنها رسالة حب. لقد ضمَّنتها كل السخط الذي استطاعته، مستخدمة أقسى ما لديها من عبارات وإهانات جارحة، وظالمة أيضاً، ومع ذلك رأت أنها ضئيلة أمام حجم الإساءة. كانت الرسالة ذروة مرارة دامت أسبوعين، وقد حاولت الوصول من خلالها إلى مصالحة مع وضعها الجديد. أرادت أن تعود إلى ذاتها، وأن تسترد كل ما اضطرت إلى التخلي عنه خلال نصف قرن من العبودية التي كانت سعيدة فيها بلا شك. ولكن موت زوجها لم يترك لها أثراً من هويَّتها. كانت شبحاً في بيت غريب تحوّل بين يوم وآخر إلى بيت فسيح موحش، وكانت تهيم فيه على غير هدى، متسائلة بمرارة من هو الميت: أهو الذي مات أم هي التي بقيت على قيد الحياة؟

ما كانت قادرة على تصريف إحساس عميق بالغضب من الزوج الذي تركها وحيدة وسط بحر الظلمات. كان كل شيء من أشيائه يدفعها للبكاء: البيجاما التي تحت الوسادة، والخف الذي كان يبدو لها دوماً وكأنه خف مريض، وذكرى صورته المطبوعة في عمق المرآة وهو يخلع ملابسه بينما هي تسرّح شعرها للنوم، ورائحة بشرته التي ستبقى عالقة ببشرتها لوقت طويل بعد موته. كانت تتوقف عن أي عمل تقوم به، وتضرب جبهتها بكفها، لأنها تذكرت فجأة شيئاً نسيت أن تخبره به. وترد إلى ذهنها في كل لحظة الأسئلة اليومية الكثيرة التي لا يستطيع الإجابة

عنها أحد سواه. لقد قال لها في أحد الأيام شيئاً لم تستطع تصوّره: إن المبتورين يحسّون آلاماً، وخدَراً، ودغدغة في أرجلهم التي ما عادوا يمتلكونها. وهذا ما شعرت به هي من دونه. كانت تشعر بوجوده حيث لم يعد له وجود.

لدى استيقاظها في ليلتها الأولى كأرملة، تقلبت في السرير من دون أن تفتح عينيها، بحثاً عن وضع مريح لمتابعة النوم، فكان أن مات بالنسبة لها في هذه اللحظة. إذ وعت حينئذ فقط بأنه قضى الليل، لأوّل مرّة، خارج البيت. ثم كان انفعالها الآخر على المائدة، ليس لشعورها بأنها وحيدة، كما كانت فعلاً، وإنما لقناعتها الغريبة بأنها تتناول الطعام مع شخص ما عاد موجوداً. وانتظرت قدوم ابنتها أوفيليا من نيوأورليانز، مع زوجها وبناتها الثلاث، كي تجلس من جديد إلى المائدة لتناول الطعام، ولكنها لم تستخدم المنضدة المعتادة، وإنما مائدة مرتجَلة، أصغر حجماً، أمرت بوضعها في الممر. ولم تكن حتى ذلك الحين قد اعدّت وجبة نظامية، بل كانت تمر من المطبخ في أي وقت، حين تشعر بالجوع، فتغرز الشوكة في القدر وتأكل قليلاً من كل شيء، من دون أن تضع الطعام في طبق، وهي واقفة أمام الموقد، تتحدث إلى الخادمات اللواتي كانت تشعر معهن وحدهن بأنها على ما يرام، وتتفاهم معهن على أحسن وجه. ورغم كل محاولاتها، لم تتمكن من تجنّب حضور زوجها: فحيثما ذهبت وحيثما مرّت، ومهما فعلت، كانت تصطدم بشيء من أشيائه يذكرها به. ومع أن ذلك الألم كان يبدو لها نبيلاً ولازماً، إلا أنها كانت تريد عمل أي شيء أيضاً كي لا تتلذذ بالألم. وهكذا اتخذت قرارها الحاسم بإخراج كل ما يذكرها بالزوج الميت من البيت، وهي الوسيلة الوحيدة التي خطرت لها كي تتمكن من مواصلة الحياة من دونه.

كانت عملية استئصال. وافق الابن على أخذ الكتب لتحوّل المكتب إلى غرفة الخياطة التي لم تمتلكها أبداً وهي متزوجة. أما الابنة، فأخذت

بعض الأثاث وعدداً من الأشياء التي تبدو ملائمة جداً للبيع في مزادات العاديات في نيوأورليانز. كان هذا كله مهدئاً لفيرمينا داثا، التي لم ترَ أية ظرافة في تحققها من أن ما اشترته في رحلة زفافها قد صار آثاراً قديمة. وأمام الذهول الصامت للخادمات، والجيران، والصديقات المقرَّبات اللاتي كن يأتين لمرافقتها في تلك الأيام، أضرمت محرقة في أرض خلاء وراء البيت، وأحرقت هناك كل ما يذكرها بزوجها: الملابس الأكثر كلفة وأناقة التي رأتها المدينة منذ القرن الماضي، والأحذية الأكثر دقة، والقبعات التي تشبهه أكثر من صوَرِه، وكرسي القيلولة الهزاز الذي نهض عنه آخر مرّة ليموت، وأشياء لا تحصى مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحياته، وتشكّل جزءاً من هويته. فعلت ذلك من دون أي تردّد، وبيقين كامل في أن زوجها كان سيؤيّد ذلك، ليس لأسباب تتعلق بالوقاية الصحية فقط، بل لأنه كثيراً ما أعرب لها عن رغبته بأن تُحرق جثته، وألّا يُحشَر في الظلام، من دون أية فجوة، في صندوق من خشب الأرز. إن دينه يمنع ذلك بلا ريب: وكان بإمكانها أن تتجرّأ على جسّ نبض الأسقف، لترى وجهة نظره على أية حال، وكان هذا سيرد عليها بجواب سلبيٍّ قاطع. فالأمر محض وهم، لأن الكنيسة لا تسمح بإقامة أفران لإحراق الجثث في مقابرنا، حتى ولو كانت تابعة لاديان غير الدين الكاثوليكي. كما أنه لم يخطر لأحد سوى خوفينال أوربينو جدوى بناء محارق كهذه. لم تنس فيرمينا داثا رعب زوجها هذا، بل إنها تذكرت في فوضى الساعات الأولى التي تلت موته أن تأمر التجار بترك ثغرة تسمح بدخول الضوء إلى التابوت.

كانت محرقة بلا جدوى على أي حال. فسرعان ما أدركت فيرمينا داثا أن ذكرى زوجها الميّت كانت مقاومة للنار كمقاومتها لمرور الأيام على ما يبدو. ورغم ذلك، فإنها لم تحتفظ بعد إحراق الثياب بحنينها لكل ما أحبّت فيه فقط، وإنما أيضاً، وقبل كل شيء، لأكثر ما كان يزعجها

فيه: الضجة التي كان يثيرها عند استيقاظه. وقد ساعدتها هذه الذكريات على الخروج من أحراش الحداد. فاتخذت قراراً حاسماً بمتابعة الحياة، متذكرة زوجها وكأنه لم يمت. كانت تعلم أن استيقاظها كل صباح سيكون صعباً، لكنه سيصبح أقل وطأة يوماً بعد يوم.

وبدأت تلمَح فعلاً، عند انتهاء الأسبوع الثالث، أوّل الأنوار. ولكن كلما ازدادت تلك الأنوار وأصبحت أشدّ وضوحاً، كانت تعي أن في حياتها شبَحاً مطعوناً لا يتركها لحظة بسلام. لم يكن الشبح المثير للشفقة الذي كان يترصَّدها في حديقة البشارة، والذي اعتادت تذكره منذ شيخوختها بشيء من الرقة، وإنما الشبح البغيض الذي يرتدي سترة الجلّاد ويحمل قبعته مستندة إلى صدره، والذي أقلقتها سفاهته السخيفة إلى حدّ من المحال عليها عدم التفكير به. لقد كانت مقتنعة دوماً، منذ صدَّته وهي في الثامنة عشرة من عمرها، بأنها تركت فيه بذرة حقد لم يفعل الزمن شيئاً سوى تنميتها. وكانت تحسب حساب هذا الحقد في كل لحظة، وتشعر به في الهواء حين يكون الشبح قريباً منها، وكانت مجرّد رؤيته تقلقها وترعبها إلى حدّ أنها لم تجد أبداً أسلوباً طبيعياً للتعامل معه. وفي الليلة التي كرر فيها عرض حبه، حين كانت أزهار زوجها الميت لا تزال تعبق في جَوّ البيت، لم تستطع أن تفهم تلك الحركة الخبيثة إلا كخطوة أولى من انتقام مشؤوم لا يعرف مداه أحد.

وقد فاقم إلحاح ذكراه من غضبها. وحين استيقظت وهي تفكر به، في اليوم التالي للدفن، استطاعت محوه من ذاكرتها بإشارة بسيطة من إرادتها. لكن الغضب كان يعاودها دوماً، وسرعان ما أدركت أن رغبتها في نسيانه كانت أقوى محرِّض لتذكره. حينئذ تجرأت أوّل مرّة، في إذعانها للحنين، على استحضار ذكرى الزمان الوهمي لذلك الحب اللاواقعي. كانت تحاول أن تتذكر كيف كانت الحديقة بالضبط في ذلك الحين، وكيف كانت أشجار اللوز المحطمَة، والمقعد الحجري الذي

كان يحبها منه، لأن شيئاً من هذا ما عاد موجوداً كما كان يومذاك. لقد تبدّل كل شيء، فقد استأصلوا الأشجار وسجّادتها من الأوراق الصفراء، وأقاموا مكان تمثال البطل مقطوع الرأس تمثالاً لشخص آخر يرتدي زيّ المراسم العسكري، بلا اسم ولا تاريخ، وبلا تفسير يُبرّر نَصْبه هناك، على قاعدة فخمة وضعوا في جوفها لوحة مفاتيح التحكم بكهرباء الحيّ. أما بيتها، الذي بيع أخيراً، فقد كان يتهاوى خراباً بعد هذه السنوات الطويلة بين يدي الحكومة الإقليمية. ولم يكن من السهل عليها تصوّر فلورينتينو أريثا كما كان في ذلك الحين، كما لم تكن قادرة أن تصدق بأن ذلك الشاب المكفهرّ، البائس جداً تحت المطر، هو ذات الشيخ المنخور الذي وقف أمامها من دون أي اعتبار لحالتها، وبلا أي احترام لألمها، وكوى روحها بأهانة لاهبة ما زالت تُثقل على أنفاسها.

كانت ابنة الخال هيلديبراندا سانتشيث قد جاءت لزيارتها بعد وقت قصير من عودتها من مزرعة فلوريس دي ماريا، وحين كانت تستجمع قواها من ساعة نحس الآنسة لينتش. لقد جاءت هيلديبراندا عجوزاً، بدينة وسعيدة، يرافقها ابنها البكر الذي صار عقيداً في الجيش، مثل أبيه الذي تبرأ منه إثر تصرفه الدنيء في مجزرة عمال الموز في سان خوان دي لاثيناغا. كانت ابنة الخال وابنة العمّة قد التقتا مرّات عديدة، وكانتا تقضيان الساعات دوماً وهما تحنّان إلى الحقبة التي تعارفتا فيها. وقد كانت هيلديبراندا أكثر حنيناً في زيارتها الأخيرة ممّا كانت عليه في أي لقاء آخر، وأكثر تأثراً بثقل الشيخوخة. وكتأكيد لحنينها، أحضرت معها نسختها من الصورة التي التقطها لهما المصور البلجيكي مساء اليوم الذي وجّه فيه الشاب خوفينال أوربينو طعنة الرحمة لإرادة فيرمينا داثا. كانت نسخة هذه الأخيرة من الصورة قد ضاعت، بينما كانت نسخة هيلديبراندا غير واضحة المعالم، لكنهما تعرفتا على نفسيهما من خلال غلالة الخيبة: شابتان وجميلتان كما لن تصبحا أبداً.

كان مستحيلاً ألّا تتحدث هيلدبيراندا عن فلورينتينو أريثا، لأنها كانت تجد قدَرَها في قدَرِه. وكانت تتذكره كما رأته يوم بعثت أولى برقياتها، ولم تتمكن أبداً أن تنزع من قلبها ذكراه كعصفور كئيب محكوم عليه بالنسيان. أما فيرمينا، فقد رأته مرّات ومرّات، من دون أن تبادله الحديث طبعاً، ولم تكن قادرة على أن تتصوّر أنه هو حبها الأول ذاته. لقد كانت تصلها على الدوام أخبار عنه، مثلما تصلها عاجلاً أو آجلاً أخبار كل من له مكانة في المدينة. كان يُقال بأنه لم يتزوّج لأنه ذو عادات مختلفة، ولكنها لم تولِ هذه الأقاويل اهتماماً أيضاً، لأنها لم تهتم يوماً بالشائعات من جهة، ولأن أشياء مشابهة كانت تُقال عن رجال كثيرين لا مجال للشك فيهم من جهة أخرى. وكانت تستغرب بالمقابل احتفاظ فلورينتينو أريثا بزيه من الصوف، وعطره الغريب، وبقائه غامضاً هكذا بعدما شق سبيله في الحياة بطريقة جد استعراضية فضلاً عن كونها شريفة. ولم تكن لتصدّق أنه الشخص نفسه، وكانت تفاجَأ دائماً حين تتنهد هيلدبيراندا قائلة: «يا للرجل المسكين، كم تألم!». إذ إنها كانت تراه من دون آلام منذ زمن بعيد: فهو شبح ممحو.

ومع ذلك، فقد أصاب قلبها شيء غريب ليلة التقت به في السينما، بعد رجوعها من فلوريس دي ماريا. لم تفاجِأ بخروجه مع امرأة، وامرأة زنجية كذلك. لكن ما فاجأها هو أنه ما زال في حالة جيّدة، وأنه يتصرف بطلاقة شديدة، ولم يخطر لها أن تفكر بأنها قد تكون هي، وليس هو، من طرأ عليه التبدّل بعد دخول الآنسة لينتش العاصف في حياتها الخاصة. منذ ذلك الحين، وخلال أكثر من عشرين سنة، تابعت رؤيته بعينين أكثر إشفاقاً. وفي ليلة السهر على زوجها الميت لم يبدُ لها وجوده هناك أمراً مفهوماً وحسب، بل رأت فيه النهاية الطبيعية للأحقاد: تصرّف ينم عن العفو والنسيان. ولهذا لم تكن تتوقع إعادة المأساوية لعرض حب لم

تشعر بوجوده يوماً، وفي سن لم يبقَ لفلورينتينو أريثا، ولها، فيها من شيء ينتظرانه من الحياة.

بقي غضب الوهلة الأولى القاتل بكامل زخمه بعد الإحراق الرمزي للزوج، وراح ينمو ويتشعب أكثر فأكثر كلما شعرت بأنها أقل قدرة على السيطرة عليه. بل وأكثر من ذلك: ففراغات الذاكرة التي تتمكن من إخلائها بإقصاء ذكرى الميّت منها، كان يحتلها شيئاً فشيئاً، ولكن بإصرار، مرجُ البرقوق الذي كانت ذكرى فلورينتينو أريثا مدفونة فيه. وهكذا كانت تفكر فيه من دون أن تحبّه، وكلما فكّرت فيه أكثر ازداد غضبها عليه، وكلما ازداد غضبها منه كانت تفكر فيه أكثر، إلى أن أصبح شيئاً لا يُطاق وطفح به ذهنها. حينئذ جلست إلى منضدة زوجها الميت، وكتبت إلى فلورينتينو أريثا رسالة من ثلاث صفحات متهوّرة ومشحونة بالسباب والاستفزازات الشنيعة، التي هدّأت من روعها لاقترافها بذلك أحط فعلة في حياتها الطويلة.

لقد كانت تلك الأسابيع الثلاثة بالنسبة لفلورينتينو أريثا أيضاً أسابيع احتضار. ففي الليلة التي كرّر فيها عرض حبه على فيرمينا داثا، هام على غير هدى في الشوارع المخرَّبة بطوفان المساء، متسائلاً بفزع ما الذي سيفعله بجلد النمر الذي انتهى من قتله بعد أن قاوم حصاره لأكثر من نصف قرن. كانت المدينة تعيش حالة طوارئ بسبب عنف الأمطار. وفي بعض البيوت كان ثمة رجال ونساء شبه عراة يحاولون إنقاذ ما يشاؤه الله من وسط الطوفان، وأحس فلورينتينو أريثا بأن لتلك الكارثة الجماعية علاقة ما بكارثته الشخصية. لكن الهواء كان وديعاً، وكانت نجوم الكاريبي ساكنة في مواقعها. وفجأة، كما في سكون أزمنة أخرى، تعرف فلورينتينو أريثا على صوت الرجل الذي كان قد سمعه وليونا كاسياني يغني مرّات كثيرة، في مثل هذه الساعة وعند الناصية نفسها: «من الجسر

رجعت مبلّلاً بالدموع». أغنية كان لها، بالنسبة له فقط، علاقة ما بالموت في تلك الليلة.

لم يشعر يوماً بالحاجة إلى ترانسيتو أريثا كما شعر يومئذ، كان بحاجة لكلمتها الحكيمة، ورأسها كملكة سخرية متوّجة بأزهار ورقية. ولم يستطع الحيلولة دون ذلك: فكلما وجد نفسه في خضم الكارثة، أحس بحاجته إلى الانزواء في كنف امرأة. وهكذا مرّ من أمام مدرسة المعلمات بحثاً عمن هن في متناول يده، ورأى نوراً ينبعث من نافذة أميركا فيكونيا. وقد اضطر للقيام بمجهود كبير كي لا يُقدِم على حماقة جدّ هرِم بإخراجها في الساعة الثانية فجراً، وهي دافئة بالحلم بين أقمطتها، ورائحة المهد لا تزال تفوح منها.

في الطرف الآخر من المدينة كانت ليونا كاسياني، وحيدة وحرّة. ومستعدة من دون ريب لأن تقدم له الحنان الذي يحتاجه، سواء أكانت الساعة الثانية أو الثالثة فجراً، أو أي ساعة أخرى ولم تكن المرّة الأولى التي يطرق بابها في أرقه المقفر، لكنه أحسّ بأنها ذكية إلى حدّ بعيد، وأنهما يحبان بعضهما كثيراً، بحيث لا يمكنه الذهاب للبكاء في حضنها من دون أن يفضي لها بالسبب. وبعد تفكير طويل، سار مسرعاً في المدينة المقفرة، وخطر له أنه لن يجد بينهن خيراً من بروديثيا بيترا: أرملة الربّ. كانت أصغر منه بعشر سنوات. وكانا قد تعارفا في القرن الماضي، وإذا كانا لا يلتقيان منذ زمن فلأنها أصرّت ألّا تسمح لأحد بأن يراها وهي في الحال الذي صارت إليه: شبه عمياء، وعلى حافة الشيخوخة فعلاً. وما إن تذكرها فلورينتينو أريثا حتى عاد إلى شارع لاس فينتاناس، ودسّ في حقيبة مشتريات زجاجتي نبيذ وقطرميز مخلل، ومضى لزيارتها من دون أن يدري إن كانت لا تزال في بيتها نفسه، أو إذا كانت وحدها، أو إذا كانت لا تزال على قيد الحياة.

لم تكن بروديتيا بيترا قد نسيت إشارة الخمش على الباب التي كان يُعرّف بها عن نفسه، حين كانا يظنان أنهما لا يزالان شابين رغم أنهما لم يكونا كذلك، وفتحت له من دون أسئلة. كان الشارع مظلماً، ولم يكن هو مرئياً ببدلته السوداء وقبعته القاتمة ومظلة الخفاش المعلقة بذراعه، كما لم تكن لعينيها القدرة على رؤيته إلّا في وضح الضوء، لكنها تعرفت عليه من انعكاس وميض عمود النور على إطار نظارته المعدني. كان يبدو كقاتل ما زالت يداه ملطختين بالدم.

قال: - المأوى ليتيم بائس.

كان هذا هو الشيء الوحيد الذي استطاع قوله. وفوجئ كم هرمت مذ رآها آخر مرّة، وكان مدركاً أنها تراه كذلك. ولكنه عزّى نفسه بالتفكير بأنهما بعد دقيقة، وحينما يستعيدان أنفاسهما من أثر الوهلة الأولى، سيلاحظ كل منهما أقل فأقل آثار السن في الآخَر، وسيعودان ليريا بعضهما أكثر شباباً، كما كان كل منهما بالنسبة للآخر عندما تعارفا.

قالت له: - تبدو وكأنك ذاهب إلى جنازة.

ولقد كان كذلك. كما أنها وقفت هي أيضاً إلى النافذة منذ الساعة الحادية عشرة، مثلما فعل جميع أهل المدينة تقريباً لرؤية أكثر المواكب حشداً وفخامة منذ موت الأسقف دي لونا. لقد أيقظتها من النوم أصوات المدافع التي كانت تهز الأرض، واختلاط فرق الموسيقى العسكرية، وفوضى الأغاني الجنائزية التي تعلو على ضجة نواقيس جميع الكنائس المدوّية بلا توقف منذ اليوم السابق. وقد رأت من شرفتها العسكريين وهم يمرّون على صهوات جيادهم بزي المراسم، والهيئات الدينية، وتلامذة المدارس، وسيارات السلطات اللامرئية الطويلة السوداء، وعربة الدفن الفاخرة التي تجرّها خيول رؤوسها مزينة بالريش وسروجها بالذهب، والتابوت الأصفر المغطى بالعلم فوق عربة مدفع

تاريخية، وأخيراً مجموعة عربات الفيكتوريا القديمة المكشوفة والتي ما زالت على قيد الحياة لحمل أكاليل المآتم. وبعد حوالى نصف ساعة من مرورهم أمام شرفة بروديتثيا بيترا، انهمر المطر طوفاناً، وتفرّق الموكب في كل الأنحاء.

قالت: - يا لها من طريقة سخيفة في الموت.

فقال: - ليس في الموت ما هو مضحك..

ثم أضاف بحزن: - وخصوصاً في مثل سننا.

كانا يجلسان على المصطبة، مقابل البحر الفسيح، يتأملان القمر المحاط بهالة تحتل نصف السماء ويرنوان إلى الأضواء الملوَّنة المنبعثة من السفن في الأفق، وينعمان بالنسيم الدافئ والعطر بعد العاصفة. كانا يشربان النبيذ ويأكلان المخلل مع قطع من الخبز القروي الذي اقتطعته بروديتثيا بيترا من رغيف في المطبخ. لقد أمضيا معاً ليالي كثيرة مثل هذه الليلة بعدما أصبحت أرملة وبلا أولاد وهي في الخامسة والثلاثين من العمر. لقد التقاها فلورينتينو أريثا في حقبة كانت مستعدة فيها لاستقبال أي رجل يرغب بمرافقتها، حتى لو استأجرته بالساعة، وتمكنا من إقامة علاقة أكثر جدّية وأطول أمداً ممّا بدا ممكنا.

ورغم أنها لم تُلمّح للأمر أبداً، إلا أنها كانت مستعدة لأن تبيع روحها للشيطان في سبيل الزواج منه في زفاف ثان. كانت تعلم أن الخضوع لشحّه ليس سهلاً، وكذلك الإذعان لحاجاته كشيخ مبكر، ولأوامره المخبولة، وجشعه في طلب كل شيء من دون إعطاء أي شيء. ولكنها لم تكن تجد بالمقابل رجلاً يمكن العيش معه في هذه الدنيا خيراً منه، لأنه لا وجود في الدنيا لرجل آخر فقير مثله إلى الحب لهذا الحدّ. ولكن لم يكن هناك في الوقت ذاته من هو أكثر تقلباً منه، إذ ما كان يمكن للحب أن يصل إلى ما هو أبعد ممّا كان يصل إليه: إلى حيث لا يؤثر في قراره

بالاحتفاظ بحريته من أجل فيرمينا داثا. ومع ذلك، استمرت علاقتهما لسنوات طويلة، حتى بعدما رتّب أمر زواج بروديثيا بيترا ثانية من وكيل تجاري كان يستقر ثلاثة شهور في المدينة ثم يقضي ثلاثة شهور أخرى مرتحلاً، وأنجبت منه ابنة واحدة وأربعة أبناء، كان أحدهم، حسب زعمها، من فلورينتينو أريثا.

تحادثا من دون إحساس بالوقت، لأنهما كانا معتادين على مشاطرة بعضهما سهاد شبابهما، وكان ما سيخسرانه في سهاد الشيوخة أقل بكثير. ورغم أن فلورينتينو أريثا ما كان يتجاوز الكأس الثانية حين يشرب، إلا أنه لم يستعد أنفاسه يومها رغم تناوله الكأس الثالثة. كان يتعرّق بغزارة، وقالت له أرملة الربّ أن يخلع سترته، أن يخلع صدريته، بنطاله، أن يخلع كل ما يشاء، اللعنة، فهما في نهاية المطاف يعرفان بعضهما عاريين خيراً مما بالملابس. وقال إنه سيفعل ذلك إن هي فعلت، لكنها لم تقبل: لقد رأت نفسها منذ زمن في مرآة الخزانة، وأدركت فجأة بأن الشجاعة لن تواتيها للظهور عارية أمامه أو أمام سواه.

وفي حالة الهيجان التي لم يستطع فلورينتينو أريثا تهدئتها بأربع كؤوس من النبيذ، تابع الحديث عن الماضي، عن ذكريات الماضي الطيبة موضوع حديثه الوحيد منذ زمن بعيد، لكنه كان يتشوّق للعثور على طريق سريّ في الماضي ليغرق نفسه فيه. كان هذا هو ما يحتاجه: أن يقذف روحه من فمه. وحين أحس بأول بريق في الأفق حاول الاقتراب من الموضوع مداورة، فسألها بطريقة بدت عرضية:

– ماذا تفعلين إذا ما عرض أحدهم عليك الزواج، هكذا كما أنت، أرملة وفي هذه السن؟

ضحكت ضحكة مجعدة كعجوز، وسألت بدورها:

– أتعني بهذا أرملة أوربينو؟

كان فلورينتينو أريثا ينسى دائماً، حين لا يحب النسيان، أن النساء يفكّرن بالمعنى الخفيّ للأسئلة أكثر من تفكيرهن بالأسئلة ذاتها، وتفعل بروديثيا بيترا ذلك أكثر من سواها. قال لها وقد أحس بأنه وقع ضحية ريح مباغتة نتيجة تسديده الطائش:

- إنني أعنيك أنت بهذا.

فعادت تضحك: - اذهب واسخر من العاهرة أمك، ليرحمها الله.

ثم ألحت عليه ليصارحها بما يريد أن يقوله، لأنها تعلم أنه لا يمكن له ولا لأي رجل آخر أن يوقظها في الثالثة فجراً، بعد الانقطاعه عنها كل هذه السنوات، ليشرب النبيذ ويأكل الخبز القروي مع المخلل فقط. قالت:

- لا يحدث هذا إلا لمن يبحث عمن يود البكاء معه.

ارتعش فلورينتينو أريثا ثانية، وقال لها:

- إنك مخطئة هذه المرّة. فأسباب مجيئي الليلة يناسبها الغناء.

فقالت: - فلنغن إذاً.

بدأ يدندن بصوت لا بأس به الأغنية الدارجة: **رامونا، لا أستطيع العيش بدونك**. وكان في ذلك نهاية تلك الليلة، إذ إنه لم يعد يجرؤ على لعب ألعاب محرّمة مع امرأة قدمت له أدلة كافية في معرفة الوجه الآخر للقمر. خرج إلى مدينة مختلفة تعبق برائحة أزهار الداليا الأخيرة لشهر حزيران، وسار في شارع من شوارع شبابه حيث تمر الأرامل في العتمة وهنّ خارجات من قداس الساعة الخامسة. وكان هو الذي انتقل إلى الرصيف الآخر هذه المرّة، وليس هن، كي لا يرَيْنَ دموعه التي ما عاد يطيق حبسها، ليس منذ منتصف الليل، كما كان يظن، لأن هذه الدموع كانت دموعاً أخرى: إنها التي غصَّ بها منذ حوالي إحدى وخمسين سنة وتسعة شهور وأربعين يوماً.

كان قد فقد الإحساس بالزمن حين استيقظ من دون أن يدري المكان الذي هو فيه، مقابل نافذة مضيئة. ونقله إلى الواقع صوت أميركا فيكونيا التي كانت تلعب بالكرة مع الخادمات في الحديقة.. إنه في سرير أمه التي ما زالت حجرة نومها على حالها، حيث اعتاد النوم كي لا يشعر بالوحدة في المناسبات القليلة التي أقلقته فيها العزلة. وكانت تنتصب مقابل السرير مرآة مطعم دون سانتشو الضخمة التي كانت رؤيتها عند استيقاظه كافية لجعله يرى فيرمينا داثا مرسومة فيها. عرف أن اليوم هو السبت، لأنه اليوم الذي يُحضرها فيه السائق أميركا فيكونيا من المدرسة الداخلية، ويأتي بها إلى بيته. وانتبه إلى أنه قد نام من دون أن يدري، حالماً أنه غير قادر على النوم، في حلم يعذبه فيه وجه فيرمينا داثا الغاضب. استحم وهو يفكّر كيف ستكون الخطوة التالية، وارتدى أفضل ملابسه على مهل، وتعطّر وصمّغ شاربه الأبيض ذا الطرفين المدببين، ولدى خروجه من حجرة النوم، رأى من ممر الطابق الثاني البنيّة الجميلة ذات الزي المدرسي وهي تمسك الكرة في الهواء بالسحر الذي بعث فيه القشعريرة لآحاد كثيرة، لكنها لم تبعث فيه هذا الصباح أي قلق. أشار لها بأن تأتي معه، وقبل أن يصعدا إلى السيارة قال لها من دون داع للقول:

- لن نفعل أشياء هذا اليوم.

ورافقها إلى المقهى الأميركي للمثلجات الذي كان يغصّ في مثل هذه الساعة بآباء يتناولون المثلجات مع أطفالهم تحت المراوح ذات الرياش الكبيرة المعلقة بالسقف. طلبت أميركا فيكونيا بوظة من عدّة طبقات متنوعة الألوان في كأس كبير، وهو النوع الذي تفضله، والذي يلقى رواجاً شديداً لأن بخاراً سحرياً كان ينبعث منه. تناول فلورينتينو أريثا قهوة قوية، وهو يتأمّل الطفلة من دون أن يتكلم، فيما هي تتناول البوظة بملعقة طويلة جداً، تصل إلى قاع الكأس. ثم قال لها فجأة، من دون أن يتوقف عن مراقبتها:

- سأتزوج.

نظرت إلى عينيه نظرة مرتابة، وهي ترفع الملعقة في الفضاء، لكنها استعادت أنفاسها فوراً، وابتسمت قائلة:

- إنها خدعة، فالشيوخ لا يتزوجون.

أوصلها مساء هذا اليوم إلى المدرسة الداخلية عند موعد صلاة الانخيلوس، تحت وابل من المطر العنيد، بعدما رأيا معاً دمى الحديقة، وتناولا الغداء في أكشاك السمك المقلي عند ملطم الأمواج، وبعدما رأيا أقفاص الحيوانات المفترسة التابعة لسيركٍ وصل يومئذ إلى المدينة، واشتريا من الأزقة كل أنواع الحلوى لتحملها معها إلى المدرسة الداخلية، وبعدما جابا المدينة عدّة مرّات بالسيارة المكشوفة لتبدأ الاعتياد عليه باعتباره وليّ أمرها، وليس عشيقاً لها. وفي يوم الأحد التالي بعث إليها السيارة لتقوم إذا كانت ترغب بنزهة مع صديقاتها، لكنه لم يشأ رؤيتها، لأنه وعى منذ الأسبوع الفائت وعياً كاملاً فارق السن بينهما. وفي هذه الليلة بالذات قرّر أن يكتب إلى فيرمينا داثا رسالة اعتذار، حتى ولو كان ذلك لمجرّد عدم الاستسلام، لكنه أجّل الأمر لليوم التالي. وفي يوم الاثنين، بعد ثلاثة أسابيع كاملة من الآلام، دخل إلى بيته مبللاً بالمطر، ووجد رسالتها.

كانت الساعة الثامنة ليلاً. وكانت فتاتا الخدمة قد نامتا، تاركتين الضوء الوحيد الذي يبقى مضاء في الممر ليتمكن فلورينتينو أريثا من الوصول إلى حجرة نومه. كان يعلم أن عشاءه البسيط موجود على طاولة حجرة الطعام، لكن الجوع الذي كان يشعر به بعد كل هذه الأيام من الأكل العشوائي، تلاشى بانفعالات رؤيته الرسالة. وجد صعوبة في إضاءة نور حجرة النوم الرئيسية بسبب ارتعاش يديه. وضع الرسالة المبللة على السرير وأضاء مصباح الكومودينو، ثم خلع سترته المبللة بهدوء

مصطنَع؛ هو من أساليبه في طمأنة نفسه، وعلقها على مسند الكرسي، ثم نزع الصدرية ووضعها بعد طيّها جيداً فوق السترة، وحلّ شريط العنق الحريري الأزرق والياقة القاسية التي ما عادت تُستعمل في العالم، وفك أزرار القميص حتى الخصر ثم حلّ الحزام ليتنفس براحة، ونزع القبعة أخيراً ووضعها إلى جوار النافذة لتجف، ارتعش فجأة لأنه لم يدرِ أين هي الرسالة، ووصل به الانفعال حداً جعله يفاجَأ حين وجدها، فهو لا يذكر أنه وضعها على السرير. وقبل أن يفتحها جفف المغلف بمنديل، محاذراً ألا يمسح الحبر المكتوب به اسمه، وبينما هو يفعل ذلك، انتبه إلى أن ذلك السرّ لم يعد مشتركاً بين اثنين فقط، وإنما بين ثلاثة على الأقل، فلا بدّ أن حامل الرسالة، كائناً مَن كان، قد انتبه إلى أن أرملة أوربينو تكتب لشخص من خارج عالمها، ولما تمضِ على وفاة زوجها سوى ثلاثة أسابيع، وأنها تفعل ذلك بتسرّع لم يتح لها إرسال الرسالة بالبريد، وبتكتم شديد جعلها تطلب عدم تسليمها باليد، وإنما دسها من تحت الباب كما لو كانت رسالة من مجهول. لم يكن بحاجة إلى تمزيق المغلف، لأن الماء حلل صمغه، لكن الرسالة كانت جافة: ثلاث ورقات، من دون ترويسة، موقعة بالحروف الأولى من اسمها كمتزوّجة.

قرأها أوّل مرّة بسرعة وهو جالس على السرير، مستسلماً للهجتها أكثر من تمعّنه بمضمونها، وقبل أن ينتقل إلى الصفحة الثانية كان متأكداً من عدالة الشتائم التي انتظر تلقيها. ووضعها مفتوحة تحت ضوء مصباح الكومودينو، ونزع حذاءه والجوربين المبللين، ثم أطفأ نور الحجرة الرئيسي بمفتاح الكهرباء المجاور للباب، ووضع على وجهه غطاء الشوارب المصنوع من الشمواه واستلقى من دون أن يخلع بنطاله والقميص، مسنداً رأسه إلى وسادتين كبيرتين كان يستخدمهما كمسند حين يقرأ. وهكذا أعاد قراءة الرسالة حرفاً حرفاً، مدققاً في كل حرف كي لا تبقى أية نيّة من نواياها الخفية من دون حلّ. ثم قرأها أربع مرّات

أخرى، إلى أن تشبّع بها وأصبحت الكلمات المكتوبة تفقد معناها. بعد ذلك خبأ الرسالة من دون المغلف في درج الكومودينو، واستلقى شابكاً يديه تحت أعلى رقبته، وثبّت نظره لأربع ساعات في المرآة حيث كانت هي، من دون أن يرمش، ومن دون أن يتنفس تقريباً، وكان أكثر موتاً من ميت. وعند منتصف الليل تماماً خرج إلى المطبخ، فأعدّ ترمس قهوة كثيفة كالبترول الخام، وحمله إلى حجرة نومه، وألقى بأسنانه الاصطناعية في كأس الماء الممزوج بمطهر البورون الذي كان يجده بانتظاره دوماً فوق الكوميدينو، وعاد ليستلقي بوضعية تمثال المرمر السابقة مع حركة محدودة بين وقت وآخر لارتشاف بعض القهوة، وبقي على هذا الحال إلى أن دخلت الخادمة في الساعة السادسة وهي تحمل ترمساً آخر مليئاً بالقهوة.

في هذه الساعة كان فلورينتينو أريثا قد عرف تماماً كل خطوة من خطواته التالية. الحقيقة أن الشتائم لم تسبب له الألم كما لم تقلقه الاتهامات الجائرة التي كان يمكن لها أن تكون أقسى، نظراً لمعرفته بطبع فيرمينا داثا وخطورة السبب. الشيء الوحيد الذي كان يهمه هو الرسالة ذاتها لأنها تتيح له الفرصة وتعترف له بحق الردّ عليها. بل وتتطلب منه ذلك. وهكذا وصلت الحياة إلى الحدّ الذي أراد إيصالها إليه. وكل ما سوى ذلك يعتمد عليه الآن. كان مقتنعاً قناعة راسخة بأن جحيمه الخاص المستمر منذ نصف قرن سيقدم له مزيداً من التجارب القاتلة الكثيرة التي أصبح مستعداً لمواجهتها بحماسة أشد ومعاناة أصلب وحب أقوى من كل ما فات، لأنها ستكون التجارب الأخيرة.

بعد خمسة أيام من تلقّيه رسالة فيرمينا داثا، ولدى وصوله إلى مكاتب شركته، أحس بأنه يطفو في الفراغ الوعر وغير المألوف لآلات الكتابة، إذ إن ضجيجها المطَري لم يكن ملحوظاً كصمتها. كانت وقفة قصيرة. وحين عاد الضجيج من جديد أطل فلورينتينو أريثا إلى مكتب ليونا كاسياني

وتأملها وهي جالسة وراء آلتها الكاتبة، التي تستجيب لرؤوس أصابعها وكأنها أداة بشرية. فأحست هي بأنها مراقبة، ونظرت نحو الباب بابتسامتها الشمسية المذهلة، لكنها لم تتوقف عن الكتابة حتى نهاية الفقرة.

سألها فلورينتينو أريثا:

- أخبريني يا لبوة روحي. بماذا ستشعرين إذا تلقيت رسالة حب مكتوبة على هذه الأداة؟

وبدت عليها، هي التي لم تفاجأ بشيء، علائم مفاجأة حقيقية، وهتفت:

- يا للرجل! لم يحدث لي شيء من هذا القبيل.

لم تجد جواباً آخر على الأقل. ولم يكن فلورينتينو أريثا قد فكّر بالأمر حتى ذلك الحين، لكنه قرّر المضي بالمغامرة إلى نهايتها. نقل إلى بيته إحدى آلات المكتب وسط سخرية مرؤوسيه المتوددة: «لا يمكن لببغاء عجوز أن تتعلم الكلام». وعرضت عليه ليونا كاسياني، المتحمسة لكل جديد، أن تعطيه دروساً بالكتابة على الآلة في البيت. لكنه كان ضد التعليم المنهجي مذ أراد لوتاريو توغوت تعليمه عزف الكمان على النوتة، متوعداً بأنه سيحتاج لسنة على الأقل كي يبدأ، وخمس سنوات ليُقبل في فرقة أوركسترا محترفة، وحياته كلها، بمعدل ست ساعات يومياً ليعزف بشكل جيد. ولكنه استطاع رغم ذلك إقناع أمه بأن تشتري له كمان عميان، ومن خلال القواعد الأساسية الخمس التي علمه إياها لوتاريو توغوت، تجرّأ على العزف ضمن كورال الكاتدرائية قبل مضي أقل من سنة، وعلى عزف السيرانادات لفيرمينا داثا من مقبرة الفقراء حسب اتجاه الريح. فإذا كان قد فعل ذلك وهو في العشرين بآلة صعبة كالكمان، فلماذا لا يستطيعه أيضاً وهو في السادسة والستين بآلة لا تحتاج إلا لإصبع واحد كآلة الكتابة.

وهذا ما فعله. احتاج لثلاثة أيام كي يتعرّف على مواقع الحروف على لوحة المفاتيح، وستة أيام ليتعلم التفكير في الوقت الذي يكتب فيه، ثم ثلاثة أيام أخرى لينهي الرسالة الأولى من دون أخطاء، بعدما مزق نصف رزمة من الورق. بدأ الرسالة بمطلع وقور: سيدتي. ووقعها بالحروف الأولى من اسمه، كما اعتاد أن يفعل في رسائل الحب المعطرة في شبابه. وبعثها بالبريد، في مغلف خاص برسائل التعزية كما هو محتم في رسالة مرسلة إلى أرملة حديثة الترمّل، ومن دون كتابة اسم المرسِل على الوجه الآخر للمغلف.

كانت رسالة في ست ورقات لا علاقة لها بأي رسالة من رسائله السابقة. لم تكن لها النبرة، ولا الأسلوب ولا النفس الخطابي الذي كان يتمتع به في سنوات الحب الأولى، وكانت حجتها عقلانية جداً ومتقنة التأمل، لو خالطتها رائحة زهرة ياسمين لبدت غير لائقة. لقد كانت، بطريقة ما، مقاربة أكثر صواباً من الرسائل التجارية التي لم يستطع كتابتها أبداً.

إن رسالة شخصية مكتوبة بوسائل آلية ستعتبر أمراً مهيباً بعد سنوات من ذلك، أما في ذلك الحين، فكانت الآلة الكاتبة لا تزال مجرّد حيوان مكتبي، بلا فلسفة خاصة بها، ولم يكن تدجينها للاستخدامات الخاصة وارداً في مناهج التمدّن. وكانت تبدو كصرعة جريئة، ولا بدّ أن فيرمينا داثا قد فهمت الأمر على هذا النحو، لأنها حين كتبت رسالتها الثانية إلى فلورينتينو أريثا، بعد أن تلقت منه ما يزيد عن الأربعين رسالة، بدأت بالاعتذار لعثرات خطها، لكونها لا تملك وسائط كتابة أحدث من قلم الحبر ذي الريشة الفولاذية.

لم يشر فلورينتينو أريثا مجرّد إشارة إلى الرسالة الرهيبة التي بعثت بها إليه، بل جرب منذ البداية منهجاً مختلفاً في الغواية، من دون أية إشارة

إلى غراميات الماضي، أو الماضي بحد ذاته: شطب كل ما سبق، وفتح صفحة جديدة. كانت الرسالة أشبه بتأمل مسهب في الحياة، يستند إلى أفكاره وتجاربه في العلاقات بين الرجل والمرأة، والتي فكر بكتابتها يوماً كملحق متمِّم لسكرتير العاشقين؛ ولم يفعل حينئذ سوى صياغة تلك التأملات بأسلوب بطريركي، لذكريات شيخ، كي لا تظهر بوضوح حقيقة كونها رسالة حب. لقد كتب قبل ذلك عدّة مسودات على الطريقة القديمة، قد تتأخر في قراءتها ببرودة أعصاب أكثر ممّا تتأخر في إلقائها إلى النار. كان يعلم أن أي زلة في الإشارة إلى الماضي، أو أي طيش في الحنين قد يثير في قلبها ترسّبات قديمة، ومع أنه كان يشعر بأنها ستعيد إليه مئة رسالة قبل أن تتجرّأ على فتح الرسالة الأولى، إلا أنه تمنى ألا يحدث ذلك ولو مرة واحدة. وهكذا وضع مخططه بكل تفاصيله كما في معركة حاسمة: كل شيء يجب أن يكون مختلفاً ليبعث لحظات فضول جديدة، ووساوس جديدة وآمالاً جديدة، في امرأة عاشت حياة كاملة بكل أبعادها واتساعها. لا بدّ له من جعل الأمر حلماً غير معقول، قادراً على منحها الشجاعة الكافية لتلقي إلى القمامة بأعراف طبقة لم تكن هي طبقتها الأصلية، ولكنها انتهت إلى الاندماج فيها وجعلها طبقتها أكثر من أي طبقة أخرى. كان عليه أن يعلمها التفكير بالحب على أنه حالة غير وسيطة لأي شيء، بل هو منشأ ومستقر بحد ذاته.

لقد كان من القناعة بحيث أنه لم يعد ينتظر رداً فورياً، بل اكتفى بألّا تُعاد إليه الرسالة. ولم تَعُدْ، كما لم تعد الرسالة التالية. وكلما مرت الأيام كانت أشواقه تتأجج، وكلما ازدادت الأيام التي تمر كانت آماله بالرد تزداد. كان تواتر رسائله مشروطاً بمهارة أصابعه: بدأ برسالة واحدة في الأسبوع أوّل الأمر، ثم رسالتين، إلى أن تمكّن أخيراً من كتابة رسالة في كل يوم. ولقد أثلج صدره التطور الذي حققه البريد بالمقارنة مع زمانه، حين كان يعمل رافع أعلام، لأنه لم يكن مستعداً للمغامرة بالظهور في

مكتب البريد كل يوم كي يبعث رسالته إلى الشخص ذاته، ولا لإرسالها مع أحد قد يحصيها عليه. أما الآن، فمن السهل إرسال موظف ليشتري الطوابع البريدية لشهر بكامله، ثم إلقاء الرسالة في واحد من صناديق جمع الرسائل الثلاثة الموزعة في المدينة القديمة. وسرعان ما أدرج تلك المهمة في روتينه اليومي: كان ينتهز ساعات أرقه ليكتب، وأثناء ذهابه إلى المكتب في اليوم التالي، يطلب من السائق التوقف للحظة أمام صندوق بريد معلّق عند ناصية أحد الشوارع، فينزل بنفسه ويلقي الرسالة فيه. لم يسمح للسائق أبداً القيام بهذا العمل بدلاً منه، رغم أنه طلب ذلك في صباح يوم ماطر. وصار يحتاط أحياناً فيرسل مجموعة رسائل في الوقت ذاته بدلاً من رسالة واحدة، كي يبدو الأمر أكثر طبيعية. ولم يكن السائق يعلم بكل تأكيد، أن الرسائل الأخرى ليست إلا أوراق بيضاء يبعثها فلورينتينو أريثا بنفسه لنفسه، لأنه لم يكن يرتبط بمراسلة خاصة مع أحد، باستثناء تقريره الذي يبعثه كوصيّ في أواخر كل شهر إلى والدَيّ أميركا فيكونيا، ويضمّنه انطباعاته الشخصية حول سلوك الصغيرة، ومعنوياتها وصحتها، وتقدمها المطرد في الدراسة.

أخذ يرقّم الرسائل منذ الشهر الأول، وصار يبدأها بملخص للرسائل السابقة كما هو الحال في روايات الصحف المسلسلة، خشية ألّا تنتبه فيرمينا داثا إلى أن الرسائل مترابطة بعضها ببعض إلى حدّ ما. وحين أصبحت الرسائل يومية، استبدل مغلفات الحداد التي كان يستخدمها بمغلفات بيضاء وطويلة، ممّا منحها مظهر الرسائل التجارية الغامض والمتواطئ. حين بدأ ببعث رسائله، كان مستعداً لإخضاع صبره لتجربة أكبر، إلى أن يجد على الأقل دليلاً قاطعاً بأنه يضيّع وقته بهذا الأسلوب الوحيد الذي استطاع تصوّره. وانتظر فعلاً من دون الإحساس بالقلق الذي كان يسببه له الانتظار في شبابه.. انتظر بعناد شيخ اسمنتي ليس لديه ما يفكّر فيه ولا ما يفعله في شركة ملاحة نهرية كانت تبحر وحدها

في ذلك الحين، مدفوعة برياح مواتية، إضافة إلى يقينه بأنه سيكون حياً في الغد، آجلاً أو آبداً، حين تقتنع فيرمينا داثا أخيراً بأنه لا علاج لجزعها كأرملة متوحّدة إلا بإنزال جسور حصنها له.

وتابع أثناء ذلك حياته المعتادة. متهيئاً لتلقي ردٍ إيجابي. بدأ بأعمال ترميم جديدة في البيت ليكون جديراً بمن يمكن اعتبارها صاحبته وسيدته منذ تمّ شراؤه. وتردّد عدّة مرّات على بروديثيا بيترا، كما وعدها ليثبت لها أنه يحبها رغم آثار السن، في وضح النهار، وليس في ليالي خذلانه فقط. وتابع المرور مقابل بيت أندريه بارون إلى أن وجد نور الحمّام مطفأ، وحاول تخدير نفسه في حماقة من حماقات السرير كي لا يفقد قدرته على الحب، حسب خرافة أخرى من خرافاته التي لم يجد ما ينقضها حتى ذلك الحين، والقائلة بأن الجسد يستمر ما دام صاحبه مواظباً.

كانت علاقته بأميركا فيكونيا هي العائق الوحيد. لقد ثابر على إرسال السائق لإحضارها من المدرسة الداخلية في الساعة العاشرة من صباح أيام الآحاد، لكنه لم يكن يدري ما الذي يفعله بها خلال عطلة نهاية الأسبوع. ولقد أحسّت بالتغيّر حين لم يبدِ اهتماماً بها في المرّة الأولى. كان يعهد بها للخادمات كي يرافقنها إلى السينما المسائية، ولمشاهدة الدمى المتحركة في حديقة الأطفال، وإلى اليانصيبات الخيرية، أو يدعوها إلى برامج آحاد احتفالية مع زميلات أخريات لها من المدرسة كي لا يضطر لمرافقتها إلى الجنة السرية وراء المكاتب، حيث كانت تودّ الذهاب دوماً منذ أخذها هناك أوّل مرّة. ولم ينتبه وهو في غيبوبة حلمه الجديد، إلى أن النساء قد يصبحن راشدات في ثلاثة أيام، بينما انقضت ثلاث سنوات منذ استقبلها في بويرتو بادري حين جاءت في السفينة الشراعية المزوّدة بمحرِّك. ورغم كل محاولاته لإضفاء الحلاوة على الوضع الجديد، إلا أن التبدّل الذي طرأ كان قاسياً بالنسبة لها، لكنها

لم تستطع تصوّر سبب هذا التبدّل. يوم قال لها في مقهى المثلجات أنه سيتزوج، كاشفاً لها بذلك عن الحقيقة، عانت صدمة ذعر عابرة، لكن الأمر بدا لها بعد ذلك احتمالاً لا معقولاً ما لبث أن نسيته تماماً. لكنها سرعان ما أيقنت أنه يتصرّف كما لو كان ذلك صحيحاً، بمراوغة لا تفسير لها، وكما لو لم يكن أكبر منها بستين سنة، وإنما أصغر منها بستين سنة.

وفي مساء أحد أيام السبت، وجدها فلورينتينو أريثا تحاول الكتابة على الآلة الكاتبة في غرفة نومه، وكانت تفعل ذلك بشكل لا بأس به، إذ إنها تتلقى في المدرسة دروساً في الضرب على الآلة الكاتبة. كانت قد كتبت ما يزيد على نصف صفحة، وكان من السهل إفراز عبارة من بعض الفقرات تكشف عن حالتها المعنوية. انحنى فلورينتينو أريثا فوق كتفها ليقرأ ما تكتبه، فاختلجت بحرارته الرجولية، ونفَسِه المتقطع، وعطر ملابسه الذي هو عطر وسادته ذاته. لم تعد تلك الطفلة حديثة الوصول التي كان يُعرّيها من ثيابها قطعة قطعة بخدع أطفال: هذا الحذاء أولاً للدب، ثم هذه البلوزة للكلب، ثم هذا السروال الداخلي المزيّن بالأزهار للأرنب... والآن قبلة حلوة سيطبعها البابا على هذه الحمامة الصغيرة. لا: إنها الآن امرأة مكتملة الأنوثة تحب أن تُمسك زمام المبادرة. واصلت الكتابة بإصبع واحدة من يدها اليمنى، وبحثت باليد اليسرى عن ساقه باللمس: استكشفته، ووجدته، وأحسّت به ينبعث، ينمو، يتنهّد بشوق، فتعثّر تنفسه كشيخ وصار ثقيلاً. كانت تعرفه: فمنذ هذه اللحظة سيفقد السيطرة على نفسه، ستتفكك مفاصله، سيصبح تحت رحمتها، ولن يجد سبيلاً للرجوع قبل أن يصل إلى النهاية. قادته من يده إلى السرير، كما تقود ضريراً بائساً في الشارع، وعرّته من ثيابه قطعة قطعة برقّة خبيثة، رشّت ملحاً لذوقه، وبهاراً ذا رائحة، وفص ثوم، وبصلة مفرومة، وعصير ليمونة وورقة غار، إلى أن تبّلته تماماً في الصينية وجهزت الفرن بدرجة الحرارة المناسبة. لم يكن في البيت أحد. فالخادمات خرجن، وعمال

البناء والنجارين الذين كانوا يرمّمون البيت لا يشتغلون أيام السبت: كان العالم بأسره لهما، لكنه خرج من غيبوبته وهو على شفير الهاوية، فأزاح يدها ونهض قائلاً بصوت مرتعش:

- حذار، لا توجد هنا موانع للحمل.

بقيت مستلقية في الفراش لوقت طويل، وهي غارقة في التأمل، وحين رجعت إلى المدرسة الداخلية، قبل ساعة من الموعد، كانت قد تجاوزت الرغبة بالبكاء، وركزت حاسة شمها وشحذت أظافرها لتجد آثار الأرنبة البرية المختفية التي قلبت لها حياتها رأساً على عقب. أما فلورينتينو أريثا، فقد أقدم بالمقابل على ارتكاب خطأ آخر من أخطاء الرجال: ظن أنها قد اقتنعت بعدم جدوى نواياها وقررت نسيانه.

كان غارقاً في شؤونه. وحين لم يتلقَ أيّ إشارة، بعد مرور ستة شهور، وجد نفسه يتقلب في السرير حتى الفجر، تائهاً في صحراء أرق مختلف. كان يفكّر بأن فيرمينا داثا قد فتحت الرسالة الأولى لمظهرها البريء، وتمكنت من رؤية المطلع المعروف لها من رسائل أخرى غابرة، وألقت بها في محرقة القمامة من دون أن تتكلف مشَقّة تمزيقها. وكان يكفيها أن ترى مغلف الرسائل التالية لتحكم عليها بالمصير نفسه من دون أن تفتحها، وهكذا حتى نهاية الأزمان، فيما هو يصل إلى نهاية تأملاته المكتوبة. لم يكن يصدّق أن هناك امرأة قادرة على مقاومة فضول نصف سنة من الرسائل من دون أن تعرف حتى لون الحبر الذي كتبت به. ولكن إذا كان من وجود لامرأة من هذا النوع، فلا يمكن إلا أن تكون هي وحدها.

بدأ فلورينتينو أريثا يشعر بأن زمن الشيخوخة ليس تيّاراً أفقياً، وإنما خَزّاناً مثقوب القعر تتسرّب منه الذاكرة. كانت قريحته تُستنفد. وبعد عدّة أيام من التجوال في حيّ لامانغا، أدرك أن ذلك الأسلوب الشبابي لن

يتمكن من تحطيم الأبواب المحكومة بالحداد. وفي صباح أحد الأيام، بينما هو يبحث عن رقم في دليل الهاتف، وجد مصادفة رقمها. اتصل بها. ورنّ الجرس مرّات كثيرة، وأخيراً تعرّف على الصوت، جدياً وأبحّ: «مَن؟». أعاد وضع السماعة من دون أن يتكلم، لكن البُعد اللانهائي لذلك الصوت الغائم أعاد التماسك لمعنوياته.

في أحد هذه الأيام، احتفلت ليونا كاسياني بعيد ميلادها، ودعت مجموعة محدودة من الأصدقاء إلى بيتها. كان هو ساهياً، فلوّث ملابسه بصلصة الدجاج. غمست طرف الفوطة في كأس الماء ومسحت طيّة سترته، ثم وضعت له الفوطة كمريلة لتحول دون وقوع حادث أكبر: بدا كرضيع هرم. ولاحظت أنه نزع نظارته عدّة مرّات خلال تناول الطام ليمسحها بالمنديل، لأن عينيه كانتا تدمعان. وعند تناول القهوة، غفا وهو يحمل الفنجان بيده، فحاولت انتزاع الفنجان من دون إيقاظه، لكنه أفاق خجلاً: «كنت أريح بصري فقط». وقد نامت ليونا كاسياني تلك الليلة مذهولة وهي تفكر كيف أن الشيخوخة أخذت تبدو عليه بوضوح.

في الذكرى الأولى لموت خوفينال أوربينو، بعثت أسرته ببطاقات دعوة لقدّاس على ذكراه في الكاتدرائية. كان فلورينتينو أريثا قد بعث في ذلك الحين الرسالة رقم مئة واثنتين وثلاثين من دون أن يتلقى أي ردّ، وهذا ما دفعه إلى اتخاذ القرار الطائش بحضور القداس رغم أنه لم يكن مدعواً. لقد كان حدثاً اجتماعياً باذخاً أكثر من كونه ذكرى مؤثرة. كانت مقاعد الصفوف الأولى محجوزة لورثة الألقاب الكبيرة، وكانت على قفا كل مقعد لوحة نحاسية تحمل اسم صاحبه. حضر فلورينتينو أريثا مع أوّل الضيوف ليجلس في مكان لا يمكن لفيرمينا داثا أن تمر من دون أن تراه. وفكّر بأن أفضل المقاعد، بعد الأماكن المحجوزة، هي مقاعد القسم الأوسط، لكن عدد الحضور كان كبيراً لدرجة أنه لم يجد مكاناً هناك أيضاً، فاضطر للجلوس في الصف المخصص للأخوة الفقراء.

ومن هناك رأى فيرمينا داثا تدخل ممسكة بذراع ابنها. كانت ترتدي ثوباً مخملياً أسود يصل إلى معصمَيها، ولا وجود فيه لأيّة حلية سوى مجموعة من الأزرار المتتالية من العنق حتى القدمين، فكان يبدو أشبه برداء قسيس، وكانت تضع ياقة ذات تخريمات قشتالية بدلاً من القبعة ذات الخمار التي تستخدمها الأرامل، وكثير من السيدات اللاتي يأملن أن يصبحن أرامل. كان لوجهها السافر بريق كبريق المرمر المعرّق، وكانت عيناها الرمحيتان تعيشان حياة خاصة تحت الثريات الضخمة في ممر الكاتدرائية الأوسط، وكانت تمشي باستقامة، وكبرياء، وسيطرة تامة على نفسها، حتى أنها لم تكن تبدو أكبر سناً من ابنها. استند فلورينتينو أريثا، الواقف، بأطراف أصابعه على المقعد الذي أمامه إلى أن مرت الإغماءة التي أحسّ بها مرور الكرام، فقد شعر بأن المسافة الفاصلة بينهما ليست ست خطوات كما هي في الواقع، وإنما هما في يومين مختلفين.

تحملت فيرمينا داثا طقوس الحفل في المقعد العائلي مقابل المذبح الكبير، ممضية معظم الوقت وهي واقفة، مثلما كانت تفعل عند حضورها حفلات الأوبرا. لكنها حطمت طقوس المراسم الدينية في النهاية، ولم تبقَ في مكانها لتتلقى تجديد العزاء، كما هي التقاليد السائدة، وإنما شقت طريقها لتشكر كل واحد من المدعوين: إنها لفتة تجديدية تتفق تماماً مع أسلوبها في الحياة. صافحت الموجودين هنا وهنا، إلى أن وصلت إلى مقاعد الأقارب الفقراء، ثم التفتت أخيراً حولها لتتأكد من أنها لم تنس أحداً تعرفه. أحس فلورينتينو أريثا حينئذ أن ريحاً غير مألوفة قد أخرجته من جوّه: لقد رأته. وفعلاً، ابتعدت فيرمينا داثا عن مرافقيها بطلاقتها التي تتصرّف بها في المجتمع، ومدّت له يدها، وقالت بابتسامة شديدة الرقة:

– شكراً لحضورك.

لم تكن قد تلقت الرسائل وحسب، بل إنها قرأتها كذلك باهتمام

بالغ، ووجدت فيها أسباباً جدّية للتأمل والاستمرار في الحياة. كانت تجلس إلى المائدة لتناول الفطور مع ابنتها حين تلقت الرسالة الأولى. فتحتها بفضول لكونها مكتوبة على الآلة الكاتبة، واتقدت وجنتها بتورّد سريع حين تعرّفت على الحروف الأولى من اسم صاحب التوقيع. لكنها سيطرت على نفسها في الحال وخبأت الرسالة في جيب مريلتها.

قالت: «إنها رسالة تعزية من الحكومة».

فوجئت الابنة: «ولكنها وصلت كلها». فلم تتأثر: «وهذه واحدة أخرى». كانت تنوي إحراق الرسالة في ما بعد، بعيداً عن أسئلة ابنتها، لكنها لم تستطع مقاومة إغراء إلقاء نظرة عليها قبل ذلك. كانت تتوقع رداً جديراً برسالتها المليئة بالإهانات، والتي سببت لها ضيقاً منذ لحظة إرسالها، ولكنها حين رأت مطلع الرسالة التوقيري ونوايا الفقرة الأولى، أدركت أن شيئاً قد تبدّل في الدنيا. سيطر عليها الذهول لدرجة أنها حبست نفسها في حجرة النوم لتقرأها بهدوء قبل إحراقها، وقرأتها ثلاث مرّات من دون أن تلتقط أنفاسها.

كانت الرسالة تتضمّن تأملات حول الحياة، والحب، والشيخوخة، والموت: أفكار طالما مرّت مرفرفة كعصافير ليلية فوق رأسها، لكنها كانت تقذفها بنثارة ريش كلما حاولت إمساكها. وها هي الآن واضحة، بسيطة، تماماً كما كانت تحب أن تقولها. وتألمت مجدداً لأن زوجها ليس حياً لتناقشها معه، كما اعتادا أن يناقشا بعض الأمور اليومية قبل النوم. وهكذا تكشّف لها فلورينتينو أريثا مجهولاً، ذا بصيرة لا تتفق مع رسائل الحب المحمومة في شبابه، ولا مع سلوكه الغامض طوال حياته. كانت أقرب إلى كلمات الرجل الذي بدا للعمة اسكولاستيكا بأنه ملهَمٌ بالروح القدس، فعاد هذا الخاطر ليفزعها كما أفزعها في المرّة الأولى. وكان أكثر ما ساعد في تهدئتها علي أي حال هو يقينها بأن رسالة الشيخ

الحكيم تلك ليست محاولة لتكرار سفاهة ليلة المأتم، وإنما هي طريقة جد نبيلة لمحو الماضي.

وجاءت الرسائل التالية لتبعث فيها الطمأنينة. لكنها أحرقتها على أي حال، بعد أن قرأتها باهتمام متزايد، رغم أنها كلما أحرقت الرسائل كانت تشعر برواسب إحساس بالذنب ما تلبث أن تزيحها. وحين بدأت تتلقى الرسائل مرقَّمة، وجدت ذريعة أخلاقية لرغبتها في وقف اتلافها. لقد كانت نيتها الأولية، على أي حال، عدم الاحتفال بالرسائل لذاتها، وإنما انتظار أن تسنح فرصة لاعادتها إلى فلورينتينو أريثا كي لا يفقد شيئاً يبدو لها أنه ذا قيمة إنسانية. ولكن الوقت كان يمضي والرسائل تتوالى، واحدة كل ثلاثة أو أربعة أيام خلال سنة كاملة، ولم تعرف كيف تعيدها من دون أن يبدو ذلك على أنه صَدّ من جانبها ما عادت ترغب في القيام به، ومن دون أن تجد نفسها مضطرة لشرح الأمر في رسالة يمنعها كبرياؤها من كتابتها.

كانت تلك السنة كافية لأن تعتاد على حياتها كأرملة. ولم تعد ذكرى الزوج النقيّة تشكّل عائقاً أمام أعمالها اليومية، وتحوّل حضوره في أفكارها الحميمة، وفي أبسط نواياها، إلى حضور حارس، يراقبها من دون أن يزعجها. وكانت تجده أحياناً، ليس كرؤيا، وإنما بلحمه وعظمه، حيث تحتاج إليه حقاً. كان اليقين يلهمها بأنه هنا، لا يزال حياً، إنما من دون نزواته كرجل، ومن دون طلباته البطريركية، ومن دون الحاجة المضنية لأن تحبّه بطقوس القبلات غير المناسبة نفسها والكلمات الرقيقة التي يحبها بها. كانت تفهمه حينئذ أفضل ممّا فهمته وهو حيّ، فهمت قلق حبه، واستعجاله للعثور فيها على الأمن الذي كان يبدو أنه ركيزة حياته العامة، والذي لم يحصل عليه في الواقع أبداً. ففي أحد الأيام، صرخت به وهي في قمة يأسها: «ألا تشعر كم أنا تعيسة». فنزع نظارته بحركة من صميم حركاته، ومن دون أن يتأثر، وأغرقها بماء عينيه

الصبيانيتين الصافي، وألقى على كاهلها ثقل حكمته الذي لا يطاق بعبارة واحدة: «تذكري دائماً أن أهم شيء في زواج جيد ليس هو السعادة وإنما الاستقرار». ومنذ أيام عزلتها الأولى كأرملة أدركت أن تلك العبارة لا تخفي التهديد المسكين الذي نسبته إليها يوم قالها، وإنما هي الحجر القمري الذي خصص لهما معاً ساعات طويلة من السعادة.

كانت فيرمينا داثا، في رحلاتها الكثيرة عبر العالم، تشتري كل جديد يلفت نظرها. كانت ترغب الأشياء لانطباعها الأوّلي وكان زوجها يشاركها منطقها. ولقد كانت تلك الأشياء جميلة ونافعة ما دامت في بلدها، بلد المنشأ، في واجهات روما، وباريس، ولندن، أو في نيويورك ذلك الزمان المهتزة بالشارلستون، حيث بدأت ناطحات السحاب بالنمو، لكنها لا تحتمل تجربة فالسات شتراوس مع شحم الخنزير القاسي ومعارك الزهور في درجة حرارة تصل إلى الأربعين في الظل. وهكذا كانت ترجع من رحلاتها ومعها نصف دستة من الصناديق المعدنية البراقة، المزوَّدة بأقفال وزوايا نحاسية، تشبه نعوشاً خيالية. فتجد نفسها صاحبة وسيدة آخر عجائب الدنيا التي لم تكن مع ذلك تساوي ثمنها ذهباً، إلّا في اللحظة السريعة التي يراها فيها أحد من عالمها المحلي لمرة واحدة. إنها مشتراة لهذا الغرض: كي يراها الآخرون مرّة واحدة. لقد وعت لا جدوى صورتها العامة قبل أن تبدأ بالشيخوخة بزمن طويل، وكثيراً ما سُمعت تقول في البيت: «لا بدّ من التخلي عن كل هذه التفاهات التي لا تترك مكاناً للمعيشة». وكان الدكتور أوربينو يسخر من نواياها العقيمة، لأنه يعرف أن الأماكن الشاغرة لن تفيد إلا لملئها من جديد. لكنها كانت تصر على موقفها، لأنه لم يكن يوجد في الواقع مكان لأي شيء جديد، ولم يكن يوجد في أي مكان شيء صالح لشيء، كالقمصان المعلقة على مقابض الأبواب أو المعاطف الشتوية الأوروبية المدسوسة كيفما اتفق في خزائن المطبخ. وهكذا فإنها كانت تنهض في صباح أحد

الأيام بمعنويات عالية لتلقي إلى الأرض كل ما في الخزائن، وتفرغ الصناديق، وتجرد غرف المهملات، وتعلنها حرباً على أكوام الملابس التي شوهدت بما يكفي، والقبعات التي لم تلبسها أبداً لأنها لم تجد فرصة مناسبة أثناء شيوع موضتها، والأحذية التي كان يحاكي بها فنانو أوروبا أحذية الإمبراطورات في حفلات تتويجهن، والتي كانت تقابَل هنا باحتقار الآنسات النبيلات لأنها تشبه تماماً الأحذية التي تشتريها الزنجيات من السوق لاستخدامها في البيت. وتبقى الشرفة الداخلية للبيت في حالة طوارئ خلال فترة الصباح كلها، ويصبح التنفس في البيت أمراً شاقاً بفعل الرائحة الحادة لكرات النفتالين. لكن الهدوء ما يلبث أن يعمّ بعد ساعات قليلة، إذ إنها ترقّ لكل هذا الحرير المبعثر على الأرض، وكل هذا البروكار الفائض مع بقايا الحرير المخرّم، وكل ذيول الثعالب الزرقاء المحكومة بالمحرقة. وكانت تقول:

- إن إحراقها، بينما هناك أناس كثيرون لا يجدون ما يأكلونه، هو خطيئة.

وهكذا كانت عملية الإحراق تتأجل. لقد تأجلت دوماً، وكل ما في الأمر هو أن أماكن الأشياء كانت تتبدل، فتنتقل من مواقع الامتياز إلى الحظائر القديمة التي تحوّلت إلى مستودع للتصفيات، بينما تبدأ الأماكن التي أخليت بالامتلاء من جديد، كما كان يقول هو بالضبط، إلى أن تفيض بأشياء تعيش للحظة زهو ثم تمضي لتموت في الخزائن، ريثما يحين موعد التصفية التالية. كانت تقول: «يجب ابتداع ما يمكن عمله بالأشياء التي لم تعد نافعة لشيء والتي لا يمكن رميها كذلك». إنها هكذا: ترتعد للنهم الذي تغزو به الأشياء أماكن المعيشة، محتلة مكان البشر، وزاجّةً بهم في الزوايا، إلى أن تضعها فيرمينا داثا حيث لا تبدو للعيان. لم تكن امرأة مرتبة إذاً كما يُشاع عنها، وإنما كان لديها منهج خاص ويائس لتبدو كذلك: إنها تخفي الفوضى. ولقد اضطروا يوم وفاة

خوفينال أوربينو إلى إفراغ نصف محتويات المكتب، وتكويم الأشياء في غرف النوم ليجدوا مكاناً يسهرون فيه على الميت.

مرور الموت من البيت جاء بالحل. فما إن احرقت فيرمينا داثا ملابس زوجها، حتى لاحظت أن نبضها لم يرتعش، فتابعت بالنبض ذاته إيقاد المحرقة بين فترة وأخرى، ملقية إليها بكل شيء، القديم والجديد، من دون ان تفكر بحسد الأغنياء ولا بآلام الفقراء الذين يموتون جوعاً. ثم أمرت أخيراً بقلع شجرة المانغا من جذورها حتى لا يبقى أي أثر من آثار المحنة، وأهدت الببغاء حيّة إلى متحف المدينة الجديد. وعندئذ فقط تنفست حسب رغبتها في بيت كالبيت الذي حلمت به دوماً: فسيح وبسيط ولها وحدها.

أقامت ابنتها أوفيليا معها ثلاثة شهور ثم رجعت إلى نيوأورليانز. وكان الابن يأتي مع أسرته لتناول غداء عائلي أيام الآحاد، وكلما أُتيح له ذلك خلال أيام الأسبوع. وبدأت صديقات فيرمينا داثا المقربات يزُرنها بعد اجتيازها أزمة الحداد، ويلعبن معها الورق مقابل الفناء المقفر، ويجرّبن إعداد أصناف جديدة من الطعام، ويطلعنها على أخبار الحياة الخفية للعالم الجشع الذي ما زال قائماً من دونها. ومن أكثرهن مواظبة على زيارتها كانت لوكريثيا دل ريال دل أوبيسبو، وهي أرستقراطية على الطريقة القديمة، كانت تربطها بها صداقة متينة من قبل، وقد تقرّبت منها أكثر بعد وفاة خوفينال أوربينو. ولم تكن لوكريثيا دل ريال المخدّرة بالتهاب المفاصل والساخطة على حياتها السيئة، خير رفيقة لها وحسب، بل إنها كانت تستشيرها حول المشاريع التمدنية والدنيوية التي يجري الإعداد لها في المدينة، ممّا يجعلها تشعر بقيمتها لنفسها وليس لظل زوجها الحامي، رغم أنها لم ترتبط به أبداً كارتباطها به حينئذ، فقد نزعوا عنها اسمها الذي كانوا ينادونها به دوماً، لتصبح أرملة أوربينو.

لم تكن فيرمينا داثا قادرة على تصوّر الأمر، لكنها كلما اقتربت من الذكرى الأولى لوفاة زوجها، كانت تشعر بأنها تلجُ عالماً ظليلاً ورطباً وساكناً: إنها الأيكة التي لا مخرج منها. لم تكن واعية حينئذ، كما لن تعي لعدة سنوات، كم ساعدتها التأملات التي كان يكتبها فلورينتينو أريثا على استعادة سلامها الروحي. فالرسائل، بمطابقتها مع تجاربها، هي التي أتاحت لها فهم حياتها بالذات، وأعانتها على انتظار تقدّم الشيخوخة باطمئنان وهدوء. وقد كان اللقاء في ذكرى وفاة الزوج فرصة دبّرتها العناية الإلهية لإفهام فلورينتينو أريثا بأنها هي أيضاً، وبفضل رسائله المشجعة، كانت مستعدة لمحو الماضي.

بعد يومين من ذلك، تلقت منه رسالة مختلفة: مكتوبة بخط اليد على ورق مسطر، واسمه الكامل موضّح على المغلف. كان الخط هو خط رسائل الشباب الأولى نفسه، والعبارات الغنائية نفسها، مسبوكة في مقطع شكر بسيط لاهتمامها بمصافحته في الكاتدرائية. وقد ظلت فيرمينا داثا تفكّر بها بحنين قلق بعد عدّة أيام من قراءتها، حتى أنها سألت لوكريثيا دل ريال دل أوبيسبو، من دون أي مناسبة، إذا ما كانت تعرف فلورينتينو أريثا، صاحب السفن النهرية. وأجابت لوكريثيا أن نعم: «يبدو أنه شاذّ ضائع». وأعادت سرد الرواية المتداولة بأنه لم يعرف امرأة أبداً رغم انطلاقته الطيبة، وأن له مكتباً سرياً يأخذ إليه الصبية الذين يلاحقهم ليلاً على أرصفة الميناء. كانت فيرمينا داثا قد سمعت هذه الأسطورة منذ أمد بعيد، ولكنها لم تصدقها يوماً ولم تُولِها أي اهتمام. أما حين سمعت لوكريثيا دل ريال دال أوبيسبو، التي أشيع عنها يوماً أنها ذات أمزجة غريبة، ترددها بهذه القناعة، لم تستطع مقاومة رغبتها بوضع الأمور في نصابها. فروت لها بأنها كانت تعرف فلورينتينو أريثا منذ الصغر. وذكرتها بأن أمه كانت تملك دكاناً لأدوات الخياطة في شارع لاس فينتاناس، وأنها كانت تشتري كذلك القمصان والشراشف القديمة لتنسل خيوطها

وتبيعها كقطن طوارئ أثناء الحروب الأهلية. وختمت حديثها بقول صحيح: «إنه رجل شريف، كوّن نفسه بنفسه». كانت محتدة إلى حد دفع لوكريثيا لأن تسحب ما قالته: «ثم إنهم في آخر المطاف يقولون عني أنا أشياء مشابهة». لم يكن لدى فيرمينا داثا فضول لتسألها عن تلك الأشياء، لأنها كانت تقوم بدفاع مؤثر عن رجل لم يكن أكثر من ظل في حياتها. تابعت التفكير فيه، وخصوصاً حين كانت تصلها رسالة منه. وبعد مضي أسبوعين، أيقظتها إحدى الخادمات من قيلولتها لتهمس لها منذرة:

- سيدتي، ها هو دون فلورينتينو هنا.

ها هو هنا. كان ردّ فعل فيرمينا داثا الأول صدمة ذعر. وفكرت أن لا، فليرجع في يوم آخر، وأنها ليست قادرة على استقباله، وأنه ليس لديها ما تتحدث به معه. لكنها استردت أنفاسها في الحال، وأمرت بادخاله إلى الصالون، وتقديم القهوة له ريثما تستعدّ لمقابلته. كان فلورينتينو أريثا ينتظر عند الباب الخارجي، متقداً تحت شمس الساعة الثالثة الجهنمية، ولكنه كان مسيطراً تماماً على أعصابه وممسكاً الأعِنّة بقبضته. فهو موقن من أنها ستعتذر اعتذاراً لطيفاً عن استقباله، وكان يقينه هذا يمنحه الطمأنينة. لكن القرار الذي نُقل إليه هزّه حتى النخاع، وعند دخوله إلى عتمة الصالة الرطبة، لم يتّسع له الوقت للتفكير بالمعجزة التي يعيشها، لأن أحشاءه امتلأت فجأة بانفجار رغوة مؤلمة. جلس حابساً أنفاسه، تحاصره ذكرى ذرق العصفور المشؤوم على رسالته الغرامية الأولى، وبقي متجمداً في العتمة ريثما تفارقه القشعريرة، مستعداً لتقبّل أي نكبة قد تلحق به في هذه اللحظة، باستثناء تلك المحنة الظالمة.

لقد كان يعرف نفسه جيداً؛ ويعلم أنه رغم إصابته بالإمساك المزمن، إلا أن إمعاءه قد خانته في أماكن عامّة ثلاث أو أربع مرّات خلال حياته الطويلة، ولم يجد بداً من الاستسلام لجسده في تلك المرّات الثلاث أو الأربع. وكان يرى في هذه المناسبات فقط، وفي مناسبات أخرى شديدة

الحَرَج، حقيقة العبارة التي يحب ترديدها مازحاً: «أنا لا أؤمن بالرب، ولكنني أخشاه». ولم يكن له حينئذ متسع للشك، فحاول تلاوة أي صلاة يذكرها، لكنه لم يجد شيئاً في ذاكرته. لقد علمه زميل له، حين كان طفلاً، بضع كلمات سحرية لإصابة العصافير بحجر «تك تاك تك تاك، إن لم أصبك سأدوّخك». وقد جرّبها حين ذهب إلى الجبل أوّل مرّة حاملاً مقلاعاً جديداً، فهوى العصفور مصعوقاً. وأعاد العبارة بحرارة كحرارة الصلاة، لكنه لم يصل إلى النتيجة ذاتها. ثارت أحشاؤه بحركة ملتوية وكأن فيها محوراً محلزناً رفعه عن مقعده، وانبعثت قرقرة من رغوة بطنه المتعاظمة الكثافة والألم، تركته مغطى بعرق مثلج. ارتعدت الخادمة التي حملت إليه القهوة لسيماء الميت التي بدت عليه. فتنهد قائلاً: «إنه الحر». فتحت النافذة معتقدة أنها تُسعده بذلك، لكن شمس الأصيل لفحت وجهه، ممّا اضطرها لإغلاقها من جديد. أحس بأنه عاجز عن الاحتمال لدقيقة أخرى، حين ظهرت فيرمينا داثا وهي لا تكاد تُرى في العتمة، وارتعدت لرؤيته على تلك الحال، فقالت له:

- يمكنك خلع السترة.

لكن ما كان يؤلمه أكثر من التواءات المغص القاتلة هو خوفه من أن تتمكن من سماع قرقرة أحشائه. واستطاع الصمود للحظة قال فيها أن لا، وأنه إنما جاء ليسأل متى يمكنها استقباله فقط. فقالت وهي لا تزال واقفة وقد أصابها الذهول: «ها أنتذا هنا». ودعته للدخول إلى شرفة الفناء حيث الحر أقل. فرفض بصوت بدا لها وكأنه تنهيدة أسف:

- أرجوكِ أن تؤجلي اللقاء ليوم غد.

تذكرت أن يوم غد هو الخميس، يوم الزيارة المنتظمة للوكريثيا دل ريال دل أوبيسبو، لكنها عرضت له حلاً نهائياً: «بعد الساعة الخامسة». شكرها فلورينتينو أريثا، وأشار لها بحركة وداع متعجلة بقبّعته، وانصرف من دون أن يتذوّق القهوة. بقيت حائرة في وسط الصالة، من دون أن

تفهم ما الذي حدث، إلى أن سمعت فرقعة السيارة في الشارع. بحث فلورينتينو أريثا حينئذ عن الوضع الأقل ألماً في مقعد السيارة الخلفي، وأغمض عينيه وأرخى عضلاته، واستسلم لمشيئة الجسد. وأحس حينئذ وكأنه يولد من جديد. أما السائق، الذي لم يعد يُفاجَأ بشيء بعد عمله لسنوات طويلة في خدمته، فقد حافظ على عدم تأثره. لكنه حين فتح باب السيارة أمام البيت، قال له:

- حذار يا دون فلورو، قد تكون الكوليرا.

لكن الأمر كان كالمعتاد. ولقد حمد فلورينتينو أريثا الله يوم الجمعة في الساعة الخامسة تماماً، حين قادته الخادمة عبر الصالة المظلمة إلى شرفة الفناء، ووجد فيرمينا داثا جالسة وراء منضدة معدّة لشخصين. عرضت عليه أن يتناول الشاي أو الشوكولاته أو القهوة، فطلب فلورينتينو أريثا قهوة، ساخنة جداً وقوية جداً. وأمرت هي الخادمة قائلة: «ولي الشراب المعتاد». الشراب المعتاد هو شراب قويّ محضّر من تشكيلة متنوعة من الشاي الشرقي، يساعدها في رفع معنوياتها بعد القيلولة. حين انتهت من تناول إبريق الشاي، وانتهى هو من إبريق القهوة، كانا قد خاضا واجتازا عدّة موضوعات، ليس لأنها كانت تهمها كثيراً، وإنما لتجنب الدخول في المسائل الأخرى التي لم يكن أي منهما ليتجرّأ على ملامستها. كلاهما كان مرتعداً، لا يعرف ما الذي يفعلانه بعيداً عن شبابهما، على شرفةٍ بلاطها كرقعة الشطرنج، في بيت ليس ملكهما ولا يزال يعبق برائحة أزهار الميت. إنهما يجلسان معاً للمرة الأولى، لا تفصل بينهما سوى هذه المسافة الضيّقة، ولديهما فائض من الوقت لبرى كل منهما الآخر بهدوء، بعد نصف قرن من الانتظار. ولقد رأى كل منهما الآخر كما هما: عجوزان يترصّدهما الموت، لا يجمعهما شيء سوى ذكرى ماضٍ غابرٍ لم يعد ملكاً لهما وإنما لشابين مختفيين كان يمكن

أن يكونا حفيديهما. وفكرت بأنه سيقتنع أخيراً بعدم واقعية حلمه، وهذا سيخلّصه من سفاهته.

وللحيلولة دون لحظات صمت غير مريحة أو أحاديث غير مرغوبة، وجهت إليه أسئلة محددة حول السفن النهرية. ولم تكد تصدق أنه هو، صاحب السفن، لم يسافر فيها إلّا مرّة واحدة، منذ سنوات بعيدة، حين لم تكن له أيّ علاقة بالشركة. ولم تكن هي تعرف النهر أيضاً. إذ إن زوجها كان يمقت الأهواء الأنديزية، ويعلل ذلك بذرائع متنوعة: مخاطر الارتفاعات على القلب، المخاطرة بالإصابة بذات الرئة، نفاق الناس. وهكذا كانا يعرفان نصف العالم ولكنهما لا يعرفان بلدهما. كانت هناك يومئذ طائرة مائية من نوع جنكرز تنطلق من قرية إلى قرية في حوض نهر مجدلينا، كجرادة من الألمنيوم. تتسع لطاقمها المؤلف من شخصين، ولستة مسافرين إضافة إلى أكياس البريد. وقد علق فلورينتينو أريثا قائلاً: «إنها أشبه بتابوت طائر في الجو». وكانت هي قد شاركت في الرحلة الأولى بالمنطاد، ولم تعاني أي صعوبة، ولكنها لا تكاد تصدّق اليوم أنها هي نفسها من تجرّأت على تلك المغامرة، وقالت: «الأمر مختلف». تعني بذلك أنها هي التي تغيّرت، وليس أساليب السفر.

كان أزيز الطائرات يفاجئها أحياناً. فمع أنها رأتها تمر على ارتفاع منخفض، وتقوم بمناورات بهلوانية، في الاحتفال بالذكرى المئوية لموت بطل التحرير، ورغم أنها رأت إحدى تلك الطائرات، سوداء مثل طائر رخمة عظيم، وهي تلامس أسطح بيوت لامانغا، مخلّفة جزءاً من جناحها عالقاً بشجرة مجاورة، قبل أن يبقى هيكلها معلقاً بأسلاك الكهرباء، إلا أن فيرمينا داثا لم تستوعب مع ذلك حقيقة وجود الطائرات. بل إنها لم تشعر بالفضول في السنوات الأخيرة للذهاب إلى خليج مانثانييو، حيث كانت تطير الطائرات المائية بعد أن تقوم زوارق خفر

السواحل بإبعاد مراكب الصيادين، وزوراق اللهو التي كانت أعدادها في ازدياد. وقد اختاروها وهي عجوز بهذه الحالة، لاستقبال تشالز ليندبيرغ بباقة زهور حين جاء بطائرته في رحلة نوايا حميدة، ولم تستطع أن تفهم كيف كان لرجل بهذه الضخامة، وهذه الشقرة، وهذا الجمال أن يرتفع في الجو بجهاز يبدو وكأنه من الصفيح المجعَّد، يقوم ميكانيكيا بدفعه من ذيله لمساعدته على الصعود. ولم يكن رأسها ليتسع لفكرة وجود طائرات أكبر من تلك بقليل تتسع لثمانية أشخاص. بينما سمعت بالمقابل أن السفن النهرية هي متعة خالصة لأنها لا تتأرجح كسفن البحر. ولكن لهذه السفن مخاطرها الأقسى، كاصطدامها بالمصاطب الرملية في قاع النهر، وتعرّضها لهجمات قطّاع الطرق.

وبيّن لها فلورينتينو أريثا أن هذه ليست إلا أساطير من أزمنة غابرة: ففي السفن الحالية صالة رقص، وقمرات واسعة وفخمة كأنها غرف الفنادق، مزوّدة بحمّامات خاصة ومراوح كهربائية. كما أنه لم يحدث أي هجوم مسلح على السفن النهرية منذ انتهاء الحرب الأهلية الأخيرة. وبيّن لها كذلك، بسعادة من حقق نصراً شخصياً، أن هذا التقدّم يعود قبل كل شيء إلى حرية الملاحة التي دعا إليها هو، ممّا شجّع المنافسة: فبدلاً من شركة واحدة وحيدة، كما كان الحال من قبل، أصبحت هناك ثلاث شركات نشيطة ومزدهرة. ومع ذلك فإن تقدّم الطيران السريع يُشكل خطراً حقيقياً على الجميع. حاولت مواساته: فالسفن ستبقى دائماً، لأن المجانين المستعدين لحشر أنفسهم في جهاز يبدو مناقضاً للطبيعة ليسوا كثيرين. وأخيراً تحدث فلورينتينو أريثا عن التقدّم الذي أحرزه البريد، سواء في أساليب نقله أو توزيعه، آملاً بذلك أن تحدثه عن رسائله. لكنه لم يتوصل لما أراد.

وجاءت الفرصة بعد قليل وحدها. كانا قد ابتعدا كثيراً عن الموضوع، حين قاطعتهما إحدى الخادمات لتسلم فيرمينا داثا رسالة تلقتها حينئذ

من البريد المديني الخاص، الذي أُنشئ مؤخراً، وكان يستخدم في توزيع الرسائل أسلوب توزيع البرقيات ذاته. ولم تجد هي نظّارة القراءة، كما يحدث معها دائماً. فقال لها فلورينتينو أريثا برزانة:

- لا لزوم لذلك. فهذه الرسالة منّي.

وكانت كذلك فعلاً. لقد كتبها في اليوم السابق، وهو يُعاني حالة انقباض رهيبة لأنه لم يستطع تناسي خجله من زيارته الأولى الفاشلة. وكان يعتذر في تلك الرسالة عن سفاهته بالإقدام على زيارتها من دون إذن مسبق، ويبدي تخليه عن نيّة العودة لزيارتها. لقد ألقاها في صندوق البريد من دون أن يفكّر مرتين، وحين تروّى بالأمر كان الوقت قد فات لاستردادها. لكن هذه الشروحات كلها لم تبد له ضرورية، فاكتفى بالطلب إلى فيرمينا داثا أن تتفضل بعدم قراءة الرسالة.

فقالت:

- طبعاً. فالرسائل في نهاية المطاف هي ملك لمن كتبها. أليس كذلك؟

فخطا خطوة واثقة بقوله:

- أجل. ولذا فإنها أوّل شيء يُعاد عند وقوع القطيعة.

مرّت على إشارته من دون اهتمام، وأعادت له الرسالة قائلة:

- من المؤسف أنني لن أستطيع قراءتها، فقد كانت الرسائل الأخرى ذات نفع كبير لي.

أخذ نفساً عميقاً عندما فوجئ بأنها قالت بشكل عفوي أكثر بكثير ممّا كان ينتظره منها، وقال:

- لا يمكنك أن تتصوّري مدى سعادتي بمعرفة ذلك.

لكنها غيّرت الموضوع، ولم يتمكن من العودة إليه ثانية في بقية المساء.

ودّعها بعد الساعة السادسة، حين بدأوا يضيئون أنوار البيت. كان

يشعر بثقة أكبر، ولكنها ثقة بلا أوهام، لأنه لم ينس طبع فيرمينا داثا المتقلب وردود فعلها المفاجئة حين كانت في العشرين، ولم يكن لديه من الأسباب ما يدفعه للتفكير بأنها قد تغيّرت. ولهذا تجرّأ على سؤالها بمذلة صريحة إن كان يستطيع العودة في يوم آخر، وجاء الجواب ليفاجئه مجدداً.

- عد متى شئت. فأنا وحيدة في أغلب الأحيان.

بعد أربعة أيام، أي يوم الثلاثاء، عاد من دون إشعار مسبق، ولم تنتظر هي أن يقدموا لهما الشاي لتحدثه عن مدى النفع الذي أصابته من رسائله. فقال لها إنها ليست رسائل بالمعنى الدقيق للكلمة، وإنما هي أوراق متفرقة من كتاب كان يتمنى تأليفه. وكانت هي قد فهمت الرسائل على هذا النحو أيضاً، حتى أنها فكرت بإعادتها إليه، إذا هو لم يرَ ذلك على أنه صدّ من جانبها، كي يوصل تلك الرسائل إلى مصير أفضل. تابعت الحديث عن الدور الطيّب الذي قدمته لها الرسائل في لحظة قاسية من حياتها، وكانت تقول ذلك باندفاع شديد، وعرفان بالجميل شديد، وربّما بعاطفة شديدة أيضاً، ممّا جعل فلورينتينو أريثا يتجرّأ على التقدّم بأكثر من خطوة واثقة، إذ إنه قفز قفزة قاتلة بقوله:

- لقد كنا نتخاطب من دون كلفة من قبل.

كانت كلمة من قبل كلمة محرَّمة. وأحسّت بمرور ملاك الماضي الوهمي، وحاولت تفاديه. لكنه توغل أكثر:

- أعني في رسائلنا التي تبادلناها من قبل.

استاءت، وكان عليها القيام بمجهود جدّي كي تخفي استياءها. لكنه انتبه للأمر، وأدرك أن عليه التقدّم بحذر، وتلمّس مواقع أقدامه جيداً، رغم أن العثرة أطلعته على أنها ما زالت على شراستها التي كانت عليها في شبابها، لكنها تعلمت أن تكون شرسة برقّة. قال:

– أعني أن هذه الرسائل هي شيء آخر مختلف تماماً.

فقالت:

– كل شيء في الدنيا يتغيّر.

وقال:

– أنا لم أتغيّر. وحضرتكِ؟

أوقفت فنجان الشاي في منتصف الطريق إلى فمها، وزجرته بعينين استمرتا تلمعان بالحياة رغم القسوة. وقالت:

– لقد صار الأمر سيّان. فقد أكملت اثنتين وسبعين سنة.

تلقى فلورينتينو أريثا الطعنة في القلب. وودّ العثور على جواب سريع كسرعة السهم وتلقائيته، لكن ثقل السن هزمه: لم يشعر أبداً بمثل هذا الإرهاق في محادثة قصيرة كهذه. كان قلبه يؤلمه، وكانت كل ضربة منه ترتد دوياً معدنياً في شرايينه. أحس بأنه شيخ، حزين، عديم النفع، وراودته رغبة ملحة في البكاء حتى لم يعد قادراً على البكاء. تناولا فنجان الشاي الثاني بصمت ثلمته الخواطر المنذرة، وحين عادت هي للتكلم، فعلت ذلك بأن توجهت إلى إحدى الخادمات طالبة منها إحضار حقيبة الرسائل. كاد أن يطلب منها الاحتفاظ بالرسائل، لأن لديه نسخة كربون منها، لكنه فكر بأن كشفه عن اتخاذه مثل هذا الاحتياط سيبدو عملاً غير نبيل. ولم يعد لديهما ما يتحدثان فيه. وقبل أن يودعها، اقترح أن يعود يوم الثلاثاء التالي في الساعة نفسها. فسألته لماذا عليه أن يكون متلطفاً إلى هذا الحدّ.

وقالت:

– لا أرى من معنى لهذه الزيارات.

فقال:

– أنا لم أفكّر بأن يكون لها أي معنى.

وعاد على أي حال في يوم الثلاثاء التالي، في الساعة الخامسة، ثم في جميع أيام الثلاثاء التالية، من دون إعلان مسبق، لأن الزيارة الاسبوعية دخلت في روتين كل منهما اعتباراً من نهاية الشهر الثاني. كان فلورينتينو أريثا يأتي حاملاً معه البسكويت الإنكليزي لتناوله مع الشاي، والكستناء الملبس بالسكر، والزيتون اليوناني، وغيرها من لذائذ الصالونات الصغيرة التي يجدها في عابرات المحيطات التي تتوقف في الميناء. وفي أحد أيام الثلاثاء جاءها بصورتها الفوتوغرافية مع هيلديبراندا، التي التقطها لهما مصوّر بلجيكي منذ أكثر من نصف قرن، وكان قد اشتراها بخمسة عشر سنتافو من مزاد بطاقات بريدية في بوابة الكتبة العموميين. لم تستطع فيرمينا داثا أن تفهم كيف وصلت الصورة إلى هناك، كما لم يستطع هو فهم الأمر إلّا على أنه معجزة غرامية. وفي أحد الأيام، وبينما كان فلورينتينو أريثا يقطف وروداً من حديقته، لم يستطع مقاومة إغراء حمل وردة إليها في زيارته التالية. وكانت تلك مشكلة عويصة في لغة الزهور، لأنها تتعلق بأرملة حديثة الترمّل. فوردة حمراء، التي ترمز إلى العاطفة المتأججة، قد تعتبر إهانة لحدادها. أما الوردة الصفراء التي ترى فيها إحدى لغات الزهور رمزاً لحسن الطالع، فهي في العرف الشائع تعبير عن الغيرة، ورغم أنه سمع يوماً عن ورود تركيا السوداء، التي قد تكون الأكثر ملاءمة، إلا أنه لم يستطع الحصول عليها ليؤقلمها مع الجو في حديقة بيته. لكنه غامر بعد تفكير طويل بحمل وردة بيضاء، كان إعجابه بها أقل من إعجابه بالزهور الأخرى، لأنها بكماء لا تعني شيئاً. ولخوفه من أن يجد خبثُ فيرمينا داثا معنى لها، قام بتقليم أشواكها في اللحظة الأخيرة.

وجدت الوردة لديها صدى طيباً، على أنها هدية بلا أية نوايا خفية. ممّا أثرى تقليد الثلاثاء بطقس جديد، حتى أنه أصبح يجد مزهرية مملوءة بالماء في وسط طاولة الشاي الصغيرة لدى وصوله حاملاً الوردة

البيضاء. وفي أحد أيام الثلاثاء، وبينما هو يضع الوردة، قال بطريقة بدت عرضية:

- لم يكن أحد يهدي وروداً في زماننا، بل كانوا يتبادلون أزهار الياسمين.

- هذا صحيح ولكن الغرض منها كان مختلفاً كما تعلم حضرتك.

هذا ما كان يحدث دوماً: فكلما حاول التقدّم خطوة قطعت عليه الطريق. لكنه في هذه المناسبة، ورغم الجواب الدقيق، أدرك أنه قد أصاب الهدف، لأنها اضطرت للالتفات جانباً كي تخفي تورّد خديها. كان توردا متقداً، فتياً، له حياته الخاصة، ممّا أثار سخطها ضد نفسها. وقد أحسن فلورينتينو أريثا صنعاً بالانصراف إلى موضوعات أقل فظاظة، لكن شهامته كانت بيّنة بحيث إنها انتبهت إليها، وضاعف هذا من سخطها. كان يوم ثلاثاء نحس. فقد كادت أن تطلب منه عدم الرجوع لزيارتها، ولكن فكرة الخوض في خصام كخصومات فترة الخطوبة، بدت لها مضحكة وهما في هذه السن وهذا الوضع، ممّا سبّب لها نوبة ضحك. وبينما كان فلورينتينو أريثا يضع الوردة في المزهرية يوم الثلاثاء التالي، أمعنت التأمل في وعيها وتأكدت، بسعادة، بأنه لم يبقَ لديها أدنى أثر للغضب الذي اعتراها في الأسبوع السابق.

وسرعان ما بدأت الزيارات تتخذ بعداً عائلياً غير مريح، إذ صار ابنها، الدكتور أوربينو داثا وزوجته، يحضران أحياناً بشكل يبدو وكأنه مصادفة، ويبقيان هناك للعب الورق، لكن فيرمينا داثا علمته ذلك خلال زيارة واحدة؛ وبعثا كلاهما إلى الزوجين أوربينو داثا بتحدٍ مكتوب للقاء في لعبة ورق يوم الثلاثاء التالي. كانت لقاءات مفرحة للجميع، سرعان ما اتخذت طابعاً منتظماً كالزيارات، وأقرّت لها أعراف بأن يأتي كل منهم بشيء معه في كل لقاء. فالدكتور أوربينو داثا وزوجته التي كانت حلوانية بارعة، يساهمان باحضار قوالب حلوى متقَنة الصنع، وذات

طعم مختلف في كل مرّة، أما فلورينتينو أريثا فتابع إحضار طرائف مثيرة للفضول يجدها في السفن الأوروبية، بينما كانت فيرمينا داثا تبتدع لهم كل أسبوع مفاجأة جديدة، وكانت مباريات لعب الورق هذه تجري في الثلاثاء الثالث من كل شهر، وبالرغم من أنهم ما كانوا يتراهنون على نقود، إلا أنه كان يُفرض على الخاسر المساهمة باحضار شيء خاص للمباراة التالية.

كانت طبيعة الدكتور أوربينو داثا منسجمة مع صورته الاجتماعية: فهو رجل ذو إمكانيات ضئيلة وأساليب مضطربة، يُعاني من نوبات قلق مفاجئة مبعثها السعادة أو السخط على حدّ سواء، كما كان وجهه يتورّد بلا مناسبة ممّا يثير المخاوف حول متانته الذهنية. لكنه كان بلا شك، وكما يبدو عليه من النظرة الأولى، رجلاً طيباً. وقد كان فلورينتينو أريثا يخشى أن يعتبره الدكتور كذلك أيضاً. أما زوجته فكانت ذكية وفيها شرارة امرأة لعوب، كما كانت تقدم بانسجامها وتوافقها لمسة أكثر إنسانية إلى سعادتها. ولم يكن لفلورينتينو أريثا أن يتمنى زوجين أفضل منهما للعب الورق، ثم إن حاجته للحب التي لا ترتوي، تُوِّجت أخيراً بإحساس أنه في وسط عائلي.

في إحدى الليالي، وعند خروجهما معاً من البيت، دعاه الدكتور أوربينو داثا لتناول الغداء معه:

– غداً، الساعة الثانية عشرة والنصف، في النادي الاجتماعي.

وكانت وليمة لذيذة مع نبيذ فاخر. كان النادي الاجتماعي يحتفظ لنفسه بحق عدم السماح بالدخول لأسباب متنوعة، وأحد أهم هذه الأسباب هو حالة الابن الطبيعي الذي لا أب له. ولقد كانت للعم ليون الثاني عشر تجربة مثيرة في هذا المجال، كما عانى فلورينتينو أريثا نفسه عار إخراجه من النادي يوماً بعد جلوسه إلى الطاولة بدعوة من أحد

الأعضاء المؤسّسين، كان فلورينتينو أريثا قد قدّم له خدمات كبيرة في مجال التجارة النهرية، وما أمكن الداعي إلّا أن يصطحبه لتناول الطعام في مكان آخر، قائلاً له:

- علينا نحن الذين نضع الأنظمة، أن نكون أوّل من يطبقها.

لكن فلورينتينو أريثا غامر رغم ذلك بالذهاب مع الدكتور أوربينو داثا، وقد استُقبل هناك استقبالاً خاصاً، رغم أنهم لم يطلبوا منه التوقيع في السجل الذهبي المخصَّص للمدعوين البارزين. كانت دعوة محدودة، اقتصرت عليهما فقط، ودار الحديث بينهما بصوت منخفض. والمخاوف التي ساورت فلورينتينو أريثا منذ مساء اليوم السابق بشأن ذلك اللقاء، تلاشت مع تناولهما كأس من الأوبورتو الفاتح للشهية. كان الدكتور أوربينو داثا يود الحديث عن أمه. ولكثرة ما تحدث، انتبه فلورينتينو أريثا إلى أنها قد حدثته عنه. كما انتبه إلى شيء أكثر إثارة: لقد كذبت على ابنها لصالحه، إذ أخبرته بأنهما كانا صديقين منذ الطفولة، وكانا يلعبان معاً منذ قدومها من سان خوان دي لاثيناغا، وأنه هو الذي شجَّعها على قراءاتها الأولى، ولذا فهي مدينة له بجميل قديم. وقالت له كذلك إنها كثيراً ما كانت تذهب بعد خروجها من المدرسة لقضاء ساعات طويلة مع ترانسيتو أريثا البارعة التي كانت تطرّز أعمالاً رائعة في دكان أدوات الخياطة. وإذا كانت لم تعد تلتقي بفلورينتينو أريثا كما كانت تلتقيه في السابق، فليس لأنها غير راغبة في ذلك، وإنما لافتراق حياتيهما.

وقبل أن يصل إلى عمق أغراضه، جال الدكتور أوربينو داثا حول موضوع الشيخوخة. كان يرى أن العالم سيتقدم بسرعة أكبر لو أنه تخلص من عرقلة الشيوخ. قال: «إن الإنسانية كالجيوش في المعركة، تقدمها مرتبط بسرعة أبطأ أفرادها». وكان يأمل بمستقبل أكثر إنسانية، وبالتالي أكثر تحضّراً، تُعزل فيه الكائنات البشرية التي لم تعد قادرة

على الاعتماد على نفسها في مدن هامشية، كي تتجنّب عار وآلام وعزلة الشيخوخة المخيفة. وقال إن حدّ السن المناسب لذلك من وجهة نظره يمكن أن يكون ستين عاماً. ولكن ريثما يتم الوصول إلى هذا المستوى من الإحسان، فإن الحل الوحيد هو الملاجئ، حيث يتسنى للشيوخ أن يتسلوا بعضهم مع بعض، وأن يتفقوا على ما يحبون ويمقتون، وفي عاداتهم وأحزانهم، بعيداً عن الخلافات الطبيعية مع الأجيال التالية. وقال: «إن اجتماع الشيوخ مع الشيوخ يجعلهم أقل شيخوخة». حسناً إذاً: كان الدكتور أوربينو داثا يود شكر فلورينتينو أريثا على مرافقته الطيبة لأمه في وحدة الترمّل، ورجاه الاستمرار في ذلك لمصلحتهم معاً ولراحة الجميع، وطلب منه الصبر على مزاجها الشيخوخي. أحسّ فلورينتينو أريثا بالراحة لنتائج اللقاء، وقال له:

– كن مطمئناً. فأنا أكبر منها باربع سنوات، وهذا ليس الآن فقط، وإنما من قبل... قبل مولدك بكثير.

ثم استسلم لإغراء التخفيف عن نفسه بضربة تهكم، فاختتم قائلاً:

– في مجتمع المستقبل، عليك أن تذهب إلى المقبرة، لتحمل إليها وإليّ باقة من الأنتوريو من أجل الغداء.

لم يكن الدكتور أوربينو داثا قد لاحظ حتى ذلك الحين عدم لياقة نبوءته عن المستقبل، فدخل في متاهة من الشروحات لم تزده إلا تخبّطاً. لكن فلورينتينو أريثا ساعدهفي اللخروج من ورطته. كان مشرقاً، لأنه كان يعلم بأن عليه أن يلتقي عاجلاً أو آجلاً مع الدكتور أوربينو داثا في لقاء كهذا، لاستكمال شرط اجتماعي لا يمكن تجاوزه: طلب يد أمه رسمياً. وقد كان جو الغداء مشجّعاً، إذ بيّن له سهولة ذلك الطلب وحتمية الترحيب به. ولم تكن هناك فرصة أفضل من هذه، لو أنه كان حاصلاً على موافقة فيرمينا داثا. بل إن رسميات الطلب، بعد حديثهما خلال ذلك الغداء التاريخي، كانت تبدو فائضة عن الحاجة.

لقد اعتاد فلورينتينو أريثا صعود الأدراج ونزولها بحذر خاص، حتى حين كان شابّاً، فقد كان يفكّر دوماً بأن الشيخوخة إنما تبدأ بزلّة قدم أولى لا أهمية لها، ثم يتلوها الموت في الزلّة الثانية. وكان يرى أن أخطر الأدراج هو درج مكتبه، لأنه ضيّق وشبه منتصب. وقد اعتاد منذ زمن طويل، قبل أن يبدأ بجر قدميه بصعوبة، على صعوده متفحّصاً كل درجة من درجاته جيداً وممسكاً الدرابزين بكلتا يديه. ورغم أنهم كثراً ما اقترحوا عليه استبداله بدرج أقل خطورة، إلا أن قراره كان يتأجل إلى الشهر التالي دائماً، لأن استبداله كان يبدو له كإقرار بشيخوخته. وكان يحتاج لوقت أطول في الصعود كلما تقدمت به السن، ليس لأنه كان يتكلف مشقة أكبر، كما يدَّعي هو بإصرار، بل لأنه كان يضاعف من حذَره في كل مرّة. ومع ذلك، فإنه بعد عودته من الغداء مع الدكتور أوربينو داثا، وبعد كأس الأوبورتو الذي تناوله قبل الطعام ونصف كأس النبيذ الأحمر مع الطعام، وبعد تلك المحادثة الظافرة خصوصاً، حاول الوصول إلى الدرجة الثالثة بخطوة كخطوات راقص شاب ما تسبب بلَيّ كاحله الأيسر وجعله يهوي على ظهره، وينجو من الموت بأعجوبة. لقد كان يتمتع في لحظة وقوعه بوعي كافٍ ليفكر بأنه لن يموت في تلك العثرة، لأن منطق الحياة لا يسمح لرجلين تدلّها لسنوات طويلة في حب المرأة ذاتها، بأن يموتا بالطريقة نفسها وبفارق سنة واحدة بينهما. وكان محقاً. لفّوا ساقه من القدم وحتى ربلة الساق وأجبروه على البقاء في السرير من دون حراك، لكنه كان حياً أكثر ممّا كان عليه قبل الوقوع. وعندما أمره الطبيب بالبقاء ثابتاً لمدة ستين يوماً، لم يستطع أن يصدق كل هذه التعاسة، فقال له متوسلاً:

– لا تفعل بي هذا يا دكتور. إن شهرين من حياتي هما كعشر سنوات من حياتك أنت.

وحاول أن ينهض عدّة مرّات، حاملاً ساقه التي كالتمثال بكلتا يديه،

فكان الواقع يهزمه دوماً. لكنه حين عاد للمشي أخيراً وكاحله لا يزال يؤلمه، وظهره مسلوخ من النوم الطويل في الفراش، كانت لديه أسباب كافية للاعتقاد بأن القَدَر قد كافأ إصراره بزلّة من العناية الإلهية.

أسوأ أيام مرضه كان يوم الاثنين الأول. كان الألم قد تراجع، وكان التشخيص الطبي مشجعاً، إلا أنه كان يرفض الرضوخ لنكبة عدم رؤية فيرمينا داثا مساء اليوم التالي، لأوّل مرّة منذ أربعة أشهر. ولكنه بعد قيلولة إذعان، أخضع نفسه للواقع وكتب لها بطاقة اعتذار. كتبها بخط يده على ورق معطر وبحبر فوسفوري لتقرأها في الظلام، وبالغ في مأساويته حيال خطورة الحادث من دون خجل، محاولاً استنهاض عطفها. وردّت عليه بعد يومين، متأثرة جداً، ولطيفة جداً ولكن من دون كلمة واحدة خارج الحدود، مثلما كانت في أيام الحب العظيمة. وتشبث بالفرصة فوراً ليكتب إليها ثانية. وحين ردّت عليه للمرة الثانية، قرّر المضي أبعد ممّا كانت عليه أحاديثهما الملغزة أيام الثلاثاء، فأمر بوضع هاتف إلى جوار السرير بحجة أنه يريد متابعة سير العمل اليومي في الشركة. وطلب من مقسم الهاتف المركزي أن يصلوه بالرقم الثلاثي الذي حفظه في ذاكرته منذ اتصل بها أوّل مرّة. سمع صوت الجرس الخافت، المتوتر بغموض البعيد، ثم الصوت المحبوب يردّ، وتعرفت هي على الصوت الآخر فودّعته بعد ثلاث عبارات عادية حول الصحة. أحسّ فلورينتينو أريثا بالغَمّ لهذه اللامبالاة، ورأى أنه يعود إلى نقطة البداية من جديد.

لكنه تلقى بعد يومين رسالة من فيرمينا ترجوه فيها ألّا يتصل بالهاتف ثانية. وكانت أسبابها وجيهة. فقد كان عدد الهواتف في المدينة محدود جداً، وكانت المكالمات تتم عبر عاملة مقسم تعرف جميع المشتركين، وحياتهم ومعجزاتهم، وليس مهماً إذا هم كانوا خارج البيت: فهي تجدهم حيث يكونون. ومقابل هذه الفعالية، كانت تتنصت إلى المحادثات، وتكتشف أسرار الحياة الخاصة، والمآسي المحفوظة

بتكتم، ولم يكن غريباً عليها أن تتدخل في حوار دائر لتدلي بوجهة نظرها أو لتخفّف من حدّة الغضب. كما كانت قد تأسست في تلك الأيام أيضاً جريدة العدالة، وهي صحيفة مسائية هدفها الوحيد انتقاد العائلات ذات الألقاب الكبيرة، بالاسم الصريح وبلا أية اعتبارات، كردّ من صاحب الجريدة على عدم قبول أبنائه كأعضاء في النادي الاجتماعي. ورغم نظافة حياتها، فقد كانت فيرمينا داثا تلتزم جانب الحذر حينئذ أكثر من أي وقت مضى في كل ما تقوله أو تفعله، حتى مع أصدقائها المقرّبين. وهكذا بقيت مرتبطة مع فلورينتينو أريثا بخيط الرسائل البائد. وأصبح تبادل الرسائل ما بينهما كثيفاً إلى حدّ جعله ينسى ساقه المصابة، وعقوبة البقاء في السرير، وكل شيء آخر، ويكرّس نفسه تماماً للكتابة على طاولة متنقلة كتلك المستخدمة في المشافي لتقديم الطعام للمرضى.

رفعا الكلفة بينهما من جديد، وعادا لتبادل الآراء حول حياتَيْهما كما كانا يفعلان في رسائلهما السابقة، لكن فلورينتينو أريثا حاول المضي ثانية بسرعة: كتب اسمها بوخز دبوس على وريقات زهرة كاميليا وبعثها في رسالة، وبعد يومين أعيدت إليه من دون أي تعليق. لم تستطع فيرمينا داثا منع ذلك: فالأمر كله كان يبدو لها كلعبة أطفال. وحين أصرّ فلورينتينو أريثا على استعادة ذكرى أمسيات الأشعار الكئيبة في حديقة البشارة، ومخابئ الرسائل في الطريق إلى المدرسة، ودروس التطريز تحت أشجار اللوز. وضعته في مكانه الطبيعي، وروحها تتألم، بسؤال بدا عرضياً وسط مجموعة أخرى من الأحاديث المطروقة:

- لماذا تصر على الحديث عن شيء لا وجود له؟.

ثم أنّبت في ما بعد عناده العقيم بعدم الرضوخ لشيخوخة طبيعية. وهذا هو حسب رأيها، سبب سقوطه وإحباطاته الدائمة في تذكر الماضي. لم تكن تفهم كيف يمكن لرجل قادر على صياغة الأفكار التي ساعدتها على تجاوز الترمّل، أن يورّط نفسه بتلك الطريقة الصبيانية حين

يحاول تطبيق أفكاره على حياته بالذات. فانقلبت الأدوار، وأصبحت هي حينئذ مَن حاولت تشجيعه ليرى المستقبل بعبارة لم يستطع فهمها في تسرّعه الطائش: **دع الزمن يمضِ وسنرى ما الذي يحمله**، إذ لم يكن في يوم من الأيام تلميذاً نجيباً كما كانت هي. إن قعوده الإجباري، ويقينه الذي كان يتضح أكثر فأكثر بتسرّب الزمن، ورغبته المجنونة في رؤيتها، أكدت له أن مخاوفه من الزلَل كانت أكثر إصابة ومأساوية ممّا توقعه. وبدأ يفكّر لأوّل مرّة بحقيقة الموت تفكيراً عقلانياً.

كانت ليونا كاسياني تساعده في الاستحمام واستبدال البيجاما مرّة كل يومين، وتضع له الحقن الشرجية، والمبولة، وكمادات البابونج على قروح ظهره، وتجري له المسّاجات بارشاد الطبيب كي لا يسبب له انعدام الحركة مشاكل أخرى أسوأ. وكانت تحل محلها في هذه المهمات يومَي السبت والأحد أميركا فيكونيا، التي كانت ستنهي دراستها كمعلمة في شهر كانون الأول من تلك السنة. وقد وعدها بايفادها في دورة عليا إلى ألاباما على نفقة الشركة النهرية، وذلك ليكمّ فم ضميره من جهة، وليتخلص من مواجهة تعنيفاتها التي لا تجد مناسبة لقولها، والتفسيرات التي يتوجب عليه أن يقدمها إليها من جهة أخرى. لم يتصوّر يوماً مدى معاناتها في ساعات أرقها في المدرسة الداخلية، وفي نهايات الأسبوع التي تقضيها بعيداً عنه، وفي حياتها من دونه، لأنه لم يتصوّر أبداً كم كانت تحبّه. وعلم من رسالة بعثتها إليه المدرسة أن الموقع الأول الذي كانت تحتله دوماً قد أصبح الأخير، وأنها على وشك الرسوب في الامتحانات النهائية. لكنه تناسى واجبه كوصيّ ولم يبلغ والديّ أميركا فيكونيا بالأمر، يمنعه إحساس بالذنب يحاول التخلص منه. كما أنه لم يبحث الأمر معها. وذلك لمخاوفه الراسخة من أنها ستحاول إلقاء جريرة فشلها عليه. وهكذا ترك الأمور على حالها. وأخذ يُؤجّل مشاكلها من دون أن يدري، على أمل أن يتكفل الموت بحلّها.

لم تصب المفاجأة المرأتين اللتين كانتا تسهران على العناية به فقط، بل إن فلورينتينو أريثا نفسه فوجئ بالتبدّل الذي طرأ عليه. فمنذ أقل من عشر سنوات، كان قد هاجم إحدى خادماته وراء السلم الرئيسي في بيته، وهي بملابسها وواقفة على قدميها، وتركها حُبلى في وقت أقصر ممّا يحتاجه ديك فيليبيني، وكان عليه أن يهديها بيتاً مفروشاً لتقسم أن الفاعل الذي لطخ شرفها هو صديق لها تخرج معه أيام الآحاد، لم يكن في الواقع قد قبّلها مجرّد قبلة، فقام أبوها وأعمامها، وهم من أمهر قاطعي القصب بالسيوف في موسم الحصاد، بإجباره على الزواج منها. ولم يكن يبدو على فلورينتينو أريثا أنه الرجل نفسه الذي تقلبه ظهراً وبطناً امرأتان كانتا حتى زمن لا يتجاوز بضعة شهور تجعلانه يرتعش حباً، فتدعكانه بالصابون من فوق ومن تحت، وتنشفانه بمناشف من قطن مصري وتدلّكانه في كل أجزاء جسده، من دون أن تفلت منه تنهيدة نشوة. وكان لكل منهما تفسيرها لفقدانه الرغبة. فليونا كاسياني تظن بأنها مقدمات الموت، بينما تعزو أميركا فيكونيا ذلك إلى منشأ خفي لا تستطيع إدراك كنهه. وكان هو وحده يعرف الحقيقة، ويعرف أن لها اسماً محدداً. لكن ذلك كان ظلماً على أي حال، فقد كانتا تعانيان وهما تخدمانه أكثر من معاناته هو الذي يتلقى أحسن الخدمات.

إن ثلاثة أيام ثلاثاء فقط كانت كافية لتدرك فيرمينا داثا مدى الفراغ الذي تركته زيارات فلورينتينو أريثا. كانت تقضي تلك الأيام مع صديقاتها المواظبات على زياراتها. وكانت لوكريثيا دل ريال دل أوبيسبو قد ذهبت إلى بنما لتنظر في أمر ألم أصاب سمعها ولم يعد يتوقف بأي ثمن، وعادت وهي مطمئنة جداً بعد شهر، ببوق تضعه في أذنها، لكن سمعها كان أخف ممّا كان عليه قبلاً. وكانت فيرمينا داثا هي الصديقة الأكثر تحمّلاً لاختلاط أسئلتها وإجاباتها، ممّا شجّع لوكريثيا

على زيارتها يومياً، وفي أي وقت يخطر لها. لكن فيرمينا داثا لم تجد في أحد تعويضاً عن أمسيات فلورينتينو أريثا المُسكّنة.

لم تكن ذكرى الماضي لتعوّض عن المستقبل، كما كان يظن. بل إنها على العكس من ذلك، كانت ترسخ قناعة فيرمينا داثا الدائمة في أن ذلك الهياج المحموم في العشرين من العمر إنما كان شيئاً نبيلاً وجميلاً جداً، لكنه ليس بالحب. ورغم صراحتها الفَجّة، فإنها لم تشأ أن تكشف له ذلك، سواء بالبريد أو شخصياً، كما لم تجد في قلبها متسَعاً لتقول له كم هو زائف رنين العواطف في رسائله بعدما عرفت آية تأملاته المكتوبة، وكيف تخفض أكاذيبه الغنائية من قيمته، وكم يضرّ به إصراره المجنون على استعادة الماضي. لا... لم يكن بإمكان أي سطر من سطور رسائله القديمة، ولا أية لحظة من لحظات شبابها المضجر، إشعارها بأن أمسيات الثلاثاء ستكون بهذه الرحابة، كما هي في الواقع، من دونه، وبهذا التوحد والخواء.

كانت قد بعثت إلى مستودع المهملات في الاصطبل خلال إحدى نوباتها المفاجئة بمذياع أهداها إياه زوجها في ذكرى زواجهما لأحد الأعوام، وقد فكرا كلاهما بتقديمه إلى المتحف باعتباره أوّل مذياع وصل إلى المدينة. وكانت قد قررت وهي في عتمة حدادها عدم استخدامه، لأن أرملة لها ألقابها لا يمكن لها الاستماع إلى أية موسيقى من دون أن تسيء إلى ذكرى زوجها الميت، حتى ولو فعلت ذلك في مخدعها. ولكنها بعد يوم الثلاثاء الثالث من أيام الوحدة، أمرت بإعادته ثانية إلى الصالة، لا لتستمتع باغنيات إذاعة ريوبامبا العاطفية، كما كانت من قبل، وإنما لتشغل ساعات فراغها بالاستماع إلى روايات الدموع التي تبثها إذاعة سنتياغو دي كوبا. وكان ذلك قراراً صائباً، لأنها بدأت تفقد منذ ميلاد ابنتها عادة المطالعة التي أكسبها إياها زوجها باجتهاد منذ

رحلة الزفاف، وفقدت تلك العادة تماماً مع ما أصاب بصرها من ضعف متزايد، إلى أن أصبحت تمضي بضعة شهور أحياناً من دون أن تعرف أين هي نظارتها.

لقد استهوتها الروايات الإذاعية من إذاعة سنتياغو دي كوبا، حتى صارت تنتظر بجزع الحلقات اليومية المتسلسلة. وكانت تستمع بين الحين والآخر إلى الأخبار لتعرف ما الذي يحدث في الدنيا. وفي بعض المناسبات النادرة، حين تبقى وحدها في البيت، كانت تستمتع بصوت منخفض جداً، إلى موسيقى الميرينغي من إذاعة سانتو دومينغو وموسيقى بلينا من إذاعة بورتوريكو النائيتين والواضحتين. وفي إحدى الليالي، سمعت خبراً مؤثراً من محطة إذاعة مجهولة، انطلقت فجأة بقوة ووضوح كما لو أنها تبث من البيت المجاور، وجاء في الخبر أن عجوزَيْن اعتادا أن يكررا شهر عسلهما في المكان نفسه منذ أربعين سنة، قد قتلا بضربات مجداف على يد صاحب الزورق الذي كان يحملهما في نزهة، وذلك ليسرق ما معهما من مال: أربعة عشر دولاراً. وكان تأثّرها أشد حين روت لها لوكريثيا دل ريال القصة الكاملة كما نشرتها إحدى الصحف المحلية. فقد اكتشفت الشرطة أن العجوزَيْن المقتولين - المرأة في الثامنة والسبعين والرجل في الرابعة والثمانين - هما عاشقان سرّيان، يقضيان إجازتهما معاً منذ أربعين سنة، لكن كل منهما متزوج زواجاً محترماً ومستقراً وسعيداً، ولكل منهما عائلة كبيرة. وفيرمينا داثا التي لم تبكِ يوماً بسبب المسلسلات الإذاعية، جاهدت بصعوبة لقهر عقدة الدموع التي علقت في حلقها، حين بعث إليها فلورينتينو أريثا في رسالته التالية قصاصة الجريدة التي تحمل الخبر بلا أي تعليق منه.

لم تكن تلك الدموع هي آخر دموع تضطر فيرمينا داثا لكبحها. فقبل أن يكمل فلورينتينو أريثا أيام اعتكافه الستين، كشفت صحيفة العدالة على صدر صفحتها الأولى، مع صور المعنيَّيْن، عن غراميات

سرية مزعومة للدكتور خوفينال أوربينو ولوكريثيا دل ريال دل أوبيسبو. وأسهبت الجريدة في تفاصيل العلاقة، ومداها وأسلوبها، وكذلك حول تواطؤ الزوج، المستسلم لانحرافاته السوقية مع الزنوج العاملين في مصنعه لتكرير السكر. وكان للقصة المنشورة بحروف بارزة، وبحبر له لون الدم، دوياً كدويّ رعد الكارثة في أوساط الطبقة الاوستقراطية الآخذة بالتفسخ. ومع ذلك لم يكن فيها سطر واحد يحمل الحقيقة: صحيح أن خوفينال أوربينو ولوكريثيا دل ريال كانا صديقين حميمين مذ كانا عازبَيْن وبقيا صديقين بعد زواجهما، لكنهما لم يكونا عاشقين في يوم من الأيام. ولم يكن هنالك ما يشير على كل حال إلى أن المقال المنشور كان يريد التشهير باسم الدكتور خوفينال أوربينو، الذي تتمتع ذكراه باحترام مجمَع عليه، وإنما كان المقصود هو زوج لوكريثيا دل ريال، الذي اختير رئيساً للنادي الاجتماعي في الأسبوع السابق. وقد تمّ إخماد الفضيحة خلال ساعات قليلة. لكن لوكريثيا دل ريال لم تعد لزيارة فيرمينا داثا، واعتبرت هذا الأمر على أنه اعتراف بالذنب.

وقد اتضح بعد وقت قصير جداً أن فيرمينا داثا نفسها لم تكن كذلك بمنجى من مخاطر طبقتها. فقد حملت عليها جريدة العدالة مستغلة نقطة ضعفها الوحيدة: أعمال أبيها التجارية. فعندما أذعن هذا للنفي الإجباري، كانت تعرف حادثة واحدة من أعماله الغامضة، كما روتها لها غالا بلاثيديا. وفي ما بعد، حين أكّد لها الدكتور أوربينو الأمر بعد مقابلته للحاكم، أيقنت أن أباها كان ضحية مكيدة مدبَّرة. والمسألة هي أن اثنين من رجال الشرطة الحكوميين حضرا ومعهما أمر بتفتيش بيت حديقة البشارة، وقد فتشا البيت كله من دون أن يجدا ما يبحثان عنه، ثم أمرا أخيراً بفتح خزانة الملابس ذات الأبواب المغطاة بمرايا والموجودة في حجرة نوم فيرمينا داثا سابقاً. كانت غالا بلاثيديا وحدها في المنزل حينئذ، ولم يكن لديها وسيلة لانذار أحد، فرفضت فتح الخزانة متذرعة بأنها لا

تملك المفتاح. عندئذ حطم أحد الشرطيين مرايا الأبواب بعقب مسدسه، واكتشف وجود فراغ ما بين الزجاج والخشب مملوء بأوراق نقدية مزيَّفة من فئة المئة دولار. كانت هذه هي ذروة سلسلة من الأبحاث التي قادت إلى لورينثو داثا على أنه الحلقة الأخيرة من عملية دولية واسعة. وكان التزوير متقَناً جداً، فالأوراق النقدية المزيفة تتمتع بجميع مواصفات ورق النقوذ الأصلي: إذ إنهم محوا الكتابة والرسوم عن أوراق من فئة دولار واحد باستخدام مادة كيماوية تشبه السحر، ثم طبعوا على الورق ذاته نفوداً من فئة المئة دولار. وادّعى لورينثو داثا أنه اشترى الخزانة بعد زمن طويل من زواج ابنته، وأن الخزانة وصلت إلى البيت بلا شك والأوراق النقدية مخبّأة فيها، لكن الشرطة أثبتت أن الخزانة موجودة في البيت مذ كانت فيرمينا داثا تذهب إلى المدرسة. وأنه لا يمكن لأحد سواه إخفاء الثروة الزائفة وراء المرايا. هذا هو الشيء الوحيد الذي رواه الدكتور أوربينو لزوجته يوم تعهَّد أمام الحاكم بإعادة حماه إلى موطنه للتغطية على الفضيحة. أما الجريدة فروت أموراً كثيرة أخرى.

روت أن لورينثو داثا توسط خلال إحدى الحروب الأهلية الكثيرة في القرن الماضي، بين حكومة الرئيس الليبرالي أكيلو بارا وشخص بولوني الأصل، يدعى جوزيف ك. كورزينوفسكي، أقام هنا عدّة شهور مع طاقم السفينة التجارية سانت أنطون التي ترفع العلم الفرنسي، في محاولة لتصريف صفقة سلاح معقدة، ولم يعرف أحد كيف اتصل كورزينوفسكي، الذي ذاع صيته للعالم في ما بعد باسم جوزيف كونراد، مع لورينثو داثا، الذي اشترى منه شحنة الأسلحة لحساب الحكومة، بوثائق وإيصالات نظامية، ودفع الثمن ذهباً حقيقياً. وحسب رواية الجريدة، فقد ادّعى لورينثو داثا ضياع الأسلحة في هجوم مباغت، ثم إنه أعاد بيعها بضعف الثمن الحقيقي إلى المحافظين الذين يخوضون حرباً ضد الحكومة.

وروت العدالة أيضاً أن لورينثو داثا اشترى بثمن زهيد جداً شحنة أحذية عسكرية فائضة لدى الجيش الإنكليزي، في الزمن الذي أسس فيه الجنرال رافائيل رييس البحرية الحربية، وأنه ضاعف ثروته، في هذه العملية وحدها، خلال ستة شهور. وحسبما جاء في الصحيفة، فإنه لدى وصول الشحنة إلى هذا الميناء، رفض لورينثو داثا استلامها لأن الأحذية التي وصلت كانت جميعها للقدم اليمنى فقط، ولكنه كان المشارك الوحيد في المزايدة التي أعلنتها الجمارك حسب القوانين النافذة، واشترى الشحنة بمبلغ رمزي هو مئة بيزو. وفي أثناء ذلك، اشترى شريك له في ظروف مشابهة شحنة أحذية للقدم اليسرى، كانت قد وصلت إلى جمارك ريوهاتشا. وما إن انتظمت الأحذية مع بعضها حتى باعها لورينثو داثا، مستفيداً من نسَبه مع آل أوربينو دي لا كايي، للبحرية الحربية الناشئة بأرباح بلغت ألفين بالمئة.

وانتهت رواية جريدة العدالة إلى القول إن لورينثو داثا لم يغادر سان خوان دي لاثيناغا في أواخر القرن الماضي بحثاً عن مكان أفضل لمستقبل ابنته، كما كان يروق له أن يدّعي، وإنما لانكشاف أمره في صناعته المزدهرة بمزج التبغ المستورَد مع ورق مفروم، وهي الصناعة المزدهرة التي مارسها بمهارة فائقة، حتى أنها كانت تنطلي على المدخنين المحترفين. كما كشفت علاقاته بشركة سرية دولية، كان نشاطها الرائج في أواخر القرن الماضي يتمثل في تهريب الصينيين من بنما إلى البلاد بأساليب غير مشروعة. أما تجارة البغال المشبوهة، والتي أساءت كثيراً إلى سمعته، فيبدو أنها التجارة الشريفة الوحيدة التي مارسها في حياته.

عندما غادر فلورينتينو أريثا الفراش، وظهره متقد بالقروح، مستخدماً لأول مرّة في حياته عكازاً بدلاً من المظلة، كان خروجه الأول إلى بيت فيرمينا داثا. وجدها وقد تبدلت تماماً، بفعل آثار السنين على بشرتها، وبحقد أفقدها الرغبة في الحياة. وفي الزيارتين اللتين قام بهما الدكتور

أوربينو داثا لفلورينتينو أريثا أثناء مرضه، حدّثه عن الأسى الذي سببته لأمه مقالتا العدالة. فالمقالة الأولى أثارت فيها غضباً مجنوناً لخيانة زوجها وغدر صديقتها، ممّا جعلها تتوقف عن زيارتها لضريح زوجها التي كانت تقوم بها في يوم من أيام الأحد كل شهر، وذلك لسخطها من أنه لن يستطيع وهو في تابوته سماع اللعنات التي تريد أن تكيلها له: لقد اختلفت مع الميت. وبعثت إلى لوكريثيا دل ريال، مع كل من يريد أن يوصل الكلام إليها، تقول لها بأن تقنع بالعزاء لأنها وجدت على الأقل رجلاً بين جميع من مروا في فراشها. أما في المقالة عن لورينثو داثا، فلم يكن معروفاً ما الذي يؤلمها أكثر: أهي المقالة، أم اكتشافها المتأخر لهوية أبيها الحقيقية. لكن أحد الاحتمالين، أو كلاهما معاً، قصم ظهرها. فالشعر ذو اللون الفولاذي الذي كان يزيد من نبل وجهها، صار يبدو وكأنه نسالات الذرة الصفراء، وعينا الفهدة الجميلتان ما عادتا تلمعان ببريقهما القديم رغم روعة الغضب فيهما. وكان قرارها برفض الاستمرار في الحياة يظهر في كل حركة من حركاتها. ورغم إقلاعها منذ سنوات طويلة عن عادة التدخين، سواء وهي محبوسة في الحمّام أو في أي مكان آخر، فقد عادت إليه مجدداً بشكل علني وبشراهة لا كابح لها. بدأت أوّل الأمر بتدخين سجائر تلفها بنفسها، كما كانت تحب أن تفعل من قبل، ثم أخذت تدخن الأنواع العادية التي تجدها في المتجر، لأنها لم تعد تجد متسعاً من الوقت والصبر للف السجائر.

لو أن أي رجل آخر كان في موقع فلورينتينو أريثا لتساءل ما الذي سيقدمه المستقبل لشيخ مثله، أعرج ومكوي الظهر بقروح كقروح حمار، ولامرأة لا تتوق لسعادة أخرى سوى الموت. أما هو فلم يتساءل. بل وجد بصيصاً من الأمل ما بين أنقاض الكارثة، وبدا له أن نكبة فيرمينا داثا تجعلها أعظم شأناً، والغضب يجعلها أجمل، والحقد على العالم قد أعاد إليها طبعها الجموح الذي كانت عليه وهي في العشرين من العمر.

كان لديها الآن سبب آخر للاعتراف بجميل فلورينتينو أريثا. فقد بعث على أثر المقالات الشنيعة برسالة نموذجية إلى العدالة حول مسؤولية الصحافة الأخلاقية ودورها في احترام شرف الآخرين. لم تنشر الصحيفة الرسالة، لكن الكاتب بعث بنسخة منها إلى دياريو دل كوميرثو، أقدم صحف ساحل الكاريبي وأكثرها جدّية، فأبرزتها هذه على صفحتها الأولى. كانت الرسالة تحمل توقيع جوبيتر، وكانت عقلانية ولاذعة ومتقنة، ممّا حمل البعض لنسبتها إلى بعض أبرز كتّاب المقاطعة. كانت صوتاً منفرداً وسط الأقيانوس، لكنه سُمع بعمق ووصل بعيداً جداً. وعرفت فيرمينا داثا هوية الكاتب من دون أن يخبرها أحد بذلك، لأنها تعرفت على بعض الأفكار، بل وعلى جملة حرفية، من تأملات فلورينتينو أريثا الأخلاقية. ولذا، فقد استقبلته بحيوية في فوضى يأسها. وفي هذه الفترة بالذات، وجدت أميركا فيكونيا نفسها وحيدة في مساء أحد الأيام في غرفة النوم ببيت شارع لاس فيتاناس، واكتشفت من دون أي بحث، وبمحض الصدفة، في خزانة بلا مفاتيح، نسخاً من تأملات فلورينتينو أريثا المطبوعة على الآلة الكاتبة، ورسائل فيرمينا داثا المكتوبة بخط اليد.

ابتهج الدكتور اوربينو داثا لتجدد الزيارات التي ترفع كثيراً من معنويات أمه. وكان بذلك على عكس أخته أوفيليا التي رجعت في أوّل سفينة فواكه قادمة من نيوأورليانز، فور سماعها باخبار الصداقة الغريبة التي تقيمها فيرمينا داثا مع رجل، سمعته الأخلاقية ليست على ما يرام. وقد تسبب هياجها بنشوب أزمة منذ الأسبوع الأول، حين لاحظت درجة الإلفة والسلطة التي يدخل بها فلورينتينو أريثا إلى البيت، والوشوشات والنزاعات العابرة الشبيهة بوشوشات ونزاعات خطيبين، وذلك أثناء زياراته التي تمتد حتى ساعة متأخرة من الليل. وما كان يراه الدكتور أوربينو داثا تآلفاً صحياً بين عجوزين متوحدين، كانت ترى فيه أسلوباً

مريباً في اتخاذ خليل سرّي. هكذا كانت أوفيليا أوربينو دوماً، أقرب شبَهاً بدونيا بلانكا، جدتها لأبيها، منها بأمها. فهي مترفّعة مثل جدتها، ومتعجرفة مثلها، وتعيش مثلها على الأوهام. ما كانت قادرة على تصوّر صداقة بريئة تجمع بين رجل وامرأة، حتى ولو كانا في الخامسة من العمر، فكيف إذا كانا في الثمانين. في إحدى نزاعاتها المعتادة مع أخيها، قالت إن الشيء الوحيد المتبقي لكي يواسي فلورينتينو أريثا به أمها هو أن ينام معها في سريرها كأرملة. ولم تكن لدى الدكتور أوربينو داثا الشجاعة لمواجهتها، لأنه لم يكن يمتلك الشجاعة أمامها يوماً، لكن زوجته تدخلت بتبرير جدّي حول الحب في أي سن كان. ففقدت أوفيليا صوابها وصرخت بها:

- إن الحب في سننا شيء مضحك، أما في سنهما فهو قذارة خنازير.

وقررت في حدّة اندفاعها أن تطرد فلورينتينو أريثا من البيت، ووصل هذا إلى سمع فيرمينا داثا. فاستدعتها إلى حجرة النوم، كما تفعل كلما أرادت الحديث في أمر لا تريد أن تسمعه الخادمات، وطلبت منها أن تعيد أمامها ما قالته من شتائم. ولم تحاول أوفيليا أن تخفف من قسوتها: كانت موقنة أن فلورينتينو أريثا، بسمعته الفاسدة التي لا تخفى على أحد، إنما يريد الوصول إلى علاقة آثمة، ستشوّه اسم العائلة الطيب أكثر ممّا شوهته إساءات لورينثو داثا ومغامرات خوفينال أوربينو الغبية. استمعت إليها فيرمينا داثا من دون أن تنطق بكلمة واحدة، بل ومن دون أن ترمش، ولكنها حين انتهت من الاستماع كانت قد تحوّلت إلى امرأة أخرى.. كانت قد عادت إلى الحياة، فقالت لها:

- الشيء الوحيد الذي يؤلمني هو أنني لا أملك القوّة لضربك الضرب الذي تستحقين، لوقاحتك وخبث نيّتك. ولكنك ستخرجين الآن من هذا البيت، وأقسم لك برُفات أمي أنك لن تدخليه ما دمتُ على قيد الحياة.

لم تكن هنالك قوّة قادرة على ثنيها عن قرارها. فذهبت أوفيليا للإقامة في بيت أخيها، وبعثت من هناك بكل أنواع التوسّلات عبر وسطاء من علية القوم. ولكن من دون جدوى. فلا وساطة الابن ولا تدخل الصديقات استطاعا ثنيها. ثم إنها أطلقت أخيراً أمام كنّتها التي كانت تربطها بها دائماً علاقة بعيدة عن الرسميات، سراً باحت به بطلاقة كطلاقتها في سنوات شبابها:

- منذ قرن من الزمان أفسدوا حياتي مع هذا الرجل المسكين لأننا كنا لا نزال صغيرَيْن، وها هم يريدون إفسادها الآن ثانية لأننا أصبحنا عجوزَيْن.

ثم أشعلت سيجارة من عقب الأخرى، ونفثت السم الذي كان ينخر جوفها قائلة:

- فليذهبوا إلى الخراء. إن كان لنا نحن معشر الأرامل من مكسب، فهو أنه لم يعد هناك من يأمرنا.

لم يكن للصلح مكان. وحين اقتنعت أوفيليا أخيراً بعدم جدوى جميع المحاولات، رجعت إلى نيوأورليانز. والشيء الوحيد الذي استطاعت التوصل إليه مع أمها هو أن تودّعها. ووافقت فيرمينا داثا على ذلك بعد توسلات كثيرة، لكنها لم تسمح لها بالدخول إلى البيت: لقد أقسمت على ذلك بعظام أمها، التي كانت بالنسبة لها، في تلك الأيام الغائمة، الشيء الوحيد الذي ظلّ طاهراً.

في إحدى زياراته الأولى، وأثناء الحديث عن سُفُنه، وجه فلورينتينو أريثا دعوة رسمية لفيرمينا داثا لتقوم برحلة استجمام عبر النهر. حيث يمكنها من هناك الوصول، بعد يوم واحد في القطار، إلى عاصمة الجمهورية، التي ما زالا، مثلهم مثل معظم الكاريبيين من أبناء جيلهم، يطلقون عليها الاسم الذي كانت تحمله حتى القرن الماضي: سانتافي.

لكنها كانت تحتفظ بوجهة نظر زوجها ولا تريد معرفة مدينة باردة وقاتمة حيث النساء لا يخرجن من بيوتهن إلا إلى قداس الخامسة، ولا يستطعن الدخول إلى مقاهي بيع المثلجات ولا إلى الدوائر العامة، كما قيل لها، وحيث توجد في كل وقت زحمة جنازات في الشوارع، ومطر خفيف متواصل منذ سنوات البغلة ذات الحدوات: إنها أسوأ من باريس. ولكنها كانت تشعر بالمقابل بمَيْل شديد إلى النهر، فهي تريد رؤية التماسيح تتشمس على الضفاف، وتريد الاستيقاظ في منتصف الليل على نواح الأطم الذي يشبه بكاء النساء، لكن فكرة القيام برحلة شاقة في هذه السن، إضافة إلى كونها أرملة ووحيدة، كانت تبدو لها أمراً لا واقعياً.

كرّر فلورينتينو أريثا الدعوة لها في ما بعد، حين كانت قد قررت الاستمرار في الحياة من دون زوجها، فبدت لها الفكرة حينئذ أكثر احتمالاً. ولكن بعد خلافها مع ابنتها، وإحساسها بالمرارة للإهانات الموجهة إلى أبيها، وحقدها على زوجها الميت، وغضبها من تملقات لوكريثيا دل ريال المنافقة، والتي اعتبرتها لسنوات طويلة أفضل صديقاتها، أخذت تشعر بأنها مجرّد شيء زائد عن الحاجة في بيتها. وفي مساء أحد الأيام، وبينما هي تشرب شرابها الخاص المحضَّر من أوراق شاي كونية، نظرت إلى مستنقع الفناء، حيث لم تعد تبرعم شجرة نكبتها، وقالت:

– ما أريده هو هجر هذا البيت، والانطلاق قُدُماً، قدُماً قدُماً، وعدم العودة إليه أبداً.

فقال فلورينتينو أريثا:

– اذهبي في سفينة نهرية.

نظرت إليه فيرمينا داثا وهي ساهمة وقالت:

– خذ في اعتبارك أن هذا ممكن.

لم تكن قد فكرت بذلك لحظة واحدة قبل أن تنطق به، ولكن مجرّد ورود الاحتمال كان كافياً لاعتبار الأمر ناجزاً. وقد سرّ الابن والكنّة حين علِما بالخبر. وسارع فلورينتينو أريثا ليؤكد أن فيرمينا داثا ستكون ضيفة شرف على سفنه، وستجد تحت تصرفها قمرة مجهَّزة بكل شيء وكأنها في بيتها، وستكون الخدمة على أكمل وجه، وسيكلف القبطان بالذات لحمايتها والسهر على راحتها. وجاء بخرائط تبين خط سير الرحلة ليشجّعها، وبطاقات بريدية لمناظر غروب هائجة، وقصائد شعرية عن جنة نهر مجدلينا البدائية كتبها رحّالة مشهورون، أو أنهم أصبحوا مشهورين لروعة القصيدة. فكانت تلقي عليها نظرة عابرة حين يكون مزاجها رائقاً وتقول له:

– ليس عليك أن تخدعني كما لو أنني طفلة. إذا كنتُ أريد الذهاب فلأنني قررت ذلك، وليس اهتماماً بالمناظر الطبيعية.

وحين اقترح ابنها أن تذهب زوجته معها لمرافقتها، قاطعته بلهجة مسالمة:

- لقد كبرت ولم أعد بحاجة لمن يرعاني.

ورتبت بنفسها تفاصيل الرحلة. كانت تشعر براحة كبيرة لفكرة أنها ستمضي ثمانية أيام في صعود النهر وخمسة أيام في نزوله من دون أن تحمل معها شيئاً باستثناء الحاجات التي لا غنى عنها: نصف دزينة من الفساتين القطنية، وأدوات زينتها ونظافتها، وزوج من الأحذية للصعود به إلى السفينة وللنزول إلى البرّ، ونعال بيتي لاستخدامه أثناء الرحلة، ولا شيء آخر... إنه حلم حياتها.

في شهر كانون الثاني لعام 1824، قام الربان خوان برناردو ألبيرس، مؤسّس الملاحة النهرية، برفع راية السفينة البخارية التي مخرت مياه نهر مجدلينا، وقد كانت آلة بدائية بقوة أربعين حصاناً، تدعى وفاء.

وبعد مرور أكثر من قرن، في السابع من تموز، وفي الساعة السادسة مساء، رافق الدكتور أوربينو داثا وزوجته، فيرمينا داثا لتركب السفينة التي ستحملها في رحلتها الأولى عبر النهر. وكانت تلك السفينة هي الأولى التي جرى بناؤها في أحواض بناء السفن المحلية، وقد عمّدها فلورينتينو أريثا باسم وفاء الجديدة تخليداً لذكرى سلفتها المجيدة. ولم تستطع فيرمينا داثا أن تصدّق أبداً بأن ذلك الاسم ذا المغزى الشديد هو مجرّد مصادفة تاريخية حقاً، وليس ظرافة أخرى من ظرافات فلورينتينو أريثا، الرومنسيّ المزمن.

وعلى خلاف جميع السفن النهرية الأخرى، القديمة منها والحديثة، كان في وفاء الجديدة، وإلى جانب قمرة القبطان، قمرة إضافية واسعة ومريحة، مكوّنة من صالة استقبال مؤثثة بمفروشات من البامبو الملوَّن بألوان احتفالية، ومخدع زوجي مزخرف بكامله بزخارف صينية، وحمّام فيه حوض بانيو ودوش، وشرفة مغلقة وفسيحة جداً، فيها نباتات زينة معلقة وتسمح بالرؤية إلى ما أمام السفينة وجانبيها، ومزوّدة بأجهزة تبريد صامتة تحافظ على الجو في ربيع دائم بعيداً عن القيظ في الخارج. كان هذا الجناح الفاخر يعرف باسم قمرة الرئاسة، لأن ثلاثة من رؤساء الجمهورية سافروا فيه حتى ذلك الحين، ولم يكن لهذه القمرة أي غرض تجاري، بل كانت مخصصة للسلطات العليا والضيوف الخاصّين جداً. وقد بناها فلورينتينو أريثا لهذا الغرض المعلن فور تعيينه رئيساً لشركة الكاريبي للملاحة النهرية، لكنه كان متأكداً في دخيلته من أنها ستكون عاجلاً أو آجلاً الملجأ السعيد لرحلة زفافه مع فيرمينا داثا.

وفعلاً جاء اليوم المنتظر، واتخذت موقعها في القمرة الرئاسية كربّة وسيدة للمكان. وقدّم القبطان فروض التشريف للدكتور أوربينو داثا وزوجته ولفلورينتينو أريثا بالشمبانيا والسلمون المدخن. كان اسمه ديغو ساماريتانو، وكان يرتدي بدلة من الكتان الأبيض، محكَمة على مقاسه

تماماً، من الحذاء وحتى القبعة التي تحمل شعار ش.ك.م.ن مطرّزاً بخيوط ذهبية، وكان يشبه غيره من قباطنة السفن النهرية بضخامته التي كضخامة أشجار الثيبا، وبصوته الحازم وحركاته التي كحركات كردينال فلورنسي.

في الساعة السابعة ليلاً أطلقت أولى إشارات الإبحار، وأحسّت بها فيرمينا داثا تدوّي بألم حاد في أذنها اليسرى. لقد حلمت في الليلة السابقة أحلاماً مثلمة ذات نذر مشؤومة لم تتجرّأ على تفسيرها. ومنذ الصباح الباكر ذهبت إلى مدفن المجمَع الإكليريكي الذي صار يعرف باسم مقبرة لامانغا، وصالحت زوجها الميت، وهي واقفة أمام قبره، وذلك بمنولوج أطلقت فيه العنان للومها العادل الذي كانت تغصّ به. ثم روت له تفاصيل الرحلة، وودعته متمنية اللقاء به قريباً. لم تشأ أن تخبر أحداً بأنها ذاهبة، وذلك ما كانت تفعله كلما سافرت إلى أوروبا، لتحول دون الوداعات المنهكة. ورغم رحلاتها الكثيرة، فقد أحسّت وكأن هذه هي رحلتها الأولى، وكان قلقها يتزايد كلما تقدم النهار واقترب الموعد. وحين أصبحت على متن السفينة، أحسّت بالهجران والكآبة، ورغبت بالبقاء وحيدة لتبكي.

عند انطلاق إشارة الإبحار الأخيرة، ودّعها الدكتور أوربينو داثا وزوجته من دون دراماتيكية، ورافقهما فلورينتينو أريثا إلى جسر النزول إلى البرّ. حاول الدكتور أوربينو داثا أن يفسح له الطريق ليمشي وراء زوجته، ولكنه انتبه حينئذ فقط إلى أن فلورينتينو أريثا ذاهب في الرحلة أيضاً. ولم يستطع الدكتور أوربينو داثا السيطرة على حيرته، فقال:

– ولكننا لم نتحدث في هذا من قبل.

أراه فلورينتينو أريثا، مفتاح قمرته كدليل كاف على حسن نواياه: قمرة عادية في جناح المسافرين العاديين. ولكن الدكتور أوربينو داثا لم ير

في ذلك دليلاً كافياً على البراءة. فاتجه إلى زوجته بنظرة غريق، باحثاً عن نقطة استناد لحيرته، ولكنه التقى بعينين ثلجيتَيْن. وقالت له بصوت خافت جداً، وحازم في الوقت ذاته: «وأنت أيضاً؟». أجل. هو أيضاً، مثل أخته أوفيليا، يفكران أن للحب سناً معيناً يصبح بعده أمراً غير لائق. لكنه استطاع السيطرة على نفسه في الوقت المناسب، وودّع فلورينتينو أريثا شاداً على يده بحركة فيها من الإذعان أكثر ممّا فيها من الشكر.

رآهما فلورينتينو أريثا ينزلان من السفينة وهو واقف عند درابزين الصالة. تماماً كما كان ينتظر ويأمل، والتفت الدكتور أوربينو داثا وزوجته بنظرهما إليه قبل أن يدخلا السيارة، فودَّعهما ملوِّحاً بيده. وردا عليه بتحية مماثلة. وبقي عند الدرابزين إلى أن اختفت السيارة وسط غبار باحة الشحن، ثم مضى إلى قمرته ليرتدي ملابس أكثر ملاءمة للعشاء الأول على متن السفينة، في صالة الطعام الخاصة بالقبطان.

كانت ليلة رائعة، تبّلها القبطان ديغو ساماريتانو بحكايات لذيذة عن سنواته الأربعين في النهر، لكن فيرمينا داثا اضطرت للقيام بمجهود كبير لتبدو سعيدة. ورغم انطلاق صفارة التنبيه الأخيرة في الساعة الثامنة، ورغم إنزال الزائرين ورفع جسر النزول في هذه الساعة أيضاً، فإن السفينة لم تنطلق إلى أن انتهى القبطان من تناول طعامه وصعد إلى مركز القيادة ليشرف على مناورة الخروج من الميناء. بقيت فيرمينا داثا وفلورينتينو أريثا يتطلعان من فوق درابزين الصالة العامة، مختلطين مع المسافرين الصاخبين الذين كانوا يلعبون لعبة تمييز أضواء المدينة، إلى أن خرجت السفينة من الميناء، وولجت قنوات لامرئية ومستنقعات مبرقعة بأنوار متموّجة تنبعث من زوارق الصيادين، وشخرت أخيراً ملء رئتيها في الهواء الطلق لنهر مجدلينا العظيم. حينئذ انطلقت الفرقة الموسيقية في عزف مقطوعة شعبية دارجة، وهيمنت على المسافرين موجة من المرح، وبدأ الرقص الصاخب.

فضلت فيرمينا داثا اللجوء إلى القمرة. لم تكن قد نطقت بأيّ كلمة خلال الليل، وقد تركها فلورينتينو أريثا تتيه في تأملاتها، ولم يقاطعها إلّا ليودعها أمام قمرتها. لكنها لم تكن تشعر بالنعاس، وإنما بشيء من البرد فقط، واقترحت أن يجلسا قليلاً ليراقبا النهر معاً من الشرفة الخاصة. فسحب فلورينتينو أريثا كرسيين خيزرانيين إلى الشرفة، وأطفأ الأنوار، ووضع لها بطانية صوفية على كتفيها، وجلس إلى جانبها. لفّت سيجارة من العلبة التي أهداها لها. لفّتها بمهارة مذهلة، ودخّنتها ببطء واضعة الجمرة في فمها، من دون أن تتكلم، ثم لفّت سيجارتين أخريين متتاليتين ودخّنتهما بلا توقف. وشرب فلورينتينو أريثا ترمسين من القهوة المرّة رشفة بعد أخرى.

كانت أضواء المدينة قد اختفت في الأفق. ومن خلال الشرفة المظلمة كان النهر المنبسط الساكن، ومرابع العشب على ضفتيه تبدو، تحت ضوء القمر المكتمل بدراً، وكأنها سهوب فوسفورية. وبين الحين والحين يظهر كوخ من القش إلى جانب محارق كبيرة يعلنون بها أنهم يبيعون هناك حطباً لمراجل السفن. كان فلورينتينو أريثا يحتفظ بذكريات غائمة عن رحلته النهرية في شبابه، ولكن مرأى النهر جعله يستعيدها في دفقات مبهرة كما لو أنها حدثت بالأمس. روى بعضاً من تلك الذكريات لفيرمينا داثا معتقداً أن ذلك قد يبث فيها الحماسة، لكنها كانت تدخن في عالم آخر. فتخلى فلورينتينو أريثا عن ذكرياته وتركها وحيدة مع أفكارها، وكانت أثناء ذلك تلف السجائر وتشعلها إلى أن نفدت العلبة. توقفت الموسيقى بعد منتصف الليل، وتلاشى صخب المسافرين، ثم تحوّل إلى همسات هاجعة، وبقي القلبان وحدهما في الشرفة المظلمة يعيشان إيقاع أنفاس السفينة.

بعد مرور بعض الوقت، نظر فلورينتينو أريثا إلى فيرمينا داثا من خلال بريق النهر، فرآها طيفية، ورأى بروفيل وجهها الذي كتمثال يصبح

أكثر حلاوة تحت البريق الأزرق الخفيف، وانتبه إلى أنها كانت تبكي بصمت. ولكنه بدلاً من مواساتها، أو الانتظار إلى أن تنفد دموعها، كما كانت ترغب هي، سمح للقلق بأن يداهمه، فسألها:

- أتودين البقاء وحدك؟

قالت:

- لو كنت أريد ذلك لما طلبت منك الدخول.

عندئذ مدّ أصابعه الباردة في الظلام، وبحث باللمس عن اليد الأخرى، ووجدها بانتظاره. لقد كانا يتمتعان، في اللحظة السريعة ذاتها بما يكفي من الصحو ليدركا أن أياً من اليدين لم تكن هي اليد التي تخيلاها قبل أن يلمساها، وإنما كانتا يدين هرمتين معروقتين. ولكنهما ما لبثا أن أصبحتا كما أرادا في اللحظة التالية. بدأت تتحدث في الزمن الحاضر، عن زوجها الميت، وكأنه لا يزال حياً، وعرف فلورينتينو أريثا أنه قد أزفت بالنسبة لها أيضاً لحظة التساؤل بوقار وعظمة، ورغبة جامحة في الحياة، ما الذي تفعله بالحب الذي بقي لديها من دون سيّد.

توقفت فيرمينا داثا عن التدخين كي لا تفلت يدها التي كان يمسكها بيده. كانت تائهة في قلق البحث عن الوعي. ما كانت قادرة على تصوّر زوج أفضل من ذاك الذي كان زوجها، ولكنها كانت تجد العراقيل بدلاً من السهولة في استحضار حياته، كانت تجد كثيراً من سوء الفهم المتبادل والنزاعات الجوفاء، والأحقاد التي فُضّت على غير ما يرام. وتنهدت فجأة:

- لا أستطيع أن أصدق كيف يمكن للإنسان أن يكون سعيداً خلال سنوات طويلة، وسط كل هذه الخلافات، وكل هذه المشاكل؟ اللعنة، وكل ذلك من دون أن نعرف إن كان هذا حباً أم لا.

وعندما انتهت من التفريج عن قلبها، أطفأ أحد القمر. كانت السفينة

تتقدّم بخطواتها المحسوبة، واضعة قدماً قبل أن ترفع الأخرى: كحيوان ضخم يترصّد. وكانت فيرمينا داثا قد أفاقت من ذهولها. فقالت:
- انصرف الآن.

ضغط فلورينتينو أريثا على يدها، ومال نحوها، محاولاً تقبيل وجنتها. لكنها أعرضت عنه قائلة بصوت أبح ورقيق:
- لا، ما عاد هذا ممكناً.. إن لي رائحة عجوز.

أحسّت به يخرج في الظلام، وأحسّت بوقع خطواته على الأدراج، وأحسّت باختفائه عن الوجود حتى اليوم التالي. أشعلت فيرمينا داثا سيجارة أخرى، وفيما هي تدخنها رأت الدكتور خوفينال أوربينو بملابسه الكتانية الناصعة، وصرامته المهنية، ولطفه المبهر، وحبه الرسمي، وأشار لها مودعاً بقبعته البيضاء من سفينة أخرى من الماضي. «لسنا نحن معشر الرجال سوى عبيد مساكين للوهم. أما حين تقرّر امرأة مضاجعة أحد الرجال، فليس هناك من حاجز إلّا وتجتازه، ولا حصن إلّا وتحطمه، ولا اعتبار أخلاقي إلّا وتكون مستعدة لخرقه من أساسه: وليس ثمة ربّ ينفع». هذا ما قاله لها في أحد الأيام. وبقيت فيرمينا داثا جامدة حتى الفجر، تفكّر بفلورينتينو أريثا، ليس كحارس كئيب في حديقة البشارة لا تثير ذكراه فيها أي حنين، وإنما كما هو حينئذ، عجوز وأعرج، ولكنه واقعي: إنه الرجل الذي كان رهن إشارتها دوماً ولم تستطع التعرّف إليه. وفيما السفينة اللاهثة تسحبها نحو بريق الأزهار البدائي، كانت تدعو الله أن يُلهم فلورينتينو أريثا ليعرف من أين يبدأ ثانية في اليوم التالي. وقد عرف. كانت فيرمينا داثا قد أعطت تعليماتها للنادل بأن يتركها نائمة إلى أن تستيقظ من تلقاء نفسها. وحين استيقظت وجدت على الكومودينو مزهرية فيها زهرة بيضاء طازجة، لا تزال مضمّخة بالندى، ومعها رسالة من فلورينتينو أريثا مؤلفة من الصفحات التي استطاع كتابتها منذ ودّعها. كانت رسالة هادئة، لا غرض لها سوى التعبير عن الحالة المعنوية التي

عاشها منذ الليلة الماضية. كانت شديدة الغنائية كرسائله الأخرى، وخطابية مثلها جميعها، ولكنها مستندة إلى الواقع. قرأتها فيرمينا داثا ببعض الخجل من نفسها لقفزات قلبها المكشوفة. وكانت الرسالة تنتهي بالطلب إليها أن تخبر النادل حين تكون جاهزة، لأن القبطان ينتظرهما في مركز القيادة ليشرح لهما سير العمل في السفينة.

في الساعة الحادية عشرة كانت جاهزة، مستحمّة ومنتعشة بالصابون الذي له رائحة أزهار، ومرتدية فستان أرملة رمادي اللون وشديد البساطة، موفورة النشاط بعد هيجان الليلة الماضية. طلبت فطوراً بسيطاً من النادل الذي يرتدي ملابس بيضاء ناصعة، ويعمل في خدمة القبطان شخصياً، لكنها لم تبعث إليهم كي يحضروا لمرافقتها. صعدت وحدها، مبهورة بالسماء الصافية، ووجدت فلورينتينو أريثا يتحدّث إلى القبطان في مركز القيادة. بدا لها مختلفاً، ليس لأنها رأته بعينين أخريين حينئذ، وإنما لأنه كان مختلفاً بالفعل. فبدلاً من الملابس الجنائزية التي ارتداها طوال حياته، كان ينتعل حذاء أبيض ويرتدي بنطالاً وقيمصاً من الكتان، مفتوحاً عند العنق وأكمامه قصيرة، وعلى جيبه الذي فوق الصدر نُقشت الحروف الأولى من اسمه. وكان يعتمر قبعة اسكتلندية، بيضاء اللون أيضاً، ويضع نظارة ذات عدسات قاتمة فوق نظارة ضعف النظر الأزلية. وممّا لا شك فيه أن كل ذلك كان يُستخدم للمرة الأولى، وأنه اشتراه من أجل الرحلة، باستثناء حزام الجلد البنّي العتيق، والذي لفت انتباه فيرمينا داثا من النظرة الأولى وكأنه ذبابة في طبق الحساء. حين رأته على تلك الحال، مرتدياً ملابس متميزة من أجلها، لم تستطع منع تورّد ناريٍّ من الصعود إلى وجنتيها. وانبهرت عند مصافحته، وانبهر هو أكثر لانبهارها. وإدراكهما بأنهما يتصرفان كخطيبين زاد من انبهارهما، ووعيهما بأنهما منبهرَيْن كليهما زاد أنبهارهما إلى الحدّ الذي جعل القبطان ساماريتانو يلاحظ ذلك بارتعاشة حب. فأخرجهما من الحرج بأن شرح لهما

مهمات القيادة والآلية العامة للسفينة خلال ساعتين. كانوا يُبحرون ببطء شديد في نهر بلا ضفاف، يتبدد بين كثبان رملية قاحلة حتى الأفق. وعلى عكس مياه المصبّ العكِرة، كانت تلك المياه بطيئة وصافية، ولها بريق معدنيّ تحت الشمس الحارقة. وأحسّت فيرمينا داثا بأن المكان هو دلتا تتخللها جزر رملية. فقال لها القبطان:

- هذا ما تبقى لنا من النهر.

لقد فوجئ فلورينتينو أريثا حقاً بالتبدل الذي أصاب النهر، وازدادت مفاجأته في اليوم التالي، حين أصبح الإبحار أصعب، ورأى أن النهر الأب، نهر مجدلينا، أحد الأنهار اكبرى في العالم، ليس إلا وهماً من أوهام الذاكرة. وأخبرهما القبطان ساماريتانو أن عمليات قطع الغابات اللامعقولة قد قضت على النهر خلال خمسين سنة: فمراجل السفن التهمت غابات الأشجار الضخمة المتشابكة التي أحسها فلورينتينو أريثا تثقل على أنفاسه في رحلته الأولى. وأفنى صيادو جلود الدباغة القادمين من نيوأورليانز التماسيح التي كانت تتظاهر بالموت وأشداقها مفتوحة لساعات وساعات فوق رمال الضفاف لتقتنص الفراشات، وقد راحت تموت الببغاوات ذات الرطانه الغريبة والقرود ذات الصرخات المجنونة كلما تناقصت الغابات، بينما كانت الأطم التي ترضع صغارها من أثدائها الأمومية وتبكي بأصوات كأصوات النساء الثكالى على الضفاف هي الصنف المفضَّل لرصاص صيادي المتعة.

كان القبطان ساماريتانو يشعر نحو الأطم بعاطفة شبه أمومية، لأنه يرى فيها سيدات مُسخنَ لخطيئة حب اقترفنها، وكان يؤمن بصحة الأسطورة القائلة بأنها الإناث الوحيدة التي لا ذكور لها في مملكة الحيوان. وكان يعارض دوماً إطلاق النار عليها من سفينته، كما جرت العادة، على الرغم من وجود قوانين تحظر ذلك. وقد رفض صيّاد من كارولينا الشمالية، يحمل وثائق نظامية، الرضوخ لتعليماته يوماً، وهشم

رأس أطومة أم بطلقة صائبة من بندقيته السبرينغفيلد، وبقي الوليد الذي أطار الألم صوابه يبكي صارخاً فوق جثة أمه الممددة فحمل القبطان الأطوم اليتيم ليتدبّر له مخرجاً، وترك الصيّاد مهجوراً على الشاطئ المقفر إلى جوار جثة الأم المقتولة. وقد أمضى ستة أشهر في السجن، بفعل الاحتجاجات الدبلوماسية، وكاد يفقد تصريح عمله كبحّار، لكنه خرج من السجن وهو مستعد لتكرار ما فعله كلما اقتضى الأمر منه ذلك. وقد كان ذلك الحادث حدثاً تاريخياً: فالأطوم اليتيم، الذي رُعي وعاش لسنوات طويلة في حديقة الحيوانات النادرة في سان نيكولا دي لاس بارانكاس، كان الأطوم الأخير الذي شوهد في النهر.

قال القبطان:

- كلما مررت من هذا الشاطئ، أدعو الله أن يعود ذلك الأميركي للإبحار في سفينتي، كي أتركه وحيداً من جديد.

فيرمينا داثا، التي لم تكن تستلطفه أوّل الأمر، أحسّت بميل شديد نحو ذلك المارد الرقيق، وأنزلته منذ ذلك الصباح منزلة متميزة من قبلها. وقد أحسنت صنعاً بذلك: فالرحلة لم تكد تبدأ بعد، وستجد مناسبات كثيرة لتتأكد من أنها لم تكن مخطئة.

بقيت فيرمينا داثا مع فلورينتينو أريثا في مركز القيادة حتى موعد الغداء، بعد قليل من مرورهما قبالة بلدة كالامار، التي كانت تعيش منذ بضع سنوات في عيد دائم، ولم تعد الآن سوى أطلال ميناء، شوارعها مقفرة. الكائن الوحيد الذي رأوه من السفينة، هو امرأة متشحة بالبياض تلوّح بمنديل في يدها. ولم تفهم فيرمينا داثا لماذا لم يحملوها في السفينة، مع أنها كانت تبدو مغمومة جداً، ولكن القبطان أوضح لها بأنها شبح امرأة غارقة تلوّح للمراكب بإشارات مخادعة لتحرفها نحو الدوامات المائية الخطرة عند الضفة الأخرى. ولقد مروا قريباً جداً منها

حتى أن فيرمينا داثا رأتها بكل تقاطيعها، واضحة تماماً تحت الشمس، ولم ترتَبْ في أنها غير موجودة حقاً، لكن وجهها بدا لها مألوفاً.

كان يوماً طويلاً وقائظاً. وقد رجعت فيرمينا داثا إلى القمرة بعد الغداء، لتنام قيلولتها المعتادة، لكنها لم تنم نوماً مريحاً بسبب ألم أذنها، الذي اشتد بعدما تبادلت السفينة تحية قوية مع سفينة أخرى تابعة لشركة الكاريبي للملاحة النهرية التقت بها على بعد عدّة فراسخ من بارانكا بييخا. قطع فلورينتينو أريثا حلماً عابراً وهو جالس في الصالون الرئيسي، حيث ينام معظم المسافرين كما لو كان الوقت منتصف الليل. حلم بروسالبا، قريباً جداً من المكان الذي رآها تنزل فيه من السفينة إلى البرّ. رآها في حلمه تسافر وحدها، بملابس من القرن الماضي، وكانت هي، وليس الطفل، تنام القيولة في قفص الخيزران المعلق على حافة جانب السفينة. كان حلماً غامضاً ومسلّياً في الوقت ذاته، وبقي يعيش متعته طوال ما بعد الظهر، حين كان يلعب الدومينو مع القبطان واثنين من المسافرين.

كان الحر يخمد مع غروب الشمس، فتنبعث الحياة في السفينة حيث يخرج المسافرون، كما لو أنهم يخرجون من سبات طويل، وقد استحمّوا وارتدوا ملابس نظيفة، ويحتلون مقاعد الخيزران في الصالة بانتظار العشاء، الذي يعلن عنه في الخامسة تماماً نادلٌ يذرع السفينة من طرف إلى آخر وهو يقرع وسط التصفيق الساخر جرس شمّاس. وفيما هم يأكلون، تبدأ الفرقة بعزف موسيقى فاندانغو الراقصة، ويستمر الرقص بعد ذلك حتى منتصف الليل.

لم تشأ فيرمينا داثا العشاء بسبب ألم أذنها، وتفرّجت على تحميل شحنة الحطب الأولى للمراجل، وذلك في وهدة جرداء حيث لا شيء سوى جذوع مكوّمة، ورجل عجوز جداً يشرف على تلك التجارة. لم

يكن يبدو أن هناك أحداً على مدى فراسخ كثيرة. ولقد كان التوقف بالنسبة لفيرمينا داثا بطيئاً ومملاً، وغير وارد في عابرات المحيط الأوروبية، وكان الحرّ شديداً حتى داخل الشرفة المبردة. ولكن حين انطلقت السفينة من جديد، تحركت ريح باردة محملة بروائح بطن الغابة، وأصبحت الموسيقى أكثر مرحاً. وفي بلدة سيتيو نويغو كان ثمة ضوء وحيد ينبعث من نافذة وحيدة في بيت وحيد، ولم يعط مكتب الميناء الإشارة الاصطلاحية بوجود بضائع أو مسافرين لحملهم في السفينة، لذلك تابعت السفينة قدماً من دون أن تطلق صفّارة تحية.

كانت فيرمينا داثا قد أمضت طوال ما بعد الظهر متسائلة عن الذرائع التي سيلجأ إليها فلورينتينو أريثا ليراها من دون أن يقرع باب القمرة، ولم تعد عند حلول الليل قادرة على احتمال شوقها للقائه. فخرجت إلى الممر على أمل اللقاء به بطريقة تبدو عرَضية، ولم يكن عليها أن تمشي كثيراً: كان فلورينتينو أريثا يجلس على أحد مقاعد الممر، صامتاً وحزيناً كما كان يجلس في حديقة البشارة، وكان يسائل نفسه منذ أكثر من ساعتين ما الذي سيفعله ليراها. وأبدى كلاهما سيماء الدهشة والمفاجأة التي يتقنان تصنّعها على حدّ سواء، ومضيا معاً إلى القسم المخصص لركاب الدرجة الأولى من سطح المركب، وكان يغص بمسافرين شبان، معظمهم من الطلبة الصاخبين الذين ينهكون أنفسهم مع بعض القلق في الحفلة الأخيرة من الإجازة. وتناول فلورينتينو أريثا وفيرمينا داثا من الكانتين زجاجتَي مرطبات وهما جالسان كالطلاب مقابل البار، ورأت نفسها فجأة في موقف مخيف. وقالت:

– «يا للهول!».

وسألها فلورينتينو أريثا ما الذي تفكر به ويسبب لها هذا الانطباع. فقالت:

- بالعجوزين المسكينين، اللذين قُتلا بضربات المجداف في القارب.

ومضيا إلى النوم عندما توقفت الموسيقى، بعد محادثة طويلة من دون عثرات في الشرفة المظلمة. لم يكن هناك قمر، وكانت السماء ملبدة، وفي الأفق تُلمح بروق بلا رعود فتضيئهما لهنيهة. لف فلورينتينو أريثا لها السجائر، لكنها لم تدخن سوى أربع منها، وهي تتعذب بالألم الذي كان يهدأ للحظات ثم ما يلبث أن يشتد حين تجأر السفينة عند التقائها بسفينة أخرى، أو مرورها مقابل قرية هاجعة، أو حين تمضي ببطء لتسبر عمق النهر. روى لها كيف أنه كان يراها بشوق في مهرجانات الربيع، وفي رحلة المنطاد، وعلى الدراجة الأكروباتية، وحدّثها عن الشوق الذي كان ينتظر به الاحتفالات العامة طوال السنة، وذلك ليراها فقط. وكانت هي تراه أيضاً في مناسبات كثيرة، ولم تتصوّر يوماً بأنه موجود ليراها فقط. ومع ذلك، فقد تساءلت فجأة، حين قرأت رسائله قبل أقل من سنة، كيف أمكن له ألّا يشارك أبداً في مسابقات مهرجان الزهور، لأنه كان سيفوز بلا ريب. وكذب فلورينتينو أريثا عليها: لم يكن يكتب إلّا لها، جميع أشعاره لها، ولم يكن يقرأها أحد سواه. حينئذ بحثت هي عن يده في الظلام، ولم تجدها في انتظارها كما انتظرت هي يده في الليلة السابقة، وإنما أمسكت بها بغتة. فتجمد قلب فلورينتينو أريثا، وقال:

- يا لغرابة النساء.

أفلتت ضحكة عميقة، ضحكة يمامة فتية، وعادت تفكر بعجوزَي القارب. لقد كان ذلك مقدَّراً: وستلاحقها تلك الصورة دوماً. لكنها قادرة على احتمالها هذه الليلة، لأنها تشعر بالطمأنينة والراحة، كما شعرت مرّات قليلة في حياتها: أحسّت أنها مطهّرة من أي خطيئة. وكانت قادرة على البقاء هكذا حتى الفجر، صامتة، ويده تتعرّق في يدها، لكنها لم تستطع احتمال ألم أذنها. فحين انطفأت الموسيقى، وتوقفت حركة مسافري الدرجة العادية الذين كانوا يعلقون أراجيح نومهم في الصالة، أدركت أن

ألمها أقوى من رغبتها في البقاء معه. كانت تعلم أن مجرّد إخباره بألمها سيخفف عنها لكنها لم تفعل كي لا تقلقه. إذ كانت تشعر حينئذ بأنها تعرفه كما لو أنها عاشت معه حياتها كلها، وكانت ترى أنه لن يتورّع عن إعطاء الأمر بعودة السفينة إلى الميناء إذا كان هذا يخلصها من الألم.

أحس فلورينتينو أريثا أن الأمور ستمضي هذه الليلة على هذا الحال، فانسحب. وفيما هو عند باب القمرة حاول أن يودّعها بقبلة، لكنها قدمت له خدها الأيسر. فأصرّ، وقد تهدّجت أنفاسه، فقدمت له خدها الآخر بغنج لم يعرفه في تلميذة مدرسة. وعندئذ أصرّ للمرة الثانية، فتلقته بشفتيها، وضمته برعشة عميقة حاولت خنقها بضحكة منسية منذ ليلة زفافها وقالت:

– رباه، كم أنا مجنونة! في هذه السن!

ارتعش فلورينتينو أريثا: فقد كانت تنبعث منها حقاً، كما قالت، رائحة الشيخوخة. ولكنه فيما كان يتقدّم نحو قمرته شاقاً طريقه وسط متاهة أراجيح النائمين، عزّى نفسه بأنه له رائحة كتلك، إلا أنها أكبر بأربع سنوات، ولا بدّ أنها قد أحسّت بالانفعال نفسه. إنها رائحة الخمائر البشرية التي أحسّها في عشيقاته القديمات وأحسّها فيه. لقد قالت له أرملة ناثاريت، التي لا تُخفي شيئاً، بطريقة فجّة يوماً: «إن رائحتنا أصبحت كرائحة طيور الرخمة». وكان كلاهما يحتمل رائحة الآخر، لانهما كانا متساويَيْن: رائحتي مقابل رائحتك. لكنه كان شديد الحذر مع أميركا فيكونيا، فرائحة الأقمطة التي تنبعث منها كانت توقظ غرائزه الأمومية، لكنه كان يتعذب لفكرة أنها لا تستطيع احتمال رائحته: رائحة الشيخ المتصابي. غير أن هذا كله أصبح من الماضي. والمهم الآن هو أن فلورينتينو أريثا لم يشعر بسعادة كسعادته هذه الليلة منذ ذلك المساء الذي تركت فيه العمّة اسكولاستيكا كتاب الصلوات على منضدة مكتب التلغراف... إنها سعادة غامرة إلى حدّ يبعث فيه الخوف.

كان قد بدأ يغفو، حين أيقظه مراسل السفينة في الساعة الخامسة عند ميناء ثامبرانو ليسلّمه برقية مستعجلة. كانت البرقية تحمل توقيع ليونا كسياني، وتاريخ اليوم السابق، وكل رعبها ضمنته في سطر واحد: أميركا فيكونيا ماتت أمس. الأسباب غير معروفة. وفي الساعة الحادية عشرة صباحاً عرف التفاصيل من خلال اتصال تلغرافي مع ليونا كاسياني، وقام هو نفسه بالعمل على جهاز الإرسال كما لم يفعل منذ سنواته كعامل تلغراف. وعلم أن أميركا فيكونيا، التي وقعت ضحية إحباط قاتل لرسوبها في الامتحانات النهائية، شربت قنينة لودانوم سرقتها من مستوصف المدرسة. كان فلورينتينو أريثا يعلم في أعماق روحه أن ذلك الخبر غير مكتمل. ولكن لا: فأميركا فيكونيا لم تترك أيّ ملاحظة تتيح إلقاء مسؤولية قرارها على أحد. كان أفراد عائلتها قد وصلوا من بورتو بادري، بعدما أعلمتهم ليونا كاسياني بالأمر، وسيتم الدفن في الخامسة مساء. تنفس فلورينتينو أريثا الصعداء. فالشيء الوحيد الذي يستطيع عمله كي يستمر في الحياة هو ألّا يسمح لنفسه بالعذاب في تلك الذكرى. محا الأمر من ذاكرته، رغم أنه سيشعر به ينبعث على نحو مفاجئ بين الحين والآخر في سنوات حياته الباقية، من دون أي داع، وكأنه وخزة عابرة في جرح قديم مندمل.

كانت الأيام التالية حارّة لا تطاق. وأصبح النهر عكِراً وأخذ يضيق شيئاً فشيئاً، وبدلاً من الأشجار الضخمة المتشابكة التي أذهلت فلورينتينو أريثا في رحلته الأولى، كانت هناك بطاح كلسية، وبقايا غابات التهمتها مراجل السفن، وأنقاض قرى مهجورة لرحمة الله، ما زالت شوارعها غارقة في أزمنة الجفاف القاسية. ولم تكن توقظهم في الليل أغنيات عرائس الماء التي تغنيها الأطم على الضفاف، وإنما روائح النتانة من الجثث التي تمر طافية صوب البحر. لم تكن ثمة حروب ولا أوبئة، لكن الجثث المنتفخة ما زالت تمر طافية. وقد كان القبطان متواضعاً لمرة

واحدة: «لدينا أوامر بأن نقول للمسافرين بأنها جثث غرقى». وبدلاً من رطانة الببغاوات وصخب القرود اللامرئية التي كانت تفاقم من احتدام حر الظهيرة في أزمنة أخرى، لم يبقَ سوى صمت الأرض الخراب.

كانت أماكن التحطيب المتبقية قليلة جداً، ومتباعدة أحدها عن الآخر، ممّا أبقى وفاء الجديدة بلا وقود بعد أربعة أيام من بدء الرحلة. ورست لمدة أسبوع تقريباً، إلى أن توغّل أفراد الطاقم في المستنقعات الرمادية بحثاً عن آخر الأشجار المبعثرة. لم تكن هنالك أشجار أخرى: فالحطابون هجروا عملهم هرباً من قسوة ملّاكي الأراضي، وهرباً من الكوليرا اللامرئية، وهرباً من الحروب الخفية التي تحاول الحكومات التستر عليها بمراسيم تشغل الناس عنها. وأثناء ذلك، نظم المسافرون الضجرون مسابقات في السباحة، وحملات صيد، كانوا يعودون منها بعظاءات ضخمة حيّة يشقّون صدورها ويعيدون خياطتها ثانية بإبر تنجيد بعد أن يستخرجوا منها عناقيد البَيض البرّاقة الطرية، التي يعلقونها في سلاسل لتجفّ على حواف السفينة. واقتفت عاهرات القرى المجاورة البائسات أثر حملات الصيد، فنصبن خياماً مرتجَلة عند ضفة النهر، وجئن بالموسيقى والخمر، وأقمن مهرجاناً مقابل السفينة المتوقفة.

قبل أن يصبح رئيساً لشركة الكاريبي النهرية بوقت طويل، كان فلورينتينو أريثا يتلقى تقارير مفزعة عن حالة النهر، لكنه لم يكن ليهتم بقراءتها. وكان يطمئن شركاءه: «لا تقلقوا، فحين ينتهي الحطب ستكون قد بنيت سفن تعمل بالبترول». ولم يكلف نفسه يوماً مشقة التفكير بالأمر، لأنه كان مبهوراً بهوى فيرمينا داثا، وحين وعى الحقيقة كان الوقت قد فات ولم يعد بإمكانه عمل شيء، اللهم إلّا شق نهر جديد. في الليل وحتى في مواسم ارتفاع منسوب الماء، كان لا بدّ من ربط السفن للنوم، وحينئذ يصبح مجرّد كون المرء حياً أمراً لا يُطاق. فيغادر معظم المسافرين، والأوروبيين منهم بشكل خاص، عفونة القمرات ويقضون

الليل سائرين على سطح السفينة، وهم يهشون جميع أنواع الهوام بالمناشف ذاتها التي يمسحون بها عرَقَهم المتواصل، ويدركهم الصباح وهم منهَكون ومتورّمون بلسع الحشرات. لقد كتب رحّالة إنكليزي في أوائل القرن التاسع عشر، مشيراً إلى الرحلة التي كانت تتم في الزوراق أولاً ثم على متن البغال، والتي كانت تدوم حتى خمسين يوماً، يقول: «إنها من أسوأ الأسفار التي يمكن لإنسان أن يقوم بها وأكثرها مشقّة. ولكن هذا التقدير لم يعد صحيحاً خلال الثمانين السنة الأولى من الملاحة البحرية، ثم عاد ليصبح كذلك وإلى الأبد، حين أكلت التماسيح آخر الفراشات، وانقرضت الأطم الأمومية، واختفت الببغاوات، والقرود، والقرى: وانتهى كل شيء.

كان القبطان يقول ضاحكاً:

- لا وجود لأي مشكلة، فخلال بضع سنوات سنذرع مجرى النهر الجاف بسيارات فاخرة.

احتمت فيرمينا داثا وفلورينتينو أريثا خلال الأيام الثلاثة الأولى في كَنَف الشرفة المغلقة ذات الجو الربيعي، ولكن جهاز التبريد بدأ يتوقف حين جرى تقنين الحطب، فتحولت القمرة الرئاسية إلى ما يشبه طنجرة الضغط. وكان الفضل في بقاء فيرمينا داثا على قيد الحياة خلال الليل يعود إلى إلى الهواء النهري الذي يدخل من النوافذ المفتوحة، فيما هي تهشّ البعوض بالمنشفة، لأن مضخة المبيد الحشري كانت بلا جدوى أثناء توقف السفينة. وأصبح ألم أذنها لا يُطاق، لكنه توقف تماماً عند استيقاظها في صباح أحد الأيام فجأة، كما يتوقف غناء زيز منفجر. ولكنها لم تُدرك حتى حلول الليل أنها فقدت السمع بأذنها اليسرى، وذلك حين كلمها فلورينتينو أريثا من هذه الجهة، فاضطرت لأن تلتفت برأسها كي تسمع ما يقوله. لم تخبر أحداً بذلك، مؤمنة بأن الأمر ليس سوى نقيصة أخرى لا مناص منها من نقائص التقدّم في السن.

لكن تأخر السفينة كان بالنسبة لها محنة مباركة رغم كل شيء، ولقد قرأ فلوريتتينو أريثا ذلك يوماً: «إن الحب يصبح أعظم وأنبل في المحن». كانت رطوبة القمرة الرئاسية تغرقهما في سبات لا واقعي يصعب الحب فيه من دون أسئلة. كانا يعيشان ساعات لا يمكن تخيّلها وهما يمسكان أحدهما بيد الآخر أثناء جلوسهما على مقاعد الشرفة، يتبادلان قبلات بطيئة، وينعمان بنشوة المداعبات من دون عراقيل الغضب. وفي ليلة السبات الثالثة، انتظرته وقد هيّأت زجاجة من خمر اليانسون، الذي كانت تشرب منه خفية مع عصبة ابنة خالها هيلديبراندا، ثم مع صديقات عالمها المستعار في ما بعد، حين تزوجت وصارت أماً. لقد كانت تحتاج لبعض النشوة كي لا تفكر في مصيرها بوعي تام، ولكن فلورينتينو أريثا ظن أنها تريد بذلك الحصول على الشجاعة للإقدام على الخطوة الأخيرة، ومدفوعاً بهذا الوهم، تجرّأ على التقدّم برؤوس أصابعه لاستكشاف عنقها الذاوي، وصدرها المصفّح بأسياخ معدنية وردفَيها العظميّين المتآكلين، وفخذَي الغزالة الهرمة. وتقبَّلت ذلك منتشية، بعينين مغمضتين، ولكن من دون أن ترتعش، فيما هي تدخن وتشرب رشفات متباعدة من الخمر. وأخيراً حين نزلت المداعبات إلى بطنها وأصبحت كمية الخمر في قلبها كافية، قالت:

– إذا كنا سنمارس الحماقات، فلنفعل، على أن يكون ذلك كأناس طاعنين في السن.

قادته إلى المخدع، وراحت تتعرّى من دون خفر زائف تحت الأنوار المضاءة. واستلقى فلوريتتينو أريثا على ظهره فوق السرير، محاولاً استعادة السيطرة على نفسه، من دون أن يدري ثانية ما الذي يفعله بجلد النمر الذي قتله. قالت له:

– «لا تنظر».

فسألها لماذا من دون أن يرفع نظره عن السقف الأملس.

فقالت:

- لأنني لن أعجبك.

عندئذ نظر إليها، ورآها عارية حتى وسطها، تماماً كما تخيَّلها. كان كتفاها مجعَّدَيْن وثدياها متهدلين، وأضلاعها مغطاة بجلد شاحب وبارد كجلد ضفدع. غطت صدرها ببلوزتها التي انتهت من خلعها، وأطفأت النور. حينئذ اعتدل في السرير وبدأ بخلع ملابسه في الظلام، قاذفاً إياها بكل قطعة يخلعها من ثيابه، وكانت تعيد قذفه بها وهي غارقة في الضحك.

بقيا مستلقيَنْ على ظهرهما لوقت طويل، وكان يزداد ذهولاً كلما فارقته النشوة، فيما هي هادئة، وشبه هامدة، لكنها كانت تدعو الله ألّا يجعلها تنفجر بالضحك من دون سبب، مثلما يحدث لها كلما فقدت السيطرة على نفسها بفعل خمرة اليانسون. تحدثا لشغل الوقت. تكلما عن نفسَيْهما، وعن حياتَيْهما المختلفتين، وعن المصادفة التي لا تُصدّق في كونهما عاريَيْن داخل قمرة مظلمة في سفينة متوقفة، في الوقت الذي كان عليهما أن يفكرا بأنه لم يبقَ لديهما متسع من الوقت إلا لانتظار الموت. لم تكن قد سمعت يوماً بأنه كان على علاقة بامرأة، ولو بامرأة واحدة، في مدينة يشيع فيها كل شيء قبل حدوثه. قالت له ذلك عرَضاً، فرد عليها مباشرة ومن دون أية ارتعاشة في صوته:

- لقد احتفظت بعذريتي من أجلك.

ما كانت ستصدق ذلك على أية حال، حتى ولو كان صحيحاً لأن رسائله الغرامية كانت مصوغة من عبارات كتلك التي لا تكمن قيمتها في معناها، وإنما في قدرتها على الإبهار. لكنها أُعجبت بالشجاعة التي قال فيها ذلك. وتساءل فلورينتينو أريثا بدوره بغتة حول الأمر الذي ما كان يتجرّأ على التفكير به: أي نوع من الحياة السرية مارست على هامش

حياتها الزوجية. ولم يكن ليفاجَأ بأي شيء، لأنه كان يعلم أن النساء مثل الرجال في مغامراتهن السرية: يلجأن إلى الحيل ذاتها، والمكائد المباغتة ذاتها، والخيانات بلا وازع من ضمير ذاتها. ولكنه أحسن صنعاً بعدم توجيه السؤال إليها. ففي حقبة كانت علاقاتها بالكنيسة متردية إلى حدّ بعيد، سألها كاهن الاعتراف من دون أي مبرّر إذا ما كانت غير وفية لزوجها يوماً، فنهضت من دون أن تجيب، ومن دون أن تنتهي، ومن دون أن تودع، ولم تعد منذ ذلك الحين للاعتراف سواء مع هذا الكاهن أو مع أي كاهن آخر. أما فطنة فلورينتينو أريثا فقد جاءت بمردود غير منتظر: مدت يدها في الظلام، وداعبت بطنه، وخاصرته، وعانته شبه المرداء، وقالت:

- «إن لك بشرة طفل رضيع».

ثم قامت بخطوة أخيرة: بحثت عنه حيث لم يكن، وعادت تبحث من دون أوهام، ووجدته أعزل. فقالت:

- إنه ميت.

لقد كان يحدث له ذلك دوماً في المرّة الأولى، معهنّ جميعاً، ودائماً إلى أن تعلم التعايش مع ذلك الوهم: في كل مرّة عليه أن يتعلم من جديد، كما لو كانت المرّة الأولى. أمسك يدها ووضعها على صدره، فأحست فيرمينا داثا عند سطح الجلد تقريبا بالقلب الهرم الذي لا يكل وهو يخفق بقوة، وسرعة وعدم انتظام قلب مراهق. فقال:

- إن حباً فائضاً له من التأثير على القلب كما لقلة الحب.

لكنه قال ذلك من دون قناعة: كان خجلاً وغاضباً من نفسه، يتلهف إلى مبرّر يتيح له اتهامها بإخفاقه. وكانت تعرف ذلك، فأخذت تستفز الجسد الأعزل بمداعبات ساخرة، كقطة ناعمة تتلذذ بالقسوة، إلى أن فقد القدرة على احتمال مزيد من العذاب ومضى إلى قمرته، تابعت

التفكير فيه حتى الفجر، مقتنعة أخيراً من حبها له، وكما كان الخمر يفارقها بموجات بطيئة، كان القلق يهاجمها بأنه قد غضب منها ولن يعود أبداً.

لكنه عاد في اليوم ذاته، في الساعة الحادية عشرة غير المألوفة، وكان منتعشاً ومرمَّماً، ووقف يتعرّى أمامها بشيء من المباهاة. وابتهجت وهي تراه تحت الضوء الغامر كما تخيلته في الظلام: رجلاً بلا سن محدّد، ذا بشرة قاتمة، ومشدودة كمظلة مفتوحة، من دون أي شعر سوى بعض الزغب البسيط تحت الإبطين وعند العانة. كان سلاحه عامراً، وانتبهت إلى أنه لا يُظهره مصادفة وإنما هو يعرضه كنصب حربي ليبث الشجاعة في نفسه. لم يُتح لها الفرصة لخلع قميص نومها الذي لبسته حين بدأ يهبّ نسيم الفجر، وسبّب لها تسرّعه كمبتدئ ارتعاشة عطف، لكنها لم تزعجها، إذ لم يكن من السهل عليها في حالات كتلك التمييز بين العطف والحب. ومع ذلك فقد أحسّت آخر الأمر بالخواء.

كانت المرّة الأولى التي تمارس فيها الحب منذ أكثر من عشرين سنة، وقد مارسته مدفوعة بفضول التعرّف إلى كنهه بعد عطالة طويلة الأمد. لكنه لم يتح لها الوقت الكافي لتعرف ما إذا كان جسدها يحبه أيضاً. لقد كان سريعاً وحزيناً، وفكرت: «ها نحن ذا قد أفسدنا كل شيء الآن». لكنها كانت مخطئة: فرغم خيبة أملهما، ورغم ندمه لبلادته وتأنيبها نفسها لجنون اليانسون، لم يفترقا عن بعضهما لحظة واحدة خلال الأيام التالية. ولم يغادرا القمرة إلا قليلاً لتناول الطعام. وكان القبطان ساماريتانو، الذي يكتشف بالغريزة أي سر مخبأ في سفينته، يبعث إليهما بالوردة البيضاء كل صباح، ويأمر بعزف موسيقى من زمنهما، ويعدّ لهما أصنافاً من الطعام بطريقة لا تخلو من مزاح، وذلك بأن يضيف إليها مواد مهيجة. ولم يحاولا ممارسة الحب إلا بعد وقت طويل، حين جاءهما الإلهام من دون أن يسعيا في طلبه. لقد كانا يكتفيان بسعادة وجودهما معاً.

لم يفكرا بالخروج من القمرة لولا أن القبطان بعث إليهما يخبرهما بأن السفينة ستصل بعد الغداء إلى ميناء لادورادا، الميناء الأخير، بعد أحد عشر يوماً من السفر. ورأت فيرمينا داثا وفلورينتينو أريثا من القمرة رابية البيوت المضاءَة بشمس شاحبة، وظنا بأنهما توصلا لمعرفة سبب تسمية البلدة بهذا الاسم، لكن الأمر ما لبث أن بدا لهما أقل وضوحاً حين أحسا بالحر الذي يلهث مثل مراجل السفينة، ورأيا اسفلت الشوارع وهو يفور. ثم إن السفينة لم تتوقف هناك، وإنما رسَت عند الضفة المقابلة، حيث المحطة النهائية لقطار سانتافي.

غادرا مخبأهما فور نزول المسافرين إلى البرّ. وتنفست فيرمينا داثا هواء الخلاص الطيب في الصالون الخاوي؛ وراقب كلاهما، من حافة السفينة، الحشود الصاخبة التي كان تبحث عن أمتعتها في عربات القطار الذي بدا أشبه بدمية. كان يمكن الاعتقاد بأنهم قادمون من أوروبا، وخصوصاً النساء اللواتي كن يرتدين المعاطف الشمالية وقبعات القرن الماضي التي كانت تشكّل نقيضاً للقيظ الأغبر. وكانت بعض النسوة يزيّنَّ شعورهن بأزهار بطاطا ذابلة بفعل الحر. إنهن قادمات من السهل الأنديزي بعد رحلة في القطار عبر سهوب حالمة، ولم تسنح لهن الفرصة بعد لاستبدال ملابسهن بما يتلاءم مع جو الكاريبي.

وسط صخب السوق، كان ثمة رجل عجوز يُخرج صيصاناً من جيوب معطفه الذي كمعطف متسوّل. لقد ظهر فجأة، شاقاً طريقه وسط الحشود بمعطف مرقّع، لا بدّ أنه كان لشخص أكثر منه طولاً وبدانة. خلع قبعته ووضعها على الرصيف ليلقي بها نقوداً من يشاء الإلقاء، وراح يُخرج من جيوبه حفنات من صيصان لينة وباهتة بدت وكأنها تتكاثر بين أصابعه. وبدا رصيف الميناء خلال لحظة وكأنه مفروش بالصيصان المرتعدة التي تزقزق في كل مكان، بين المسافرين المتعجلين الذين يدوسونها من دون أن يشعروا بها. وفيما فيرمينا داثا مسحورة بالمشهد الرائع الذي بدا وكأنه

يجري على شرَفها، لأنها الوحيدة التي كانت تراقبه، لم تنتبه متى بدأ المسافرون في رحلة العودة يصعدون إلى السفينة. لقد انتهت حفلتها: إذ رأت بين القادمين عدداً كبيراً من الوجوه المعروفة، منهم بعض الأصدقاء الذين رافقوها في حدادها منذ وقت قريب، فسارعت للجوء مجدداً إلى القمرة. وجدها فلوريتينو أريثا مذعورة: كانت تفضّل الموت على أن تكتشفها جماعتها وهي في رحلة متعة، ولما يمضِ على موت زوجها سوى هذا الوقت القليل. وقد تأثر فلوريتينو أريثا شديد التأثر لجزعها، ما جعله يعدها بالتفكير في وسيلة لحمايتها غير السجن في القمرة.

لقد خطرت له الفكرة فجأة أثناء تناولهم العشاء في صالة الطعام الخاصة. كان القبطان قلقاً لمشكلة يريد أن يناقشها منذ زمن طويل مع فلوريتينو أريثا، الذي كان يتجنب الخوض في هذا الحديث دوماً بذريعة عادية: «بإمكان ليونا كاسياني تدبّر هذه الأمور خيراً مني». ولكنه استمع إليه هذه المرّة. المسألة هي أن السفن تشحن البضائع في صعودها، ولكنها تعود فارغة في رحلة العودة، بينما يكاد يحدث العكس بالنسبة للمسافرين، وقال:

- هذا مع أفضلية البضائع، لأن أجور شحنها أعلى، إضافة إلى أنها لا تأكل.

كانت فيرمينا داثا تتناول العشاء بلا شهية، ضجرة من المناقشة الخافتة بين الرجلين حول ضرورة إقرار فروق في التعرفة. استمع فلوريتينو أريثا حتى النهاية، وحينئذ فقط وجه سؤالاً بدا للقبطان على أنه فكرة الخلاص، إذ قال:

- أيمكننا، نظرياً، القيام برحلة مباشرة بلا حمولة ولا مسافرين، ومن دون التوقف في أي ميناء، ومن دون أي شيء؟

وقال القبطان أن ذلك ممكن نظرياً فقط، لأن لدى ش.ك.م.ن

التزامات عمل يعرفها فلورينتينو أريثا أفضل من سواه، وهي ملتزمة بعقود لشحن البضائع والركاب والبريد وأشياء أخرى كثيرة لا يمكن تجنب معظمها. والسبيل الوحيد الذي يتيح القفز فوق كل شيء هو وجود مصاب بالوباء على متن السفينة. لأن السفينة ستعتبر حينئذ محجورة صحياً، وسترفع الراية الصفراء وتبحر في حالة طوارئ. لقد اضطر القبطان ساماريتانو لعمل ذلك عدّة مرّات بسبب إصابات الكوليرا الكثيرة في قرى النهر، رغم أن السلطات الصحية كانت تجبر الأطباء فيما بعد على إصدار وثائق تثبت أن الحالة ليست إلا ديزنطاريا عادية. ثم إن راية الوباء الصفراء رُفعت كثيراً عبر تاريخ النهر للتهرّب من الضرائب، أو للتخلص من مسافر غير مرغوب فيه، أو للحيلولة دون عمليات التفتيش غير الملائمة. وجد فلورينتينو أريثا يد فيرمينا داثا تحت المائدة، وقال:

– حسناً. فلنفعل هذا.

فوجئ القبطان، ولكنه بغريزة الثعلب العجوز التي يتمتع بها، رأى كل شيء واضحاً في الحال. فقال:

– أنا آمر في هذه السفينة، ولكنك تأمر علينا، فإذا كنت تتكلم بجد، أعطني الأمر مكتوباً، وسننطلق الآن في الحال.

كان جدّياً بالطبع، ووقع فلورينتينو أريثا الأمر. فالجميع يعلمون في نهاية المطاف أن الكوليرا لم تنته بعد، رغم إحصائيات السلطات الصحية المتفائلة. أما بالنسبة للسفينة فلا وجود لأيّة مشكلة. تمّ تحويل البضائع القليلة لنقلها في سفينة أخرى، وقيل للمسافرين إن عطلاً طرأ على المحركات، وأنهم سينقلونهم في سفينة تابعة لشركة أخرى في الصباح. ولم يجد فلورينتينو أريثا ما يمنع اقتراف هذه الأمور في سبيل الحب، إذ كانت تُقتَرف لأسباب كثيرة غير أخلاقية، وغير وقورة أحياناً. والرجاء الوحيد الذي تقدم به القبطان هو التوقف في ميناء بورتو ناريه، لاصطحاب من ترافقه في الرحلة: فقد كان له قلبه المخبّأ أيضاً.

وهكذا أبحرت **وفاء الجديدة** عند فجر اليوم التالي، بلا بضائع ولا مسافرين، فيما راية الكوليرا الصفراء تخفق طرباً على صاريها الأكبر. وعند الظهر التقطوا من ميناء بورتو ناريه امرأة أطول من القبطان وأضخم منه، ذات جمال فظيع، لا تنقصها سوى اللحية كي تتعاقد للعمل في سيرك. اسمها زينايدا ينفيس، لكن القبطان كان يدعوها ممسوستي: إنها صديقة قديمة، اعتاد حملها من أحد الموانئ وتركها في ميناء آخر، وما إن صعدت إلى السفينة حتى هبت ريح شديدة مواتية. وفي ذلك الحجْر الكئيب، استعاد فلورينتينو أريثا الحنين لذكرى روسالبا وهو يرى قطار أنفيغادو يصعد بمشقة على الطريق القديم الذي كانت تسلكه البغال، وهطل وابل من المطر الأمازوني، سيستمر طوال الرحلة تتخلله انقطاعات قصيرة. ولكن أحداً لم يهتم لذلك: إذ إن للحفلة العائمة سقفها الخاص. في تلك الليلة، وكمساهمة شخصية في الحفلة، نزلت فيرمينا داثا إلى المطابخ، وسط تشجيع طاقم السفينة، وأعدت طبقاً مبتكراً للجميع، عمّده فلورينتينو أريثا باسم: باذنجان الحب.

كانوا يلعبون الورق خلال النهار، ويأكلون حتى التخمة، وينامون قيلولات غرانيتية تستنفد قواهم. وما إن تغيب الشمس حتى يطلقون الموسيقى ويشربون خمر اليانسون مع السلمون إلى ما بعد الارتواء. لقد كانت رحلة سريعة، في السفينة الخفيفة والمياه الطيبة، التي تحسنت بالفيضانات الرافدة من الجبال، حيث هطل مطر غزير في ذلك الأسبوع كالمطر الذي هطل على طول مجرى النهر. وكانوا يطلقون لهم في بعض القرى مدافع الرحمة لإفزاع الكوليرا، فيردّون شاكرين بجؤار حزين. وكلما التقوا بسفينة تابعة لأية شركة نهرية، كانت تبادلهم إشارات المواساة. وفي بلدة ماغانغيه، حيث ولدت ناديا، حملوا حطباً لبقية الرحلة.

فزعت فيرمينا داثا حين بدأت تحسّ بصفارة السفينة تدوي في أذنها

السليمة، ولكنها في اليوم الثاني من تناول خمر اليانسون، أصبحت تسمع جيداً بكلتا أذنيها. واكتشفت أن للأزهار رائحة أقوى بكثير من رائحتها السابقة، وأن العصافير تغرد في الصباح أفضل بكثير من تغريدها السابق، وأن الله خلق أطومة ووضعها عند ضفة تامالاميكي لتوقظها فقط. سمعها القبطان، فحرف السفينة عن مسارها، ورأوا أخيراً الأم الضخمة وهي ترضع صغيرها على ذراعيها. لم تنتبه فيرمينا كما لم يتنبه فلورينتينو كيف اندمجا معاً إلى هذا الحدّ: كانت تساعده في ارتداء سترته، وتستيقظ قبله لتنظف بالفرشاة أسنانه الاصطناعية التي يتركها في كأس الماء حين ينام، وحلت مشكلة النظارات، لأن نظارته كانت تناسبها تماماً للقراءة ورفو الجوارب. وعند استيقاظها في صباح أحد الأيام، رأته في الظلمة يخيط زراً لقميصه، فسارعت لتفعل ذلك بنفسها، قبل أن يُكرّر العبارة الروتينية عن حاجته لزوجتين. والشيء الوحيد الذي طلبته هي منه كان أن يضع لها كأس حجامة لألم أصاب ظهرها.

ومن جهة أخرى، كان فلورينتينو أريثا يتحرق شوقاً للعزف على كمان الفرقة الموسيقية، وقد استطاع أن يعزف لها فالس الربّة المتوّجة بعدما تدرّب عليه في نصف نهار، وعزفه خلال ساعات وساعات، إلى أن أوقفوه مكرَهاً. وفي إحدى الليالي، استيقظت فيرمينا داثا للمرة الأولى في حياتها مختنقة ببكاء لم يكن وليد غضب وإنما بكاء حزن، لذكرى العجوزين اللذين ماتا بضربات مجداف صاحب القارب الذي كانا فيه. أما المطر المتواصل فلم يكن يؤثّر فيها، وفكرت متأخرة بأن باريس قد لا تكون كئيبة إلى الحدّ الذي تصورته من قبل، وأن سانتافي ليست مدينة جنازات كثيرة تجوب الشوارع فقط. ووسّع من آفاقها الحلم برحلات أخرى مع فلورينتينو أريثا في المستقبل: رحلات مجنونة، بلا صناديق كثيرة، وبلا التزامات اجتماعية: رحلات حب.

أقاموا عشية الوصول حفلة كبيرة، وعلقوا أكاليل ورقية ومصابيح

ملوَّنة. كان المطر قد توقف عن الهطول عند المغيب. ورقص القبطان وزينايدا متلاصقَين رقصة البوليرو التي كانت تخلب القلوب في تلك السنوات. تجرّأ فلورينتينو أريثا، فاقترح على فيرمينا داثا أن يرقصا فالس الانسجام، لكنها رفضت. ومع ذلك، فقد أمضت الليل وهي تضبط الإيقاع بحركة من رأسها وكعبَي حذائها، ووصل بها الأمر في بعض اللحظات إلى الرقص وهي جالسة من دون أن تنتبه إلى ذلك، بينما القبطان يتيه مع ممسوسته في عتمة البوليرو. شربت كثيراً من الخمر ممّا اضطرّهم لمساعدتها في ارتقاء السلالم، واجتاحتها نوبة ضحك صاخب مترافقة مع دموع أثارت قلقهم جميعاً. لكنها حين سيطرت على نفسها في سكون القمرة المعطرة، مارست مع فلورينتينو حباً هادئاً وصحّياً... حب جَدَّيْن ملوَّثين، سيستقر في ذاكرتها كأفضل ذكرى من تلك الرحلة العسلية. ما عادا يشعران بنفسيهما كخطيبين حديثين، على خلاف ما كان يفترضه القبطان وزينايدا، ولا كعاشقين متأخّرَيْن. كانا يشعران وكأنهما قد اجتازا جلجلة الحياة الزوجية الصعبة، ووصلا من دون لف ولا دوران إلى جوهر الحب. كانا ينسابان بصمت كزوجين قديمين كوَتهما الحياة، إلى ما وراء خدع العاطفة، إلى ما وراء حيل الأوهام القاسية وسراب خيبة الأمل: إلى ما وراء الحب. لقد عاشا معاً ما يكفي ليعرفا أن الحب هو أن نحب في أي وقت وفي أي مكان، وأن الحب يكون أكثر زخماً كلما كان أقرب إلى الموت.

استيقظا في الساعة السادسة. كانت تعاني وجع رأس مضمَّخ باليانسون، وكان قلبها مذهولاً لإحساسها بأن الدكتور خوفينال أوربينو قد رجع، أكثر بدانة وشباباً ممّا كان عليه حين انزلق عن الشجرة، وأنه يجلس بانتظارها على الكرسي الهزاز أمام باب البيت. ولكنها كانت صاحية بما يكفي لتدرك أن ذلك لم يكن بتأثير خمر اليانسون، وإنما بفعل الوصول الوشيك.

قالت:

- سيكون هذا الرجوع كأنه الموت.

فوجئ فلورينتينو أريثا، لأنها عبّرت بما قالته عن فكرة لم تتح له العيش منذ بدأت رحلة العودة. لم يكن بإمكانه ولا بإمكانها تصوّر نفسيهما يعيشان في بيت آخر سوى القمرة، أو يأكلان بطريقة غير طريقة الأكل في السفينة، أو يندمجان في حياة ستكون غريبة عليهما إلى الأبد. لقد كان ذلك كأنه الموت حقاً. ولم يستطع العودة إلى النوم. بقي مستلقياً في السرير، ويداه متقاطعتَيْن وراء رقبته. وفي لحظة معينة، وخَزَته ذكرى أميركا فيكونيا وجعلته يتلوى ألماً، فلم يستطع تأجيل الحقيقة أكثر: حبس نفسه في الحمّام وبكى ما شاء له البكاء، من دون تسرّع، إلى أن جفّت دمعته الأخيرة. وحينئذ فقط واتته الشجاعة ليعترف لنفسه كم أحبّها.

عندما استيقظا وارتديا ملابسهما للنزول إلى البرّ، كانت السفينة قد خلفت وراءها مجاري ومستنقعات القنال الإسباني القديم، وكانوا يبحرون وسط أنقاض السفن وبقع الزيت في الخليج. وكان يوم خميس مشعّ يعلو قباب مدينة الفيريس المذهَّبة، لكن فيرمينا داثا التي كانت تنظر إلى المدينة من الشرفة، لم تستطع تحمل عفونة أمجادها، ولا غطرسة حصونها التي تنتهكها السحالي. لقد كانت تشعر بالرعب من الحياة الواقعية. لم يشعر هو كما لم تشعر هي، من دون أن يقول أحدهما ذلك للآخر، بالرغبة في الاستسلام بمثل هذه السهولة.

وجدا القبطان في صالة الطعام، في حالة اضطراب لا تتفق مع عاداته المهذَّبة: كانت ذقنه غير حليقة، وعيناه محتقنتين بالأرق، وعلى جسده ما زالت ملابس الليلة الماضية المضمخة بالعرق، وكانت كلماته المضطربة تخرج مختلطة بتجشؤات خمر اليانسون. أما زينايدا فكانت لا تزال نائمة. بدأوا بتناول الفطور صامتين، حين اقترب زورق يسير بالبترول تابع لسلطات الميناء الصحية وأمر السفينة بالتوقف.

وردّ القبطان صارخاً من فوق مركز القيادة على أسئلة الدورية المسلحة. كانوا يريدون معرفة نوع الوباء الذي يحملونه، وعدد المسافرين في السفينة، وعدد المرضى بينهم، وما هي احتمالات انتقال العدوى إلى آخرين. وردّ القبطان بأن السفينة تحمل ثلاثة مسافرين فقط، وجميعهم مصابين بالكوليرا، ولكنهم معزولون بشكل صارم، وأن أحداً لم يتصل بهم، سواء من المسافرين الذين كانوا يصعدون إلى السفينة في لادورادا أو من رجال الطاقم. لكن قائد الدورية لم يطمئنّ، فأمرهم بالخروج من الميناء والانتظار في مستنقع لاس ميرثيدس حتى الثانية بعد الظهر ريثما يجهّزون لهم إجراءات الحجر الصحي على السفينة. أطلق القبطان قرقعة حوذي من فمه، وأمر عامل الدفة بإشارة من يده للدوران والعودة إلى المستنقعات.

سمع كل من فيرمينا داثا وفلورينتينو أريثا ما دار من حديث وهما على المائدة، ولكن لم يبدُ على القبطان أنه مهتم بالأمر. تابع تناول طعامه بصمت، وكان تعكر المزاج يبدو حتى في خرقه لقوانين التمدّن التي ترسّخ سمعة قباطنة النهر العريقة. وخز برأس السكين البيضات الأربع المقلية، وحركها في الطبق مع شرائح من الموز الأخضر كان يدسها كاملة في فمه ويمضغها بلذة متوحشة، نظرت فيرمينا داثا وفلورينتينو أريثا إليه من دون كلام، وكأنهما بانتظار الامتحان النهائي على مقعد مدرسي. لم يتبادلا أي كلمة خلال حواره مع الدورية الصحية، ولم تخطر لهما أدنى فكرة عمّا سيصيب حياتيهما، لكنهما كانا يعرفان أن القبطان يفكّر من أجلهما: كان ذلك يبدو في نبض صدغيه.

وفيما هو يلتهم وجبة البيض، وصحن الموز الأخضر، وفنجان القهوة مع الحليب خرجت السفينة ومراجلها مطفأة من الميناء، وشقت طريقها في المجاري المائية عبر مفارش الطحالب، ونباتات اللوتس الطافية ذات الأزهار البنفسجية والأوراق الكبيرة التي لها شكل قلوب، وعادت

إلى المستنقعات. كان الماء برّاقاً بفعل عالم الأسماك الطافية على جنوبها، ميتة بديناميت الصيادين، وكانت طيور الأرض والماء تحوم فوقها مطلقة صرخات معدنية. ونفذت ريح الكاريبي من النوافذ محمّلة بصخب العصافير، فأحست فيرمينا داثا في دمائها خفقات حريتها القلقة. وإلى اليمين، كان مصَبّ نهر مجدلينا العظيم العَكِر والرصين يمتدّ حتى الجانب الآخر من الدنيا.

عندما لم يبق في الأطباق شيء يُؤكل، مسح القبطان شفتيه بطرف شرشف الطاولة، وتكلم برطانة قوّضت إلى الأبد سمعة حُسن التحدّث التي عُرف بها قباطنة النهر. لم يتكلم عنهما ولا عن أحد، وإنما كان يحاول التوافق مع غضبه. والنتيجة التي وصل إليها بعد سلسلة من الشتائم البربرية، هي أنه لا يجد سبيلاً للخروج من ورطة راية الكوليرا التي أدخلوا أنفسهم فيها.

استمع إليه فلورينتينو أريثا من دون أن يطرف له رمش. ثم نظر عبر النافذة إلى دائرة ساعة أجهزة الملاحة، وإلى الأفق الرائق، وإلى سماء كانون الأول التي لا تشوبها غيمة، وإلى المياه المواتية للإبحار إلى الأبد، وقال:

– فلنتابع قُدُماً، قُدُماً، قُدُماً، ونرجع إلى لادورادا ثانية.

ارتعشت فيرمينا داثا، لأنها تعرفت على الصوت القديم المضاء بنعمة الروح القدس، ونظرت إلى القبطان: كان هو القدر. لكن القبطان لم يرها، لأنه كان غارقاً في قدرة فلورينتينو أريثا الرهيبة على الإلهام.

وسأله:

– أتقول هذا جاداً؟

فقال فلورينتينو أريثا:

– منذ ولدت لم أقل كلمة واحدة غير جدّية.

نظر القبطان إلى فيرمينا داثا ورأى في رموشها البريق الأول لصقيع شتوي. ثم نظر إلى فلورينتينو أريثا، بتماسكه الذي لا يُقهر، وحبّه الراسخ، وأرعبه ارتيابه المتأخر بأن الحياة، أكثر من الموت، هي التي بلا حدود. سأل:

- وإلى متى تظن بأننا سنستطيع الاستمرار في هذا الذهاب والإياب الملعون؟

كان الجواب جاهزاً لدى فلورينتينو أريثا منذ ثلاث وخمسين سنة وستة شهور وأحد عشر يوماً بلياليها. فقال:

- مدى الحياة.

المؤلف في سطور

ولد غابرييل غارسيا ماركيز عام 1928 في أراكاتاكا، شمال كولومبيا، ودرس في بوغوتا العاصمة في مدرسة يسوعية، لينتقل بعدها إلى الجامعة.

عمل صحفياً وجاب كثيراً من بلدان العالم أهمها روما، وباريس (عام 1960 حيث كان بلا مال سوى ثمن تذكرة العودة الذي استعاده، فاضطر إلى بيع الزجاجات الفارغة والاشتراك مع آخرين من مواطني أميركا اللاتينية في تبادل العظام ليصنعوا منه الحساء!). كتب حينذاك روايته «ليس للكولونيل مَن يكاتبه». كما أنه أقام في مكسيكو وكتب عدّة سيناريوهات سينمائية. نشر ماركيز أوّل قصة له عام 1955 وكانت «غرباء الموز»، ولم يتجاوز وقتها عدد نسخها الألف نسخة.

ذاع صيته بعد نشره لرائعته «مئة عام من العزلة» عام 1967، والتي نبّهت العالم إليه ككاتب متميز (تُرجمت إلى 32 لغة بينها العربية)، لا بل فجّرت اهتماما استثنائياً بأدب أميركا اللاتينية ككل.

وعلى أثر ذلك، حاز يوم الجمعة في العاشر من كانون الأول/ ديسمبر

1982 على جائزة نوبل للآداب وذلك (لرواياته وقصصه حيث يتدفق الواقعي والغرائبي في غنى مُعقّد لعالم شعري يعكس حياة ونزاعات محيط بأكمله)، كما جاء في شهادة الأكاديمية السويدية.

إن غابرييل غارسيا ماركيز يستمدّ من المخيلة الكثير الكثير ليشحن به كتاباته، وبذلك يحقق تآلفاً منسجماً لعالم يطفو فوق الواقع إنما جذوره متأصّلة فيه ويغتني بنسغه. إنه كما الكاتب الأرجنتيني خورخي لويس بورخس، يعتمد الخيال أو المخيلة وسيلة في الحياة والكتابة: «إن أعظم ما يمتلكه الإنسان هو الخيال» - قال بورخس. أما ماركيز، فإنه يقول في أكثر من مناسبة: «الخيال هو تهيئة الواقع ليصبح فناً». ويقول أيضاً: «الغرائبي يأخذني ولا يبقى من الواقع إلا أرض القصة». وعن النقطة ذاتها يشرح قائلاً: «أعتقد أن سبر أغوار الواقع، من دون أحكام مسبقة عقلية، يبسط أمام روايتنا بانوراما رائعة. ومهما اعتقد بعضهم أن منهجنا هروبي، فإن الواقع سيثبت - إن عاجلاً أو آجلاً - أن المخيلة على حق».

وهكذا نفهم لماذا رفض عروض تحويل رواياته إلى أفلام سينمائية، فهو يريد أن تبقى مخيلة القارئ حرَّة فلا تذهب إلى الصورة على الشاشة: «أنا أفضّل أن يتخيّل قارئ كتابي الشخصيات كما يحلو له. أن يرسم ملامحها مثلما يريد. أما عندما يشاهد الرواية على الشاشة فإن الشخصيات ستصبح ذات أشكال محددة هي أشكال الممثلين، لا تلك الشخصيات التي يمكن أن يتخيلها المرء أثناء القراءة».

وعن موقع وواقع الكاتب في المجتمع وتفاعله معه، فإن ماركيز يحدده بدقة: «إذا كان الأدب نتاجاً اجتماعياً فإن العمل الأدبي هو نتاج فردي، بل الأكثر فردية في العالم. الأديب كامل الوحدة في الإبداع. من هنا أميّز بين الممارسات السياسية الجماعية والممارسة الأدبية الفردية البحتة».

أجل، فماركيز الرافض لجميع أشكال الممارسات القمعية لديكتاتوريات العالم، وديكتاتوريات أميركا اللاتينية بصورة خاصة، والذي نفى نفسه طوعاً خارج هياكل البطش والقمع؛ هو الذي لا تختلط الأمور عليه، ويراها بكل سطوعها من منظار شخصه المالك لحريته، فيقول معرّفاً واجب الكاتب الثوري: «أعتقد أن واجب الكاتب الثوري أن يكتب جيداً. ذلك هو التزامه».

أشهر أعمال غابرييل غارسيا ماركيز: مئة عام من العزلة، ليس للكولونيل مَن يُكاتبه، خريف البطريرك، قصة موت مُعلن، الجنرال في متاهته، ساعة الشؤم...، وهذه الرواية التي بين أيديكم.

رواية غنية، رحبة، تضاهي قوة السرد فيها اتساع أفقها.

The New York Times

قصة خلود الحب لدى الجنس البشري كما يحكيها أحد أعظم الكتّاب في هذا القرن.

آن تايلور Chicago Sun-Times Book Week

يقع فلورنتينو أريثا وفيرمينا داثا في حبٍ عاصفٍ. ولكن فيرمينا تختار طبيباً ثرياً زوجاً لها فتحطّم قلب فلورنتينو، الشخصية الرومانسية، والذي يتخلى عن رومانسيته، لكنه لا يستطيع التخلي عن حب فيرمينا.. وبينما كان فلورينتينو يتطور في مجال الأعمال يروح يراكم العلاقات الغرامية عبر السنين حتى وصل إلى 622 علاقة. لكنه مع ذلك ظل يحتفظ بقلبه لفيرمينا وحدها. وعندما يموت زوج فيرمينا بعد واحد وخمسون سنة وتسعة أشهر وأربعة أيام مرت على اعترافه الأول بالحب لفيرمينا سيعترف لها بحبه للمرة الثانية.

بحِرَفية عالية وحس فكاهي وذكاء حاد، يتتبع غابرييل غارسيا ماركيز قصة حب على طريقة ماركيز السحرية. وعلى مدى نصف قرن يتدفق الحب عبر الرواية بصور رائعة في متعتها وجنونها وثرائها، ودائما بصورها المفاجئة لنا.



رواية ثورية في جرأتها. تتحدث عن عهود الحب الخالد التي نقدمها في حماقات الشباب والتي لا تزال تعتبر بالنسبة للبعض مقدّسة حتى بعد تقدمهم في العمر ومعرفتهم بأننا لا نستطيع مواجهة حتمية كوننا فانون... كتاب مبهر يُلهب الفؤاد.

توماس بنشون The New York Times Book Review


ISBN 978-9953-582-79-5

9 789953 582795


تصميم الغلاف: جان جال

صورة الطائر على أعلى الغلاف © متحف التاريخ الطبيعي بلندن

صورة المؤلف © باتريك كُري

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - القاهرة - تونس